Zaydān, Jurjī 1861-1914

كتاب
(Kitāb tārīkh Miṣr al-ḥadīth)

تاريخ مصر الحديث

مع

فذلكة في تاريخ مصر القديم

تأليف

جرجي زيدان

الجزء الاول v.1

طبع بالرخصة الرسمية (نمرة ٦٣)

طُبع بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٠٦ هجرية او ١٨٨٩ مسيحيَّة

FRONT

1



بحر الروم
مصر
نوبية
خط السرطان
مصر القديمة
اى بلاد مصر ايام المصريين القدماء

فاتحة الكتاب

حمدًا لمن جعل اقاصيص الاولين عبرة للآخرين . اما بعد فلا ازيد القارئ علمًا بمجد التاريخ ولا بما لهُ من المنزلة الرفيعة بين سائر العلوم ولا بما يترتب على الاقبال عليهِ من اصلاح الشؤُون . وإنما اكتفي بكونهِ اكثر ارتباطًا بمصالح خاصة الناس منهُ بمصالح عامتهم . فقادة التمدن ورجال السياسة وكبار المصلحين احوج الى معرفتهِ من سائر افراد الامة . ولذلك رأينا ولاة الأمور على اختلاف الازمان والاحوال يصرفون العناية في مطالعتهِ وفهم خفاياهُ ويبذلون النفيس في استطلاع مكنوناتهِ وجمع شظاياهُ . فتكاد لا ترى مؤرخًا من القدماء الّا وقد أُوعز اليهِ من وليّ الامر او من جرى مجراهُ ان يضع في التاريخ كتابًا . بل كثيرًا ما رأينا من ولاة الامور انفسهم من ألّف فيهِ كتبًا غير مبالٍ بما يقتضيهِ ذلك من تجشم المشاق ولا مستنكف من ان يقول الناس انهُ اعتنى بما هو دون مقامهِ

ذلك كان شأن هذا العلم في الازمنة الخالية يوم لم يكن يتيسَّر لضعيف مثلي ان يطرق بابهُ او يخوض عبابهُ لقصر باعهِ عمَّا يحتاج اليهِ في ذلك من المادة التي تمتنع الّا على الملوك او المقرَّبين منهم

اما الآن فما يتباحث فيهِ الملوك صباحًا في مؤتمراتهم السرية باقاصي المغرب لا يأتي عليهِ الضحى حتى يذيع بين الصانع والتاجر في اقاصي

المشرق - والفضل بذلك لاسلاك البرق وصحف الاخبار التي لم تغادر بين الخاصة والعامة حجابًا . فلا غرو والحالة هذه اذا تجرّأ من كان عاجزًا مثلي ان يضع في مثل ذلك كتابًا

ولما كانت المملكة المصرية من اقدم الممالك تمدُّنًا واكثرها حوادث وطوارئ ومحنًا لكثرة ما تداول عليها من الدول المتباينة نزعةً ولغةً ووطنًا كانت اجدرها بتدوين تاريخها عبرة للذين يعتبرون

وبما ان تاريخها بعد الفتح الاسلامي اكثر ارتباطًا بحالتها الحاضرة من تاريخها قبلهُ كان اكثر فائدة واحوج الى التدوين وهذا ما ندعوهُ بتاريخ مصر الحديث

وقد قام من كتبة العرب وافاضلهم كثيرون اعتنوا بالكتابة عن مصر وتاريخها القديم والحديث وسيأتي ذكرهم وذكر مؤلفاتهم في الجزء الاول من هذا الكتاب عند الكلام عن مصادر تاريخ مصر الحديث (انظر صفحة ٨٧ ج ١) . واحدث هذه المؤلفات "الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة" تأليف العلامة الفاضل صاحب السعادة علي باشا مبارك ناظر عموم المعارف جعلهُ عشرين جزءًا كبيرًا وهو من التآليف التي لا يقدم على كتابتها الّا اصحاب الهمم العالية والمعارف الواسعة . وقد كان عليهِ معتمدي واليهِ مرجعي في كثير من المواضع ولا سيما فيما يتعلق بالشوارع والجوامع

ومن الغريب اني لم ارَ بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتنى بوضع تاريخ لها مستوف على اسلوب قريب من فهم العامة ورضى الخاصة تتعاقب فيهِ الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة كل ذلك بالدولة الاسلامية عمومًا وسائر الدول المعاصرة . واغرب من ذلك اني لم ارَ بين مدارس هذا القطر السعيد من اميرية وغير اميرية مدرسةً تعتني بتدريس هذا التاريخ الذي هو تاريخ بلادها . ولعل السبب في

ذلك عدم وجود الكتب الموضوعة على اسلوب مناسب للتدريس

وقد رأيت الناس يلهجون باحتياج البلاد الى مثل هذا التاريخ . فاخذت على نفسي مع علمي بعجزي ان ابذل الجهد في سدّ هذا العوز معتمدًا على اصح الروايات واصدق الكتبة من ثقات المشرق والمغرب ملتزمًا في كل ذلك صحة النقل وانتقاء اصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام العقلية واغفال كل ما هو منقول بغير قياس من التقاليد والخرافات

وقد عنيت اتمامًا لمعدّات التأليف بتنقد الآثار العربية بنفسي باذن من نظارة الاوقاف الجليلة . فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ولا سيما ما كان منها قديمًا كجامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الازهر وجامع السلطان حسن وجامع السلطان برقوق وجامع قايت باي وجامع الغوري وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها وتسلقت ما صعب مسلكهُ منها ولا سيما اسوار القاهرة القديمة وابوابها كباب النصر وباب الفتوح وباب الشعرية وغيرها . ومن هذه الاماكن ما قد تداعت اركانهُ وصعب الصعود اليهِ الَّا بالمخاطرة فكثيرًا ما كنت اخاطر بحياتي لهذهِ الغاية . ومن الآثار العربية التي تنقدتها عدا عن الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع قصر الشمع او دير النصارى في مصر القديمة وقناطر السباع ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين وغير هذه من الاماكن في القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها

اما الآثار المصرية القديمة فقد تنقدتها كلها ايضًا ولا سيما ما هو منها في مصر العليا مبتدئًا من اهرام الجيزة بجوار القاهرة الى ما وراء وادي حلفا آخر حدود مصر فزرت خرائب سقارة واسنا وطيبة والكرنك وبيبان الملوك وجبل السلسلة وانس الوجود وابسنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار

مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية فاتريب فغيرها . وفي مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات وبنايات بناها المماليك او غيرهم في حال محاربتهم لحكومة البلاد او دفاعهم عنها

كل هذه الاماكن تفقدتها جيداً اتماماً لمعدات التأليف . ولما توفرت لديّ المواد اللازمة باشرت تأليف هذا الكتاب ودعوته «تاريخ مصر الحديث» من الفتوح الاسلامي الى هذه الايام . ثم رأيت ان الفائدة لا تتمّ الّا اذا جعلت في مقدّمته ملخص تاريخ مصر القديم ربطاً للحوادث بعضها ببعض وبتزيينه بالرسوم والخارطات وإيضاحات اخرى . فجاء بحمد الله كتاباً في جزئين كبيرين وهاك ملخص ما تضمّنهُ

(١) فذلكة في تاريخ مصر القديم من اول عهدها الى الفتوح الاسلامي

(٢) تاريخ مصر الحديث من الفتوح الاسلامي الى هذه الايام وهو مقسوم الى دول تحتها خلافات اوسلطنات اوامارات مرتبة حسب ازمان حكمها فيبدأ بدولة الخلفاء الراشدين فبني امية فالعباسيين وهكذا حتى العائلة المحمدية العلوية الحاضرة

(٣) وفي الكتاب زهاء مائة رسم بينها رسوم الجناب العالي والمغفور له محمد علي باشا والخديوي السابق وبونابرت ورعمسيس الثاني وتحوتمس الثالث وامنوفيس الثالث وغيرهم . وبين هذه الرسوم ايضاً معظم النقود الاسلامية ولا سيما المضروبة في مصر منذ صدر الاسلام الى اليوم . ورسوم اخرى كحجر رشيد والهة المصريين وخرائب المطرية وانس الوجود وادفو وغيرها

(٤) وفي ذيل الكتاب جدول عامّ لاسماء الذين تولوا مصر من الامراء والخلفاء والسلاطين والباشوات من الفتوح الاسلامي الى اليوم مرتبة حسب ازمان حكمهم وبجانب ذلك عدد الصفحة التي ذُكرت فيها

تولياتهم من هذا الكتاب . ثم اذا كانوا امراء او ولاة يُذكر بازاء ذلك اسماء الخلفاء او السلاطين الذين تولُّوا البلاد باسمهم

(٥) في خاتمة الكتاب فهرس ابجديٌّ عامٌّ لكل ما ورد في هذا الكتاب من المواضيع المهمَّة كالفتوحات والمحاربات والبنايات والتقلبات واسماء الخلفاء والسلاطين والامراء والباشوات وغيرهم ممن حكموا مصر . هذا فضلاً عن فهرس خاصّ لكلٍّ من جزئي الكتاب

(٦) قد جعلت للكتاب فضلاً عن الرسوم المتقدم ذكرها اربع خارطات وهي . اولاً . خارطة مدينة القاهرة كما هي الآن . ثانياً . خارطة مصر السفلى . ثالثاً . خارطة مصر العليا . رابعاً . خارطة القطر المصري قبل الفتوح الاسلامي

وقد عنيت في ضبط هذا التاريخ وربط حوادثهِ جهد الطاقة مُغفلاً كثيرًا من الروايات التي ترجح لي فسادها بعد النظر والتروّي متحاشياً الالفاظ المستهجنة والتعبيرات المعقدة ما امكن متخذاً افضل اسلوب تفهمهُ العامة وترتضاهُ الخاصة بغير اخلال ولا املال . راجياً من اصحاب النقد ان ينظروا اليهِ بعين الرضى اذ العصمة لله وحده سبحانهُ وتعالى .

يقالُ في الامثال «من ألَّف فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان أساء فقد استقذف» اما انا فان احسنت فان الفضل لافاضل الكتبة وثقات الرواة الذين سبقوني لاني لم آتِ بشيءٍ من عند نفسي ما خلا الحوادث التي قدِّر لي انْ اكون فيها شاهد عين وما تفقدتهُ بنفسي من الآثار العربية والمصرية . وان اسأت فذلك دأب العاجز ولكني ارغب الى من يعثر لي على خطاء ان ينبهني اليهِ فاشكر سعيهُ واثني عليهِ لاني استحيي من الحق اذا عرفتهُ ان لا ارجع اليهِ . او يعذرني فان اعقل الناس اعذرهم للناس . ولا اقول ان كل خطاءٍ سهوٌ جرى بهِ القلم بل اعترف ان ما اجهل اكثر مما اعلم . وما تمام العلم الاَّ لمن علَّم الانسان ما لم يعلم

هذا وارجو ان تصادف خدمتي هذه لدى اخواني ابناء هذا القطر السعيد قبولاً واقبالاً وانقدم الى رجال العلم منهم ان يتحفونا من نفثات اقلامهم بما هو اوفر مادة واجزل نفعاً . لاني اعلم ان بين ظهرانيهم رجالاً لهم من العلم وسعة المعرفة ما يؤهلهم لما هو افضل من ذلك كثيراً . فتتم سعادة البلاد ونكون قد قمنا ببعض الواجب علينا نحوها ونحو اميرها الخطير سمو خديوينا المعظم محمد توفيق باشا الافخم ادام الله ايامهُ باسمة الثغور في ظليل ظل صاحب الخلافة العظمى مولانا امير المؤمنين السلطان الغازي عبد الحميد خان أبّد الله ايام دولتهِ العلية بالعز والاقبال وادام شوكتهُ واقتدارهُ ما تكرّر الجديدان

تنبيه ــ قد التزمت في هذا التأليف جانب الحقيقة المجرّدة شأن المحب لتقرير الحقائق كما هي بغير استحسان ولا استقباح الا في بعض الاحوال التي لا يختلف في استحسانها او استقباحها اثنان . وقد تحزمت عند ورود اسماء العظام من رجال الحكومة المصرية وغيرهم في سياق تاريخنا هذا على اختلاف الازمان والاحوال ان اذكرها مجرّدة من لقب الرتبة كصاحب السمو وصاحب الدولة او السعادة مثلاً او نحو ذلك

اقسام تاريخ مصر العام

يبدأ تاريخ مصر العام عند اقامة اول حكومة نظامية فيها وقد عُلم من مصادر مختلفة سيأتي ذكرها ان اول حكومة اقيمت من هذا النوع كانت في اول الجيل الستين قبل المسيح اي منذ نحو سبعة الاف سنة على وجه التقريب

اما قبل ذلك الحين فكانت قبائل مستقلة تحت سلطة فئة من الكهنة يقال لهم بلغة مصر القديمة «حورشسُو» وهم اخر من حكم المصريين قبل الدولة الملكية الاولى التي اول ملوكها الملك «مِنَا» وهو اول من اقام في وادي النيل حكومة نظامية ومنهُ يبتدئ تاريخها

وقد قسم المؤرخون تاريخ مصر العام بالنسبة الى تمدنها الى ثلاثة ادوار كبرى وهي

(١) الدور الجاهلي . يبتدئ عند اول دخولها في سلك الممالك سنة ٦٢٣٦ ق ه او ٥٠٠٤ ق م وينتهي سنة ٢٤١ ق ه او ٣٨١ بعد المسيح وذلك عند ما نهى الملك ثيودوسيوس عن عبادة النصُب والتماثيل وامر باتباع الدين المسيحي

(٢) الدور المسيحي . يبتدئ عند شيوع سُنَّة ثيودوسيوس وينتهي عند فتوح الاسلام سنة ١٨ ب ه او ٦٤٠ ب م

(٣) الدور الاسلامي . يبتدئ عند فتوح الاسلام ولا يزال

اقسام الدور الجاهلي

يقسم هذا الدور الى خمس دول تسلّط اثناءها على مصر ٣٤ عائلة وهي

(١) الدولة الملكية القديمة — تبتدئ بتسلط العائلة الاولى وتنتهي

بانتهاء العائلة العاشرة اي (من ٥٦٢٦ ــ ٣٦٨٦ ق ه) اومن ٥٠٠٤ ــ ٣٠٦٤ ق م) ومدة حكمها ١٩٤٠ سنة

(٢) الدولة الملكية الوسطى ــ تبتدئ بالعائلة الحادية عشرة وتنتهي بانتهاء العائلة السابعة عشرة (من ٣٦٨٦ ــ ٢٤٢٥ ق ه) او (٣٠٦٤ ــ ١٧٠٣ ق م) ومدة حكمها ١٣٦١ سنة

(٣) الدولة الملكية الاخيرة ــ تبتدئ بالعائلة الثامنة عشرة وتنتهي بانتهاء العائلة الحادية والثلاثين (من ٢٤٢٥ ــ ٩٥٤ ق ه) او (من ١٧٠٣ ــ ٣٣٢ ق م) ومدة حكمها ١٣٧١ سنة

(٤) الدولة اليونانية ــ تبتدئ بالعائلة الثانية والثلاثين وتنتهي بانتهاء العائلة الثالثة والثلاثين (من ٩٥٤ ــ ٦٥٢ ق ه) او (من ٣٣٢ ــ ٣٠ ق م) ومدة حكمها ٣٠٢ سنة

(٥) الدولة الرومانية ــ ويسميها العرب دولة الروم وهي العائلة الرابعة والثلاثون الرومانية (من ٦٥٢ ــ ٢٤١ ق ه) او (من ٣٠ ق م ــ ٣٨١ ب م) ومدة حكمها ٤١١ سنة

الدور المسيحي

اما الدور المسيحي فهو عبارة عن استمرار الدولة الرومانية بعد شيوع سنّة ثيودوسيوس الى فتوح الاسلام (من ٢٤١ ق هـ ــ ١٨ ب ه) او (من ٣٨١ ــ ٦٤٠ ب م) ومدتة ٢٦٠ سنة

اقسام الدور الاسلامي

يُقسم الدور الاسلامي الى اثني عشرة دولة وهي

(١) دولة الخلفاء الراشدين (من ١٨ ــ ٤١ ب ه) اومن ٦٤٠ ــ ٦٦١ ب م)

(٢) الدولة الأموية (من ٤١ ــ ١٣٢ ب ﻫ) او (من ٦٦١ــ ٧٥٠ ب م)

(٣) الدولة العبّاسية الاولى (من ١٣٢ ــ ٢٥٧ ب ﻫ) او (من ٧٥٠ ــ ٨٧٠ ب م)

(٤) الدولة الطولونية (من ٢٥٧ ــ ٢٩٢ ب ﻫ) او (من ٨٧٠ ــ ٩٠٥ ب م)

(٥) الدولة العبّاسية الثانية (من ٢٩٢ ــ ٣٢٣ ب ﻫ) او (من ٩٠٥ ــ ٩٣٤ ب م)

(٦) الدولة الاخشيدية (من ٣٢٣ ــ ٣٥٨ ب ﻫ) او (من ٩٣٤ ــ ٩٦٩ ب م)

(٧) الدولة الفاطمية (من ٣٥٨ ــ ٥٦٧ ب ﻫ) او (من ٩٦٩ ــ ١١٧١ ب م)

(٨) الدولة الأيوبية (من ٥٦٧ ــ ٦٤٨ ب ﻫ) او (من ١١٧١ ــ ١٢٥٠ ب م)

(٩) دولة المماليك الأولى (من ٦٤٨ ــ ٧٨٤ ب ﻫ) او (من ١٢٥٠ ــ ١٣٨٢ ب م)

(١٠) دولة المماليك الثانية (من ٧٨٤ ــ ٩٢٣ ب ﻫ) او (من ١٣٨٢ ــ ١٥١٧ ب م)

(١١) الدولة العثمانية (من ٩٢٣ ــ ١٢١٦ ب ﻫ) او (من ١٥١٧ ــ ١٨٠١ ب م)

(١٢) الدولة المحمدية العلوية (من ١٢١٦ ب ﻫ او ١٨٠١ ب م ولا تزال)

ويقسم تاريخ مصر العام ايضًا الى قسمين عظيمين قديم وحديث اما القديم فمن اول تاريخها الى الفتوح الاسلامي ويشتمل على الدورين الاولين الجاهلي والمسيحي. والحديث منذ الفتوح الاسلامي الى هذا اليوم ولا يزال

مصادر تاريخ مصر القديم

ما زال تاريخ مصر القديم محجوبًا عنا حتى أُتيح لابناء هذا القرن حلّ رموز الكتابة الهيروغليفية (القلم المصري القديم) على ان تاريخ العهد القديم لم يخلُ من بعض الغموض في ذلك مما لم يكن من النصوص التاريخية ما يعضدهُ وما زال ذلك شأن تاريخ مصر القديم حتى القرن السابع قبل المسيح عند استيلاء اليونان على وادي النيل. ومن مصادر تاريخ مصر القديم

(١) نصوص المؤرخين القدماء

ان هيرودوتس الرحّالة المؤرخ اليوناني هو أقدم من كتب عن مصر ما يصحّ ان يسمّى نصًّا تاريخيًا وقد جال هذا المؤرخ في وادي النيل سنة ٤٥٥ قبل المسيح. وبعد هيرودوتس ظهر سبانيتوس احد كهنة المصريين العظماء في الجيل الثالث قبل المسيح وكتب تاريخًا نفيسًا عن مصر لكنهُ فُقد ولم يصلنا منهُ الا بعض ما ذكرهُ يوسيفوس عن آثار الاسرائيليين وما كتبهُ سنسلوس احد كتبة الجيل الثامن. ثم جاء ثيودوروس من صيسيليا سنة ٨ قبل المسيح. ومن هؤلاء الثقات سترابو العالم الجغرافي وبلوتارخس المؤرخ الذي ظهر في القرن الاول المسيحي واما قائمة اسماء الملوك فقد وُجدت بين ما كتبهُ بعض المؤرخين المسيحيين. ويقال بالاجمال انهُ لم يكتب عن مصر شيء جدير بان يدعى نصًّا تاريخيًا الا منذ الجيل الخامس قبل المسيح

(٢) الآثار

واعلم ان ما كتبهُ اولئك المؤرخون لم يفدنا شيئًا صريحًا عمّا وراء الجيل السابع قبل المسيح اما الآثار. تلك الاطلال البالية التي نراها مبثة

لا حراك بها وقد مكثت رغمًا عن تقلبات الزمان وافعال العناصر فانها تنطق بافصح لسان وتنادي باجلى بيان عن عظمة صانعيها وهي لا تخبرنا عن تاريخهم فقط بل توضح امامنا ايضًا عوائدهم واخلاقهم ومكانتهم من الحضارة وعلوّ الهمّة ورفعة المنزلة . فقد نقشوا عليها من الرسوم والرموز ما جعلها عبارة عن كتاب مزيّن بالرسوم والاشكال لا تحرقهُ النار ولا يخرقهُ الفار

هذه الهياكل العظيمة والمسلاّت الشامخة والتماثيل الهائلة هذه المدافن هذه الاهرام هذا ابو الهول بل هذه الجثث البالية نراها صمّاء وقد افحم الاحياء نطقها وقد كلفت بالحياة وعلقت آمالها بالمعاد فابتنت لانفسها البنايات الشاهقة القوية العماد تبقى معها في عالم الخلود تنصّ على القادمين اقاصيص الاقدمين . وجميع هذه تُعد من وثبق المصادر التاريخية

(٣) الكتابة الهيروغليفية

يظهر ان ملوك الروم اثناء تسلطهم على مصر لم يكترثوا بهذه الكتابة بل اهملوها شأن اكثر المتفتحين بلغة من يتسلطون عليهم فبقيت محجوبة تغشاها دواعي الجهل الى ايام الحملة الفرنساوية في اواخر الجيل الماضي اذ أُتيح لاحد رجالها ان يحل بعض رموزها . وقام بعده عدة ممن اعتنوا بحثها فأتوا على فهمها فهمًا جيدًا بحيث امكنهم قرأة ما كُتب بها على البردي (البابيروس) والاحجار فخدموا التاريخ خدمة تستحق الاعتبار وهاك كيفية توصلهم الى حلها بالايجاز

لما قدم النابوليون الاول الى مصر اكتشف احد رجالهِ سنة ١٧٩٩ ب م بالقرب من ثغر رشيد حجرًا اسود غير منتظم الشكل الأسطح منهُ كان مستويًا املس في اعلاهُ كتابة بالقلم المصري القديم (الهيروغليف) تحتها كتابة أُخرى بالقلم العامي او الديموتيقي وتحت هذه كتابة ثالثة باليونانية

القديمة فأُهدي هذا الحجر الى مجمع العلوم الفرنساوي في القاهرة ثم لما تغلب الجنرال هتشنسون الانكليزي على جنود بونابرت وضع يده على ذلك الحجر بعد ذلك أُهدي الى المتحف البريطاني في لندرا ولا يزال هناك. وقد شاهدناهُ في ذلك المتحف منذ سنتين موضوعاً في صدر الآثار المصرية محفوظاً في صندوق غطاؤهُ من زجاج اما طول ذلك الحجر فثلاث اقدام وقيراطان وعرضهُ قدمان وخمسة قراريط

وفي سنة ١٨٠٢ رسمت جمعية العاديات صورتهُ وفرّقتها في جمهور العلماء لينظروا في امر قراءتها فاهتدوا الى قراءة الكتابة اليونانية بسهولة فاذا مفادها ان كهنة منف كتبوها للملك بطليموس ايفانيس سنة ١٩٤ ق م تشكرًا لما اسبغ عليهم من النعم الجزيلة وانهم وضعوا منها نسخة في كل هيكل من هياكل الطبقة الاولى والثانية والثالثة بجانب تمثال ذلك الملك

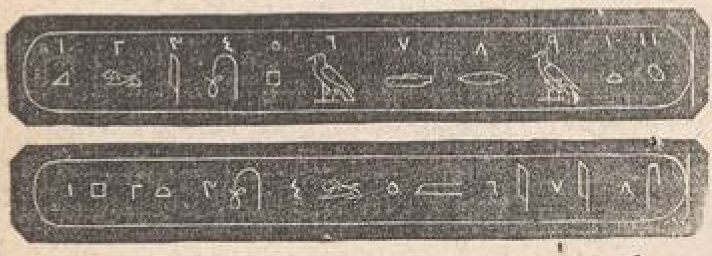
ثم ان العلماء وفي مقدمتهم العالم الفرنساوي ده ساسي حاولوا قراءة الكتابة الديموتيقية وغاية ما وصلوا اليهِ انهم عيّنوا مواقع الاعلام في الكتابة المصرية المقابلة للاعلام اليونانية. ثم عيّن العلاّمة اكربلاد الاسوجي لفظ بعض الاعلام في القلم المصري العامي. اما الهيروغليف فلم يطمع احد منهم في حلهِ الى ذلك الحين

وفي سنة ١٨١٨ شرع العالم فرنسوا شمبليون الفرنساوي في حلّ هذه الكتابة بعد ان درس اللغة القبطية وجغرافية مصر القديمة وكل ما كتبهُ المتقدمون عن مصر والمصريين وكان بلزوني الايطالي قد عثر في جزيرة البربة على مسلّة مصرية عليها كتابة يونانية ومصرية وارسل صورة الكتابة الى اوروبا. فلما رآها شمبليون ارتأى ان الكتابة اليونانية هي ترجمة الكتابة المصرية. ثم رأى في الكتابة اليونانية اعلاماً واسماء الاعلام لا تُترجم فتوسّم من ذلك هداية الى معرفة لفظ بعض الحروف المصرية ووجد في الكتابة المصرية نقوشاً محاطة بخط اهليلجي مكررة مرارًا. ووجد في الكتابة



حجر رشید

اليونانية اسم بطليموس، مكررًا مرارًا كثيرة ايضًا فاستنتج ان النقوش الهيروغليفية المتقدم ذكرها في اسم بطليموس وزاد تأكيدًا عند ما رأى اسم بطليموس واردًا في الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدي ويقابلة في الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخطّ اهليلجي كالنقوش التي على المسلة تمامًا فعلى ذلك تكون الصورة الاولى ضمن الخط الاهليلجي تقابل الحرف الاول من بطليموس اي الباء والثانية الحرف الثاني اي الطاء وهلمّ جرًّا ووجد ايضًا في الكتابة اليونانية اسم كليوبطرا ويقابلة في الكتابة المصرية نقوش ضمن خط اهليلجي . فقال شمبليون بنفسو اذا كانت الاولى بطليموس فهذه كليوبطرا واخذ بالمقابلة مستعينًا باللغة القبطية لانها بقيّة اللغة المصرية القديمة فرسم امامة الشكلين الذين ظنهما اسمي بطليموس وكليوبطرا وجعل يقابل الاحرف المتماثلة في الاسمين كاللام والباء وغيرهما فاذا بها متماثلة تمامًا في الشكلين بمواقعها في الاسمين وهاك صورة اسم كليوبطرا وبطليموس في القلم المصري القديم



الشكل الاول صورة اسمي كليوبطرا وبطليموس

فالحرف الاول من اسم كليوبطرا صورة ركبة . واسم الركبة في اللغة القبطية يبتدئ بحرف الكاف فهو حرف الكاف . والحرف الثاني صورة اسد . واسم الاسدة يبتدئ في اللغة القبطية بحرف اللام فهو صورة حرف اللام وهو الحرف الرابع في اسم بطليموس لان الثالث بمثابة الحركة . والحرف الثالث من اسم كليوبطرا صورة قصبة . وهو الحرف السادس

والسابع في اسم بطليموس فهو بمثابة الالف او الياء . واسم القصبة في اللغة القبطية يبتدي بالالف . والحرف الرابع صورة عقدة وهو حرف الواو . والحرف الخامس مثل الحرف الاول من اسم بطليموس فهو حرف الباء . والسادس صورة نسر . واسم النسر في القبطية يبتدئ بالالف فهو حرف الالف . والسابع صورة يد . واسم اليد في القبطية يبتدئ بحرف الطاء فهو حرف الطاء . والثامن صورة فم . واسم الفم في القبطية يبتدئ بحرف الراء فهو حرف الراء . والتاسع تقدم ذكرهُ والعاشر مثل الثاني في بطليموس فهو طاء او تاء . والحادي عشر لا حرف لهُ باليونانية وقد عرف بعد ذلك انهُ علامة تلحق آخر الاسماء المؤنثة . وفي اسم بطليموس حرفان هما الخامس والثامن لم يردا في اسم كليوبطرا . فالاول هو الميم والثاني هو السين . وعلى هذه الصورة تمكن شمبليون من معرفة عدد من حروف الهجا وقراءة كثير من الكتابات المصرية القديمة في مدة تسع سنوات كلها بحث وجد . واعلم ان الكتابة الهيروغليفية ليست واحدة فان من صوَرها ما هو حروف ومنهُ ما هو مقاطع او كلمات . وجميع هذه الصور يعد بالمئات

هذا من قبيل حل الالفاظ اما المعاني فعُرفت بالمقابلة باللغة القبطية وببعض ما كان يكتبهُ المصريون القدماء من الرموز التي تدل على اشباهها كدلالة صورة الرجل على الرجل وما شاكل ذلك

ومن المؤلفات الحديثة التي استعنت بها في فذلكة تاريخ مصر القديم كتاب العقد الثمين ومصر لمري وعوائد المصريين لويلكنسن وغيرها

جغرافية مصر القديمة

وهي جغرافيتها في ايام الدول المصرية القديمة الى فتوح الاسلام تُدعى مصر في اللغة المصرية القديمة وفي اللغة القبطية «خم» او

« ارض خم » ومعناها الارض السوداء نسبة الى لون تربتها وهذا ما يذكرنا بحام ونسلهِ . وكان يدعوها الشعب العبراني « مصرايم » ومعناها « المصرَان » ومنها اسمها في العربية اليوم . اما معنى تسمية العبرانيين لمصر فيلوح لي انها مشتقة من قولهم « صرّ » في العبرانية ومعناها الشدة والضيق « ومِصر » اسم مكان من صرّ اي مكان الشدة . ولعلّها اشارة الى ما قاساهُ الشعب العبراني من الشدة والاضطهاد في هذه البلاد الى عهد موسى . اما كونها على صيغة المثنى فربما نتج عن تسميتهم اولاً احد قسمي مصر البحري والقبلي بهذا الاسم ثم جعلوهُ على صيغة المثنى للدلالة على القسمين معاً والله اعلم . اما اليونانيون فكانوا يسمونها « ايجبتوس » ومنها اسمها في لغات اوروبا الحديثة « ايجبت »

ويستفاد من مصادر تاريخ مصر القديم ان القطر المصري كان يُقسم الى قسمين عظيمين الواحد يُدعى ارض الشمال او الوجه البحري والاخر ارض الجنوب او الوجه القبلي . وكان الوجه البحري ممتدًا من منف (البدرشين وميت رهينة) الى البحر المتوسط ويدعوهُ اليونان « الدلتا » لمشابهتهِ بحرف الدال عندهم اما الوجه القبلي فيمتد جنوباً من منف الى جزيرة الفنتين مقابل اصوان وهذا ما ندعوهُ اليوم بارض الصعيد . وكان من القاب ملوك مصر القدماء قولهم « سلطان البرّين » اشارة الى تسلطهِ على الوجهين البحري والقبلي

وكلٌّ من هذين القسمين كان ينقسم عندهم الى اقسام دعاها اليونان « نومس » أيْ مقاطعات ومجموعها في الوجهين معاً يختلف عدًّا باختلاف الرواة . فقد ورد في القوائم المصرية القديمة انها ٤٤ وقال استرابو وديودوروس انها ٣٦ والمعوَّل عليهِ عند الجمهور انها ٤٢ منها ٢٠ في الوجه البحري و٢٢ في القبلي وكان لكلٍّ من هذه المقاطعات عاصمة مختصة بها وفيها مقرُّ الحاكم ومركز العبادة . وهاك جدول يتضمن اسماء المقاطعات باليونانية واسماء عواصمها بالمصرية واليونانية والعربية

الوجـــــــــــــه القبلي

عواصمـــــــــــــا

اسماء المقاطعات باليونية	بالمصرية القديمة	باليونانية	بالعربية
١ اومبيتس	ابو	امبوس	كوم امبو
٢ ابولينو بولينس	تب	اولينو بولس مانيا	ادفو
٣ لاتو بولينس	نخب	لاتوبولس (ايليثيا)	اسنا (الكب)
٤ هرمونثيتس	هرمونت	هرمونتس	ارمنت
٥ باثيريتس			القرنة
٦ ديوسبوليتس	نوامن	ديوسبولس مانيا	الكرنك والاقصر
٧ كوبتيتس	كوبتي	كوبتوس	قفط
٨ تنتيريتس	تنتيرير	تنتيرا	دندره
٩ ديوسبولينس	ها	ديوسبولس بارفا	هو
١٠ ثينيتس	ابدو	ثيس · ايدوس	البربه · العرابة المدفونة
١١ بانوبوليتس	ابو	بانوبولس	اخميم
١٢ افروديتوبولتس	تبو	افروديتوبولس	المطف
١٣ انتوبولتس	باتباك	انتوبولس	قاو الكبير
١٤ هيبسليتس	شاسحوتب	هيبسليس	شطب
١٥ ليكوبولينس	سيوت	ليكوبولس	اسيوط
١٦ انتينويتس		انتينوبولس	شيخ عباده
١٧ هرموبولتس	خمونو	هرموبولس مانيا	اشمونين
١٨ سينوبولتس	كوسا	سينوبولس	القيس
١٩ اكسيرنخيتس	يماسا	اوكسيرنخس	بهنسا
٢٠ هيراكليوبوليتس	خيننسو	هيراكليوبولس	اهناس المدينة
٢١ ارسينويتس		كروكوديلوبولس	مدينة الفيوم
٢٢ افروديتوبولتس	تپاه	افروديتوبولس	عطفية

الوجــــــــــه البحري

اسماء المقاطعات باليونانية	عواصمـــــــــها		
	المصري القديم	باليونانية	بالعربية
١ ممفيتس	·وفر	ممفيس	ميت رهينة
٢ لينو وليتس	سوخم	لينو بولس	
٣ ليبيا	نبانتهابي	ابيس	
٤ سايتس	زووكا	كانو بوس	
٥ سايتس	صا	سايس	صا الحجر
٦ خويتس	خسوون	خويس	سخا
٧ متليتس	سونتينوفر	متليس	فوه
٨ سيثرويتس	ثركوت	سيثروي	
٩ بوسيريتس	بوسيري	بوسيرس	ابو صير
١٠ اتريبيتس	حاتا حيراب	اتريبس	تل اتريب بنها العسل
١١ كاباسيتس	كاهيبس	كاباسا	كوم شباس
١٢ سبنيتس	ثبنوتر	سبنيتوس	سمنهود
١٣ هليوبوليتس	انو	اون · هليوبولس	المطرية
١٤ تانيتس	زوان	تانس	صان
١٥ هرموبوليتس	بوت	هرمو بولس بارفا	دمنهور
١٦ منديسيوس	بيبنبداد	مندس	اشمون
١٧ ديوسبوليتس	نيخون ان امن	ديوسبولس	
١٨ بوباستيتس	بباست	وباستس	تل بسطة (زقازيق)
١٩ بثينتس	بوتو	بوتو	
٢٠ فاربثيتس	كوسم	فاريثوس	هربت

ويظهر ان هذين القسمين الكبيرين قد جُعلا بعد ذلك ثلاثة عُرفت بمصر العليا والوسطى والسفلى. فمصر العليا تدعى ايضاً باليونانية «ثيبايد» نسبة الى ثيبس (طيبة) وتمتد من اخر الحدود القبلية الى دروط. والوسطى يدعوها اليونان «هبتانومس» اي ذات السبع مقاطعات وتمتد من دروط الى رأس الدلتا. والسفلى تمتد من رأس الدلتا الى البحر المتوسط. وقسمت مصر السفلى في اخر عهد اليونان الى اربعة اقاليم كبيرة تحت كلٍ منها عدة مقاطعات

ودُعيت مصر السفلى في ايام اركاديوس ابن ثيودوسيوس الاعظم «اركاديا» نسبة اليه وقسمت مصر العليا ايضاً الى قسمين او اقليمين دُعيا ثيبايد العليا وثيبايد السفلى تفصل بينهما اخميم او ما يجاورها. وتكاثر عدد المقاطعات في اخر ايام اليونان حتى بلغ ٥٧ مقاطعة منها ٢٤ في الدلتا فقط

ثم ان بين ملوك المصريين القدماء من وسع نطاق المملكة الى ما وراء اصوان وعلى الخصوص العائلة الخامسة والعشرون لان ملوكها كانوا اثيوبيين فامتد حكمهم الى جبل برقل. اما في حكم اليونان فبلغت حدود المملكة المصرية الى موغراكا وراء وادي حلفا

ديانة المصريين القدماء

زعم بعض قدماء المؤرخين ان المصريين القدماء كانوا من عبدة الاوثان مستدلين على ذلك بما شاهدوهُ من التماثيل العظيمة التي اقيمت للعبادة. ولكنَّا قد رأينا بعد استطلاعنا اسرار لغتهم وقراءة ما كتبوهُ على هياكلهم وفي كتب موتاهم انهم ليسوا من الوثنية على شيءٍ وان هذه التماثيل انما اقاموها في بادئ الرأي تمثيلاً لبعض صفات او اعمال الهٍ حقيقي غير منظور ولكن الزمان ارخى على تلك الحقيقة حجاب التقاليد والخرافات فاصبح القوم لا يعرفون من معبوداتهم الَّا تلك الحجارة الصماء التي هي من صنع

ايديهم . على ان الحقيقة لم تكن محجوبة عن حكمائهم وكهنتهم

اما آلهتهم فعديدة واسماؤها مختلفة وصورها متنوعة وانما مرجعها جميعاً الى الهين هما اصل لكل هذه التنوعات وهما «فتاح» في منف ويقصدون به الخالق العظيم و«رع» في طيبة (الاقصر) وهو الشمس . وهذان الالهان هما اقدم آلهة المصريين ويرجعان الى اولهما لانهم يعتبرون الشمس تمثالاً للاله الحقيقي الذي هو الخالق . ثم لما انتشرت هذه الديانة واتقنت صناعة البناء والرسم جعلوا يقيمون في كل مدينة تمثالاً لاحد هذين الالهين او لكليهما وكانوا يسمونها باسماء مختلفة . فتعددت الاشباه ثم نسي المقصود الاصلي وبقيت الظواهر . ومن جملة دواعي تعدد الآلهة انهم كانوا يجعلون للشمس مثلاً اسماء مختلفة باختلاف مواقعها من خط مسيرها فدعوها «هرمخيس» عند شروقها واقاموا لها ابا الهول تمثالاً . و«رع» عندما تكون في خط الهاجرة . و«توم» عند الغروب و«اوزيريس» عند الظلام اي عندما تكون في العالم السفلي وجعلوا لكلٍّ من هذه الحالات تمثالاً مخصوصاً . وعلى مثل ذلك قس ما بقي من الآلهة الكثيرة العدد التي قد اقاموا منها محاكم سماوية وجعلوا من بينها قضاة وكتبة وجنود وما شاكل

وفي اثناء ذلك استنبطوا المثلثات الالهية فكانوا يضمون ثلاثة آلهة الى إلهٍ واحد . فمن هذه المثلثات مثلث مؤلف من الآلهة اوزيريس وايزيس وهوروس وهو المعروف بمثلث منف . والمتأمل في صورها يرى ان الاول اشبه برجل والثاني بامرأة والثالث بصبي

ويوجد بين آلهة المصريين تفاوت في الدرجات فعندهم ثمانية آلهة من الدرجة الاولى في منف وهي فتاح وشو وتفنو وست ونوت واوزيريس وايزيس وهوروس . ولهم عن هذه الآلهة وغيرها اخبار وخرافات مطولة لا حاجة الى ذكرها هنا وانما نذكر فيما يلي اسماء أهم الآلهة المصرية مع ذكر مميزات كلٍّ منها بقدر الامكان بحيث يمكن لمن يشاهدها في الآثار المصرية

ان يميّز احدها من الاخر وتسهيلاً لفهم تلك المميزات اقسمها الى قسمين بحسب نوع رؤوسها

اولاً . ذات الرؤوس البشرية . ثانياً . ذات الرؤوس الحيوانية . والرؤوس البشرية اما ان تكون رؤوس ذكور او اناث . والرؤوس الحيوانية اما ان تكون رؤوس طيور او حيوانات اخرى

فالآلهة ذات الرؤوس البشرية للذكور سبعة وهي

(١) «فتاح» يمتاز بكونه على شكل جثة محنطة (مومية) وفي يديهِ صولجان وليس على رأسهِ شيء يمتاز بهِ

(٢) «أمن» او «أمن رع» على هيئة رجل منتصب وعلى رأسهِ قبعة مبلطحة تنتهي بريشتين غليظتين مستطيلتين بيدهِ الواحدة مفتاح وبالاخرى عصا كما ترى في الشكل الثاني



ش ٢ «أمن رع»

وقد يكون على شكل جثة محنطة جالساً على كرسي وعلى رأسهِ القبعة المتقدم ذكرها وفي يدهِ نمشة وعقافة وصولجان . ويدعى في هذه الحالة «أمن اوزيريس»

(٣) «هوروس» صبيّ على رأسهِ تاج مزدوج يراد بهِ تاجَي الوجهين القبلي والبحري . يدهُ اليسرى في فيهِ وفي يدهِ اليمنى مفتاح صليبي الشكل وقد يكون هوروس برأس طير كما سيجيء

(٤) «خم» جثة محنطة ويده اليمنى مرفوعة وحاملة زوابة كبيرة

(٥) «اوزيريس» جثة محنطة على رأسهِ تاج مصر العليا بريشتي نعام واحياناً بغير ريش . وفي يدهِ النمشة

والعفافة واحيانًا الصولجان ايضاً . وقد يكون على رأسهِ هلال فيهِ قرص الشمس كما ترى في الشكل الثالث



ش ٣ اوزيريس

(٦) «سب» يمتاز ببطة واقفة على رأسهِ

(٧) «توم» على رأسهِ شعر طويل مكلل بزهرة حبقوق او بريشة . وقد يكون على رأسهِ تاجا مصر العليا والسفلى

اما الآلهة ذات الرؤوس البشرية الانثوية فهي

(١) «ايزيس» على رأسها طاقية تشبه النسر فوقها تاجا مصر العليا والسفلى بيدها الواحدة مفتاح والاخرى صولجان كما ترى في الشكل الرابع وقد يكون على رأسها قرنان بينهما قرص الشمس وفوق القرص ما يشبه تاجي مصر

(٢) «ما» الهة الصدق على راسها ريشة واحدة منتصبة وعلى عينيها غالبًا غطاء يشبه العوينات



ش ٤ ايزيس

(٣) «موت» (ام الجميع) على رأسها طاقية بشكل النسر وفوقها تاجا مصر العليا والسفلى وقد يكون لها رأس نسري

(٤) «نيث» على رأسها احيانًا مكوك واحيانًا تاجا مصر العليا والسفلى

(٥) «نفثيس» على رأسها الطاقية النسرية وفوقها ما يشبه البرج

والآلهة برؤوس الطيور هي

(١) «هوروس» قد تقدم ذكرهُ بين ذوي الرؤوس البشرية وقد يكون ذا رأس

حيواني كرأس الصقر وفوقه التاجان

(٢) « خونس » (الشمس المشرقة) رأسه كرأس الصقر فوقه هلال فيه قرص الشمس

(٣) « رع » (شمس الهاجرة) رأسه كرأس الصقر ايضاً عليه قرص الشمس فوقه ثعبان

(٤) « توت » (اله القلم) رأسه كرأس اللقلق عليه احياناً هلال في وسطه ريشة

وهذه آلهة برؤوس حيوانات اخرى

(١) « بشت » (حبيبة فتاح) تمتاز برأس الهر واحياناً برأس الاسد عليه قرص الشمس فوقه ثعبان كما ترى في الشكل الخامس



ش ٥ بشت

(٢) « عثور » يمتاز برأس كرأس البقرة بين قرنيها دائرة البدر

(٣) « كنوم » او « كنف » يمتاز برأس كبش عليه أكاليل وتيجان

(٤) « انوبيس » يمتاز برأس كرأس ابن آوى

وللمصريين القدماء آلهة كثيرة غير هذه قد امسكنا عن ذكرها حباً بالاختصار

فذلكة

في تاريخ مصر القديم

لما فكر قدماء المصريين في وضع تاريخ لامتهم تتبعوا الحوادث الى مصادرها وجمعوا ما كان لديهم من التقاليد الموروثة بالتلقين ابا عن جد واستطلعوا سير ملوكهم الاقدمين فوصلوا الى الملك «مِنّا» فاذا هو اول من حكم ونظّم. ولما لم يعثروا على ما كانت عليه مصر قبلهُ فرضوا ثلاث عائلات وهميّة زعموا انها تسلّطت على مصر بالتوالي وانتهت ببداية الدولة الملكية القديمة التي اول ملوكها «مِنّا» ودعوا العائلة الاولى عائلة المعبودات ويقال لها العائلة المقدسة. والثانية دعوها الشبيهة بالمقدسة والثالثة الكهنة «الحورشسو» ويزعمون انهم اجدادهم

الدور الجاهلي

الدولة الملكية القديمة

العائلة الاولى الطينية

حكمت من سنة ٥٦٢٦ ــ ٥٢٧٣ ق ه او من ٥٠٠٤ ــ ٤٧٥١ ق م وعدد ملوكها ٩

اوّلهم الملك «مِنَا» او «مينس» ــ وهو اول من حكم مصر بعد الكهنة «الحورشسُو» نشأ في طينة (بقرب العرابة المدفونة بجوار جرجا) والظاهر انه كان من الكهنة فثار في خاطرهِ امر الاستقلال بالملك فقاومهُ الكهنة فتغلّب عليهم فترك وطنهُ وأسّس مدينة «منف» (البدرشين وميت رهينة) وجعلها سرير ملكهِ وشاد حولها جسرًا يعرف الان بجسر قشيشة وحوّل مجرى النيل الى شرقيها وكان يجري لجهة صحراء ليبيا. فعمرت منف واخصبت وزهت فشاد فيها الهياكل والمعابد واقام فيها تماثيل الالهة. فاذا زرت خرائب سقّارة وشاهدت تمثال رعمسيس الثاني ملقىً في البركة الشرقية لميت رهينة اعلم ان بقرب ذلك التمثال كان باب الهيكل الذي بناهُ هذا الملك لمعبودهِ «فتاح» وما زالت منف مركز التمدن الى عصر اليونان. ومما يذكر عنهُ انهُ فتح ليبيا فاتسعت مملكة مصر في ايامهِ وكان رفوقًا برعاياهُ فلم يضغط على افكارهم ومعتقداتهم فغادرهم

على ما اعتادوهُ ولم يسلب الكهنة شيئاً من حقوقهم في قبائلهم على انهُ لم ينجُ من ايقاعهم بهِ فزعموا انهُ اضرَّ بالعبادة من حيث فتور الناس في ايامهِ عن الزهد واستخدامهم انواع الترف فكانوا يتناولون طعامهم مضطجعين على اسرّتهم

وقام بعد «مينا» اخوه «ثتا» فأسّس القصر الملوكي في منف وكان عالماً بفن الطب ولا سيما التشريح فكتب فيهِ رسالة جُدّدت كتابتها في عهد رعمسيس الثاني

ومن ملوك هذه العائلة «ونيفس» حصلت في ايامهِ مجاعةٌ وهو الذي بنى هرم «كوكمه» بقرب الهرم المدرّج في سقارة وكان مُعدّاً لدفن ما كانوا يعبدونهُ من الثيران في عصرهِ فان صح ذلك كان هذا الهرم اول ما بُني من الاهرام في مصر ولم يبقَ من العائلة الاولى من يستحق الذكر



ش ٦ البنائين المصريين

العائلة الثانية الطينية

حكمت من ٥٢٧٢ـ ٥٠٧١ ق ه او من ٤٧٥١ ـ ٤٤٤٩ ق م وعدد ملوكها ٩ . نشأت في طينة ايضًا والمظنون ان بينها وبين العائلة الاولى قرابة

من ملوكها « كايه‌خوس » اجاز عبادة الحيوانات فاقام الثور « أبيس » في منف والثور «منيفس» في عين شمس (المطرية) . وقام بعده « بينوتريس » فجعل للنساء حق الحكم على سرير الملك هذا اذا لم يكن للملك المتوفى اولاد ذكور . وزعم ان الملك نائب عن الالهة في الاحكام وادّعى ان بينه وبين الالهة نسبًا وما زال الملوك بعد ذلك يدّعون مثل دعواه الى عهد اليونان

ومن ملوكها « اسنس » كان عالمًا وطبيبًا فاتمّ الرسالة الطبية المتقدم ذكرها . واعلم ان الملك « مِنَا » لم يقوَ في حياتهِ على اخضاع جميع القبائل المصرية لحكمهِ ولا ان يجعل مصر امّةً واحدة . اما العائلة الثانية فلم تنتهِ حتى جعلت ذلك امرًا مفعولاً

العائلة الثالثة المنفية

حكمت من ٥٠٧١ـ ٤٨٥٧ ق ه او ٤٤٤٩ ـ ٤٢٣٥ ق م وعدد ملوكها ٩

كانت طينة قبل ظهور الملك « مِنَا » مدينة العلم والحكمة ومحط رحال المنعة والسلطة . فلما بنيت منف تحول كل ذلك تدريجًا اليها وما زالت تنحطُّ شيئًا فشيئًا حتى انقرضت بانقراض العائلة الملكية الثانية

اما العائلة الثالثة فأوّل ملوكها «نخروفس» وفي اول حكمهِ تمرّدت ليبيا وشقّت عصا الطاعة فسامها الرضوخ فأبت فأدّى بهِ الامر الى تحكيم السيف وكانت المعركة في ليلة مقمرة يقال ان الليبيين رأوا تلك الليلة دائرة القمر تتسع على غير المعتاد فخيل لهم ان ذلك من غضب الآلهة على اعمالهم فالقوا السلاح مسلّمين. وقام بعدهُ الملك "توسرترس" وكان عالمًا بالطب فوضع فيهِ كتبًا تداولها الناس الى القرن الاول للتاريخ المسيحي.

اما من بقي من ملوك هذه العائلة فلم يصلنا من اخبارهم سوى ان المملكة زهت في ايامهم فتكاثرت مبانيها واقيمت فيها النُصب الهائلة اعظمها ابو الهول التمثال المشهور بعظمهِ القائم الى هذا العهد قرب اهرام الجيزة ويسمّى بلغتهم «خورمبخي» اي شمس الافقين جعلوا جسمهُ جسم اسد ورأسهُ رأس انسان اشارة الى اجتماع القوة والعقل. وأشباهُ هذا التمثال كثيرة في الاثار المصرية بين ما حجمهُ هائل الكبر كابي الهول الذي يبلغ طولهُ ٣٠ مترًا تقريبًا وعرضهُ اربعة امتار وما لا يزيد عن حبّ المرجان حجمًا كانوا يصنعونهُ من العقيق حلية للعقود. ومن اثارهم ايضًا الهيكل الكائن الى جنوبي اهرام الجيزة بجوار ابي الهول ويعرف بالكنيسة وهو مبنيّ من الحجارة الصوانية الضخمة ولهم ايضًا آثار اخرى كمدافن ومحاريب وغيرها

ومن ملوك هذه العائلة ايضًا «سنفرو» عمدتُ الى ذكرهِ لما عُرف بهِ من العدل والبرّ وما أُوتي من العزم والقدرة على الفتوحات فقهر اهل جبل الطور واستولى على ارضهم وبنى فيها حصونًا ومعاقل واحتفر آبارًا جعل فيها رجالاً يستخرجون معادنها ونقش رسمهُ حفرًا على حجر في وادي مغارة. ويقال انهُ لما عاد الى مصر ابتنى لنفسهِ هرمًا لم يعلم مقرهُ الى الان

العائلة الرابعة المنفية

حكمت من سنة ٤٨٥٧ـ٤٥٧٢ ق٠ه او من ٤٢٣٥ ـ ٢٩٥١ ق م وعدد ملوكها ١٤

اعظم ملوك هذه العائلة واحقُّها بالذكر الملك "خوفو" كان بنّاءً ماهرًا ومحاربًا باسلاً فبنى اعظم اهرام الجيزة الذي تفتخر به مصر على سائر الامصار . ويقال ان اللذين اشتغلوا في بنائهِ مائة الف رجل اثناء ثلاثين سنةً كانوا يتناوبون كل ثلاثة اشهر . وبنى لهُ جسرًا موصلاً بينهُ وبين ضفة النيل لنقل الحجارة . وارتفاع هذا الهرم ٤٥٠ قدمًا وبعض القدم وعرضهُ ٧٤٦ قدمًا وهو من جملة عجائب الدنيا لا يزال مقصودًا من السياح والمتفرجين الى هذا العهد

ونحت "خوفو" عدة تماثيل للآلهة ورمم بعض الهياكل وقد قال فيهِ بعضهم انهُ كان عاتيًا يبخس الناس حقهم ويهتضم اجورهم زعمًا منهم انهُ ابتنى هرمهُ على نفقة الفعلة المساكين على انهُ لم يكن على شيءٍ من ذلك وربما بنى المعنفون قولهم على انهُ كان يستخدم الاسرى مجانًا وتلك عادة كانت متبعة في ذلك العهد ولا تزال

ومن ملوك هذه العائلة "خفرع" وهو الذي بنى الهرم الثاني في الجيزة بجانب هرم "خوفو" وسماهُ "أُر" اي العظيم ارتفاعهُ ٤٤٧ قدمًا ونيف وعرض قاعدتهِ ٦٩٠ قدمًا وبعض القدم . ولم ينجُ هذا من ألسنة القاذفين فقد كان وسلفهُ "خوفو" مضغةً في افواه المرجفين وقد بلغت قحتهم الى ان اخرجوا جثتيهما من هرميهما وكسروا تابوتيهما ورموا بالجثتين الارض اهانة واحتقارًا . وقد وُجد في المعبد بجوار الاهرام سبعة تماثيل من الحجر الصوان مصنوعةً على مثال ذلك الملك بغاية الدقة وهي الآن في متحف بولاق

ومن ملوكها ايضاً "منكورع" بنى الهرم الثالث من اهرام الجيزة وسماه "حور" اي الاعلى جعل ارتفاعه ٢٠٣ اقدام وعرض قاعدته ٣٥٢ قدماً وبعض القدم . وقد كان حظ هذا الملك من الشعب غير حظ سالفيهِ لانهم بالغوا في مدحهِ كثيراً . ويقال انهُ ارسل ابنهُ ليطوف في الهياكل المصرية ويرمّم ما كان منها في احتياج الى الترميم

وكان "منكورع" عالماً عاملاً في الدين والادب وقد وُجدت جثتهُ محنطةً في تابوت من الصوان في هرمهِ المتقدم ذكرهُ فحاولت الدولة الانكليزية نقلها وتابوتها الى متحفها فغرقت بها السفينة على مقربة من البورتغال ولم يبقَ الاَّ الجثة وغطاء التابوت وهو مصنوع من خشب الجمّيز

ومن ملوكها ايضاً "سبسكاف" ويسميهِ مانيثون "سبرخرس" وهذا بنى الايوان الغربي بمعبد فتاح بمنف وهو اعظم ايوان فيهِ وكان محبّاً للعلوم فقيهاً . ويقال انهُ ابتدع فن الهندسة ورصد الكواكب وسنَّ قانوناً للقرض من مقتضاهُ انهُ يجوز للانسان ان يرهن مدفن ابيهِ على مبلغ يستدينهُ وللدائن الحقّ في استخدام المدفن حتى ينتهي النَّفَس الاخير

العائلة الخامسة الاصوانية

حكمت من ٤٥٧٢ ـ ٤٣٢٥ ق ه او من ٢٩٥١ ـ ٢٧٠٢ ق م وعدد ملوكها ٩

منهم "سحورع" او "سفرس" بنى هرماً شمالي قرية ابي صير ولهُ في وادي مغارة لوح لا يزال هناك محفور عليهِ صورتهُ منصوراً على اعدائهِ . وبعد وفاتهِ عبدهُ المصريون زمناً طويلاً . ومن ملوكها "نفراركارع" او "نفرخرس" اتسع نطاق العلم في ايامهِ وعمرت البلاد وقد بنى هرماً لا يُعرف مقرهُ . ومن ملوكها "اعتوسر" وهو اول من اضاف الى اسمهِ لقب

عائلتهِ "آن" فصار "اعنوسرآن" غزا جزيرة جبل الطور وانتصر عليها ونقش صورتهُ على حجر هناك وبنى هرماً في ابي صير دُفِنَ فيهِ بعد موتهِ . وكان في عصر هذا الملك رجلٌ يدعى "تي" بنى مقبرة بديعة الاتقان وهي المقبرة المشهورة في سقارة على يسار المدفن المعروف ببربة "أيس" يقصدُها المتفرجون من كل الانحاء لما فيها من الدقة وبديع الصنعة وجميل النقوش وتعداد الرسوم . وكان هذا الرجل صهر الملك وصاحب دولتهِ ولهُ رسم محفوظ في متحف بولاق

ومن ملوكها "ددكارع" اكتشف المعادن في وادي مغارة وابتنى هرماً لم يُعلم مكانهُ ولرجال دولتهِ عدة مقابر في سقارة . ومن ملوكها "اوناس" او "انوس" بنى هرماً في سقارة الى الجنوب الغربي من الهرم المدرَّج ترى حولهُ كثيباً من الرمال والحصا قد تراكمت هناك عندما حاولوا فتحهُ سنة ١٨٨١ مما تساقط من كسائهِ الخارجي . وكان عرض قاعدتهِ ٢٢٠ قدماً وارتفاعهُ ٦٢ قدماً ولا يبلغ هذا القدر الآن لما لحقهُ من الهدم والتساقط وذلك لانهم كانوا يعتقدون ان في هذه الاهرام كنوزاً فيحاولون فتحها هدماً . ولما هدموا هذا الهرم بعد المشقة لم يجدوا فيهِ الا تابوت الملك من المرمر الاسود وذراعهُ الايمن وساقهُ وقطعاً من اكفانهِ

العائلة السادسة الاصوانية

حكمت من ٤٢٢٥ ــ ٤١٢٢ ق ه او من ٢٧٠٢ ــ ٢٥٠٠ ق م وعدد ملوكها ٦

من ملوك هذه العائلة "مريرع" اتخذ جزيرة اصوان سريراً لمملكتهِ التي كانت شاملة لسائر القطر المصري . ومن ذلك الحين جعلت منف نخطّ . وكان لهُ وزيرٌ اشتهر بالدراية والحكمة فعهد اليهِ نظارة الاشغال

فقام باعبائها حق القيام فتضاعفت المحصولات ولهذا الوزير حجر في متحف بولاق منقوش عليهِ ما ينهم منهُ شيءٌ من سيرتهِ . ومن اعمال "مريرع" انهُ فتح طريقاً تجارية بين قنط والبحر الاحمر وخط مدينة في مصر الوسطى واصلح معبد دندره وفتح بلاد الشام واستولى عليها كل ذلك مدوَّن نقشاً على حجر وزيرهِ المتقدم ذكرهُ . وخضعت لهُ النوبة وليبيا والحبشة وطورسينا وهو اشهر ملوك هذه العائلة . ومن ملوكها "مرنرع" الاول ابن المتقدم ذكرهُ ويسمّى ايضاً "سوكرمساف" وهو اول من اصطنع سفينة في مصر بهمّة ودراية وزيرهِ الذي كان وزيراً لابيهِ قبلهُ . ومن ملوكها ايضاً الملكة "نيتوقريس" كذا دعاها مانيثون وقال انها كانت اجمل واكمل اهل عصرها . وكانت مع ذلك ذات حيلة ومكر فكان لها اخ اتخذتهُ بعلاً فقتلهُ بعض رجال دولتهِ قبل توليتها الملك . فلما تولَّت اخذت تسعى الى طلب الثار فاصطنعت سرداباً تحت الارض يصل بين النيل ومحلّ اعدّتهُ لوليمة دعت اليها نفرًا من الاعيان ورجال الدولة ومن جملتهم القاتل فلما التأم الجمع واشتغلوا بالوليمة فتحت باب السرداب من جهة النيل فسار الماء فيهِ الى قاعة الوليمة فاغرق جميع من كان هناك . اما هي فاسرعت من غيظها والقت نفسها في الرماد الحار فماتت

وفي ايام هذه العائلة أُتقنت الرسوم على اسلوب خاص بحيث ان من تعوَّد معاينة الآثار المصرية يقدر على تعيين اي رسم كان من رسوم هذه العائلة .

العائلة السابعة والثامنة المنفية والتاسعة والعاشرة الاهناسية

حكمت من سنة ٤١٢٢ ــ ٣٦٨٦ ق ه او من ٣٥٠٠ ــ ٣٠٦٤ ق م

لم يعلم ما الداعي لخلوص اخبار هذه العائلات على انه قد عُلم ان قاعدة العائلتين الاوليين كانت منف والاخريين اهناس وربما وجد في اهناس المدينة شيءٌ من اثارهم الَّا انها على كلٍّ لا تستحق الذكر

الدولة الملكية الوسطى

العائلة الحادية عشرة والثانية عشرة الطيبيتين . سريرهما طيبة

حكمتا من ٣٦٨٦ ــ ٣٤٧٢ ق ه او من ٣٠٦٤ ــ ٢٨٥١ ق م وعدد ملوكها ٣٤

اول ملوك العائلة الحادية عشرة "امنتف عا" لم يكن من ذوي العصبية الملكية انما كان من عمَّال ملوك اهناس المدينة في الوجه القبلي . على انه كان مهابًا لسطوته وعلو همته . بنى هرمًا من الطين في الجهة المعروفة بذراع ابي النجاء بمديرية قنا وجعل في وسطهِ ضريحًا متقنًا دُفِنت فيهِ جثتهُ في تابوت غطاؤهُ مطليٌّ بالذهب استخرجهُ اهل تلك الناحية وذهبوا بهِ فلما توفى قام ابنهُ « منتوحتب » فجعل نفسهُ من مصاف الملوك وليس لهُ من الآثار ما يذكر بهِ

ومن ملوك هذه العائلة ايضًا « انتف الرابع » تمكن بحكمتهِ وبطشهِ من الاستيلاء على الوجه القبلي رغمًا عن ملوك اهناس واستقلَّ بالحكم عليهِ وعلى اسيا الشمالية وقد قال « اني استوليت على الوجه البحري » ولا حجة لقولهِ . ومن مآثرهِ انهُ جدَّد بنايات رفيعة العماد في جهة قنط استعملت

انقاضها في هذه الايام لبناء قنطرة . ولما مات دفن في ذراع ابي النجا . وقد وجدوا من اثاره مسلّة بالقرب من العرابة المدفونة

وتولى بعده « منتوحتب الرابع » ولقب « بنخروع » وهذا بالحقيقة نزع الوجه البحري من ملوك اهناس وما زال يقاتلهم حتى استقلّ بالملك جميعهِ فكل من حكم قبل هذا من هذه العائلة لم يكونوا ملوكًا مستقلين

وتولى بعده «سنخ كارع» ومن عظيم اعمالهِ انهُ أنفذ «حنّو» احد رجالهِ فاتمّ الطريق الموصلة بين مصر وبلاد العرب التي شرع فيها مريرع المتقدم ذكرهُ جعل فيها خمس محطات فيها عيون من الماء فيتمّ بها التواصل مع بلاد العرب والهند . وكانت تسلكها القوافل قادمةً بالبضائع والسلع من بلاد الهند وشبه جزيرة العرب وما زالت هذه الطريق كذلك الى عصر اليونان فالروم كما سيجيء

ومن خصائص ملوك هذه العائلة انهم كانوا يرسمون فوق توابيت موتاهم اشكالاً مجنحة يلونونها بالوان مختلفة زعمًا منهم ان احدى معبوداتهم «ايزيس» كانت ترفّ على اخيها «اوزيرس» ناشرة جناحيها حنوًّا ومعظم اثار هذه العائلة في ذراع ابي النجا لا يزال محجوبًا

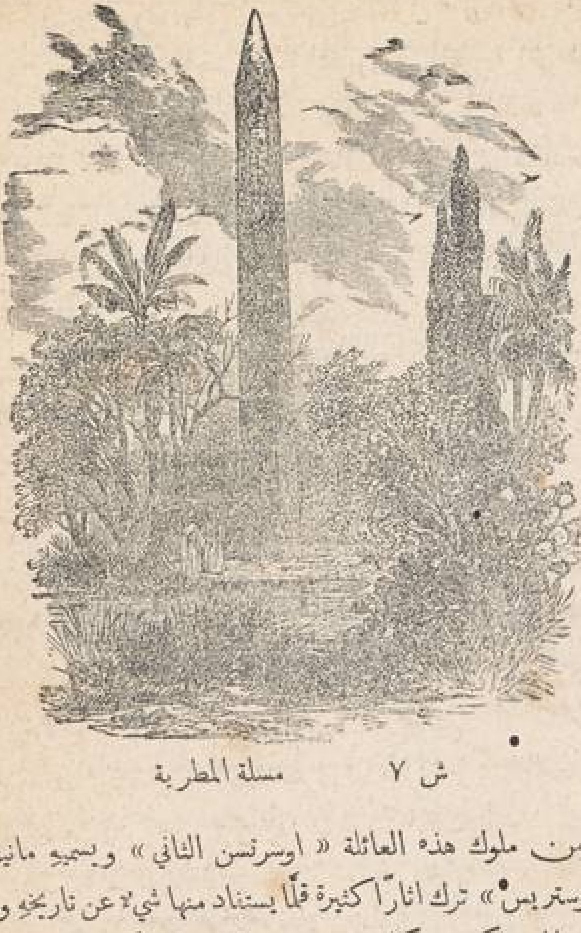
اما العائلة الثانية عشرة فابتدأت بدور جديد . فقد كانت مصر قبلها منقسمة غالبًا الى حكومات متعددة في وقت واحد اما في ايامهم فانضمت جميعها تحت لواء واحد قاعدتهُ مدينة طيبة

اول ملوك هذه العائلة « امنمحعت الاوّل » كان من اتباع الملك منتوحتب الثالث ويسميهِ مانيثون « امنميس » فلما استتبّ لهُ الملك قاتل الذين كانوا يكدرون صفو راحة مصر وهم عصب من اهالي ليبيا والنوبة واسيا تجمعوا لقتالهِ حول قلعة تانوي غربي منف فحاربهم حتى انتصر عليهم وطردهم واستولى على منف . وكان عاقلاً حكيمًا وشجاعًا مدربًا استخرج المعادن من بلاد النوبة واخضع عدة اقاليم من بلاد الزنوج وغيرها

وقبل وفاته ولّى ابنهُ «اوسرتسن الاول» ويدعوهُ مانيثون «سيسونخوسيس» وهو صاحب المسلّة المشهورة في المطرية التي طولها عشرون مترًا وبعض المتر نصبها امام هيكل الشمس المدعو «اتوم» اجلالاً لذلك الهيكل ومعبودهِ ونصب بجانبها مسلّة اخرى شاهدها عبد اللطيف البغدادي وقد فقدت ولم يبقَ لها اثر الان. اما الاولى فلا تزال باقية منقوشًا عليها بالقلم المصري القديم ما ترجمته ملخصًا «ان الملك المنصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلي والبحري (خبر كارع) صاحب التاجين وسلالة الشمس (اوسرتسن) المحب لمعبودات المطرية دام بقاه قد نصب هذا الاثر في مبدأ العيد الرسمي تخليدًا لذكرهِ واحياء لهذا العيد» انظر الشكل السابع

فاذا زرت قرية المطرية الان ووقفت بجانب مسلّتها ترى حولك بقعة من الارض فيها بعض الزرع طولها ٤٥٦٠ قدمًا بعرض ٢٥٦٠ محاطة بتلال متلاصقة كانها سور من تراب. يقول ماريت ان هذه البقعة ليست مساحة المدينة وانما هي مساحة الحوش الكبير الذي كان امام هيكل الشمس وجاء على ذلك بادلة تقرب من الصواب

ونصب اوسرتسن ايضًا مسلّة اخرى فيما يحاذي قرية بجيج بجهة الفيوم وقد ظنّ بعض المورخين مستنتجًا من سياق حكاية كتبها احد معاصري هذا الملك انهُ الفرعون الذي حصلت في ايامهِ المجاعة على عهد يوسف بن يعقوب غير ان الجمهور على خلاف ذلك لعدم مطابقة الزمن بين ما هو في العهد القديم وهذا التاريخ. ويقال بالاجمال ان هذا الملك يُعدُّ من اول المؤسسين لهيكل طيبة «الاقصر» وقبل وفاتهِ امر مهندسهُ الخاص ان يبني لهُ مقبرة فبناها وجعل في داخلها عدة غرف اقامها على اعمدة وجعل فيها حوضًا متصلاً بالنيل وصنع لها ابوابًا ومسلات وجهة من حجر طرا الابيض.



ش ٧ مسلة المطرية

ومن ملوك هذه العائلة « اوسرتسن الثاني » ويسميهِ مانيثون « سيزوستريس » ترك اثاراً كثيرة قلَّما يستفاد منها شيءٌ عن تاريخهِ وغاية ما عُلم منها ان مملكة مصر كانت في عصرهِ محافظة على شوكتها متسعة النطاق

ومن ملوكها ايضاً « اوسرتسن الثالث » وكان رجلاً حازماً مقداماً واشتهر بهذه الصفات فارتفعت منزلتهُ في قلوب الاهلين فعبدوهُ ومن اعمالهِ انهُ جرَّد على السودان (اثيوبيا) وما وراءها لتوسيع نطاق مملكتهِ. وشاد في وادي حلفا قلاعاً منها قلعتان تعرفان الان « بقمنة » و « سمنة »

لمنع الاعداء من مصر لا تزال تشاهد في اطلالها الجدران الشامخة والبروج العالية والخنادق وكان في داخلها معابد وعدة مساكن دُمرت الآن

وقد وجد الباحثون حجرين كانا منصوبين على حدود مصر الجنوبية . ذلك ما فُهم مما هو مكتوب عليهما . وبعد وفاة هذا الملك بخمسة عشر قرناً اي في عصر العائلة الثامنة عشرة شاد «تحوتمس الثالث» معبداً في سمنة وكتب عليهِ ابتهالات كان يتلوها المصريون في ذلك الحين . ولهذا الملك هرم في دهشور

ومن ملوك هذه العائلة «امنمحعت الثالث» ولهذا الملك يد بيضاء في امر النيل وفيضانهِ في اقليم الفيوم . وذلك ان للنيل كما لا يخفى ارتفاعاً معلوماً اذا بلغهُ كان غيثاً وحياةً لارض مصر واذا زاد عنهُ كان ضربةً ودماراً فتسقط الجسور وتغرق البيوت . واذا نقص لا يكون مياههُ كافيةً للريّ فيخشى من المجاعة . فلما علم هذا الملك بذلك همَّ الى تدارك الامر . فرأى في الصحراء الغربيّة من مصر بادية شاسعة الاطراف يمكن غرسها واستغلالها تعرف الان بوادي الفيوم يفصلها عن وادي النيل الاصلي برزخ قليل الارتفاع . وفي وسط تلك البادية بقعة من الارض تكاد لا تزيد ارتفاعاً عن اراضي وادي النيل تبلغ مساحتها عشرة ملايين من الامتار المربّعة . وبجانبهِ الغربي ارض منخفضة ذات اتساع عظيم تغمرها مياه البحيرة الطبيعية المعروفة الآن ببركة قارون «او القرون» طولها يزيد عن عشرة فراسخ . فامر بحفر ترعتين توصلان النيل بتلك البقعة احداهما كانت تبتدئ من النيل بجانبهِ الغربي وتجري بمحاذاة بحر يوسف الحالي . والاخرى كانت تجري شمالاً . وهاتان الترعتان تلتقيان وتصبّان في تلك البقعة الفسيحة وجعل عند ملتقاهما قناطر بحواجز تُسدّ وتُفتح حسب اللزوم . فكانت تلك البقعة بصفة حوضٍ عظيم تجتمع فيهِ مياه النيل عند فيضانه عُرفت ببركة موربس

فان كانت زيادة النيل اقلّ من احتياج الارض انصرف اليها من مياهه ما يسدُّ احتياجها. واذا كانت اكثر من الحاجة صُرف ما يزيد الى ذلك الحوض فان طفح ماؤهُ انصرف الى بحيرة قارون بواسطة حواجز تُسدُّ وتفتح على قدر الحاجة. وكانت الحكومة في كل سنة قبل ارتفاع النيل تنتدب من يسير الى النوبة لاستكشاف مقدار زيادتهِ في جهة سمنة وقمنة وفي تلك الجهات الآن كتابات هيروغليفية تشير الى شيء من ذلك

وكان في وسط بركة موريس هرمان في كلٍّ منها تمثال. واصل كلمة موريس «مري» ومعناها في اللغة المصرية بحيرة وليس كما زعم اليونانيون من انها دُعيت بذلك نسبةً الى اسم احد الفراعنة. واصل كلمة الفيوم "پايوم" ومؤداها باللغة المصرية بلد البحر

والى شرقي بحيرة موريس بناء هائل يعرف باسم «لابرانتا» واسمهُ بالمصرية «لابوراحونت» اي معبد فم البحر بناهُ هذا الملك لاجتماع مجلس الاعيان من الكهنة. وفي هذا البناء رحبات الى كلٍّ من الجانبين فيها من الغرف نحوٌ من ثلاثة الاف غرفة. ويحيط بالبناء من الخارج سورٌ عليهِ نقوش

اما بركة موريس فقد جفّت ولم يعد لها أثر الآن. اما موقعها فقد اختلف المهندسون في حقيقتهِ ومن رأي المستر كوب وايتهوس انهُ واقع في وادٍ وسيع الى جنوبي بركة قارون بعرض ٠ْ ٤٠َ ٤٨ً و ٣٠َ ٢٩ْ شمالاً وهو المعروف الآن بوادي الريّان. وقد اقترح المستر وايتهوس مؤخرًا على الحكومة المصرية ان تتخذ هذا الوادي مذخرًا لماء النيل كما كان قديمًا

وامتدت حدود مملكة هذه العائلة الى بلاد النوبة وكان بينها وبين ليبيا الشمالية وآسيا علاقاتٌ تجارية محورها ما بين بني سويف واهناس المدينة. وبسبب هذه العلاقات تعلم المصريون من الليبيين علم الرياضة الجسديَّة (الجمناز) اما صناعة البناء في ايام هذه العائلة فقد

كانت من الاتقان والتفنن على غاية حتى قيل ان معظم الاعمدة الحلزونية الشكل في الآثار المصرية انما هي من مصنوعات هذه العائلة

العائلة الثالثة عشرة الطيبية

حكمت من سنة ٣٤٧٢ ـ ٣٠٢٠ ق ه او من ٢٨٥١ ـ ٢٣٩٨ ق م وعدد ملوكها ٨٧

من ملوك هذه العائلة «سبك حُتب الثالث» له آثار كتابية على صخور شامخة صعبة التسلُّق عند ضفّة النيل بقرب سمنة مفادها ان ماء النيل بلغ هذا الارتفاع في السنة الثالثة من حكم الملك سبك حتب الثالث واوطأ جزء من هذه الكتابة يعلو اعلى نقطة يبلغها النهل عند ارتفاعه في هذه الايام بنحو سبعة امتار. وذلك من الادلّة على انّ النيل كان اكثر ارتفاعاً في الاعصر الخالية منه في هذه الايام بما يستحق الاعتبار. وهذه العائلة على كثرة عدد ملوكها قلّ ما يعرف عنها ويظن ماريت ان اكثر آثارها مردوم في اسيوط

العائلة الرابعة عشرة السخاوية

حكمت من سنة ٣٠٢٠ ـ ٢٨٢٦ ق ه او من ٢٣٩٨ ـ ٢٢١٤ ق م وعدد ملوكها ٧٥

بسقوط العائلة الثالثة عشرة سقطت طيبة بعد ان كانت سريراً للدول المصرية نحواً من سبعمائة سنة. على ان ملوك العائلتين الثانية عشرة والثالثة عشرة لم يكونوا في اهتمام لحفظ رونقها وافضليتها على سائر القطر المصري وانّما صرفوا اهتمامهم في تعمير الدلتا ورفع شأنه فزهت

منديس وسايس وبوباسنس وعلى الخصوص تانس ولكنهم مع ذلك لم يتخذوا غير طيبة سريرًا لملكهم. اما العائلة الرابعة عشرة فجعلت عاصمتها في الوجه البحري في مدينةٍ كانت تدعى خُبس (سخا) في منتصف الدلتا. لا يعلم عن ملوك هذه العائلة ما يستحق الذكر سوى ان اسماءهم وُجدت مكتوبة على صفيحةٍ من البابيروس (البُردي) حُفظت في متحف تورين

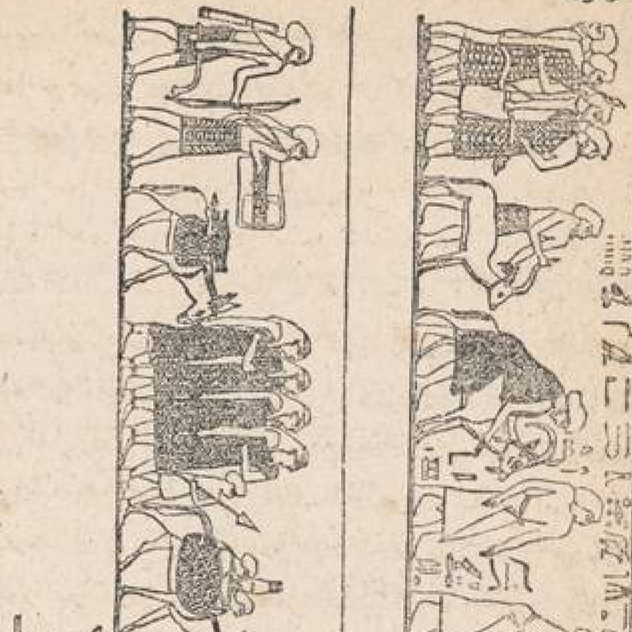
العائلات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة (الرعاة)

حكمت من سنة ٢٨٣٦–٢٢٢٥ ق م او من ٢٢١٤–١٧٠٣ ق م

فالعائلة الخامسة عشرة مؤلفة من ملوك الرعاة الذين افتتحوا مصر واتخذوا «اواريس» سريرًا لملكهم وكان معظم سلطتهم في الوجه البحري. اما القبلي فكان محكمة بعض الملوك الوطنيين. اما منشأ ملوك الرعاة ويدعوهم اليونانيون «هيكسوس» فقد اختلف المؤرخون في حقيقته والأظهر انهم اخلاط من العرب واهل الشام واكثرهم من الحثيين. ومما يؤيد ذلك ان اكبر قبيلة منهم حكمت في مصر كانت تُدعى باللغة المصرية القديمة «خيتا» والعرب يسمونهم العمالقة ويقال انهم جاؤا مصر من جنوبي اسيا فناجأوا المصريين في الوجه البحري وافتتحوا بلادهم وتقاطروا اليها افواجًا حتى انتشروا فيها كالجراد. وجعلوا يعيثون استبدادًا فاحرقوا المعابد ونهبوا ما فيها. واتخذوا منف قاعدةً لحكمهم ففرَّ الملوك المصريون الى الصعيد

واول من ملك من العمالقة «سلاطيس» شاد قلاعًا حصينةً في اماكن مختلفة وجعل في السويس جندًا عظيمًا خيفة ان يهاجمه كنعانيو الشام والعراقيون. وفي ايامهِ تقاطر اهل اسيا الى مصر أسرابًا يطلبون ملجأً ورزقًا فبنى لهم في اواريس معسكرًا عظيمًا يسع نحوًا من مائتين واربعين

الّا وجعل حوله خندقاً ورتّب لهم ارزاقاً فصاروا له اعواناً فهاجمه المصريون



شكل ٧ مهاجري آسيا

ثم تداول خلفاؤهُ على سرير الملك الواحد بعد الآخر . وعددهم ستة ومدة حكمهم جميعاً مائتان وستون سنة وقد كانوا في اول امرهم مستبدين يسومون المصريين شرّ المعاملة ولا يستخدمون في مصالح حكومتهم الا الاجانب من ابناء جلدتهم . لكنهم في آخر الامر قرّبوا الوطنيين منهم واستخدموهم في مصالح الدولة وصرفوا اهتمامهم في احياء البلاد وتجديد ثروتها فبنوا المدارس والمعابد ودانوا بديانة اهل مصر . فخضع لهم الوجه القبلي فاصبحت مصر جميعها في ايديهم . ثم خلفتهم دولة الرعاة الثانية وهي العائلة السادسة عشرة وعدد ملوكها اثنان وثلاثون لم يُعرف منهم الا ملك واحد يدعوهُ المصريون «ابابي اعا كنن» والعرب يدعونهُ «الريّان ابن الوليد» ومانيثون يدعوهُ «ابوفيس» . وفي ايامهِ نزح كثيرون من أهل الشام الى مصر واستوطنوها لكنهم حافظوا على لغتهم ولم يبدلوها . وفي ايامهِ ايضاً وفدت السيارة الذين باعوا يوسف بن يعقوب الى قطفير وزير مصر الذي يُدعى بلغة مصر القديمة «بدفير» اي هديّة الشمس وقصتهُ مشهورة . وقد وُجدت في الآثار حكاية استنتج منها بعضهم ما يؤيّد قصة المجاعة التي حصلت في ايام يوسف والله اعلم

واما العائلة السابعة عشرة فكانت مصر في ايامها تحت حكومتين وطنية بيد المصريين واجنبية بيد الرعاة . وبلغ عدد ملوك كلّ من الحكومتين نحواً من ٤٢ ملكاً قلّما يعرف عنهم وكانت قاعدة مملكة الرعاة «صان» والوطنيين «طيبة» . وغاية ما يقال في هذه العائلة انها لم تنتهِ حتى انتهى معها حكم الرعاة وبانقضائهِ انقضت الدولة الملكية الوسطى

الدولة الملكية الاخيرة

حكمت من ٣٣٢٥ الى ٩٥٤ ق م وعدد عائلاتها ١٤

العائلة الثامنة عشرة الطيبية

حكمت من سنة ٣٣٢٥ ـ ٣٠٨٤ ق م او من ١٧٠٣ ـ ١٤٦٢ ق م وعدد ملوكها ١٤ ولهذه العائلة شأن عظيم في تاريخ مصر القديم لان البلاد في ايامها نشطت وامتدت سطوتها الى انحاء بعيدة

اوّل ملوكها «احمس» ويسميه مانيثون «اموزيس» تزوّج بابنة ملك اثيوبيا وتحالف معهُ على طرد بقية العمالقة من مصر . وكانوا متحصنين في قلعة اواريس برًّا وبحرًا فحاصرهم ثم طردهم منها . وما زال يتتبعهم بجنوده حتى نهر الفرات فتخلصت مصر منهم بعد ان استبدوا فيها مدة ستماية سنة . وبقيت منهم بقيةٌ رضخت لاحكامهِ قهرًا . وما لبث ان عاد من هذه المحاربة حتى عصت اهل النوبة فجرَّد اليها وظهر عليها اما الاثيوبيون فدخلوا في طاعتهِ بغير حرب وامتدت سلطتهُ الى البحر المتوسط . وفي السنة الثانية والعشرين من حكمهِ استعمل العمالقة لقطع الحجارة من محاجر طره لتجديد معبد «فتاح» في منف ومعبد «امون» في الكرنك ولانشاء معابدَ اخرى وقد وُجدت جثة هذا الملك في الدير البحري بجبل القرنة وهي الآن في متحف بولاق

ومن ملوكها «امنحتب الاول» ويسميه مانيثون «امنوفيس» كان ملكًا عادلاً مسالمًا تزوّج بابنة ملك اثيوبيا وجثتها في متحف بولاق الان

ومن ملوكها ايضاً "تحوتمس الاول" رغب في توسيع دائرة ملكهِ فجعل يحارب جنوباً وشمالاً فامتدت سلطتهُ الى محاجر مدينة "انبو" في وسط النوبة ويُستدل على ذلك بوجود اسمهِ منقوشاً على حجر هناك. وقد وُجدت نقوش اخرى في جهات اصوان تشير الى شيء من ذلك. وامتدت مملكة مصر في ايامهِ جنوباً الى جبل "ابته" في الحبشة. وشمالاً الى اقصى اسيا المعمورة من ضمنها فلسطين وبابل وغيرها. اما معظم ثروة بلادهِ فكانت من اثيوبيا التي كانت تأتي منها البضائع مشحونة في مراكب النيل الى مصر وفيها الحيوان والحب والجلد والعاج والخشب والحجارة الكريمة والمعادن كالذهب وغيرهِ ويقال ان اسم النوبة مأخوذ من "نب" اي ذهب. ومن آثارهِ انهُ شاد معبد امون في الكرنك ومسلتين احداهما لا تزال الى الان عند باب المعبد المذكور اما الثانية فقد ذهبت بها يد الزمان.

ومنهم الملكة «حتشبو» ويسميها مانيثون «مفرس» ساست الاحكام بتدبير وحزم ورسمت صورتها على الآثار بهيئة رجل ذي لحيةٍ ملوكيةٍ مهيبة. وقد سعت هذه الملكة الى نشر سطوتها ففتحت بلاد «بون» جنوبي بلاد العرب فكانت فيئاً للتجارة. وكانت تأتي منها بالخشب والعطريات والصمغ والذهب والفضة والحجارة الكريمة وغير ذلك من لوازم بناء الهياكل. ومن آثار هذه الملكة مسلتان نصبتهما في الكرنك لم تزل احداهما قائمةً الى هذه الغاية عليها كتابةٌ بالقلم المصري القديم تفيد انها اقامت هاتين المسلتين تذكاراً لوالدها. وكان على قمة كل منهما اكليلٌ هرميّ الشكل مصنوع من الذهب المغتنم من الاعداء. والمسلّة الواحدة قطعة واحدة مقطوعة من محاجر اصوان استغرق عملها معاً اربعة عشر شهراً وارتفاع كل منهما ثلاثون متراً

ومن ملوك هذه العائلة «تحوتمس الثالث» وهو شقيق الملكة المتقدم

ذكرها . لم يمكنهُ الملك الاَّ بعد وفاتها ولم يكن راضياً بحكمها الاَّ رغماً عنهُ فلمَّا تولَّى محا اسمها من اكثر الاماكن التي ذكرت فيها انتصاراتها وكتب اسمهُ مكانهُ لتُنسب تلك الانتصارات اليهِ



ش ٩ رأس تحوتمس الثالث

وفي ايامهِ استقلَّت اسيا من سلطة المصريين الاَّ غزَّة وضواحيها . ثم ظهر التمرد في الشام فثار اهلها وحرَّضوا سكان شمالي سوريا على مثل ما فعلوا . فقاتلهم وظهر عليهم وسلبهم مدينة حلب ومدناً اخرى ثم سار الى الفرات فاخضع العراق والجزيرة وبعد انتصارهِ أراد اكرام جيشهِ فصرح لهم ان يصطادوا من حيوانات تلك البلاد ما شاؤوا . وكان في جملة صيدهم مائة وعشرون فيلاً فعاد الى مصر ظافراً . ثم لم يمضِ يسير حتى عادت اسيا الشمالية الى الثورة فشقَّت عصا الطاعة وتمرد اهلها وتابعهم اهل الجزيرة . فعاد الى قتالهم وما زال حتى استظهر عليهم وعاد الى مصر ثم خرج عليهِ الزنج والعبيد من النيل الاعلى فحاربهم ونهب بلادهم وهدم مساكنهم وحرقها وقادهم اسرى الى مصر . (انظر ش ١٠) ويقال بالاجمال ان اكثر ايام هذا الملك كانت حروباً وشدائد ولذلك لقبوهُ بالسلطان الأكبر . وفي متحف بولاق حجرحيٌّ بهِ

من الكرنك عليه من الأعلى صورة الملك المذكور كأنه يقرّب القرابين لبعض الآلهة وهم وقوف بين يديه وتحت ذلك كتابة هيروغليفية بين نثرٍ ونظمٍ كُتبت عن لسان أمون إله طيبة يخاطب بها الملك بما يشبه المدح والتنشيط

وكان في حوزته عند وفاته الحبشة والنوبة والسودان والشام والجزيرة والعراق العربي وكردستان وارمينيا وقبرس. اما جثته فتشاهد في دار التحف المصرية في بولاق. ومن آثار تحوتمس الثالث مسلتان اقامها



ش ١٠ زنوج مكتّفون

في المطرية حتى اذا كانت ايام الملكة كليوبطرا نقلتا الى الاسكندرية وجُعلتا امام هيكل القيصر وعُرفتا بعد ذلك بمسلتي كليوبطرا وعليهما كتابة هيروغليفية كثيرة بينها اسماء تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني وسيتي الثاني ولا وجود لاسم كليوبطرا عليهما. وفي سنة ١٨٧٧ ب م نقلت احداهما الى لندرا واقيمت على ضفاف التيمس ثم نقلت المسلة الاخرى الى اميركا بعد حين

ومن ملوكها الملك «امنوفيس الثاني» استلم زمام الاحكام وسلطة مصر منتشرة في اقاصي الارض فاجتهد في حفظها الا ان اشور نظرًا لبعدها من مصر ثارت واستمالت اليها ما حولها من المدن فجهّز اليها امنوفيس وما زال

يحاربها ومن تابعها نحواً من سنتين كان يتردد اثناءهما بين العراق والجزيرة وأكاد. واخيراً عاد الى مصر بحراً غانماً ظافراً. وفي جملة ما جاء به من الغنائم سبع جثث ممن قتلهم في تلك الحملة فعلّق ستاً منها على سور طيبة. ولهذا الملك رسمٌ منقوش على مقبرة في القرنة هو فيه على هيئة ملكٍ عظيم الشأن جالس على كرسي قد نُقش على قاعدته اسماء البلاد الخاضعة لهُ

ومن ملوكها ايضاً الملك «تحوتمس الرابع» ومن اعماله اعادة عبادة الشمس الى مصر. فكرّم ابا الهول المرموز به عنها. ومن بزر هذا التمثال العظيم في الجيزة يرَ في صدره لوحاً ارتفاعهُ اربع عشرة قدماً انكليزية في اعلاهُ الى اليمين رسم هذا الملك يقدم العبادة لابي الهول والى اليسار رسم الشمس. ويلي ذلك نقوش كتابية تفيد ان ذلك الملك لم يُبقِ شيئاً في تحسين مدينتي منف والمطرية واعطاء المرتبات المقررة للمعابد او لانشاء الهياكل والتماثيل والمعبودات وكان ملكاً قوياً مهاباً

ومن ملوكها ايضاً «امنوفيس الثالث» لما تولّى الاحكام كانت حدود مملكة مصر ممتدةً شمالاً الى نهر الفرات وجنوباً الى جلّة ولكثرة شهرته في الاقطار الغربيّة دعاهُ اليونان بالممنون. ولهُ تمثال عظيم في طيبة مشهورٌ بهذا الاسم. وقد كثرت في ايامه القلاقل والفتن فسعى الى اخمادها بعزم ونشاط وكان ذا وقار ومهابة وفي الحروب باسلاً مقداماً. كل ذلك تراهُ مكتوباً نقشاً على تاج هيكل الاقصر لانهُ جدد فيه قسماً عظيماً. وكان يُلقب نفسهُ بسلطان البرّين وامير العالمَين (يريد عالمَي اسيا وافريقيا) وكان حسن السياسة فزادت مصر في ايامه سطوة ومملكتها اتساعاً

ومن آثاره هيكل في «نبته» جعل في الطريق الى بابه صفّين من الكباش الرافدة على مثال ابي الهول وحسّن معبد تحوتمس الثالث في سولبن بين الشلال الثاني والثالث وشاد هيكلاً غربي الكرنك خدمةً للمعبود أمون. وهناك اصلاحات اخرى اجراها في هياكل ومعبودات اصوان

وجزيرتها وجبل السلسلة وغيرها . وانشأ على ضفة النيل الغربية تجاه الأُقصر معبدًا طالما كان من اعظم الآثار القديمة اما الآن فقد اصبح خرابًا لاسباب لا نعلمها الّا صنمين كبيرين كانا على بابهِ ولا يزالان قائمين رغمًا عن مصادمة الايام ويعرفان بشامة وطامة وكل منهما تمثال امنوفيس الثالث كما ترى في الشكل الحادي عشر . وبقيا الى سنة ٥٩٥ قبل الهجرة ولم ينتبه اليهما حتى حصلت زلزلة اسقطت جزء احدهما الأعلى وبقيت قاعدته في مكانها فلوحظ ان هذه القاعدة اذا سقط عليها الندى ثم اشرقت عليها الشمس اخرجت صوتًا يستمر مدةً فجعلوا يقولون في شأنهِ اقوالاً شتى اكثرها مبنيٌّ على الوهم والخرافات . ثم اهتم القوم باعادة الجزء الساقط الى قاعدتهِ فاعادوهُ وملّطوا مكان الالتحام جيدًا فلم يعد يسمع لهُ صوتٌ فعلموا ان ذلك الصوت كان يحدث من تأثير اشعة الشمس على نقط الندى بعد تخللها جسم ذلك الحجر



ش ١١ امنوفيس الثالث

ومن ملوكها ايضًا الملك « امنوفيس الرابع » رغب في عبادة الشمس فابتنى في محل تل العمارنة على مقربة من المنيا مدينة جديدة جعلها سريرًا لملكهِ بدلاً من طيبة ونقل اليها معبود قرص الشمس وسماه (أتنْ) على مثال اله اليهود (ادوناي) اقامهُ في معبد ابتناهُ من اجلهِ . وقد نقبوا مؤخرًا اطلال تلك المدينة فوجدوا بينها بقية ذلك المعبد على دهليزين وستة اعمدة مدرّجة الوضع يظهر انها كانت منصوبةً في صحنهِ وشاهدوا على جدرانهِ رسم الشمس مشرقة على الملك ورجالهِ وهم وقوف يقربون القرابين اليها وبين اشعتها ايدٍ ممتدةٌ كأنها تنثر الحياة على المخلوقات وحول هذه الرسوم ادعيةٌ وقصائدُ كان يتلوها المرتلون على نغمات الاوتار . وعلى

جدران الهيكل ايضاً رسم هذا الملك ورجالهِ على هيئة غير مصرية . ويشاهد ايضاً في مقبرةٍ بتل العمادنة نقوش بينها صورة الملك واقفاً على عربتهِ الحربية وبجانبهِ بناتهُ السبع بقاتلن معهُ ولهُ آثار في سوليب وهيكل ومسلّة بمدينة طيبة .

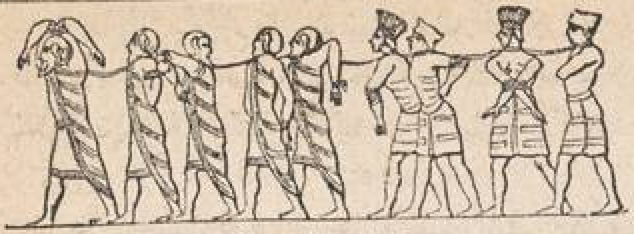
ومن ملوكها ايضاً الملك « حور محب » وهو من اقارب « امنوفيس الرابع » ثارت عليهِ الرعية عند اول حكمهِ فارضاهم بمحو عبادة الشمس وهدم معبدها والمدينة جميعها واعادة الديانة المصرية القديمة . ولما خمدت الثورة بنى الوجهة الرابعة من معبد الكرنك . وفي ايامهِ خرجت اسيا من سلطة المصريين وما زالت كذلك الى ان جاءت العائلة التاسعة عشرة

العائلة التاسعة عشرة الطيبية

حكمت من سنة ٢٠٨٤ ــ ١٩١٠ ق ه او من ١٤٦٢ ــ ١٢٨٨ ق م وعدد ملوكها ٨

اول ملوكها « رعمسيس الاول » ولم يتحقق حتى الآن انهُ كان مصريّ المولد او اسيويّهُ تبوأ كرسي الملك شيخاً وكانت المملكة المصرية تئنّ لخروج معظم ايالاتها من طاعتها على أثر الحرب الدينية فجدّد شبابهُ ونهض للجهاد فحارب الاثيوبيين والحثّيين وكانوا امّةً عظيمةً تحتها عدة طوائف قد تحالفوا معاً على قتال المصريين . ويقال ان هذا الملك هو أول من ناهض الحثّيين واخترق بلادهم وجال في اصقاعهم حتى ضفاف نهر العاص

وخلفهُ ابنهُ « سيتي الاول » فسعى سعياً حميداً لتوسيع مملكتهِ فغزا بعضاً من بلاد اسيا الغربيّة . ذلك ما يستفاد مما كُتب على هيكل الكرنك



ش ١٢ اسرى الحثيين

فغزا غزوات عديدة الى الشام والعراق وغيرها ففتح بلادًا تمتد من جنوبي الشام الى ارمينيا . وقد كانت قبلاً لا يطلب منها الا جزية تدفعها وحكامها من ابنائها . اما هذه المرة فادخل اهلها في طاعتهِ وجعل عليهم حكامًا من امرائهِ واحاطهم بنقط حصينة كغزة وعسقلان جعل فيها حاميات من رجالهِ فأمِن طغيانهم الّا ما جاور الفرات فانهُ عجز عن ابقائهِ في حوزتهِ وعصتهُ الجزيرة والعراق ولم يعد قادرًا على مقاومتها فوقف عند حدهِ ولذلك كانت فتوحاتهُ كبيرة في الظاهر حقيرة في الباطن . ولما عاد من تلك المحاربات جعل يمكن العلاقات مع ايالاتهِ بواسطة النقط العسكرية التي كان قد جعلها فيها فزاد الارتباط بين المصريين والامم المتحابة ولا سيما الكنعانيين فادخل المصريون معبود الكنعانيين (بعلا) في عداد معبوداتهم ومثلوهُ بالشمس وكان لهذا المعبود زوجة اسمها (استارته) مثلوها بالقمر واتخذوا من اسيا ايضًا آلهة اخرى

ومن آثار هذا الملك هيكل في القرنة واخر في رداسية واخر في العرابة المدفونة وقد نحت اعمدة كثيرة اقامها في النوبة وحجرًا جعلهُ في اصوان . وفتح ترعة بين النيل والبحر الاحمر تبتدئ من تل بسطة وتجري شرقًا في وادي الطملات الى ان تصب في البحيرات المرة وهي خط دفاع شرقي مصر وشاد محرابًا في القرنة وفتح طريقًا للقافلة بين قرية رداسية باقليم اسنا ومعدن الذهب بجبل اتوكي حيث اصطنع عينًا صناعية بتفجر

منها المياه غزيرًا . واصلح الغار الذي في بني حسان للمعبودة « بشت » ويعرف الان بغار "اسبيدس" واخيرًا بنى لنفسهِ ضريحًا في بيبان الملوك يعجب لهُ كل من عاينهُ لدقة صنعهِ ولما فيهِ من المناظر الفلكية البديعة

ومن ملوك هذه العائلة « رعمسيس الثاني » المشهور باسم « سيزوستريس » ويقال لهُ « رعمسيس الاكبر » لانهُ في الواقع اعظم واشدّ من ملك مصر حكمةً وبطشًا . حكم مدة طويلة كلها فتوحات وحروب ومبانٍ ونقوش فلا يكاد يوجد اثر من الآثار المصرية القديمة الّا وعليهِ اسمهُ ورسمهُ . وُلّي الملك صغيرًا فشبَّ معتادًا على الاعمال السياسية وكان متوقد الذهن وفيهِ فطنة ونباهة منذ حداثتهِ . ولما توفي والدهُ قام باعباء الملك بنفسهِ فاخذ في توسيع نطاقهِ بالفتوحات . واوّل غارة شنّها كانت على الشام فسار بجيشهِ وما بلغ نهر الكلب بقرب بيروت حتى خمدت الفتنة فعاد الى مصر تاركًا اثرًا منقوشًا على صخرٍ هناك . وفي السنة الرابعة من حكمهِ ثار عليهِ سكان شمالي اسيا وهم الحثيون وكاتي وكركاميش وكوش وكانوا اقوامًا من الشجاعة على جانب عظيم فانضموا لمحاربتهِ وساروا جميعًا حتى وادي الارونط بقرب حدود مصر في ذلك العهد . فبلغ رعمسيس خبرهم فجمع اليهِ امراءَهُ ورجال دولتهِ وقوّادهُ وجنودهُ وسار في مقدمتهم وما زالوا يخترقون سوريا حتى اتوا نهر العاص قرب مدينة قادس . فاذا هي على جانب من المنعة ففرّق رجالهُ فرقًا في نقطٍ معينةٍ ثم سار في حاشيتهِ منفردًا فلقيهُ جواسيس الحثيين فاغروهُ على التقدم نحو المدينة فسار في حاشيتهِ تاركًا جيشهُ في اماكنهم فلما اقترب من المدينة علم انها دسيسة اوقع فيها فالتفت واذا بمركبات الحثيين حولهُ لا عداد لها فلما رأى ذلك رجال حاشيتهِ طلبوا النجاة بانفسهم وبقي رعمسيس وحدهُ فاستنجد الههُ وهاجم الحثيين بمفردهِ على مركبتهِ ففرّقهم وفاز بهم وبعد يسير عاد اليهِ رجال حاشيتهِ وقد كادوا يذوبون خجلًا لما كان من فرارهم اما هو فاكتفى بتوبيخهم



ش ١٢ رعمسيس الثاني يقاتل الحثيين

ثم اجتمع بجيشهِ ثانيةً وهاجم العدو فهزمهم وانتهى الامر بعقد معاهدة بينهُ وبينهم ثم هم بالجلاء من اسيا . وبينما هو في طريقهِ الى مصر ثار عليهِ الكنعانيون وانضمَّ اليهم الحثيون ناقضين العهد وثار غيرهم معهم فاصبح جميع من قطن ما بين ضفاف الفرات وضفاف النيل يقاتلون المصريين الاَّ اهل اسيا الصغرى فانهم هجروا أوطانهم ولم يظهروا للقتال . وما زالت هذه الحروب متواصلة يتخللها هدنات وفترات مدة خمس عشرة سنة فاستولى رعمسيس على مدينتي تابور وميروم وقلعة اورشليم وعسقلان . ثم سار شمالاً وقاتل هناك حتى أخذ من الحثيين مدينتين وُجد في احداهما الان تمثالهُ وما زالت الحرب سجالاً حتى اضطر ملك الحثيين الى المصالحة فطلبها فقبل رعمسيس وذلك في السنة الحادية والعشرين من حكمهِ فعقدوا معاهدة كُتِبت اولاً بلغة الحثيين ثم نُقشت على لوح من فضة وقدمت الى رعمسيس ومفادها ان

الحثيين يتعهدون انهم لن يعودوا بعد ذلك الى حمل السلاح ضد المصريين وعلى مثل ذلك يتعهد المصريون وان يكون الفريقان متحالفين الى الابد وجعلوا في وسط لوح الفضة وعلى جانبه الاعلى صورة تمثال (ست) معبود المصريين معانقًا تمثال (خيتا) معبود الحثيين . وما زالت هذه المعاهدة مرعيّة مدة ست واربعين سنة كانت الراحة اثناءها مستتبّة وتصاهر الملكان توطيدًا للعلاقات الودية فاصبح المصريون والحثيون قلبًا واحدًا وبعد التوقيع على المعاهدة بيسير دعا رعمسيس الثاني ملك الحثيين لزيارته الى مصر فزارهُ فاكرم مثواهُ

ولما سكنت الحروب اخذ رعمسيس في تشييد المباني فشاد في كل مدينة معبدًا وتمّم معبد القرنة في الاقصر وكان قد شرع فيه ابوهُ . ومن آثاره ايضًا هيكل بناهُ في شرقي الشيخ عبد القرنة بطيبة سماهُ شامبليون «رامسيون» منقوش فيه تفاصيل احدى وقعاته ومنها معابد في العرابة المدفونة ومنف وتل بسطة وغيرها وأسّس في الوجه البحري مُدنًا عديدة دعاها باسمه . وكان لهذا الملك العظيم في قلوب رعيته من المحبة الى حدّ الشغف وكان لهم فيه من الثقة الى حد العبادة . ولما مات دُفن في مقبرة بيبان الملوك ثم نقل الى الاقصر لاسباب غير معلومة . ثم نقل الى متحف بولاق وهو هناك الى هذه الغاية .

ومن ملوك هذه العائلة «منتاح الاول» ابن رعمسيس الثاني اتّبع خطوات ابيه فجعل يزيد في بنايات الدلتا وتحصينها ثم ثار عليه اهل اسيا الصغرى وطائفة الليبيين فانفذوا اليه بوارجهم في البحر المتوسط الى سواحل ليبيا مملوءَة بالعدة والرجال من قبائل مختلفة وما زالوا حتى اتوا السواحل المصرية ودخلوها من غربي الدلتا كل ذلك والمصريون لا يبدون حراكًا الا اذا كان للتسليم ولم يمضِ كثير حتى اصبح معظم الوجه البحري في ذمة اولئك الوافدين . فلما علم منتاحِ بذلك تجنَّد في منف وارسل فرقة من

فرسانهِ لمقابلة العدوّ ثم امر بتحصين جميع المراكز الواقعة على ضفتي فرع رشيد . فتثاقل الليبيون فانفذ اليهم فرقة شتّتهم وعاد المصريون فائزين غانمين بعد ان احرقوا معسكر العدوّ فعاد الأمن الى بلادهم . ويقال ان الاسرائيليين هاجروا مصر في ايام هذا الملك ولهم على ذلك ادلّة أعرضنا عن ذكرها لضيق المقام

العائلة العشرون الطيبية (وتسمى الرعمسيسية)

حكمت من سنة ١٩١٠ــ ١٧٣٢ ق هـ او من ١٢٨٨ــ ١١١٠ ق م وعدد ملوكها ١٢

من ملوكها « رعمسيس الثالث » وهو اخر من اشتهر من ملوك مصر القدماء وفي اول حكمهِ ثارت عليهِ اهل البداوة فتهددوا استحكامات الدلتا واهانوا العملة الذين كانوا يستخرجون المعادن من جبل الطور . وخرجت ولايات الشام من طاعتهِ وسطا الليبيون على ارضهِ فاحتلوا بعضاً من الدلتا من جهة الغرب

فلما علم رعمسيس بما كان من تلك الوقاحة سار في جيش من رجالهِ على البدو فهزمهم ثم على الليبيين فاقلعهم من محتلّهم فعادوا على اعقابهم خاسرين . فلما علم اهل اسيا الصغرى والجزائر اليونانية بما كان جرّدوا جيوشهم متحالفين على محاربة رعمسيس وما زالوا حتى أتوا الدلتا فلاقتهم الجيوش المصرية عند مصاب النيل بقلوب لا تهاب الموت وفي مقدمتهم رعمسيس الثالث غير مبالٍ بما كان حوله من الأسهم المتساقطة عليهِ من كل الانحاء . وما زالت الحرب سجالاً الى ان فاز المصريون فوزًا تامًا . ولهذه المعركة العظيمة رسم منقوش على جانب الحوش الاوّل من مباني مدينة (ابو) بطيبة . واستتبت الراحة في ديار مصر بعد ذلك نحو

سنتين ثم عاد الليبيون الى الثورة ثانية وضموا اليهم بعضاً من القبائل المجاورة لبلادهم واغاروا على مصر من غربيها فقابلهم المصريون بثبات فانتهت الحرب بنصرة المصريين كل ذلك منقوش في مدينة (ابو) بطيبة ايضاً . فاضطر الليبيون بعد المعركة الثانية الى رعاية حقوق مصر عليهم فرضخوا لها صاغرين . ثم دخل في ذمة المصريين ايضاً اهل الشام وسكان سيسليا وغيرهم من الامم المتعاهدة فاصبحت مصر دولة مهابة واسعة النطاق واستعزّ رعمسيس بالملك . الا انه لم يخلُ من بعض المتاعب الداخلية لأن اخاه ارمانيس كان يسعى اليه بدسيسة يُذهب بها حياته ولم ينجح فعلم رعمسيس بذلك فاتى باخيه ومن شاركهُ وبعد تحققهِ ارتكابهم جازى كلًّا منهم بما فعل فصفا لهُ الدهر فجعل يجدد المباني فبنى في مدينة (ابو) قصراً كبيراً نقش على جدرانه ما كان من محارباته ووسع معبد الكرنك واصلح هيكل الأقصر وغيرهُ من مباني الوجه البحري وكانت التجارة في ايامه رائجة ممتدة الاطراف

وتلا هذا الملك ملوك اخر من هذه العائلة يعرفون برعمسيس الرابع والخامس الخ ويقال بالاجمال ان سطوة مصر اخذت بالسقوط في ايامهم الواحد بعد الآخر الى ايام رعمسيس الثالث عشر وهو اخر من ملك من هذه العائلة فاذا بمصر في ايامه منكسرة الشوكة محصورة الحدود يترصدها الاعداء يريدون التهامها فكانت غنيمة لاحد كهنتها الذي يدعى (حرحور) وهو أول من ملك من العائلة الحادية والعشرين .

العائلة الحادية والعشرون الطيبية والطينية

حكمت من سنة ١٧٣٣ — ١٦٠٢ ق م اومن ١١١٠ — ٩٨٠ ق م
وعدد ملوكها ٤

اولهم الكاهن (حرحور) اختلس الحكم اختلاساً من العائلة الرعمسيسية على اسلوب دنيء منقوش على هيكل (خونسو) بطيبة ثم نفى من بقي من العائلة المذكورة الى الواحات في وسط الصحراء الكبرى

وتولى بعده ابنة الكاهن (بعنخي) وليس لهُ ما يذكر بهِ سوى انهُ تزوج بابنة ملك الشام

ثم تولى بعده ابنة الكاهن " بينوزم الاول " وفي سنة ٢٥ من حكمهِ قامت فتنة بين اهالي الوجه القبلي واهالي الوجه البحري بسبب نفي العائلة الرعمسيسية وانتهت باستدعاء اولئك المنفيين من الواحات الى طيبة

وفي ايامهِ اتى النمرود بجيشهِ من اشور متظاهراً بالدفاع عن العائلة الرعمسيسية وانما كان قصدهُ الاستيلاء على البلاد المصرية فتحققت آمالهُ واخذها عنوة وضمها الى بلادهِ ثم توفي النمرود ودفنته امهُ في العرابة المدفونة وجعلت لمدفنهِ المرتبات المعتادة وتولى بعده ابنهُ (ششنق) على مصر واشور واتخذ مدينة (تانيس) سريراً لملكهِ وسيأتي ذكرهُ في الكلام على العائلة الثانية والعشرين

العائلة الثانية والعشرون البسطية

حكمت من سنة ١٦٠٢ ـ ١٤٢٣ ق ه او من ٩٨٠ ـ ٨١٠ ق م

سميت بسطية لان قاعدة ملكها كانت في تل بسطة بالشرقية قرب الزقازيق وعدد ملوكها تسعة ومدة حكمهم ١٧٠ سنة

اول ملوكها الملك «ششنق الاول» ويدعى في التوراة شيشاق وهو سامي الاصل ابن النمرود كما تقدم . وُلد في مصر ونشأ فيها ولما استتب لهُ المقام في عاصمتهِ سار الى العرابة المدفونة لزيارة قبر ابيهِ فوجد خدمة القبر قد نهبوا ما كان في المعبد من الامتعة النفيسة فأمر بقتلهم بعد ان سار الى

طيبة واستنثار معبودها «امن رع» بذلك . واعاد الى المعبد منهوباته ورتب للخدمة مرتباتهم . كل ذلك منقوش على حجر في العرابة المدفونة

ومن اعمال هذا الملك انهُ سار الى فلسطين ووضع يدهُ على اموال المسجد الاقصى الذي بناهُ سليمان الحكيم وعلى اموال القصور الملوكية وفيها الدروع السليمانية الذهبية المشهورة ثم سار الى الاسرائيليين فسلموا لهُ القلاع بغير قتال . وبعد عودهِ من هذه الغزوة نقش صورتهُ على الجدار القبلي لهيكل الكرنك بالقرب من ايوان البسايطة الذي أسَّسهُ هو وبجانب صورتهِ اسماء المدن التي افتتحها مكتوبة في ست وتسعين منزلة ورسم صور الملوك الذين اصبحوا تحت حكمهِ وفي جملتهم الملك رحبعام ابن سليمان مكتوف اليدين وراء ظهرهِ وفي عنقهِ حبل كما ترى في الشكل الرابع عشر اما الكتابة الهيروغليفية التي على الرسم فهي لقب رحبعام «ملك يهوذا» . وبنى عمارات كثيرة في طيبة بحجارة من جبل السلسلة من اعظمها الايوان المتقدم ذكرهُ ولا تزال آثارهُ باقية الى هذا العهد قبلي هيكل رعمسيس الثالث ويعرف هذا الايوان عند علماء اللغة الهيروغليفية بايوان البسايطة وتوفي بعد ان حكم ٢١ سنة



ش ١٤ ملك يهوذا

وتولى بعدهُ ابنهُ «اوسوركون الاول» وليس لهُ آثار تُذكر وخلف هذا ثلاثة ملوك ليس لدينا شيءٌ من

اخبارهم . ثم تولى الملك « تاكلوت الثاني » وله لوح حجري في رواق البسابطة بالكرنك منقوش عليه بالقلم الهيروغليفي شيء من سيرته وفي ايامه ضعفت شوكة مصر فعصتها اعمالها واستقلت في سلطتها . فاصبحت مصر حقيرة وقد نفذ نفوذها ولا شيء من العزة والمنعة فيها . ثم تولى بعد هذا « ششنق الثالث » « وبيباي » « وششنق الرابع » وفي عهدهم تجزأت مصر الى اعمال متفرقة على كل منها حاكم ليبي تحت ادارتهم فاستبد اولئك الحكام وتغافل عنهم ملوكهم فزادوا فجوراً وما زالوا حتى ازالوا سلطة اولئك واخذوا الملك من ايديهم ولقبوا انفسهم بالفراعنة ونزل الملوك الاصليون في بسطة ثم هاجروا منها خوفاً الى منف وانتهى الامر بعد موت ششنق الرابع بخروج الدولة من يدهم الى ملوك العائلة الثالثة والعشرين

العائلة الثالثة والعشرون الطينية

حكمت من سنة ١٤٣٢ — ١٣٤٢ ق ه او من ٨١٠ — ٧٢١ ق م وعدد ملوكها ٤

قاعدة ملكهم « تانيس » المعروفة الان بصان في الوجه البحري بمديرية الشرقية وقد كانت عند اول استيلائهم على الوجه البحري مدينة بسطة وكانت طيبة في ايدي الاثيوبيين فنزعها منهم « بتوباستيس » وهو اول ملوك هذه العائلة • وفي ايام هذه العائلة انقسمت مصر الى عشرين اقليماً تحت كل منها اقسام يتولى القسم منها امير يرجع في معضلات احكامه الى مركز الاقليم وما زال الامر كذلك حتى ظهرت العائلة الرابعة والعشرون

العائلة الرابعة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٣٤٢ ـ ١٣٢٧ ق ه او من ٧٢١ ـ ٧١٥ ق م
وعدد ملوكها ٥

اوّلهم « تنفخت » وكان احد امراء الاقسام المتقدم ذكرهم . فقويت سطوتهُ شيئًا فشيئًا حتى تمكّن من جميع مصر قبليها وبحريها الاّ الاقليم الشرقية فانهُ تركهُ للعائلة الملوكية السابقة ولمّا علم ملك اثيوبيا بما كان جرّد اليهِ جيشًا وحاربهُ فقهرهُ ونقش صورة المحاربة على حجر وجد في جبل برقل ثم نقل الى متحف بولاق . فلما دخلت مصر في سلطة ملك اثيوبيا واسمهُ « بعنخي » جعلها ملحقة ببلادهِ لكنهُ ابقى لروسائها الامتياز وجعل « تنفخت » ملكًا عليهم بالاصالة وبعد يسير مات بعنخي وخلفهُ آخر لم يكن اهلاً للاحكام فتحرر المصريون من سلطتهِ فانسحب برجالهِ الى بلادهِ وفي اثناء ذلك مات تنفخت فتولى بعدهُ ابنهُ « باكوريس » وكان قويّ الادراك فقيهًا بارعًا فجعل مصر الوسطى والسفلى تحت حكمهِ الاّ ان الدهر لم يدُم لهُ لان الدولة الاثيوبية اصبحت تحت سلطة ((سباقون)) فجاء مصر وافتتحها عنوةً والقى باكوريس حيًّا فى النار وبموتهِ ماتت العائلة الصاوية وامست مصر ايالة اثيوبية

العائلة الخامسة والعشرون الاثيوبية

حكمت من سنة ١٣٢٧ ـ ١٢٨٧ ق ه او من ٧١٥ ـ ٦٦٥ ق م
وعدد ملوكها ٤

اوّلم «سباقون» المتقدم ذكرهُ تولّى زمام مصر وجعل لنفسهِ القاب الفراعنة واخذ يبث النظام في البلاد ويحسن سياستها فابقى كل رئيس على اقليمهِ مع حفظ نفوذهِ عليهم جميعًا بمراقبة امراء اثيوبيين . ثم شاد الجسور واحتفر الترع حرصًا على البلاد ان يمسّها غرق او شرق ورمَّ كثيرًا من المعابد واستبدل عقوبة القتل بالاشغال الشاقة فاكتسب ثقة المصريين واشتهر بالرأفة وحسن التدبير

الّا ان ذلك لم يدم لهُ لان مملكة اشور كانت في ذلك العهد قد امتدّت سطوتها على الفينيقيين والاسرائيليين والفلسطينيين ورغب هولاء في التخلّص من نير الاشوريين فأجمعوا على ان يستنصروا «سباقون» في ذلك . فأنفذ هوشع ملك اسرائيل اليهِ هدايا فاخرة وسألهُ التحالف معهُ على «شلمنصّر» ملك الاشوريين فاجابهُ سباقون الى طلبهِ طمعًا منهُ بالحصول على ما كان لاسلافهِ من ملوك مصر العظام . فبلغ خبر تلك المعاهدة مسامع شلمنصّر فاحتال على هوشع حتى أسرهُ وفاجأ قومهُ بالهجوم فظهر عليهم فاعترفوا لهُ بالسيادة بعد ان قنطوا من مساعدة سباقون . ثم سار «شلمنصّر» الى السامرة وحاصرها لكنهُ مات قبل افتتاحها وكان اخر ابناء العائلة الملوكية الاشورية . فاقيم مكانهُ «سرجون» رئيس قوّادهِ فاقتدى بهِ وسار على خطواتهِ فاتمّ فتح السامرة ثم سار الى فلسطين وقتل الملك «يهويد» احد المتحالفين مع سباقون . فلما رأى سباقون ذلك خاف على بلادهِ فتقدم بجنودهِ الى الشام لردّ «سرجون» بعد ان انضم اليهِ «حانون» ملك غزة احد المتحالفين فالتقيا بجيوش الاشوريين في مدينة رافيا وانتشبت الحرب بين الفريقين فانهزمت الجيوش المصرية والشامية وأُخذ «حانون» اسيرًا ونجا سباقون فضلّ في الصحراء الى ان وَجد من اهداهُ الى طريق مصر . فكانت هذه المحاربة امثولة لهُ لكي لا يطمع فيما هو عاجز عن نوالهِ . ولم يكن ذلك كل شقائهِ فانهُ بعد هذه

الهزيمة ثار عليهِ سكان الوجه البحري تحت رئاسة اسطيفانيتس احد اقرباء الملك « باكوريس » سعياً الى اصلاح شؤون البلاد فانهزم سباقون الى الصعيد واستقلَّ باكوريس بالوجه البحري لكنهُ لم ترسخ قدمهُ حتى انقسمت حكومتهُ على نفسها وقام النزاع بين فئتين من طالبي السيادة وفي اثناء ذلك توفي « سباقون » وخلفهُ ابنهُ « سبخون » فاغتنم فرصة الانشقاق وحارب الوجه البحري واستولى عليهِ . وهذا ما لبث ان ثبتت قدمهُ حتى قتلهُ « طهراق » وتولى مكانهُ

اما « طهراق » هذا فكان رجلاً محارباً نزع مدينة منف من « اسطفانيتس » ثم جاءهُ ملك اشور (اشوراخي الدين) فاتحاً ففرَّ طهراق الى النوبة واستولى ملك اشور على منف وطيبة ونهب امتعة هياكلها وقسوسها وارسلها الى بلادهِ لتحفظ تذكاراً لتلك الغلبة . ثم اشتغل في اصلاح شؤون مصر فاعاد رؤساء الاقاليم كما كانوا كل واحد في اقليمهِ وضرب عليهم الجزية وبعد أن تمَّ لهُ ذلك سار الى « نينوى » تاركاً بعض جنودهِ حامية في قلاعهِ خوفاً من غائلة الاثيوبيين فمرَّ اثناء الطريق بنهر الكلب قرب مدينة بيروت فنقش على الحجر الذي كان نصبهُ رعمسيس الثاني نقوشاً كثيرة بيَّن فيها فتكهُ بالمصريين والاثيوبيين

وفي سنة ٦٦٩ ق م اغتنم طهراق فرصة مرض اشوراخي الدين وهاجم المصريين لاسترجاع البلاد اليهِ فلما علم اشوراخي الدين بذلك وعلم بعجزهِ عن الدفاع تنازل عن الملك لابنهِ الاكبر « اشوربانبالُ » . فسار هذا الى مصر واخرج منها الاثيوبيين واعاد السلطة لرؤساء الاقاليم وعاد الى وطنهِ . فعاد طهراق الى مشروعهِ فتحالف مع المصريين سرًّا على ان يعضدوهُ فيما يريد فعلم ملك اشور بذلك فقبض على الخائنين من رؤساء الاقاليم وقادهم اليهِ اسرى الَّا ان ذلك لم يمنع طهراق مما اراد فهجم على مصر واستولى على منف وطيبة وابطل عبادة الصنم "ايبس" منها . اما

ملك اشور فجعل يقرّب منهُ رؤساء الاقاليم المأسورين عندهُ استجلاباً لرضاهم وطلباً لمساعدتهم فخلع عليهم واكثر من اكرامهم وارسلهم الى مصر فاخذوا الوجه البحري ثم القبلي ثم ما زالت مصر يتناوبها الاشوريون والاثيوبيون حتى انتهى الامر باغضاء الاشوريين عن تملكها لما يقتضي لذلك من المشقة فدخلت في سلطة "نوات مياموون" ملك اثيوبيا بدون كبير مشقة وترى كيفية استيلائهِ مكتوبةً بالهيروغليف نقشاً على حجرٍ وجد في اطلال مدينة "نبته" بجبل برقل وهو محفوظ في متحف بولاق الآن

العائلة السادسة والعشرون الصاوية

حكمت من ١٢٨٧ـ ١١٤٩ ق ها و ٦٦٥ـ ٥٢٧ ق م وعدد ملوكها ٦

اولهم «بسامتيك الاوّل» استولى على الوجه البحري والقبلي حتى الشلال الاول وكان اجنبياً ليس من العصبية الملوكية بشيءٍ الّا انهُ اقترن بابنة من العائلة الملوكية فاكتسب حق التملك بواسطتها . فتولّى الملك ومصر تئِنّ ضعفاً وقنوطاً لما قاستهُ من الحروب التي توالت عليها اعواماً بين الاشوريين والاثيوبيين فأخذ في احياء ربوعها واعادة رونقها اليها فبنى المعابد في منف ووجهات معبد فتاح وفتح فيها طرقات على عمد عديدة وبنى القاعة الكبيرة التي كانوا يعلفون فيها العجل «ابيس» ورمّم ما كان منهدماً من معبد الكرنك . وباشر جميع هذه الاعمال دفعةً واحدة فاصبحت مصر كأنها معمل عظيم للبناء والترميم ونشّط على الخصوص صناعة الحفر والنقش فبلغت اوجاً رفيعاً . ثم نظر الى مناعة البلاد فرآها محاطة باعداء كثيرين اشدّ بأساً منها كالاشوريين والاثيوبيين فأخذ في تحصينها فبنى القلاع والحصون في مضايق طرق الشام من الشرق وفي

ضواحي بركة المنزلة وفي مدينة دفنة بالقرب من «نسال» لمنع اغارة الاشوريين وحصَّن اصوان لدفع الاثيوبيين

على انهُ عمد بعد الاكتفاء بالدفاع الى الهجوم فهاجم الاثيوبيين وحاربهم فظهر عليهم ثم سار الى الشام فاستولى على فلسطين واخذ مدينة اشدود من الكنعانيين ثم عاد الى بلادهِ قانعًا بما اوتيهُ من النصر . وفي ايامهِ كثر تردد الاجانب الى مصر وفيهم اليونان فكان يكرم مثواهم ويقطعهم من بلادهِ على سواحل بحر طينة ما يبنون فيهِ معاقل وبيوتًا يقيمون فيها

اما اليونان فاعجبتهم مصر وطاب لهم المقام فيها فاخذوا يتعلمون علومها وصنائعها واعجبتهم الديانة المصرية فاصطنعوا آلهتهم على مثال آلهة المصريين . وادخلوا احداثهم المدارس المصرية فنبغوا وقام بينهم فلاسفة لا نزال نستفيد من تعاليمهم الى هذا العهد . ومن هؤلاء الفلاسفة سولون وفيثاغورس وافلاطون وغيرهم وقد كان المصريون قبل ذلك العهد ينظرون الى اليونان نظر الاحتقار ويجتنبون معاشرتهم وكانوا يبالغون جدًا في وجوب الابتعاد عنهم . اما «بسامتيك» فكان يحبهم ويقربهم منهُ حتى جعل بطانتهُ منهم وألَّف ميمنة جيشهِ من رجالهم فاصبحت مصر في قبضة يدهم . فعظم ذلك على المصريين الى حدٍ لم يمكنهم معهُ البقاء في بلادهم ولم يجدوا سبيلاً لاشتفاء ما في نفوسهم الا في المهاجرة من مواطنهم ومغادرتها لاولئك النزلاء فاجتمع منهم نحو ٢٤٠ ألفًا وهموا بالجلاء الى اثيوبيا فتبعهم الملك واستعطفهم ان لا يفعلوا فأبوا فقال لهم ولمن تغادرون نساءكم واولادكم قالوا اينما ذهبنا نجد نساء واولادًا وما زالوا حتى دخلوا اثيوبيا فاستقبلهم ملكها واكرم مثواهم وادخلهم في جيشهِ فتألفت منهم جيوش عُرفت بالاسماخ اي حجاب ميسرة الملك وسماهم اليونان بعد ذلك «انوبولس» . اما «بسامتيك» فعرف بعد ذلك خطأهُ فأخذ في اصلاحهِ فسعى الى انشاء الجيوش وحشدها ولكن هيهات ان تعود مصر

الى رونقها وكان الجاني على نفسو

ولما توفي توفى ابنهُ «نخاو الثاني» فاتمَّ تنظيم الجيوش وكان ذا نفس ابيّة وهمّة عالية فانشأ معامل بحرية لتشييد السفن الحربية على نيّة افتتاح سواحل البحر الاحمر والمتوسط وجعل روساء تلك المعامل من اليونان. ولاح لهُ لاتمام مشروعهِ ان يوصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط فحفر ترعة امتدادها اربع مراحل بحرية وعرضها يسع سفينتين اوّلها مدينة بسطة بقرب الزقازيق وآخرها بركة التمساح لان البحر الاحمر كان على مقربة من تلك الجهة وكان قد سبقهُ الى هذا المشروع (حسب ظن بعضهم) ملوك العائلة العشرين ففتحوا هذه الترعة لكنها سُدّت بعد ذلك بالرمال. وسيأتي امامك كلام متصل عن تاريخ الوسائل التي اتُّخذت لايصال البحرين عند الكلام على ترعة السويس في هذا الكتاب

ثم سار نخاو بجيش لافتتاح فلسطين وافتتح معها اكثر البلاد في طريقهِ اليها وكانت تحت سلطة الاشوريين ولما عاد الى مصر كافأ من كان في عساكرهِ من اليونان

ثم ان ملك الاشوريين «نبوخذ نصَّر» ارسل ابنهُ بختنصَّر في جيش لاسترجاع فلسطين والشام من المصريين فسار ولم يبلغ مقصودهُ حتى بلغهُ موت ابيهِ فعاد الى بابل مسرعًا بعد ان استرجع الشام. وحاول «نخاو الثاني» بعد ذلك الاستيلاء على بلاد الشام ثانية فلم يستطع

ثم توفي وخلفهُ ابنهُ «بسامتيك الثاني» وهذا لم تطل ايام حياتهِ فخلفهُ «وح ابرع» وهو الذي استنجد بهِ «صدقيا» ملك اليهود على محاربة بختنصَّر ملك بابل في عصر ارميا النبي فسارت جيوش مصر وما لبثت حتى عادت منهزمة فاستولى الاشوريون على اليهود فالتجأت اليهود الى مصر فاقطعهم ملكها ارضًا بقرب دفنة فانتشروا في مجدل ومنف وبعضهم سكن الصعيد

وبختنصر لما استولى على الشام طمع بمصر فجاءها مهاجماً وقتل ملكها واستولى عليها وأقام فيها عاملاً من امرائهِ وعاد الى بلادهِ وساق معهُ جميع من كان في مصر من العملاء الاَّ ان هيرودونس المؤرخ ينول خلاف ذلك

ثم حكم مصر الملك «اموزيس» وهذا كان في خشية من غارات الفرس على بلادهِ ولذلك كان يحاذرهم لقوتهم على انهُ لم يخْ من غائلتهم فسلبوهُ بعضاً من بلادهِ لكنهُ بالسياسة وحسن التدبير أمن من اغارتهم على كرسي ملكهِ فارتاحت مصر في ايامهِ فاقام فيها البنايات والمعابد والمسلات واتسعت التجارة ولا سيما مع اليونان فانهم كانوا من البارعين فيها فزاد عددهم في مصر حتى بلغ ٢٠٠ الف نفس فاعطاهم اموزيس ارضاً ابتنوا فيها بيوتاً لهم بالغوا في اتقان بنائها فاصبحت مدينة من اجمل مدن مصر ثم جعلوا يحصنونها وبعد يسير سنُّوا لانفسهم قانوناً مخصوصاً . وكانت تجارة مصر في ايديهم فاتسعت وباتساعها اتسعت شهرة مصر فطمع الناس فيها فاتاها الطلاب من كل الجهات بين فلاسفة وتجار واجناد . ثم رأى "أموزيس" من الحكمة ان يتحالف مع اثينا لعلها تنيدهُ ضد ملك فارس ففعل وتمَّ التحالف

وفي اثناء ذلك مات "كيروس" ملك فارس فقام ابنهُ "كمبيز" مكانهُ وكانت مطامعهُ لا تزال قوية في مصر فأخذ منذ توليتهِ الملك يسعى في هذا السبيل فاستكشف انسب طريق يؤدي الى وادي النيل برًّا ولزيادة التامين عقد معاهدات مع القبائل البدوية التي في طريقهِ ليمدوهُ بالماء الذي يحتاج اليهِ رجالهُ وبناء على هذه المعاهدات سارت الجيوش الفارسية وما زالوا حتى نزلوا امام طينة فبلغهم ان "اموزيس" توفي وتولى مكانهُ "بسامتيك الثالث" وهذا جهَّز جيوشهُ وعساكرهُ عند طينة لدفع الفرس فحصلت موقعة كبيرة وكان الفرس لشدة مكرهم قد جعلوا امام جيوشهم عدداً عظيماً من القطط والبزاة وغيرها من الحيوانات المقدسة عند المصريين

فذهب هؤلاء ولم يجسروا على رمي السهام مخافة ان تصيب تلك الحيوانات المقدسة فلم يكن لديهم الاَّ الفرار ففرُّوا الى منف. فارسل اليهم "كمبيز" رسلاً في مركب يطلب اليهم التسليم فخرج المصريون الى ذلك المركب وكسروهُ اربًا وقتلوا من كان فيهِ جميعًا فاستشاط كمبيز غضبًا وانتقامًا فسار بجيشهِ الى منف وفتحها عنوة وقبض على بسامتيك وقيَّدهُ واهانهُ واودعهُ السجن ومن معهُ وكان بسامتيك صبورًا فاحتمل كل ذلك ولم يبدِ تضجرًا فعجب كمبيز لصبرهِ ثم اتفق بينما كان بسامتيك جالسًا في السجن مقيدًا وكمبيز بجانبهِ إذ مرَّ بهِ احد ندمائهِ السالفين متردِّيًا بثوب خلق فتأفَّف بسامتيك وصفع بيدهِ على جبهتهِ متأسفًا فقال لهُ كمبيز مالك تتأسف وتتأفَّف الآن وقد احتملت منا اهانة عظيمة ولم تبدِ اثناءها اسفًا. فقال انما انا اسف على حالة هذا الرجل فانهُ كان في عزٍ وقد اصبح كما ترى والرجل اذا حلَّت بهِ المصائب وتجرد من ذات يدهِ واهين شرفهُ يحق عليهِ الأسف فتأثر كمبيز من ذلك واسرع الى حل قيودهِ واعاد اليهِ شرفهُ الا انهُ رآهُ بعد ذلك يسعى ضدهُ فامر بقتلهِ فانتهت هذه العائلة وابتدأت العائلة السابعة والعشرون

العائلة السابعة والعشرون

وهي الدولة الفارسية الاولى

حكمت من سنة ١١٤٩ ـ ١٠٢٨ ق ه او من ٥٢٧ ـ ٤٠٦ ق م وعدد ملوكها ٧

اولهم "كمبيز" المتقدم ذكرهُ فهذا كان يراعي ميل الوطنيين فابقاهم على ما كانوا يعبدون واعاد الى اعيانهم امتيازاتهم وحقوقهم من الاعتبار

وتلقى اسرارهم اللاهوتية ليكون له المام فيها واضاف الى اسمهِ القاباً فرعونية وكان لفتح مصر عظيم هيبة وتأثير عند الامم المجاورة فسعوا جميعاً الى كمبيز بالهدايا والجزية عن يدٍ وهم صاغرون وجعل كمبيز مصر حصناً يستعين بهِ في فتح افريقيا . ثم جنَّد لقرطاجنة فلم يفزبها فعاد وجند الى واحات سيوى فلم يرجع من رجالهِ مخبرٌ

ثم طمع في اثيوبيا وكانت اذ ذاك على جانب من المنعة والثروة فارسل اليها جواسيس معهم الهدايا فساروا وقدموها الى ملك اثيوبيا وكان فطناً نبيهاً فعرف مقاصدهم لكنهُ اظهر استحساناً لهديتهم . ثم قال لهم وفي يدهِ قوس كبيرة "انظروا الى هذهِ القوس" ورمى منها سهماً وقال "خذوا هذه القوس الى ملككم كمبيز واخبروهُ ان الانسب ان يأتي هو بمفردهِ فقط لنفصل ما تحدثهُ بهِ نفسهُ حفناً لدم العباد وهذه القوس قولوا لهُ اني اوترتها وحدي فاذا استطاع ذلك جازلهُ شيءٌ مما يكنهُ ضميرهُ والا فليحمد الآلهة لاغضائنا عن بلادهِ" فلما بلغ كمبيز ذلك اخذت بهِ سورة الغضب فجرد جيشهُ وطلب اثيوبيا من اقرب الطرق فسار في صحراء كروسكو وهو لا يدري مسافتها فعطش جيشهُ وجاع حتى اكل بعضهم بعضاً فاضطر الى العود وفي نفسهِ من الغيظ ما كاد يذيبهُ فجاء منف وكان اهلها في احتفال سنوي لاحد معبوداتهم فظنهم فرحين لخيبتهِ فامر بقتل كل الكهنة وشق صوف العجل "أبيس" والقاهُ للكلاب تاكلهُ ثم سخر بمعبوداتهم فجعل احدها فتاح على هيئة قزم زميم الخلق كما ترى في الشكل الخامس عشر ونهب جميع ما كان في المدافن القديمة وزاد فجورهُ حتى قتل اختهُ وغيرها ممن هم بريئو الساحة وهو مشهور بالقسوة والعسف . وبقي على كرسي الملك ثلاث سنوات ثم قتلهُ شعبهُ

وتولى بعدهُ "دارا" فاخذ يسعى الى وسيلة يستجلب بها رضاء المصريين فاتفق موت العجل ابيس في اول حكمهِ فجاء بنفسهِ الى المعبد

واظهر تأسفهُ الشديد لذلك ووعد بمبلغ وافر لمن يأتي بعجل اخر مثله فاحبهُ المصريون واتسعت مملكة الفرس في ايامهِ كثيرًا فكان تحتها ٢١ ولاية وقبل ان يبارح مصر زار معبد فتاح بمنف واراد ان يجعل تمثالهُ بجانب تمثال رعمسيس الثاني فمنعتهُ الكهنة بحجة انهُ لم يأتِ بعد على ما أتاهُ رعمسيس الاكبر فانهُ فتح بلاد التتر فقال لهم دارا "اني أرجو ان اساوي رعمسيس الاكبر ان طال عمري بقدر عمرهِ" وأذعن دارا لقول الكهنة بكل احترام



ش ١٥ صورة القزم

ومن مآثرهِ انهُ مهَّد سبل التجارة فاتمَّ طريق التواصل بين البحرين كما سترى عند الكلام على ترعة السويس وفتح طريقًا فقط للمواصلات برًّا وطريق اسيوط الممتدة الى العرابة المدفونة ومنها الى اصوان واكثر من العساكر للمحافظة على الواحات الكبرى . وكان الفرس القاطنون في مصر مجوسًا متعصبين فصرح لهم باتباع دينهم على ان لا يستخدموا الكتابة الهيروغليفية على الاطلاق

ثم ثار اليونان في اسيا فسار بجيش كبير لاقماعهم فاستغنم المصريون فرصة غيابهِ وشقُّوا عصا الطاعة وانزلوا ولاة "دارا" وعهدوا الحكم الى رجل يُدعى "خبش" من سلالة "بسامتيك" فعلم دارا بذلك فهمَّ اليهِ لكنهُ توفي قبل اتمام مشروعهِ فأُقيم ابنهُ "شيارش" مكانهُ فجاء مصر واسترجعها عنوةً الَّا انهُ كان فاتر الهمة فاطلق تدبير الاحكام لولاة يعيثون بها كيف شاؤُوا وهكذا كان شأنهُ في سائر ولاياتهِ من اوربا واسيا وافريقيا فلم تمضِ مدة من الزمن حتى تجرَّد من سائر تلك الايالات وقتلهُ من هم حولهُ وتولَّى المُلك بعدهُ الملك "ارتحشارشا" فاحب المصريون الخروج من

طاعتهِ فاستنجدوا عليهِ اليونان فانجدوهم فحصلت حروب طويلة انتهت بانهزام المصريين وثبوت قدم الفرس!

وفي سنة ٤٢٥ ق م توفي "ارتحشارشا" وخلفهُ الملك "شيارش الثاني" ثم "سوغدبانوس" ثم "دارا الثاني" وبهِ انتهت هذهِ العائلة وعادت مصر للمصريين

العائلة الثامنة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٠٢٨ ـ ١٠٢١ ق ه او من ٤٠٦ ـ ٣٩٩ ق م

ليس لهذه العائلة الّا ملك واحد يدعى "امبرتيوس" ولّاهُ المصريون عند تخلّصهم من نير الفرس وحكم مدة سبع سنين كلها اصلاح وترميم

العائلة التاسعة والعشرون الاشمونية

ابتدأ حكمها سنة ١٠٢١ ـ ١٠٠٠ ق ه او من سنة ٣٩٩ ـ ٣٧٨ ق م وعدد ملوكها ٤

وليس في تاريخها شيءٌ مهمٌ سوى ان الفرس كانوا يتهددونها وقدموا يريدون الاستيلاء عليها ولم يظفروا

العائلة الثلاثون السمنودية

حكمت من سنة ١٠٠٠ ـ ٩٦٢ ق ه او من ٣٧٨ ـ ٣٤٠ ق م وعدد ملوكها ٣

قضوا مدات حكمهم وهم بين دفاع وحذر من استيلاء الفرس وحصل

بينهما عدة مواقع كانت قيادة الجيوش المصرية فيها بيد قواد من اليونان مجربين ولم ينهزم الفرس الا في الموقعة الاخيرة . وكانت حكومة مصر بيد «نكتانيبس» فانهزم الى النوبة وهو آخر من حكم مصر من المصريين الاصليين لانها خرجت من يده الى الفرس ومنهم الى الروم ثم العرب ثم الترك كما سترى

العائلة الحادية والثلاثون

وهي الدولة الفارسية الثانية

حكمت من سنة ٩٦٢ ـ ٩٥٤ ق ه او من ٣٤٠ ـ ٣٣٢ ق م وعدد ملوكها ٣

اولهم الملك "اوخوس" الملقب "بارتحشارشا الثالث" وهو الذي نزع مصر من يد المصريين . مات مسموماً فجاء ابنه "ارسيس" وحكم سنتين ثم مات وخلفه احد اقاربه المدعو الملك « دارا الثالث » وكان يدعى قبل توليته "كودومانوس" وكان معاصراً للاسكندر المكدوني المشهور وفي ايامه جعلت دولة الفرس تتقهقر وبدأ نجم اليونان بالاشراق فاخذ الاسكندر في فتوحاته وتوسيع مملكة ابيه ففتح الهند وفارس واستولى على مصر بعد موقعة انتهت بانهزام الفرس ودارا الثالث معهم وقتل كثير من رجاله ثم قتله احد نوابه فانتقل بعده حكم مصر الى اليونان

الدولة اليونانية

العائلة الثانية والثلاثون

حكمت من سنة ٩٥٤ـ ٩٤٥ ق ه او من ٣٣٣ ـ ٣٢٣ ق م

اوّل ملوكها وآخرهم ((اسكندر الاكبر المكدوني)) . تغلب هذا الناتح العظيم على الفرس واخرجهم من مصر ودخلها عنوة فمرّ ببقعةٍ من الارض على شاطئ البحر المتوسط من حدود مصر فاستحسن موقعها لانهُ رآها عبارة عن لسان من اليابسة داخل في البحر وعلى احد جانبيهِ بحيرة مريوط المشهورة فلاح لهُ ان يبتني فيها مدينة فبناها على رسم مخصوص رسمهُ بنفسهِ وعهد اتمام العمل الى المهندس ((دينوكراتس)) فلما تم بناء المدينة دعاها الاسكندرية ولا تزال معروفة بهذا الاسم الى هذا العهد . وفي ٢٤ مايو (ايار) سنة ٣٢٣ قبل المسيح توفي هذا البطل الباسل في بابل وسنهُ ٣٢ سنة فنقلت جثتهُ الى الاسكندرية ودُفنت فيها

العائلة الثالثة والثلاثون البطالسة

حكمت من سنة ٩٤٥ـ ٦٥٢ ق ه او من ٣٢٣ـ ٣٠ ق م

لما تُوفي الاسكندر جاء ((بطليموس الاول)) من بابل ووضع يدهُ على مصر وجعل يسعى الى اكتساب ثقة اهلها ثم ارسل احد قوّادهِ المدعو ((نيكانور)) في جيش لافتتاح سوريا فسار وحارب وفاز ولم تمضِ بضع سنين حتى ضم الى مصر سوريا وقبرس وفينيقيا

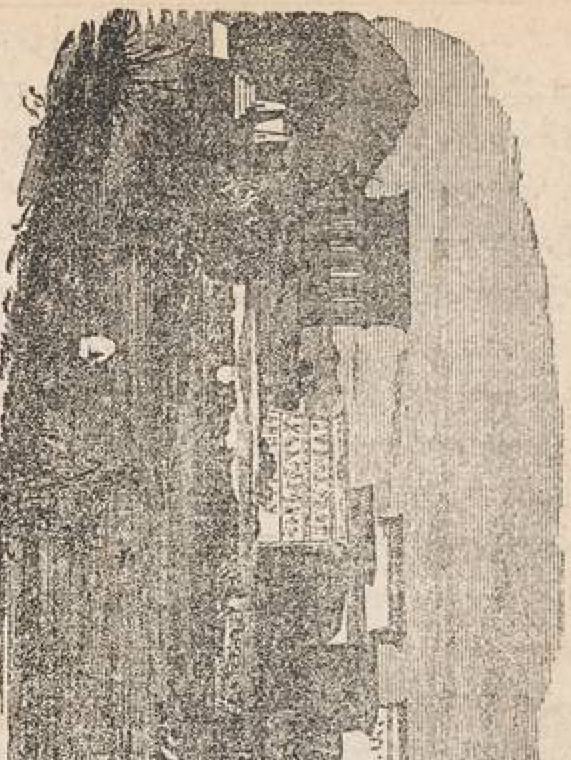
ثم شرع في بناء المعابد في الاسكندرية واقام على جزيرة فرعون التي يوصلها بالاسكندرية برزخ صغير برجاً يبلغ علوهُ الف ذراع على قمته نور يستضيء بهِ القادمون بحرًا وقد هُدم هذا البرج الان ولم يبقَ لهُ أثر .

ومن مآثر هذا الملك مدرسة الاسكندرية الشهيرة فانهُ جمع اليها العلماء والفلاسفة من اليونان وسائر بلاد العلم والصناعة في ذلك العهد وكان يُكرم وفادتهم ويضعهم في مكانهم من الهيئة الاجتماعية وانشأ مكتبة نفيسة طار صيتها في الافاق

وفي السنة التاسعة والثلاثين من حكمهِ عهد الملك لابنهِ البكر "فيلادلفوس" واجلسهُ على كرسي الحكم في حياتهِ سنة ٢٨٥ قبل المسيح ولقّبهُ ببطليموس الثاني ثم توفي سنة ٢٨٣ قبل المسيح فاهتمّ بطليموس الثاني في توطيد العلاقات مع الدول المعاصرة ولا سيما دولة الروم (الرومانيين) ولم يكن بينهما سابق مخابرات مطلقاً وليتها لم تحصل لانها كانت آخر الامر داعياً لاستيلاء الروم على مصر . ثم عكف هذا الملك على تنشيط العلم وذويهِ فزاد في مكتبة ابيهِ فبلغت الاسكندرية في ايامهِ مبلغاً من العلم والثروة لم تعُد ترى مثلهُ بعد ذلك الحين . فقد كانت محور التجارة ومحط رحال العلماء والفلاسفة . وفي ايامهِ ايضاً تُرجمت التوراة الترجمة السبعينية المشهورة

ومن آثارهِ خرائب انس الوجود عند شلال اصوان فانهُ هو الذي شرع في بناء الهيكل الكبير الذي تشاهد اطلالهُ هناك الى هذه الغاية على جزيرة فيلوي تجاه اصوان وتدعوها العامة ايضاً جزيرة البربة وهي من الآثار المشهورة وقد اشتغل في اتمام بناء هذا الهيكل كل من جاء بعد فيلادلفوس من البطالسة . أُنظر الشكل السادس عشر

وكانت مدة حكم فيلادلفوس ٣٨ سنة ثم توُفي وخلفهُ ابنهُ «افرجيت الاول» ولُقب ببطليموس الثالث وكان محباً للفتوحات فجرد جيوشهُ



غرائب انس الوجود ش ١٦

الى اسيا مقتدياً برعمسيس الثاني فلم يكن حظهُ منها بأقل من حظهِ لانهُ دوَّخ جميع البلاد التي على الفرات فبابل فالفرس فما وراءها وضرب الجزية عليها كلها واعظم ما أُسرَّ بهِ المصريين انهُ استرجع من الفرس جميع ما كان منقولاً الى بلادهم من تماثيل الآلهة المصرية بامر كمبيز . ثم غزا اثيوبيا

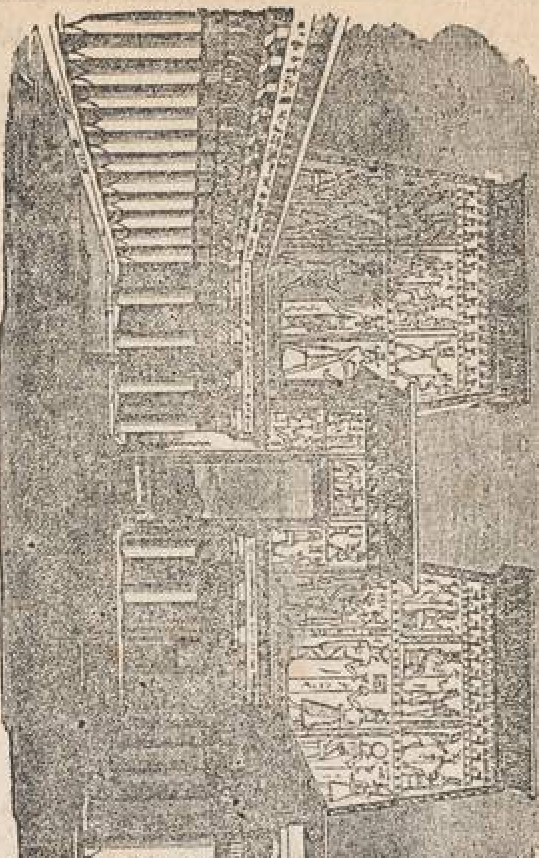
حتى «ابريم»

وفي سنة ٨٤٤ قبل الهجرة او ٢٢٢ قبل المسيح توفي «افرجيت الاول» بعد ان حكم ٢٥ سنة تاركاً الملك لابنهِ «فيلوباتر» فتولى الاحكام حال وفاة ابيهِ ولقب ببطليموس الرابع الا ان المصريين اتهموهُ بقتل ابيهِ فكرهوهُ وكان فظاً غاشاً فزادهم كرهاً وبعد جلوسهِ بيسير سار في جيش عظيم لمحاربة انطيوخس في سوريا فحاربهُ فطلب الصلح بان يرجع له سوريا وفينيقيا فقبل فيلوباتر وبقي هناك بضعة اشهر ثم عاد الى الاسكندرية كل ذلك واختهُ «ارسينوا» معهُ لم تفارقهُ يوماً واحداً. فاصبحت الاسكندرية بعد ذلك في رغد ورخاء فانعكف فيلوباتر على الملذات فنسي واجباتهِ المقدسة نحو البلاد فكثر اللغط بين الاهلين وتكررت التظلمات وليس من مجيب

وفي ٩ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ٢١٢ ق م او سنة ٨٢٤ قبل الهجرة وضعت ارسينوا غلاماً ولم يكن من وارثي الملك غيرهُ فما كان من فيلوباتر الا انهُ قتل ارسينوا بدسيسة بعض ذويهِ. وفي ٢٩ مارس (اذار) سنة ٢٠٥ قبل المسيح مات فيلوباتر واخفى اصحابهُ خبرهُ حيناً ريثما يتمكنون من سلب اموالهِ ثم شاع خبرهُ فاقاموا عوضاً عنهُ ابنهُ الوحيد «ابيفان» وهو بطليموس الخامس ولم يكن لهُ من العمر الا خمس سنوات فاقيم عليهِ وصيٌّ من سراة الدولة

وفيلوباتر هو المؤسس الاول لهيكل ادفو (فيما بين الاقصر واصوان) وقد أتم بناءهُ من جاء بعدهُ من البطالسة. والهيكل المذكور من اوضح الهياكل المصرية لانهُ باقٍ برمتهِ الا ان الرمال قد غطت جزءهُ السفلي وتراهُ في الشكل السابع عشر تام الظهور لا يغشاهُ شيء وهي صورتهُ قبل ان غطتهُ الرمال فترى فيهِ الاعمدة والرواقات والابواب مكشوفة كشفاً تاماً

فلما رأى انطيوخس حالة مصر من الارتباك بعد وفاة فيلوباتر عاد



ش ١٧ هيكل ادفو

الى ما كان شارعاً فيه ففتح سوريا وفينيقيا عنوة وهمّ الى مصر فعرض له شاغلٌ اكثر اهمية فعقد مع نواب مصر صلحاً على أن يُعطي ابنته كيلوبيطرا زوجة لبطليموس الخامس وان يُترك له في مقابل ذلك البلاد التي فتحها فقبلوا

وفي ٢٧ مارس سنة ١٩٧ قبل المسيح أُجلس «ابينان» على كرسي الملك وسلّم زمام الاحكام فكتب الكهنة شيئاً عن ذلك نقشاً على حجارة في

ثلاث لغات كانت متعارفة في ذلك العهد وهي الهيروغليفية (القلم المصري القديم) والديموقريتية واليونانية وقد وُجد احد هذه الحجارة في رشيد وبواسطتها توصلوا الى حل رموز القلم المصري القديم كما مرَّ بك . وفي سنة ١٩٢ زُفَّت «كيلبويطرا» ابنة «انطيوخس» على ابيفان بطليموس الخامس . وفي نحو السنة الثامنة عشرة من حكمهِ زادت التشكيات والتظلمات لسوء تدبيرهِ ورخائهِ وما زال الاهلون يزيدون عليهِ حنقًا وحقدًا حتى يئسوا من الاصلاح فأماتوهُ مسمومًا في سنة ١٨١ قبل المسيح

فتولى مكانهُ ابنهُ «فيلوماتر» وهو بطليموس السادس ولهُ من العمر خمس سنوات فحكم تحت رعاية امهِ كيلبويطرا فأقامت لهُ اوصياء من رجال دولتهِ العقلاء . وفي السنة الحادية عشرة من حكمهِ انتشبت الحرب بين مصر وسوريا وما زالت بينهما سجالاً حتى انتهت بانهزام المصريين واسر ملكهم فيلوماتر . وسار السوريون في مصر برًّا الى منف اما الاسكندرانيون فلما علموا بسقوط منف وأسر ملكهم اقاموا عوضًا عنهُ اخاهُ «افرجيت الثاني» وبعد اربع سنوات أُخرج السوريون من مصر بمساعدة الروم وعادت مصر لحكم البطالسة فعاد فيلوماتر الى منصبهِ

وفي سنة ٧٦٨ قبل الهجرة او ١٤٦ قبل المسيح توفي فيلوماتر بعد ان حكم ٣٥ سنة فاقيم على مصر «افرجيت الثاني» وهو بطليموس السابع وقد كان الحقُّ في الحكم لابن فيلوماتر الا انهُ كان صغيرًا فقتلهُ عمهُ وتزوج بامهِ فكان الوريث الوحيد . ولم يكن «افرجيت الثاني» حسن السياسة فكان يقتل ويسجن ويستبد في احكامهِ بغير وجه حق فكرهتهُ الرعية وصاروا يتوقعون لهُ داهية وبالغوا في اضطهادهِ الى حدّ أنهُ لم يعد يمكنهُ البقاء بينهم ففرَّ من مصر ثم عاد اليها وما زال حملاً ثقيلاً على عاتق رعيتهِ الى آخر ايام حكمهِ فاهتدى الى السراط واخذ في تنشيط العلم والصناعة حتى انهُ كان يمارسها بنفسهِ وألَّف نحوًا من اربعة وعشرين كتابًا معظمها

في علم الحيوان

وفي سنة ٧٢٩ قبل الهجرة او سنة ١١٧ قبل المسيح تُوفي افرجيت الثاني بعد ان حكم ٢٩ سنة فاستدعت كيليوبيطرا اولادها وكان البكر في قبرس فأتى مصر فولّتهُ الملك ودعتهُ «سوتر الثاني» ويسميهِ العرب «شوطار» فهو بطليموس الثامن ثم سعت الى ابعادهِ لغرض في نفسها فاشاعت انهُ مضمر قتلها فثارت عليهِ الرعية ففرّ الى قبرس ثم الى سوريا فاستدعت اخاهُ «اسكندر» وولّتهُ الملك فكان بطليموس التاسع فخاف على نفسهِ ايضًا ففضّل الاعتزال على اخطار الملك ففرّ الى قبرس وكان اخوهُ «سوتر الثاني» في سوريا يستعدّ للهجوم على مصر فلما رأت كيليوبيطرا قرب مجيء الجيوش لمحاربتها اخطرت ابنها اسكندر فعاد من قبرس وبعد يسير عادت الامور الى مجاريها اما كيليوبيطرا فكانت رغمًا عن كل عاطفة والدية تحاول التخلص من ابنها هذا اما هو فعلم بما في نفسها وسبقها الى ذلك فذهب بحياتها وفرّ من مصر . فاستدعى اهالي الاسكندرية «سوتر الثاني» من سوريا ليستلم زمام الاحكام فقدم فترحب بهِ المصريون الأهالي طيبة لكنهم ما لبثوا حتى اذعنوا

وفي ايام سوتر هذا كانت مملكة الروم آخذة في الاتساع ودولتهم بالقوة والثروة . ثم مات في سنة ٨٢ قبل المسيح بعد ان حكم في المرة الاولى عشر سنوات وفي الثانية سبع سنوات ونصف

فتولّى مكانهُ ابنهُ «اسكندر الثاني» او بطليموس العاشر ولم يحصل في ايامهِ ما يستحق الذكر الا ان دولة الروم كانت قد استولت على سوريا وسيرينيا وليبيا واليونان فاصبحت مصر محصورة لا تستطيع حراكًا وكان اسكندر هذا ساعيًا جهدهُ الى إرضاء الرعية لكنهم لم يكونوا يحبونهُ بل كانوا يعتبرون فيهِ العسف والظلم وما زالوا عليهِ حتى أبعدوهُ من الاسكندرية فسار الى صور فاعتراهُ مرض اشتدّ عليهِ حتى ذهب بحياتهِ

بعد ان حكم ثماني سنوات

ولم يكن من العائلة الملوكية من يحكم بعدهُ فانتخب الاسكندرانيون من بينهم رجلاً يدعى « ديونيسيوس » ولقبوهُ « بأُوليتس » لانهُ كان مغرماً بالفلوت (الآلة الموسيقية المعروفة) ولم يكن يهمهُ امر الملك على ان مصر كانت بغاية الاحتياج الى الحكمة والتدبير لما كان يهددها من الخاطر فثار الاهالي عليهِ في طلب الاصلاح وهو غير قادر عليهِ ولم يكن في وسعهِ اخماد الثورة لان الجيوش الذين هم حامية البلاد كانوا في جملة الثائرين فترك مصر وفرَّ الى رومية . وكان لهُ ابنتان الواحدة تدعى « كيلبوبطرا » والاخرى « برنيس » وبعد بضعة اشهر ماتت الاولى (كيلبوبطرا) فتولت الثانية مدة سنتين فعلم « اوليتس » بذلك فعاد الى مصر وقتل ابنتهُ قصاصاً لها على اختلاسها الملك

وبعد يسير توفي اوليتس فتولت ابنةٌ لهُ ثالثة اسمها ايضاً كيلبوبطرا وكانت بالغةً رشدها ولولا ذلك لتولَّى اخوها ديونيسيوس الثاني وقد كان لحرسهِ ان يتولى مكانهُ الآن كيلبوبطرا جلست على الملك حالاً ودعت نفسها ملكة وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وهي آخر من حكم من الدولة اليونانية في القطر المصري . وكان لهذه الملكة مطامع في الملك وقد ملكت رغماً عن صعوبات كثيرة كانت تحول بينها وبين ما تريد ففي اول الامر نازعها احد اخويها ووافقهُ الاهلون فاخرجوها من مصر فسارت الى سوريا واستنجدت بجيوش الروم فساعدها القيصر (يوليوس) واعاد لها الملك واغرق اخاها في النيل فتولت وتزوجت اخاها الاخر ثم سارت برفقة القيصر الى رومية وبقيت عندهُ الى يوم مقتلهِ سنة ٤٤ قبل المسيح

وفي سنة ٤٢ قبل المسيح قتلت اخاها بالسمّ فخلا لها الجو ثم اتفق ان « انطونيوس واكتافيوس » القائدين الروميين كانا في حرب مع « بروتس » فامدّت هذا الاخير بعمارة بحرية وكانت قبل ذلك قد ولدت ولداً دعتهُ

قيصرون نسبة لقيصر والده فكان هو الملك على مصر رسميًّا

فلما بلغ انطونيوس وهو في طرسوس ان كيلوبيطرا انجدت بروتس عدوَّهُ بالمال والرجال خلافًا للمعاهدة استدعاها الى طرسوس للمرافعة فركبت زورقًا جميلًا مزخرفًا جؤجؤهُ من ذهب ومجاذيفهُ من فضة تُخرج عند التجذيف بها صوتًا موسيقيًّا مطربًا وكانت كيلوبيطرا من اجمل النساء فلبست افخر ما لديها من اللباس الثمين وجعلت حولها الجواري في احسن ما يكون من الترتيب والنظام ونشرت الارواح العطرية في ذلك الزورق . فلما بلغت طرسوس وشاهدها انطونيوس شغف بها ولم يعد يخالف لها امرًا فاصدر الحكم كما شاءت وشاء الغرام فعادت الى مصر غانمة

وبعد يسير زارها انطونيوس في الاسكندرية فاكرمت مثواهُ فدعاها ملكة الملوك ودعى ابنها قيصرون ملك الملوك بدعوى انهُ ابن قيصر بحسب الشرع وكان ذلك سنة ٣٦ قبل المسيح فزادت كيلوبيطرا عُجبًا على عجب ولم تعد تكتفي بلقب الملوك فدعوها ايزيس الالهة الجديدة . واما انطونيوس فانساهُ الغرام كل واجباتهِ ولم يعد يعلم نفسهُ أهو نائب القيصر ام هو ملك مصر لانهُ اصبح اسيرًا لكيلوبيطرا وكتب اسمهُ بجانب اسمها

ولما بلغ ذلك المشيخة الرومانية اشهرت الحرب على ملكة مصر سنة ٣٢ قبل المسيح فجهزت اوكتافيوس بجيش وجعلت نقطة المحاربة في « فارنتو » و « برندزي » فلم يقبل انطونيوس بذلك وطلب ان تكون الحرب في فرساليا ثم جهز جيشهُ وسار في خمسمائة مركبٍ وسارت معهُ كيلوبيطرا في ستين مركبًا فالتقى الجيشان في اكتيوم باليونان وأبت كيلوبيطرا الَّا ان تكون الحرب بحرًا ثم انها خشيت ان تعود العاقبة على جيش انطونيوس فانسحبت بمراكبها شيئًا فشيئًا وكان انطونيوس مهتمًّا باعداد المهمات الحربيَّة غير مبالٍ بالموت في جانب مرضاة سالبة لبهِ ثم التفت الى مراكبها فاذا هي بعيدة تخترق عباب البحر فاقتفى اثرها تاركًا

رجالة يحاربون ولا يدرون مفرّهُ وما زال حتى ادركها وسار بها الى مصر اما الحرب فانتهت بانكسار جيوش انطونيوس

ثم رأت كيلوبيطرا ان محبّها انطونيوس لا يقوى على حمايتها فالتجأت الى الجانب الاقوى فارسلت صولجانها سرًّا الى اوكتافيوس وطلبت مساعدتهُ فوعدها بما تريد بشرط ان تتخلص من انطونيوس فعمدت الى الحيلة فاخفت نفسها وكل امتعتها واشاعت انها ماتت فلما علم انطونيوس بذلك لم يعد يهوى الحياة بعدها ثم بلغتهُ خيانتها فقتل نفسهُ اما اوكتافيوس فاستلم زمام الاسكندرية ونوى بكيلوبيطرا سوءًا اما هي فاوجست خيفةً منهُ وجعلت تستجلبهُ بما استجلبت غيرهُ من قبلهِ فلم تفز وفي اخر الامر قبض عليها ففضلت الانتحار على ان يقتلها غيرها فاكلت السم وماتت في ١٥ اغسطس (آب) سنة ٣٠ قبل المسيح وقال آخرون في كيفية موتها غير ذلك والله اعلم

وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وكان ذلك اليوم اخر حكم اليونان بمصر واول حكم الروم فيها

الدولة الرومانية

وهي العائلة الرابعة والثلاثون

حكمت من ٦٥٢ ــ ٢٤١ ق ه او من ٣٠ ق م ــ ٣٨٠ ب م

لما ماتت كيلوبيطرا على ما تقدم دخلت مصر في حكم دولة الروم وصارت ولاية من ولاياتهم يتولاها والٍ منهم يحكم بمقتضى شرائعهم

وهذهِ الدولة هي اخر دول الدور الجاهلي وقد توالى على مصر في حكم

دولة الروم عدة ولاة ليس في سرد اخبارهم ما يستحق الذكر سوى ظهور الديانة المسيحية في العالم ومجيء بعض نصرانها الى مصر وما لاقوهُ فيها من الاضطهادات العنيفة واشهر تلك الاضطهادات اضطهاد ديوقليطس فانهُ بالغ في اضطهاد المسيحيين وقتل منهم جمعًا غفيرًا بين كهنة وعامة ومن تولية هذا الملك (في ١٢ يونيو (حزيران) سنة ٢٨٤ ب م) يبتدئ التاريخ القبطي المعروف بتاريخ الشهداء وهو المعوَّل عليهِ عند الطائفة القبطية الى هذا العهد. وفي سنة ٣٠٦ ب م جعل قسطنطين امبراطور الروم سرير ملكهِ في مدينة بيزانس (القسطنطينية) فانحطت سطوة مصر

وفي سنة ٢٤١ ق ه او ٣٨١ ب م نهى الامبراطور "تيودوسيوس" المصريين عن عبادة الاصنام وامرهم باتباع الديانة المسيحية وانفاذًا لامرهِ هذا اسرع الى هدم جميع الهياكل وتنزيل الانصاب وابطال جميع التقاليد التي كان يعتبرها المصريون من ضروريات التدين وكل ذلك كان بمساعدة بطريرك الاسكندرية تيوفيلوس. وهنا ينتهي الدور الجاهلي ويبتدئ الدور المسيحي

الدور المسيحي

يبتدئ من سنة ٢٤١ ق ه ـ ١٨ ب ه او من ٣٨١ ـ ٦٤٠ ب م

لما توفي «تيودوسيوس» سنة ٣٩٥ ب م قام ولداه «هونوريوس» و«أركاديوس» واقتسما المملكة الرومانية بينهما فجعلاها مملكتين شرقية

وغربية وجعلا عاصمة الشرقية بيزانس وعاصمة الغربية رومية وكان كلاهما حاكمين معاً في وقت واحد اما مصر فكانت تابعة للمملكة الشرقية

وكأن هذا الانقسام كان رمزاً عن قرب انحلال هذه الدولة لان الامبراطورين ما فتئا يتناظران والانقسامات الدينية تزيد كل يوم والحرب قائمة سجالاً بين لاهوتيي بيزانس ولاهوتيي الاسكندرية . وكان لكل من الفريقين احزاب جمة وكثيراً ما اشتد الخصام بين هذه الاحزاب في الاسكندرية فآل الى اشهار السلاح واهراق الدماء. وكان الامبراطوران عبثاً يحاولان التوفيق بينها

فقد كانت النصارى اذ ذاك على قسمين متباينين في اجناسهم وعقائدهم احدها اهل الدولة وكلهم روم ورأيهم وديانتهم باجمعهم الديانة الملكية وعدتهم تزيد على ثلثماية الف رومي والقسم الاخر عامة اهل مصر ويقال لهم القبط وانسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منها القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي الاصل من غيره وكلهم يعاقبة فمنهم كتاب المملكة ومنهم التجار والباعة والاساقفة والقسوس واهل الفلاحة والزرع واهل الخدمة والمهنة وبينهم وبين الملكية اهل الدولة من العداوة ما يمنع ازواجهم ويوجب قتل بعضهم بعضاً ويبلغ عددهم عشرات الاف كثيرة جداً وهم بالحقيقة اهل مصر اعلاها واسفلها

وفي سنة ٦١٠ مسيحية في حكم هرقل كانت دولة الروم لا تزال آخذة بالتقهقر وكانت طائفة القبط قد ظهرت على سواها واتضح انها ستكون المؤسسة للديانة المسيحية في مصر وقد كانت ولا تزال . على ان دولة الروم كانت ترغب في جعل المصريين على مذهبها في الدين لتثبت لها مصر لكن اولئك لم يغفلوا عن هذا فثبتوا على مباديهم وحفظوا لغتهم وحافظوا على شريعتهم الدينية فترجموا جميع تعاليمها اليها ولا يخفى ان ذلك مما جمع كلمتهم وشد عرى اتحادهم فقووا وثار في خاطرهم امر الاستقلال وقد كان

في وسعهم لو حاولوهُ

ومما كان يزيد الاقباط ثبوتًا ضد الروم انهم كانوا يشاهدون قرب سقوط هذه الدولة مما كان يهددها من جميع جهاتها فالفرس يهددوا حدودها الشرقية والمغاربة كانوا ينتظرون اول فرصة لرفع النير عنهم وهكذا غيرها من الولايات . الّا ان التقادير كانت تعدّ هذه البلاد لامة حديثة نشأت في شبه جزيرة العرب نعني بها الأمّة الاسلامية

وكانت شبه جزيرة العرب في ذلك العهد جزءًا من مملكة الروم كسائر بلاد سوريا وفلسطين ومصر الّا انهم لم يكونوا يسكنون فيها ولا يعتنون بها على انهم لم يأخذوها بالحرب وانما كان تسلطهم عليها لمجرد عظمتهم ونفوذهم ولذلك لم يكن فيها حاميات من جنودهم . وهنا ينتهي الدور المسيحي ويبتدئ الدور الاسلامي

تاريخ مصر الحديث

فصلٌ في

مصادر تاريخ مصر الحديث

لم أرَ بين المؤرخين الكثيرين الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث مَن جاء على كتابةٍ مستوفية تتعاقب فيها الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة كل ذلك بعموم الدولة الاسلامية وسائر الدول المعاصرة . فبين مؤرخي المشرق ولا سيا العرب مَن اسهب في الكلام عن بعض اقسام مصر واعتنى بتاريخها على انفراد . ومنهم من انفرد بتاريخ بعض دول مصر دون البعض الاخر ومنهم من اقتصر على تراجم بعض مشاهير حكام

مصر او علمائها او ادبائها ومنهم من وصف بعض وقائعها وحروبها بقطع النظر عن تعاقب السنين ومنهم من نظر الى تناسق الحوادث مع نسبتها لتعاقب السنين لكنهُ اوجز كثيرًا فلم يأْتِ بالفائدة المطلوبة ومنهم من جاء على تاريخ مصر عرضًا اثناء تكلمهِ عن تاريخ الدولة الاسلامية عمومًا . فكان قولهُ متفرقًا مُخلًّا فضلًا عن كونهِ موجزًا

اما مؤرخو المغرب (الافرنج) ولا سيما المتأخرون فقد اتخذوا في كتاباتهم عن مصر اسلوبًا اقرب الى المقصود من قبيل تناسق الحوادث وتعاقبها بتعاقب السنين مع بعض الاسباب ولكنهم في الغالب لا يضبطون الأعلام لان حروف لغاتهم لا تساعدهم على ذلك وقد يسقطون المخاطبات البليغة التي كان يتكاتب بها الخلفاء والامراء فيما بينهم والخطب الفصيحة التي كانوا يلقونها في مجالسهم او على جنودهم او اذا لم يسقطوها فانهم يضعونها في لغة قومهم فتخسر بلاغتها ورونقها العربي فاذا أُريد ترجمتها الى العربية لا يتفق ان تأْتي على اصلها تمامًا

فرأَيت ان لكلٍّ من الطرفين حسنات فجمعت بينهما ملتزمًا صحة النقل وانتقاء اصحّ الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام التاريخية مع مراعاة الممكنات واغفال ما هو منقول بغير قياس ومناقض لاحكام العقل بين مبالغات واختلاقات وتقاليد

فكان مجمل المؤلفات التي اخذتُ عنها كتابي هذا ما ينوف عن الاربعين مؤلفًا فضلًا عن النواميس الكبيرة . ومن هذه المؤلفات ما هو مطبوع تتداولهُ الايدي ومنها ما لا يزال خطًّا محفوظًا في بعض المكاتب الخصوصية او العمومية كالمكتبة العامرة الخديوية ومنها ما لم يبقَ منهُ الا بعض الروايات المنقولة الى كتب الآخرين

وهاك جدول فيهِ اسماء اشهر المؤلفات العربية والافرنجية التي استعنت بها في تأْليف هذا التاريخ

الكتب العربية

اسم الكتاب	اسم المؤلف
الخطط	المقريزي
الكامل	ابن الاثير
ديوان العبر وكتاب المبتدا والخبر	ابن خلدون
وفيات الاعيان	ابن خلكان
اخبار الأُوَل	الاسحاقي
الافادة والاعتبار	عبد اللطيف البغدادي
النجوم الزاهرة	ابو المحاسن
خطط القاهرة	ابن عبد الظاهر
نزهة المقلتين	القيسراني
فتوح مصر	ابن عبد الحكم
سيرة المعز لدين الله	ابن زولاق
تاريخ مصر الكبير	المسبحي
شرح الاربع	ابن رضوان
اخبار امراء مصر	الكندي
اخبار مصر وعجائبها	وصيف شاه
اخبار الزمان	المسعودي
مروج الذهب	»
الطالع السعيد في تاريخ الصعيد	لابي الفضل
اخبار النوبة	الاصواني
عجائب البلدان	شافع ابن علي
المنهاج	المخزومي

ايقاظ المتغفل	ابن المتوّج
الجوهر المكنون	الجواني
عجائب الآثار	الجبرتي
زخيرة الاعلام	الغمري
رفع الاصر	العسقلاني
خطط مصر	علي باشا مبارك
تاريخ الدولة العثمانية	ابراهيم الطبيب
مصر للمصريين	سليم خليل النقاش
تاريخ الحرب السودانية	جبرائيل حداد الطرابلسي

الكتب الافرنجية

تاريخ الحروب الصليبية	مونروند	فرنساوي
« مصر الحديث	مارسل	»
« الحملة الفرنساوية	اميديه رنيم	»
« محمد علي	ب وه	»
الانبياء الثلاثة (عرابي وغوردون والمهدي)	مونرو	»
المشرق ومصر	دافاسيه دي بونيه	»
تاريخ الدوائر الصحية المصرية	بترونسوس بلك	»
الآثار المصرية	مري	انكليزي
الحوادث المصرية الاخيرة	شارلس رويل	»
تاريخ المماليك الى وفاة محمد علي	باتون	»
المملكة العثمانية	جمعية الرسائل الدينية	»

الانسيكلوبيديا البريطانية وغيرها من النواميس الشهيرة

جغرافية مصر الحديثة

«حدود مصر واقسامها»

كانت المملكة المصرية قبل الحوادث السودانية الاخيرة تمتد شمالاً الى البحر المتوسط وجنوباً الى قرب خط الاستواء حيث الجبال الزرق وبحيرة ألبرت نيانزا وشرقاً تبتدئ من العريش على ساحل البحر المتوسط وتسير جنوباً فتضم شبه جزيرة سينا وخليج العقبة حتى تلتقي بالبحر الاحمر مقابل راس بنار على ساحل البحر الاحمر الغربي ومن هناك تمتد الى مصوّع فخليج عدن حتى بربرا اما في تلك الانحاء الجنوبية فسلطة الخديوي لم تكن تتجاوز الشطوط فضلاً عن ان الحبشة وقبائل اخرى هناك كانت لا تزال مستقلة . وغرباً من راس الكنائس عند البحر المتوسط مخترقة صحراء لوبيا حتى دارفور ثم تنعطف شرقاً الى الجبال الزرق

اما بعد الحوادث السودانية الاخيرة فانحصرت المملكة المصرية في القطر المصري مع استبقاء سواكن وشبه جزيرة سينا وواحات صحراء ليبيا

فالقطر المصري او وادي النيل يحدهُ شمالاً البحر المتوسط وجنوباً الشلال الثاني (وادي حلفا) وشرقاً قنال السويس فالبحر الاحمر حتى سواكن وغربهُ راس الكنائس وصحراء ليبيا

وينقسم القطر المصري الآن الى قسمين عظيمين هما الوجه القبلي والوجه البحري او مصر العليا ومصر السفلى تفصل بينهما القاهرة وكل من هذين القسمين ينقسم الى اقاليم او مديريات في كل منها مدينة كبيرة تقيم فيها حكومة تلك المديرية وعلى كل من هذه المديريات حاكم يدعى مديراً وهاك اسماء المديريات وقواعدها

مصر السفلى

اسم المديرية	اسم قاعدتها
مديرية البحيرة	دمنهور
« المنوفية	شبين الكوم
« الشرقية	الزقازيق
« الدقهلية	المنصورة
« الغربية	طنطا
« القليوبية	بنها

مصر العليا

اسم المديرية	اسم قاعدتها
مديرية الجيزة	الجيزة
« بني سويف	بني سويف
« الفيوم	الفيوم
« المنيا	المنيا
« اسيوط	اسيوط
« جرجا	سوهاج
« قنا	قنا

وتنقسم المديرية الى عدة مراكز على كل منها ناظرٌ

وفي القطر المصري عدا عن هذه المديريات خمسة مراكز كل منها مستقل باحكامهِ عن المديرية الواقع هو فيها تُدعى محافظات وهي محافظات القاهرة واسكندرية ودمياط وعموم القنال (بما فيهِ بورت سعيد والاسماعيلية والسويس) ومحافظة الحدود وعلى كلٍّ منها حاكمٌ يقال لهُ محافظاً. وجميع المديريات والمحافظات ترجع باحكامها الى نظارة الداخلية

وعند ما كانت بلاد السودان في حوزة الحكومة المصرية كانت

حكمدارية تحتها تسع مديريات في مديريات دنقله وبربر والخرطوم وكردوفان وسنّار ودارفور والبحر الابيض والتاكا والجدارف . ومحافظة في محافظة سواكن

وقد كانت مساحة الاراضي المصرية قبل الحوادث السودانية الاخيرة نحوًا من مليون ونصف من الاميال المربعة فاصبحت الآن لا تزيد عن عشرة آلاف ميل نصفها في الدلتا والنصف الآخر فيما بقي

«سكان مصر»

بلغ عدد سكان مصر بناء على تقويم سنة ١٨٨٣ ٦٨٠٩٧٤٧ نسمًا منهم ٩٠٨٨٨ اجانب . ويظهر ان عدد سكانها في عهد المصريين القدماء قد تجاوز هذا العدد فقد قال هيرودوتس المؤرخ انهُ كان في مصر على عهد الملك اماسيس ٢٠٠٠٠ مدينة وقال ديودوروس ان عدد السكان بلغ سبعة ملايين ويوسيفوس يقول سبعة ونصف وقد انحط هذا العدد في عهد المماليك الى ثلاثة ملايين ثم اخذ يتزايد من عهد المغفور لهُ محمد علي باشا ولا يزال يتزايد الى يومنا هذا

وينقسم سكان مصر الآن الى وطنيين واغراب فالوطنيون منهم سكان القرى وسكان المدن وعرب البادية وهؤلاء ينقسمون الى ١٥ قبيلة متفرقين في انحاء القطر

اما الاغراب فمنهم الاوروباويون على اختلاف اجناسهم والاتراك والسوريون والحبش واهل نوبيا والزنوج وغيرهم

«مزروعات مصر»

تقسم مزروعات القطر المصري الى المزروعات السنوية والاشجار وقد حُسب عدد هذه المزروعات على وجه العموم فبلغ نحو ١٢٠٠ نوعًا

فمن المزروعات السنوية القمح والشعير والذرة والدخان والارز وقصب السكر والفول والعدس والحمص والترمس والبشلة والباميا واللوبيا واللبلاب والبصل والكراث والثوم والخبيزة والخس والكرمب والباذنجان والرشاد والفجل والخيار والقثاء وعبد اللاوي والعجور والشمام والبطيخ والجزر واللفت والبرسيم والحلبة والقطن والكتان والقنب والقرطم والسمسم والنيلة والحناء والفوة والافيون والخردل والكزبرة والبقدونس وغيرها

ومن الاشجار النخل والبرتقال والمندرين (يوسف افندي) والليمون والتين والجميز والموز والمشمش والخوخ والرمان والتوت والعنب والزيتون واللوز والسنط والطرفة والخرنوب والنبق والدوم واللبخ وغيرها

ومعظم هذه الاشجار كان معروفاً لدى المصريين القدماء الآن بعضها قد دخل الى البلاد حديثاً منها اللبخ وهو مزروع على معظم الشوارع العمومية في المدن الكبيرة للانتفاع بظلهِ

«حيوانات مصر»

تقسم الى الحيوانات الداجنة والحيوانات البرّية

فالداجنة منها الجمل والفرس والحمار والبغل والجاموس والبقر والضان والماعز والخنزير والكلب والهرّ والدجاج والديك الهندي والوز والحمام · ومن الغريب ان الجمل والجاموس والضان والدجاج لم تكن معروفة لدى المصريين القدماء

والحيوانات البرّية منها الخنزير البرّي والضبع والغزال وبقر الوحش وكبش الجبل وابو الحسين والذئب والثعلب والقط البرّي والنمس والارنب والوطواط والتمساح وحيوانات اخرى من الطيور والزحافات والاسماك لا حاجة بنا الى ذكرها

الدور الاسلامي

دولة الخلفاء الراشدين

خلافة عمر بن الخطاب

من سنة ۱۳ ــ ۲۳ ﻫ او ٦٣٤ ــ ٦٤٤ م

« مبدأُ الدولة الاسلامية »

وفي خلال تلك الانقسامات الدينية في مصر كانت نشأة حضرة صاحب الشريعة الاسلامية محمد الهادي بن عبد الله القرشي (صلعم) ولد في مكة المشرفة نحو سنة ٥٦٩ لميلاد المسيح وهاجر الى المدينة في ١٦ يوليو (تموز) سنة ٦٢٢ ومن هذا اليوم يبتدئ التاريخ الاسلامي وهو تاريخ الهجرة النبوية المعوَّل عليهِ الآن. وفي اخر السنة السادسة للهجرة كتب الى هرقل الروماني ملك القسطنطينية كتابًا يدعوهُ فيهِ الى الاسلام وكتب مثل ذلك الى سائر ملوك العرب والعجم وفي جملتها كتابٌ الى المقوقس يوحنا بن قرقت اليوناني حاكم مصر من قِبل ملك الروم فبعث اليهِ المقوقس اربع جوار منهنَّ ماريَّة ام ابراهيم ابنهِ فكان ذلك اول الصلات بين دولة العرب ومصر

ثم كانت الغزوات والفتوحات المشهورة حتى السنة الحادية عشرة فتوفي حضرة صاحب الشريعة (صلعم) وبويع الخليفة ابو بكر الصدّيق (رض) فعمل على استمرار الفتوحات حتى كانت خلافة امير المؤمنين عمر بن

الخطاب (رض) سنة ١٣ ﻫ او ٦٣٤ م

فما لبث الاسلام أن ظهر في شبه جزيرة العرب حتى انتشر بسرعة غريبة الى العراق وفارس والشام وفلسطين وغيرها جهادًا في سبيل الدين في مدة لا تتجاوز الثماني عشرة سنة

فلما رأى هرقل الروماني ما كان من افتتاح العرب لسوريا وغيرها من بلاده عنوة أوجس خيفة على باقيها ولا سيما مصر الا انهُ لم يكن في حسبانهِ ان العرب يقدمون الى مصر مفتتحين حالاً على أثر فتوحاتهم الكثيرة فاقام بينهُ وبين الخليفة الامام عمر بن الخطاب (رض) معاهدة مآلها ان يدفع الرومان جزية سنوية معلومة لخزينة المسلمين قبالة اغضائهم عن فتوح مصر. الا ان هذه الجزية لم تكن تُدفع في حينها وبالقدر المعيَّن فاعتبر الخليفة تلك المعاهدة لاغية

«فتح مصر. سنة ١٨ ﻫ او ٦٤٠ م»

وكان عمرو بن العاص لا يفتر عن ترغيب الخليفة عمر بن الخطاب في مصر وافتتاحها لانهُ كان قد ذهب اليها قبل ان اعتنق الدين الاسلامي ورأى فيها من العظمة والمجد ما جعلهُ شديد الرغبة في افتتاحها وكان يقول لهُ «انك ان افتتحتها كانت قوَّة للمسلمين وعونًا لهم وهي اكثر الارض اموالاً واعجز عن القتال والحرب» وكان الامام عمر يتخوف من ذلك ولا سيما بعد ان اقام المعاهدة بينهُ وبين هرقل لكنهُ بعد ان نُقضت على ما تقدم رأى ان يجيب طلبهُ فانتدبهُ الى ان يسير باربعة الاف رجل اشدَّاء وقال لهُ «سِر اني مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي سريعًا ان شاء الله تعالى فان ادركك كتابي آمرك فيهِ بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئًا من ارضها فانصرف وان انت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامضِ لوجهك واستعن باللهِ واستنصرهُ» وكان ذلك بعد افتتاح بيت المقدس

بأيام فسار عمرو بن العاص ومن معهُ قاصدًا مصر وهو يكاد لا يصدق ان أُذِنَ لهُ بذلك فلما بلغ رفح (وهي قرية تدعى الان رفع تبعد نحو عشر ساعات عن العريش) حتى ادركهُ رسولٌ من قِبل امير المؤمنين وألقى اليهِ كتابًا فخاف ان يكون ذلك الكتاب مؤذنًا بالانصراف عن مصر وهو لم يدخلها بعد فاجَّل فتحهُ حتى يدخل ارضها وكان اذ ذاك على مسافة يسيرة منها فامر بجدّ السير حتى امسى المساء فسأل اين نحن فقيل لهُ في العريش فعلم انهُ دخل ارض مصر فامر بالمبيت هناك وعند الفجر نهض القوم للصلاة وبعد اتمامها وقف عمرو وفي يدهِ كتاب الخليفة ففضَّهُ بكل احترام وتلاهُ على الجمهور بصوتٍ عالٍ وهو «بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليهِ سلام الله تعالى وبركاتهُ. اما بعد فان ادركك كتابي هذا وأنت لم تدخل مصر فارجع عنها وأما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئًا من ارضها فامضِ واعلم اني مُمِدُّك» فالتفت عمرو الى من حولهُ قائلاً اين نحن ياقوم فقالوا في العريش فقال وهل هي من ارض مصر ام الشام فاجابوا انها من مصر فقال هلمَّ بنا اذًا اذعانًا لامر الله وامر امير المؤمنين. وهكذا دخل عمرو بن العاص ارض مصر في اربعة الاف رجل في السنة الثامنة عشرة للهجرة وجعلوا يخترقونها جنوبًا في قسمها الشرقي وكان عددهم يزيد كل يوم ممَّن كان ينضمُّ اليهم من القبائل البدوية التي كانوا يمرُّون بها في طريقهم. فكان اول موضع قوتل فيهِ الفرما قاتلت الروم قتالاً شديدًا نحوًا من شهر ثم فتح الله على المسلمين وكان عبدالله بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى ان فرغ من حربهِ. ثم تقدم عمرو وهو لا يقاتل الا بالامر الخفيف حتى اتى بلبيس فقاتلوهُ فيها نحوًا من شهر حتى فتح الله عليهِ وكان في بلبيس ارمانوسة بنت المقوقس حاكم مصر من قبل الروم فأحبَّ عمرو ملاطفة المقوقس استجلابًا لودهِ فسيَّر اليهِ ابنتهُ مكرمة في جميع مالها فسرَّ

ابوها بقدومها كثيرًا

ثم سار عمرو وما زال حتى مرّ بجانب الجبل المقطم فاشرف على حصن بابل او بابليون القائم على ضفة النيل الشرقية مقابل الاهرام العظيمة وكان حصنًا منيعًا رفيع العماد [1] الى شرقيهِ الجبل المقطم راسخ وعلى وجههِ تجعُّداتٌ تدلُّ على قديم عهدهِ وبين الجبل والحصن بقعة من الارض لاشيءَ من العمارة فيها الا بعض الاديرة والكنائس ثم نظر الى الغرب فاذا بالنيل منحدر امام ذلك الحصن فيزيدهُ مناعةً والى ما وراء النيل ارضٌ قد كستها الطبيعة من جمالها حلة خضراء بين اعشاب واشجار خصبةٍ وهي جزيرة الروضة وكانت تعرف بجزيرة مصر والماء محيط بها مدار السنة . ويقطع النيل بين الحصن وهذه الجزيرة جسر من خشب وكذلك فيما بينها والجيزة يمرّ عليهما الناس والدواب من البرّ الشرقي الى الجزيرة ومن هذهِ الى البرّ الغربي وكان هذان الجسران مؤلَّفين من مراكب مصطفّة بعضها بحذاء بعض وموثقة بسلاسل من حديد ومن فوق المراكب اخشاب ممتدة فوقها تراب وكان عرض الجسر الواحد ثلاث قصبات

ثم تطلَّع عمرو الى ما وراء الجزيرة فاذا بالاهرام العظيمة راسخة كالجبال وقد اثقلت على كاهل الدهر فعجز عن هدمها ثم رمى بنظرهِ الى جنوبي اهرام الجيزة فاذا ببقايا منف العظيمة ترهب القلوب لما يتجلَّى فيها من العظمة والشوكة ومن جملتها اهرامها المعروفة الان باهرام سقاره

فامر عمرو ان تنصب الخيم فيما بين الحصن والمقطم لجهة الشمال قرب مصر القديمة اليوم ولم يكن هناك الا بعض المزارع والغياض وجعل

---

(1) ويسميهِ بعض مؤرخي العرب حصن باب البون او باب الاون وللمؤرخين فيهِ اقوال اظهرها انهُ حصن بناهُ الفرس عند تملكهم مصر ودعوهُ باسم عاصمة بابل لانها كانت في حوزتهم

يسرح نظره ويتأمل بما يتهدده من الاخطار في مقاومة هذا الحصن ثم نظر الى وادي النيل فاذا هو يانع خصب يشتهيه النظر يخترقه النيل المبارك . على غربيه آثار منف والاهرام وعلى شرقيه ذلك الحصن وفيه قد حشدت جنود المصريين متأهبين للدفاع ولم يكن قد رأى شيئاً من مثل ذلك فيما مرّ به من البلدان فعظم عليه الامر الاّ انه عاد الى عزمه عند ما تصور مقدار ما يلحق به من العار اذا عاد خائباً ومقدار ما يقع في يده من الخيرات اذا فاز بالنصر بعد الجهاد الحسن على انه اذا لم يفز في جهاده هنا واستشهد ففي الاخرة ما هو افضل مآباً

وكان في الحصن المقوقس وقد تقدم انه حاكم من قبل دولة الروم على مصر العليا والسفلى ومعظم سكانها من القبط وكانت عاصمة حكومته منف على الضفة الغربية واما هذا الحصن فقد اتخذه مركزاً حربياً ليمنع العرب من المرور الى عاصمته . والمقوقس هذا مع كونه يوناني الاصل فانه كان من حزب الوطنيين ويقال انه كان بينه وبين الرسول (صلعم) مكاتبة وعلى كلٍ فانه لم يكن له ان يفعل ما يشاء . فلما علم بقدوم جيوش الاسلام جهز حامية تحت قيادة احد كبراء جيشه المدعو الأعيرج وجاءوا بما لديهم من العدة والسلاح وتحصنوا في ذلك الحصن

اما عمرو فاخذ في المهاجمة مدة فابطأ عليه الفتح فكتب الى الخليفة يستمده فامده باربعة آلاف عليهم اربعة من كبار القواد وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة وورد معهم خطاب امير المؤمنين ونصه «اني قد انفذت اليك اربعة آلاف على كل الف منهم رجل مقام الف»

فانفذ عمرو احد قواده ولعله حذافة بخمسمائة فارس ليسيروا الى الجهة الثانية من الحصن من وراء الجبل فساروا ليلاً وكان الروم قد خندقوا

خندقاً وجعلوا له ابواباً وبذروا في افنيتها حسك الحديد فالتقى القوم حين اصبحوا فانهزم المصريون حتى دخلوا الحصن فصارت العرب محيطة بالحصن من كل الجهات الاّ النيل وكان حول ذلك الحصن الخندق فلم يستطع العرب الهجوم عليهِ واستمرّ رمي السهام طويلاً صباحاً ومساء ثم تشاور عمرو والزبير بشأن ذلك فاقرّا على تشديد الحصار ففرّقا الرجال حول الخندق. وألحّ عمرو على الحصن ووضع عليهِ المنجنيق ثم جعل يخابر معهم بشأن التسليم فلم يفعلوا على ان المقوقس كان ممن يريدون التسليم تخلصاً من نير الروم لما بينهُ وبينهم من الضغائن الناتجة عن الانقسامات الدينية الاّ انهُ لم يكن يجرأ على التصريح ببغيتهِ هذه لان رجالهُ لم يكونوا كلهم من حزبهِ ولا سيما الأعيرج. ولما رأى من اقدام العرب وصبرهم على القتال ورغبتهم فيهِ خاف ان يظهروا على رجالهِ فتكون الخسارة مزدوجة فعمد برجالهِ الى باب الحصن الغربي على ضفة النيل وعبروا على الجسر الى الجزيرة ثم تبعهُ الأعيرج تاركاً نفراً قليلاً من رجالهِ والعرب غير عالمين. ولما ابطأ الفتح قال الزبير «اني اهب الله نفسي وارجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين» فعبر الخندق ثم وضع سلماً الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام واخبر عمرواً انهم اذا سمعوا تكبيرهُ ان يجيبوهُ جميعاً فما شعروا الاّ والزبير على رأس الحصن يكبّر والسيف في يدهِ فتحامل الناس على السلّم حتى كادوا يكسرونهُ لكثرتهم فنهاهم ثم كبّر وكبّر الناس معهُ واجابهم الناس من خارج فظنّ من كان باقياً في الحصن ان العرب جميعهم هاجمون فهربوا وعمد الزبير واصحابهُ الى باب الحصن ففتحوهُ واقتحموا الحصن وتملكوهُ ثم عمدوا الى الجسر فتعقبوا القبط الى الجزيرة. واما هؤلاء فساروا الى منف عاصمة ولايتهم وبعد ان عبروا النيل رفعوا الجسر عنهُ فتوقف العرب عن تعقبهم اذ لم يكونوا يستطيعون عبور النيل فاصبحوا محاطين بالماء من كل الجهات

فلما رأى المتوقس ذلك انفذ الى عمرو كتاباً ونصهُ «انكم قومٌ قد ولجتم في بلادنا والححتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد اظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى في ايدينا فابعثوا الينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعلهُ ان يأتي الامر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليهِ ولعلكم ان تندموا ان كان الامر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالاً من اصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم بهِ من شيء»

فلما اتى رسل المتوقس الى عمرو حبسهم عندهُ يومين وليلتين حتى خاف عليهم المتوقس وانما اراد بذلك عمرو ان يروا حال المسلمين

وعند ذلك ردَّ عمرو الرسل وكتب الى المتوقس «انهُ ليس بيني وبينكم الاّ احدى ثلاث خصال إما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا وان ابيتم فاعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين»

فلما جاءت رسل المتوقس اليهِ قال كيف رأيتم هؤلاء قالوا «رأينا قوماً الموت أحبُّ الى احدهم من الحياة والتواضع احبُّ الى احدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب واكلهم على ركبهم واميرهم كواحد منهم لا يُعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيّد منهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم احد يغسلون اطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم»

فاقسم المتوقس قائلاً «لو ان هؤلاء التقوا الجبال لأزالوها ولا ينوى على قتال هؤلاء احد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لن يجيبونا بعد اليوم اذا امكنتهم الارض وقووا على الخروج من مواضعهم» وما زال على رجال حكومتهِ حتى وافقوهُ على طلب الصلح فكتب الى عمرو

«ابعثوا الينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى وهم الى ما عساهُ ان يكون فيهِ صلاحٌ لنا ولكم»

فبعث عمرو عشرة نفر احدهم عبادة بن الصامت وكان رابط الجاش هائل المنظر اسود اللون طولهُ عشرة اشبار وجعلهُ متكلم القوم وامرهُ ان لا يجيبهم الى شيء دعوهُ الاَّ احدى هذه الثلاث خصال قائلاً "ان امير المؤمنين قد تقدم اليَّ في ذلك وامرني ان لا اقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث خصال" فركبوا السفن الى ان اتوا المتوقس ودخلوا عليهِ فتقدم عبادة في صدر اصحابهِ فهابهُ المقوقس لسوادهِ وعظم جثتهِ وقال نحُّوا عني هذا الاسود وقدموا غيرهُ يكلمني فاجابوا «ان هذا افضلنا رأياً وعلماً وهو سيّدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعاً الى قولهِ ورأيهِ وقد امرنا الامير ان لا نخالف لهُ امراً» فقال المتوقس «وكيف رضيتم ان يكون هذا متقدماً عليكم وهو أسود وانما ينبغي ان يكون دونكم» فقالوا «كلاَّ وان كان اسود فهو افضلنا»

فقال المقوقس لعبادة «تقدم يا اسود وكلمني برفق فاني اهاب سوادك» فتقدم عبادة اليهِ وقال "قد سمعت مقالتك وانَّ فيمن خلفت من اصحابي الف رجل أسود كلهم اشدُّ سواداً مني وافظع منظراً وجميعهم اشد هيبةً مني وانا قد وليتُ وأدبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما اهاب مائة رجل وذلك انما لرغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانهِ وليس غزونا عدوّنا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها الاَّ ان الله عزَّ وجل قد احلَّ لنا ذلك وجعل ما غنمنا منهُ حلالاً وما يبالي احدنا ان كان لهُ قنطار ذهب او كان لا يملك الاَّ درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يأكلها ليسد بها جوعهُ لليلهِ ونهارهِ وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الاَّ ذلك كفاهُ وان كان لهُ قنطار من ذهب انفقهُ في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يدهِ ويبلغهُ ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيا

ليس نعيمًا ورخاءها ليس رخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك امرنا الله وامرنا به نبيّنا وعهد الينا ان لا تكون همة احدنا من الدنيا الا ما يمسك به جوعهُ ويستر عورتهُ وتكون همتهُ وشغلهُ في رضوانهِ وجهاد عدوّهِ»

فلما سمع المقوقس منهُ هذا الكلام قال لمن حولهُ بلغتهم «هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبتُ منظرهُ وان قولهُ لأهيب . ان هذا واصحابهُ اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها» ثم اقبل المقوقس على عبادة وقال لهُ

«ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليهِ الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجَّه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عددهُ قومٌ معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي احدهم بمن لقي ولا من قاتل وانّا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلّتكم وقد اقمتم بين اظهرنا اشهرًا وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نطايب انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولاميركم مائة دينار ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم ما لا قوام لكم بهِ»

فقال عبادة «يا هذا لا تغرَّنَّ نفسك ولا اصحابك اما ما تخوفنا بهِ من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانّا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا بهِ ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيهِ وان كان ما قلتم حقًّا فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشدّ لحرصنا عليهم لان ذلك اعذرُ لنا عند ربنا اذا قدمنا عليهِ أن قُتلنا من آخرنا كان امكن لنا في رضوانهِ وجنتهِ وما شيء اقرّ لاعيننا ولا احب لنا من ذلك وانّا منكم حينئذٍ لعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ولانها احب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله عزّ وجل

قال لنا في كتابهِ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وما منّا رجل الّا ويدعو ربهُ صباحًا ومساء ان يرزقهُ الشهادة وان لا يردّهُ الى بلدهِ ولا الى ارضهِ ولا الى اهلهِ وولدهِ وليس لاحد منّا همٌّ فيما خلفهُ وقد استودع كل منا ربهُ اهلهُ وولدهُ وانما همّنا ما امامنا . واما قولك اننا في ضيقٍ وشدّة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليهِ فانظر الذي تريدهُ فبيّنهُ فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الّا خصلة من ثلاث خصال فاختر ايها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك امرني الامير وبها امرهُ امير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل الينا اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيّم الذي لا يقبل الله غيرهُ وهو دين انبيائهِ ورسلهِ وملائكتهِ امرنا الله ان نقاتل من خالفهُ ورغب عنهُ حتى يدخل فيهِ فان فعل كان لهُ ما لنا وعليهِ ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبلت ذلك انت واصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرّض لكم وان ابيتم الّا الجزية فأدّوا الينا الجزية عن يد وانتم صاغرون وان نعاملكم على شيء نرضى بهِ نحن وانتم في كل عام ابدًا ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وعرض لكم في شيء من ارضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم بهِ عهد علينا وان ابيتم فليس بيننا وبينكم الّا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا ألذي ندين الله تعالى بهِ ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينهُ غيرهُ فانظروا لانفسكم"

فقال المقوقس "هذا ما لا يكون ابدًا ما تريدون الّا ان تتخذونا عبيدًا ما كانت الدنيا"

فقال عبادة "هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت"

فقال المقوقس "أفلا تجيبوننا الى غير هذه الثلاث خصال"

فرفع عبادة يديهِ الى السماء وقال "لا وربَّ هذه السماء وربَّ هذه الارض وربَّ كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم"

فالتفت المقوقس اذ ذاك الى اصحابهِ فقال قد فرغ القوم فما تريدون فقالوا « أيرضى احد بهذا الذل أمّا ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابدًا ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفهُ واما ما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيدًا فالموت ايسر من ذلك فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطيناهم مرارًا كان اهون علينا »

فقال المقوقس لعبادة « قد أبى القوم فما ترى فراجع اصحابك على ان نعطيكم في مرّتكم هذه ما تمنّيتم وتنصرفون »

فقال عبادة واصحابهُ « لا » . فقال المقوقس لاصحابهِ « اطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم تجيبوهم اليها طائعين لتجيبنّهم الى ما هو اعظم كارهين »

فقالوا «وأي خصلة نجيبهم اليها» قال « امّا دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم بهِ واما قتالهم فانا اعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولابدّ من الثالثة » قالوا «فنكون لهم عبيدًا ابدًا» قال « نعم نكونون عبيدًا مسلّطين في بلادكم آمنين على انفسكم واموالكم وذراريكم فاطيعوني من قبل ان تندموا » فاذعن القوم للجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونهُ .

فقال المقوقس لعبادة « اعلم اميرك اني لا أزال حريصًا على اجابتكم الى خصلة من تلك الخصال التي ارسل اليَّ بها فليعطني ان اجتمع بهِ انا في نفر من اصحابي وهو في نفر من اصحابهِ فان استقام الامر بيننا تمّ ذلك جميعًا وان لم يتم رجعنا الى ما كنّا عليهِ »

فرجع عبادة الى عمرو واخبرهُ بما كان فاستشار اصحابهُ فقالوا « لا نجيبهم الى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيئًا

وغنيمةً كما صار لنا الحصن وما فيهِ . فقال عمرو قد علمتم ما عهد اليَّ امير المؤمنين في عهدهِ فان اجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد اليَّ فيها اجبتهم وقبلتُ منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم . فوافقوهُ

فاجتمع عمرو والمقوقس واتفقوا على الصلح بان يعطى الامان للمصريين وهم يدفعون الجزية وهاك نصّ الشروط

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيءٌ في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصران يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذه الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليهِ ممن جنى نصرتهم فان أبى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى برية وان نقص نهرهم من غايتهِ اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فلهُ ما لهم وعليهِ ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنهُ ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمتهُ وذمة رسولهِ وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناهُ وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب»

ولما تم الصلح على هذه الصورة كتب المقوقس الى ملك الروم كتاباً يعلمهُ بالامر كلهِ فكتب اليهِ ملك الروم يقبح رأيهُ ويعجزهُ ويردّ عليهِ ما فعل ويقول في كتابهِ «ان ما أتاك من العرب اثنا عشر الفاً وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا اداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم

وبالاسكندرية ومن معك أكثر منماية الف فارس معهم العدّة والقوّة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت ان تكون انت ومن معك من الروم في حال القبط اذلاء فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى نموت او نظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة ناهضهم القتال ولا يكن لكم رأي غير ذلك » وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتبًا الى جماعة الروم

فأقبل المنوقس الى عمرو فقال له « ان الملك قد كره ما فعلت وعجّزني وكتب اليّ والى جماعة الروم ان لا نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك او تظفر بهم ولم اكن لأخرج مما دخلتُ فيه وعاهدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن اطاعني وقد تمّ صلح القبط مما بينك وبينهم ولم يأتِ من قبلهم نقضٌ وانا متمٌّ لك على نفسي والقبط متمّون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه، وعاقبتهم واما الروم فانا منهم براء وانا اطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال . الاولى ألّا تنقض بالقبط وادخلني معهم والزمني ما الزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه فهم متمّون لك على ما تحب واما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئًا وعبيدًا فانهم اهلٌ لذلك لاني نصحتهم فاستغشّوني ونظرت اليهم فاتهموني واما الثالثة فاني اطلب اليك ان أنا متُّ ان تأمرهم يدفنوني بجسر الاسكندرية » . فاجابه الى ما طلب على ان يضمنوا له الجسرين جميعًا ويقيموا لهم الأنزال والضيافة والاسواق في طريقهم الى الاسكندرية ففعلوا وصارت القبط لهم اعوانًا

فانفذ عند ذلك عمرو الى الخليفة رسولًا بكتاب يخبرهُ بما تمّ بينهُ وبين المنوقس فاجابهُ منشطًا وسألهُ ان يصف لهُ مصر فاجابهُ

« ورد اليّ كتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءهُ ويسألني عن مصر اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها

عشر بكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخطُّ وسطها النيل المبارك الغدوات ميمون الروحات تجري فيهِ الزيادة والنقصان لجاري الشمس والقمر . له اوان يدرُّ حلابهُ ويكثر عجاجهُ وتعظم امواجهُ فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الَّا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهنَّ المخايل ورق الاصايل فاذا تكامل في زيادتهِ نكص على عقبيهِ كأوَّل ما بدا في جريتهِ وطمى في درتهِ فعند ذلك تخرج ملّةٌ محقورة وذمّة مخفورة يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الربّ لغيرهم ما سعوا من كدهم فناله منهم بغير جدّهم فاذا احدق الزرع واشرق سقاهُ الندى وغذّاهُ من تحت الثرى فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤةٌ بيضاء إذ هي عنبرة سوداء فاذا هي زمرّدة خضراء فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقرُّ قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها وان لا يستأدي خراج الثمرة الَّا في اوانها وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق الملك والمال »

« فتح الاسكندرية . سنة ٢٠ هـ »

ولما تمَّ التعاهد بين المسلمين والقبط على ما تقدم هاجر جميع من كان بين هؤلاء من الروم ملتجئين الى الاسكندرية اما عمرو فعزم على النزول الى الاسكندرية فاقام في الحصن حامية ونادى برجالهِ ان يسيروا على نية الفتح وان يسير معهُ جماعة من رؤساء القبط يصلحون لهُ الطرق ويقيمون الجسور والاسواق وكانت خيام العرب مضروبة بين النيل والجبل على ما تقدم فامر عمرو بتقويضها والاستعداد للسير فجاءهُ قائلٌ « ان خيمة الامير قد عشعش في قمتها زوج من الحمام نحتهُ صغارهُ لا تستطيع الانتقال

فما رأي الامير» فاجاب عمرو قائلاً « ما عاذ الله ان نأبى حماية ذي حياة استجار بنا فتنزل دارنا واستظل بجانا فضلاً عن اننا لا نزال في شهر محرم المبارك الذي حرّم علينا فيه اتيان الاذى بشيء من خلق الله فاتركوا فسطاطي منصوبة لهذه الطيور فانها ضيوف عليَّ ريثما نعود ان شاء الله » ولا يخفى ما كان لهذه الحادثة من التأثير الحسن في قلب من سمعها من الوطنيين . فتركوها وساروا في سبيلهم قاصدين الاسكندرية متخذين ضفة فرع النيل الغربي خطة مسيرهم فلاقاهم في الطريق بعض من هاجر من منف من الروم فقاتلوهم يسيرًا وكان من هؤلاء فئة تحصنت في كوم شريك واخرى في مربوط وكانا على جانب من المنعة فتغلب عليهما عمرو واحتلهما اما القبط فكانوا اعوانًا للمسلمين في كثير من احتياجاتهم ذلك ما امرهم به المتوقس فلما بلغ ذلك جماعة الروم في الاسكندرية اشتدَّ غيظهم فاصرُّوا على الحرب واخذوا يعدُّون مهمَّات الدفاع اما عمرو فما زال يتقدم بجيشه الى الاسكندرية وكانت عاصمة القطر المصري الى ذلك العهد وفيها من عظمة الروم ورهبتهم ما يوقف الابطال وحاصرها برًّا اما بحرًا فكانت الطريق مفتوحة بينها وبين القسطنطينية وكان يأتيها منها كل ما تحتاج اليه من المؤن والزخائر فطال امد الحصار رغمًا عن جميع الوسائل التي اتخذها العرب فضجر عمرو فجمع اليه رجالهُ وخطب فيهم ما انهض هممهم فهاجموا الاسوار وهو في مقدمتهم فخرقوها فدخل المدينة عمرو واثنان من قواده وهما مسلمة بن مخلد ووردان الاَّ انهم لم يكادوا يطأونها حتى قفلت الاسوار وراءهم والقي القبض عليهم واحضروا امام الحاكم فخاطبهم قائلاً « هوذا انتم اسرى في ايدينا فاخبرونا ما الذي جاء بكم الينا وما الذي حملكم على قتالنا » فاجابهُ عمرو بقلب لا يهاب الموت « قد اتيناكم ندعوكم الى الاسلام فيكون لكم ما لنا او ان تدفعوا الجزية عن يدٍ وانتم صاغرون والاَّ فلا يمكنَّا الانكفاف عن قتالكم فان الله يأمرنا بهِ

الاّ اذا اجبتمونا الى احدى الخصلتين » فبهت الحاكم لجوابهِ وعظم انتهو على حين انهُ كان ينتظر منهُ تذللاً واستعطافاً شأن من كان على مثل حالهِ فداخلهُ الريب فقال لمن في مجلسهِ من الروم باللغة اليونانية يظاهر لي ان هذا الرجل من وجوه العرب وربما كان من كبار قوّادهم فلا ينبغي ان نتخلّى عن قتلهِ وكان وردان عارفاً باللغة اليونانية ففهم ما قالهُ الحاكم ولكي يطلع عمراً على ذلك لكمهُ مستهزئاً وناداهُ منتهراً « ما هذا الهذيان يا رجل ومن انت حتى تنطق بمثل ما نطقت او ان تنسب الى اسيادك ما قد نسبت من اقامك متكلماً عنهم او ما ادراك بمقاصدهم وما انت الاّ احد صعاليكهم فاصمتْ ولا تعد للتداخل فيما لا يعنيك »

فاختلف ظنُّ الحاكم لكنهُ لم يزل متعجباً لتلك الجسارة وزاد تعجبهُ عند ما رأى ان المتكلم احد صعاليك العرب ثم قال مسلمة « اعلم ايها الحاكم المعتبر أن أميرنا اقرب الناس الى المسالمة لكنهُ يرغب قبلَ الانسحاب ان يعقد مجلساً مؤلفاً من كبار الجيشين فيتفقون على شروط الانسحاب واذا اذنت بعودتنا اليهِ نخبرهُ بما لاقيناهُ من حسن المعاملة وما انتم عليهِ من كرم الاخلاق » فاجابهم الى ما طلبوا فانصرفوا وهم لا يصدقون انهم نجوا من الموت فبينما هم في الطريق قال مسلمة لعمرو « والله ما نجاك من الموت الا لكمة وردان » فوصلوا الى المعسكر وهم على نية تشديد الحصار الى ان يقضي الله بما يشاء

وفي اثناء ذلك استبطأ الخليفة فتح الاسكندرية . فكتب الى عمرو « اما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر انكم تقاتلونهم منذ سنين وما ذاك الاّ لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوّكم فان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً الاّ بصدق نيّاتهم وقد كنت وجهت اليك اربعة نفر واعلمتك ان الرجل منهم مقام الف رجل على ما كنت أعرف الاّ أن يكونوا قد غيّرهم ما غيّر غيرهم فاذا اتاك كتابي هذا فاخطب في الناس

وحضهم على قتال عدوّهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم اولئك الاربعة في صدور الناس ومر الناس جميعاً ان يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليعج الناس الى الله ويسألوهُ النصر على عدوّهم» فجمع عمرو رجالهُ وتلا عليهم كتاب امير المؤمنين فأثر فيهم تأثيرًا عظيمًا وعزموا على القيام بهِ

وفي خلال ذلك توفي هرقل ملك القسطنطينية ضحية مقاومة الذين حولهُ لما رأوا فيهِ من الخمول وكيف انهُ بعد ما رأى من تملك الاسلام بلادهُ لم يُبدِ حراكًا وعقب موتهُ انقسامات داخلية وحروب اهلية سفكت فيها دماءٌ بريئة بسبب ادّعاء الملك من هم من غير العائلة الملوكية وانتهى الامر بان عهد كرسي الملك لولدهِ هرقل الثاني او قسطنطين الثالث وهذا لم يمضِ عليهِ مائة يوم من جلوسهِ حتى قضى مسمومًا بيد مارتين امرأة ابيهِ ثم بمساعي بطريرك القسطنطينية عقد على الملك بعدهُ لهرقلينة ابنة مارتين المذكورة وبعد بضعة اشهر نصب قسطان بن هرقل الثاني فيقال اجمالاً انهُ كان على القسطنطينية ثلاثة ملوك في وقت واحد الامر الذي اوجب زيادة الانشقاق وتعاظم الخصام وكل ذلك مما اضعف من همة الاسكندرانيين وضاعف يأسهم فهاجر بعضهم بحرًا ولبث البعض الآخر في المدينة يريدون دفاعًا لم يقووا عليهِ . فدخلها عمرو يوم الجمعة غرة شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة او ٢٢ دسمبر سنة ٦٤٠ للميلاد واقام فيها احتفالاً عظيمًا تذكارًا لما اوتيهِ من الفتح المبين ثم كتب الى امير المؤمنين كتابًا ونصهُ

«من عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب عليهِ سلام الله تعالى وبركاتهُ اما بعد فقد فتحت مدينة لا اصف ما فيها غير اني اصبتُ فيها اربعة آلاف بنية باربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم

الجزية واربعمائة ملعب للملوك واثنتي عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر »

وبعد ان استلم عمرو زمام الاحكام أخذ في استجلاب قلوب الاهلين فجعل يقرب منهُ سراة القوم ووجوههم ويحكم في الناس بالقسط ويجيب التماسهم في كل ما كانوا يسألونهُ منهُ حتى اجمع الكل على الميل اليهِ والاذعان لامرهِ

وقد شوَّه كَتبة الافرنج تاريخ اعمال هذا القائد العظيم واعمال الخليفة عمر فيما يتعلق بحرق مكتبة الاسكندرية المشهورة فقالوا انها حرقت بمشورة الاول وامر الثاني وهاك ما ورد من اقوالهم بشأن ذلك قالوا « لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية علم بوجود مكتبة عظيمة هي مكتبة الاسكندرية الشهيرة وكان امرها مكتوماً عنهُ لمحاولة اهل الاسكندرية اخفاءها حرصاً عليها لانها كانت مشتملة على اثمن الكتب التي معظمها مكتوب على البابيروس (البردي) الّا ان احد علماء الروم القاطنين الاسكندرية واسمهُ يوحنا الغراماطيقي من الطائفة اليعقوبية كان منذ تشيعهِ لتلك الطائفة مرذولاً من الاسكندرانيين فاعتزل للدرس والمطالعة فلما فتح الاسلام الاسكندرية خطر لهُ ان هذه المكتبة العظيمة لا تلبث حتى يتشتت شملها فرأى ان يسعى جهدهُ ليستولي على شيء منها فطلب الى عمرو ان يسمح لهُ بالاطلاع على بعض كتبها فاجابهُ في بادئ الرأي ثم رأى من الحاحهِ وتلهفهِ ما يوجب المظنة فاستمهلهُ ريثما يخاطب امير المؤمنين بذلك فكتب اليهِ يستفتيهِ في امر المكتبة جملة فاجابهُ على الكتابين معاً في كتاب ونصهُ

« اني اهنئك بالفوز العظيم الذي أُوتيتهُ وانك اول من وُلي مصر من المسلمين اما المكتبة فلا يخلو ان تكون كتبها مصدقة لما في الكتاب العزيز فلا حاجة لنا بها اومناقضة لهُ فهي رجس وضلال وعلى التقديرين

حرقها اولى »

فلم يسع عمرو الا الاذعان لاوامر الخليفة فجعل الكتب التي اقتضى لكتابتها اجيال وقودًا لحمامات الاسكندرية ستة اشهر »

اما كتبة العرب فينزهون الخليفة الامام عمر بن الخطاب عن تلك الفعلة الشنعاء . وربما كان الاقرب الى الصواب ان هذه المكتبة ومكتبة اخرى كانت في الاسكندرية قبلها ذهبتا فريسة النار وأيدي الاشرار على عهد البطالسة ومن جاء بعدهم من الروم اثناء الحروب الاهلية ولم يبقَ منها شيء الى الفتوح الاسلامي والله اعلم

« بناء الفسطاط »

ثم كتب عمرو الى الخليفة يستفتيه في السكنى في الاسكندرية فسأل الخليفةُ الرسولَ هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل . فكتب الى عمرو « اني لا أُحبُّ ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفًا فمتى اردتُ ان أركب اليكم راحلتي حتى أقدم اليكم قدمتُ » فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وأمر فشُدَّت الرحال الى حصن بابل . فلمَّا بلغوا المكان حيث فسطاط الامير رأوها لا تزال منصوبةً وفيها الطيور فنزلوا فيها وجعلوا تلك الخيمة مركزًا لمعسكرهم ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالفسطاط . ثم انضمَّت القبائل بعضها الى بعض وأخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش فاختطَّ عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها الفسطاط فيها نحو عشرين حارة دعاها خططًا واقام اربعة من كبار رجالهِ ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم

وفي مكان حصن بابل اليوم كنائس قبطيَّة قديمة العهد يدعون مجملها قصر الشمع او دير النصارى او دير ماري جرجس فاذا تجاوزت

جامع عمرو مسافة بضع دقائق تاركاً مصر العتيقة الى يمينك تشاهد الى يسارك بناء كبيراً يظهر انهُ حارة مؤلفة من عدة ابنية عليها ملامح الشيخوخة وكأنها محاطة بسور كبير مقام من القرميد الاحمر عند اسفلهِ باب قديم مصفح بالحديد الغليظ يُتصل اليهِ بانحدار لا يقلُّ عن ثلاث اذرع وهذا هو احد ابواب الحصن على ما يظن ومن هذا الباب تدخل في زقاق ضيّق تتصل منهُ الى ازقّة كثيرة كلها ضيّق من النمط القديم ومنها تتصل الى عدة كنائس قبطية منها كنيسة العذراء وكنيسة ابي سرجة وكنيسة ماري جرجس وكنيسة القديسة بربارة وكنيسٌ لليهود (كان في الاصل كنيسة على اسم القديس ميخائيل) وغير ذلك وقد زرتُ جميع هذهِ الكنائس فرأيتُ انها مع كونها تشير الى تقادم عهدها في البناء فقد جُدّد فيها قسم عظيم وجميعها داخلة في بناء الحصن .

وما يستحق الانتباه اني شاهدتُ تحت كنيسة ابي سرجة مغارة ينزل اليها بعدة درجات يقولون انها كانت مقاماً للسيدة مريم العذراء عند قدومها الى مصر ويلوح لي انها كنيسة من الكنائس التي كان يصلّي فيها المسيحيون في ايام الاضطهاد الشديد لانها تظهر للمتأمل مبنيّة على مثال الكنائس الحاضرة ففي صحنها الى كل من الجانبين عدة اعمدة بينها نقرٌ في جدار المغارة اشبهُ بالمذابح وفي المغارة جرن للعمادة وكأنهُ تنور في الصخر

اما الحصن فاذا تأملت بجدرانهِ الباقية من الخارج تراها على نمط البناء الروماني وترى احدها وهو الجنوبي لا يزال عبارة عن برجين كبيرين في احدهما كنيسة العذراء المعروفة بالمعلّقة سمّيت كذلك لارتفاعها وبينهما باب مسدود وقد طمرت الاتربة جزءهُ السفلي ويشاهد في جدران اخرى آثار مثل هذين البرجين وتشير هذه الابراج الى ما كان عليهِ هذا الحصن من المناعة فلا غرو اذا امتنع على العرب سبعة اشهر . اما محلّة بابليون التي قد اقيم فيها هذا الحصن فلا يمكن معرفة حدودها الآن وانما

يشاهد الى جنوبي الحصن ببضع مئات من الامتار ديرٌ يقال له دير بابلون يُدخل اليهِ من باب ضيق مصفَّح بالحديد وفيهِ الى الآن كنيسة السيدة مريم يجتمع اليها بعض المسيحيين للصلاة وبناء هذا الدير اشبه ببناء الحصون منهُ بالاديرة وهو قائم في منخفض بين تلّين يقال لهما تلّ غراب ولم يعُد الآن غير هذا الدير حاملاً لاسم تلك المحلّة

وكثيرًا ما يقع الالتباس بين بابل هذه وبابل العراق في بعض النصوص التاريخية فيجب الانتباه الى ذلك

اما الفسطاط فقد خَربت ولم يبقَ منها الاَّ آكام من الاتربة فيما بين القاهرة ومصر العتيقة تجدها شمالاً اطراف القاهرة وجنوبًا قناطر السباع ومصر القديمة وشرقًا آكام من الاتربة متصلة بالقرافة وغربًا مدافن النصارى

وجعل عمرو الفسطاط عاصمة الديار المصرية ومركز الامارة بدلاً من الاسكندرية وجعل على الاسكندرية المقوقس وعلى الوجه القبلي عبدالله بن سعد بن ابي سرح بأمر الخليفة وتولّى بنفسهِ صلات مصر وخراجها فكان يجبي منها ١٢ مليونًا من الدنانير سنويًا

وكان في جملة القبائل التي حضرت فتح مصر وجاءت لاحتلالها قبيلة همذان فهذه أحبّت النزول في الجيزة مع مَن والاها من المسلمين فاستأذنوا عمرو بن العاص فقال مهلاً ريثما استشير امير المؤمنين فكتب اليهِ يعلمهُ بما فتح الله عليهم وبما ارادت همذان فاجابهُ بحمد الله على ما كان من ذلك ويقول لهُ «كيف رضيتَ ان تفرق اصحابك بان يكون بينك وبينهم بحر ولا تدري ما يفجأهم فلعلّك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكرهُ فاجمعهم اليك فان أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة واحبّوا ما هنالك فابنِ عليهم من فيء المسلمين حصنًا» فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا وأعجبهم موضعهم فبنى لهم حصنًا يقيهم اذا فاجأهم امرٌ

ثم سار عبدالله بن سعد الى الوجه القبلي لتدويخ البلاد فلم يلقَ معارضاً وما زال حتى اتى بلاد النوبة ففتحها كلّها

« اصلاح البلاد وتنظيمها »

وأخذ عمرو من ذلك الحين في تنظيم البلاد فقسم القطر المصري الى كور او أعمال يرأس كلاً منها حاكم قبطي تأتيه القضايا فينظر فيها ويصدر احكامهُ الى من هم تحت حكمهِ رأساً فحصل الاهلون على راحة لم يكونوا راوها منذ ازمان وساد الأمن في بلادهم

فامر عمرو بترميم مقاييس النيل التي كانت قد تعطّلت منها مقياس اصوان ومقياس ارمنت ومقياس منف وغيرها . وكان من عادة المصريين قبل الفتح الاسلامي انهُ اذا مضى ١٢ يوماً من شهر بوؤنه يعمدون الى جارية بكر من ابويها فيرضونهما ويجعلون عليها من الحلي افضلها ثم يلقونها في النيل ضحيةً . فابطل عمرو هذه العادة وعوّض عن الجارية بتمثال من طين . وقد ذكر بعض المؤرخين هذه الحقيقة في سياق حكاية لا بأس من ذكرها وهي انهُ اتّفق للنيل في السنة التالية للفتح انهُ لم يرتفع الارتفاع اللازم لري الاراضي ولما دخل شهر بؤونه القبطي قال لهُ اهل البلاد « ايها الاميران لنيلنا هذا سنّةً لا يجري الا بها » فقال لهم وما ذلك فقالوا « اذا كان اثني عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من ابويها فارضينا ابويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب افضل ما يكون ثم القيناها في النيل » فقال لهم عمرو « ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبلهُ » فمضى بؤونه وابيب ومسري وهو لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى همّوا بالجلاء فكتب عمرو الى امير المؤمنين عمّا كان فاجابهُ « انك قد اصبتَ ان الاسلام يهدم ما كان قبلهُ وقد بعثت اليك ببطاقة فالقها في داخل النيل اذا اتاك كتابي »

فلما قدم الكتاب الى عمرو فتح البطاقة فاذا فيها « من عبدالله أمير المؤمنين الى نيل مصر اما بعد فان كنت تجري بامرك فلا تجرِ واذا كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك بامرهِ فنسأل الله الواحد القهار ان يجريك » فالقى عمرو البطاقة في النيل وقيل ان ذلك كان قبل عيد الصليب بيوم وقد همَّ اهل مصر للخروج منها لانهُ لا يقوم بمصلحتهم فيها الاَّ النيل فاصبحوا يوم الصليب وقد اجراهُ الله تعالى ١٦ ذراعًا فلما رأى المصريون ذلك تعجبوا ووقع في قلوبهم الرعب وزاد احترامهم للخليفة واوامرهِ وابطلوا تلك العادة القبيحة واستبقوا رمزًا عنها تمثالاً من طين يصنعونهُ كل سنة عند فتح الخليج يسمونهُ العروسة فيلقونهُ في الخليج ولا يزال ذلك جاريًا الى يومنا هذا اثرًا لما كان يرتكبهُ المصريون القدماء من العسف كل سنة في شأن الفيضان

ثم اخذ عمرو في تنظيم العدلية وكانت امورها الى ذلك العهد منوطة بنواب ما اليمن او جهاديين من قبل حكومة الروم يستبدُّون بالرعية كيف شاؤُا وليس من ينصف فاوجد لهم عمرو المجالس النظامية وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية مؤلفة من اعضاء ذوي نزاهة واستقامة ومقام رفيع عند الاهلين . ولا بد لنا من ذكر فضل هذا الفاتح بانهُ اوَّل من اوجد هذه المجالس بمصر تحت اسم دواوين . اما اعضاؤُها فينتخبون من الاهالي والاحكام تجري بمقتضى عدل القضاة وتُستأنف عند الاقتضاء لنقضها او ابرامها ولم تكن احكام القضاة المسلمين تجري الاَّ على المسلمين باعتبار كونهم من جيش الاحتلال . والقضايا التي فيها احد الخصمين قبطي كان لنواب القبط حق التداخل فيها والعمل بمقتضى قوانينهم الدينية والاهلية

اما أعطيات الجيش فكانت تصرف مما يُجبى من اموال الخراج وتوزع في الديوان على الامراء والعمَّال والاجناد على قدر مرتبتهم وبحسب مقاديرهم ويحمل ما يفضل الى بيت المال وكان يقال لذلك في صدر الاسلام

العطاء وما زال ذلك جاريًا في الدول الاسلامية الى آخر الدولة الفاطمية ثم صارت منذ ايام صلاح الدين تُعطى اقطاعات تفرق على السلطان وامرائهِ واجنادهِ

وما فتئ عمرو يتخذ الوسائل الممكنة لاكتساب ثقة المصريين ولم يدع فرصة تفوتهُ في اكتسابها . فقد قيل ان البطريرك بنيامين كان من الطائفة اليعقوبية وكان مضطهدًا من هرقل ملك الروم اضطهادًا عظيمًا لمحافظتهِ على خطتهِ الدينية رغمًا عما كان يسومهُ ذلك الملك من الاكراه على تغييرها غير مبالٍ بما كان يهددهُ من المخاوف والاخطار فشدد هرقل عليهِ النكير واحرمهُ حرية التدين ومنعهُ من السلطة الدينية وهددهُ بالقتل ففرَّ يطلب ملجأً في بعض الاديرة فاقام هرقل مقامهُ في زمن الحصار رجلاً كان بيد المجلس آلة يديرونها كيف شاءوا وكانت مصر حينئذٍ منقسمة كما تقدم الى قسمين دينيين ملكيين ويعقوبيين وكان على رئاسة الطائفة الاولى وهي الاصغر هذا البطريرك الجديد وعلى الطائفة الثانية بطريرك واساقفة اقامهم هرقل باختيارهِ غير ان الشعب لم يكن يعاملهم الاَّ بالاحتقار ولم يكن يعتبر الرئاسة الحقيقية الاَّ لبنيامين المختار قديمًا منهم . فعند ما بادت سلطة الروم ورأى القبط من الاسلام ميلاً ورفقًا عرضوا امرهم الى عمرو يلتمسون استرجاع بطريركهم القديم فاستدعاهُ عمرو وطيب خاطرهُ واقامهُ في منصبهِ وخلع الذين كانوا مكانهُ فحسب القبط هذا الامر منةً وفضلاً وازدادوا ثقة وميلاً للمسلمين ولا سيما لما رأوهم يفتحون لهم الصدور ويبيحون لهم اقامة الكنائس والمعابد في وسط الفسطاط بل في وسط جيش الاسلام على حين انهُ لم يكن للاسلام معبد فكانوا يصلُّون ويخطبون في الخلاء

ثم عمد عمرو الى بناء جامع على مثال جامع مكة سعةً وشكلاً فبناهُ في الفسطاط قرب حصن بابل وكان في موضعهِ خان استولى عليهِ احد

رجال عمرو عند الفتح فلما عادوا من الاسكندرية طلب اليهِ عمرو ان يجعل منزلهُ هذا مسجدًا فرضي وكان النيل يجري بقربهِ ثم انحسر عنهُ بعد ذلك غربًا . واتى عمرو بحجارة ذلك الجامع من بقايا منف العظيمة بينها اعمدة كبيرة من الجرانيت وقطع هائلة من الرخام أُقيمت بها جدرانهُ وقد قيل ان القرآن كلهُ كان منقوشًا عليها مذهبًا . والجامع المذكور لا يزال الى يومنا هذا في مصر القديمة يعرف باسم جامع عمرو ويكاد يكون مهجورًا مساحتهُ ٣٥٠ قدمًا مربعًا وقد رُمِّم مرارًا بحيث لم يبقَ من البناء الاصلي الّا شيءٌ زهيد ومن جملة من جدَّد في بنائهِ السلطان المؤيد سنة ٨١٤ هـ وآخر هو مراد بك وهذا لم يكن يحاول ذلك الّا طمعًا بخباة أُوعز اليهِ انها مدفونة في بعض اجزائهِ كما سترى . واذا زرت هذا الجامع الآن تراهُ خرابًا وقد سقطت كل الاعمدة الرخامية التي كانت على الجانبين وفي صحنهِ حنفية وشجرة وفي ارض ليوانهِ صهريج

وفي هذا الجامع كانت تعطى قبالات الاراضي وهي ان متولِّي الخراج كان يجلس في جامع عمرو زمان ثبين فيهِ قبالة الاراضي (التزامها) ويجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات (وكانت صفقة البيع عند العرب ان يضرب المشتري يده على يد البائع ان رضي البيع ثم سمي عند البيع الصفقة) وكتَّاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي اليهِ مبالغ الكوَر والصفقات على من يتقبلها من الناس وكانت البلاد يتقبَّلها متقبلوها بالاربع سنين لاجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك فاذا انقضى الامر خرج كل من كان تقبل ارضًا وضمنها الى ناحيتهِ فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه اعمالها بنفسهِ واهلهِ ومن ينتدبهُ لذلك ويحمل ما عليهِ من الخراج في ابانهِ على اقساط ويحسب لهُ من مبلغ قبالتهِ وضمانهِ لتلك الاراضي ما ينفقهُ على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضريبة مقدرة في ديوان الخراج ويتأخر من مبلغ

الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين فكان اذا تأخر من مال الخراج البواقي تشدد الولاة في طلبهِ مرة وتسامح بهِ مرة فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكوا البلاد كلها وعدلوها تعديلاً جديداً فيزيدون فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد وينقصون فيما يحتاج التنقيص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع ابن العاص الى ان بنى احمد بن طولون جامعهُ

والمنتحون اجدر الناس باتباع الرفق بمن اصبحوا من رعاياهم وقد ضربت عليهم المسكنة بعد ان كانوا اصحاب البلاد وبيدهم الحل والعقد والظاهر ان عمرًا كان على بينةٍ من ذلك وقد جرى عليهِ لانهُ كان يتحمل من المصريين ويمهلهم في دفع الخراج الى حدّ ان يوقع فيهِ مظنة الخليفة ومما يحكى ان الخليفة استبطأ الخراج من قبل عمرو فكتب اليهِ

" بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الاَّ هو اما بعد فاني فكرت في أمرك والذي انت عليهِ فاذا ارضك ارض واسعة عريضة رفيعة وقد اعطى الله اهلها عددًا وجلدًا وقوّة في برّ وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكمًا مع شدة عتوّهم وكفرهم فعجبت من ذلك واعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديهِ من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب ولقد اكثرت في مكاتبتك في الذي على ارضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت ان تفيق فترفع اليَّ ذلك فاذا انت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذي في نفسي لست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ بهِ من الخراج قبل ذلك ولست ادري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرّبًا كافيًا صحيحًا ان البراءة لنافعة وان كنت مضيعًا نطعًا ان الامر لعلى غير ما تحدث بهِ نفسك وقد تركت ان ابتلي ذلك منك في

العام الماضي رجاء ان تنيق فترفع اليّ ذلك وقد علمت انهُ لم يمنعك من ذلك الّا ان عمّالك عمّال السوء وما توالس عليك وتلفّف اتخذوك كهفًا وعندي باذن الله دواء فيهِ شفاء عما اسألك فيهِ فلا تجزع ابا عبد الله ان يؤخذ منك الحق وتُعطاهُ فان النهر يخرج الدرّ والحق ابلج ودعني وماعنة تلجلج فانهُ قد برح الخفاء والسلام"

فكتب اليهِ عمرو " بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر امير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني أحمد الله الذي لا إله الّا هو اما بعد فقد بلغني كتاب امير المؤمنين في الذي استبطأني فيهِ من الخراج والذي ذكر فيهِ من عمل الفراعنة قبلي واعجابهِ من خراجها على ايديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ولعمري للخراج يومئذٍ اوفر واكثر والارض اعمر لانهم كانوا على كفرهم وعتوّهم أرغب في عمارة أرضهم منّا مذ كان الاسلام وذكرت ان النهر يخرج الدرّ فحلبتها حلبًا قطع درّها واكثرت في كتابك وأنّبت وعرّضت وتربت وعلمت ان ذلك عن شيء تخفيهِ على غير خبر فجئت لعمري بالمتطعات المقذعات ولقد كان لك فيهِ من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ولقد عملنا لرسول الله (صلعم) ولمن بعدهُ فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظّم الله من حقّ أيّمتنا نرى غير ذلك قبيحًا والعمل شينًا فتعرف ذلك لنا وتصدق فيهِ قبلنا معاذ الله من تلك الطعم وشرّ الشيم والاجتراء على كل مأثم فاقضِ عملك فان الله قد نزّهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبقِ فيهِ عرضًا ولم تكرم فيهِ اخًا والله يا ابن الخطّاب لأنا حين يُراد ذلك مني اشد غضبًا لنفسي ولها انزاهًا واكرامًا وما عملتُ من عمل ارى عليهِ فيهِ متعلقًا ولكني حفظت ما لم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكتُّ عن اشياء كنت بها عالمًا وكان اللسان بها مني ذلولاً ولكن الله عظّم من حقك

ما لا يجهل »

فكتب اليهِ الخليفة « من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج وكتابك اليَّ بثنيات الطرق وقد علمت اني لست ارضى منك الا بالحق البيّن ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجّهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا اتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو فيء المسلمين وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام »

فكتب اليهِ عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يستبطئني بالخراج ويزعم اني احيد عن الحق وانكث عن الطريق واني والله ما ارغب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظروني الى ان تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرًا من ان نخرق بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى لهم عنهُ والسلام »

فكف الخليفة مقتنعًا وقد كان محمولاً على ما اتاه بهِ ممن كان يناظر عمرًا على ولاية مصر

« فتح دمياط وتانس »

فمثل هذه المعاملة جعل للعرب منزلة رفيعة عند المصريين فعهدوا امورهم اليهم الاَّ الهاموك حاكم دمياط وهو من انسباء المقوقس فانهُ امتنع عن التسليم واستعد للحرب فانفذ اليهِ عمرو المقداد بن الاسود في طائفة من المسلمين فخرج اليهم الهاموك وحاربهم حتى قُتل ابنهُ بالحرب فعاد الى دمياط وجمع اليهِ اصحابهُ فاستشارهم في امرهِ وكان عندهُ حكيم قد حضر الشورى فقال لهُ « ايها الملك ان جوهر العقل لا قيمة لهُ وما

استغنى بهِ احد الأعداءُ الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهولاء العرب من بدء امرهم لم تُردّ لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلّوا العباد وما لأحد عليهم قدرة ولسنا باشدّ من جيوش الشام ولا أعزّ وأمنع وان القوم قد أُيّدوا بالنصر والظفر والرأي ان نعقد مع القوم صلحاً تنال بهِ الأمن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما انت باكثر رجالاً من المقوقس» فلم يعبأ الهاموك بقولهِ وغضب منهُ فقتلهُ وكان لهُ ابن عارف عاقل ولهُ دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين في الليل ودلّهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها فلما برز الهاموك للحرب لم يشعر بالمسلمين الاّ وهم يكبّرون على سور البلد فاستأمن المقداد فتسلم المسلمون دمياط واخبروا عمرًا بذلك ثم خرج شطا بن الهاموك بعد ان أسلم الى البرلس والدميرة واشموم طناح فحشد اهل تلك النواحي وجعلهم مددًا للمسلمين وسار بهم مع المسلمين لفتح تانس فبرز لاهلها وقاتلهم حتى قتل في المعركة في ليلة الجمعة نصف شعبان بعد ما أنكل فيهم فحُمل من المعركة ودُفن في مكانهِ المعروف بهِ خارج دمياط يجيئون فيهِ ليلة نصف شعبان من كل سنة ولم يكف المسلمون عن تانس حتى فتحوها

«خليج امير المؤمنين»

ومن الاعمال العظيمة التي أُجريت على يد عمرو بن العاص احتفار الخليج الموصل بين النيل والبحر الاحمر في سنة ٢٣ ﻫ ودعاهُ خليج امير المؤمنين وسبب ذلك ان الناس بالمدينة اصابهم جهد شديد في سنة الرمادة فكتب الخليفة الى عمرو بن العاص ما نصّهُ «من عبدالله عمر امير المؤمنين الى العاصي بن العاصي سلام اما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبعتَ انت ومن معك ان أهلك أنا ومن معي فياغوثاه ثم يا غوثاه» فكتب اليهِ عمرو «من عبدالله عمرو بن العاص الى امير المؤمنين اما

بعد فيا لبّيك ثم يا لبّيك قد بعثت اليك بعيرٍ اولها عندك وآخرها عندي والسلام» اراد بذلك انهُ ارسل لهُ قافلة من الجمال عظيمة الجمل الاول منها في المدينة والآخر في مصر يتبع بعضها بعضاً. فلما قدمت على الخليفة وسّع بها على الناس ودفع الى اهل كل بيت بعيراً بما عليهِ من الطعام ليأكلوا الطعام ويأتدموا بلحمهِ ويحتذوا بجلدهِ وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيهِ الطعام فيما ارادوا من لحاف وغيرهِ. فلما رأى الخليفة ذلك حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم اليهِ هو وجماعة من اهل مصر فقدموا فانفرد بعمرو جانباً وقال لهُ «يا عمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد ألقي في روعي لما احببتُ من الرفق باهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين والعرب قد تشاءمت بي وكادت ان تغلب على رحلي وقد عرفت الذي اصابها وليس جند من الاجناد ارجى عندي ان يغيث الله بهم اهل الحجاز من جندك فان استطعت ان تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله تعالى» فقال عمرو «ما شئت يا امير المؤمنين قد عرفت انهُ كانت تأتينا سفن فيها تجار من اهل مصر قبل الاسلام من خليج كان مفتوحاً بين النيل المبارك وبحر القلزم فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركهُ التجار فان شئت ان نحفرهُ فننشئ فيهِ سفناً يحمل فيها الطعام الى الحجاز فعلتهُ» فقال الخليفة نعم فافعل ولما خرج عمرو من حضرة امير المؤمنين لاقاهُ الذين أتوا معهُ من مصر فذكر لهم ما كان من حديث الخليفة فقالوا «ماذا جئت بهِ اصلح الله الامير أتريد ان تُخرج طعام ارضك وخصبها الى الحجاز وتخرب هذه فان استطعت فاستقل من ذلك» فاستصوب قولهم ثم جعل يتردد بين الامرين

فلما حان اوان عودهِ الى مصر ذهب لوداع امير المؤمنين فقال لهُ «يا عمرو انظر الى ذلك الخليج ولا تنسينَّ حفرهُ» فاجاب عمرو

« يا امير المؤمنين انهُ قد انسدَّ وتدخل فيهِ نفقات عظيمة » فقال لهُ « اما والذي نفسي بيدهِ اني لاظنُّك حين خرجت من عندي حدثت بذلك اهل ارضك فعظموهُ عليك وكرهوا ذلك اعزم عليك الا ما حفرتهُ وجعلت فيهِ سفناً » فقال عمرو « يا امير المؤمنين انهُ متى ما يجد اهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفُّوا الى الجهاد » فقال الخليفة « اني ساجعل من ذلك امراً الاَّ يحمل في هذا البحر الازرق اهل المدينة واهل مكة » فالفهم عمرو وعاد الى مصر وباشر لساعتهِ بحفر الخليج ومعالجتهِ وجعل فيهِ السفن ودعاهُ « خليج امير المؤمنين » ولم يزل يحمل فيهِ الطعام حتى حمل فيهِ بعد ذلك عمر بن عبد العزيز ثم ضيَّعهُ الولاة فأُهمل وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على ترعة السويس في ايام الخديوي اسماعيل باشا

وفي خلال ذلك تجنَّد عمرو الى الغرب ففتح برقة وصالحهُ اهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب ففتحها ايضاً وكتب الى الخليفة بذلك سنة ٢٢ للهجرة

خلافة عثمان بن عفَّان

من سنة ٢٣ — ٣٥ ه او من ٦٤٤ — ٦٥٥ م

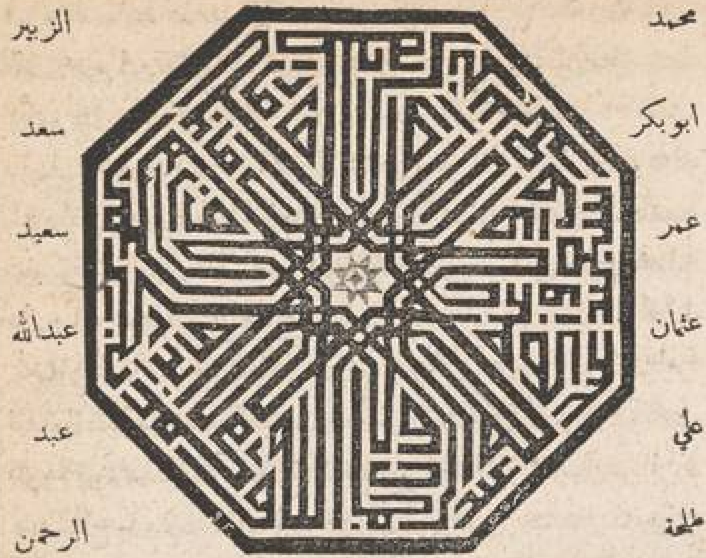
وبعد فتح طرابلس الغرب بقليل قُتل الامام عمر بن الخطاب بخنجر عبد فارسي يقال لهُ فيروز الملقب بابي لؤلؤة كان عبداً لمغيرة بن شعبة وذلك في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ ه بعد ان تولَّى الخلافة عشر سنين وخمسة اشهر وثمانية وعشرين يوماً

ونادى قبل وفاتهِ بعبد الرحمن بن عوف فصلَّى في الناس ثم قيل لو

استخلفت يا امير المؤمنين» فقال دعوني اعهد الى النفر الذي توفي رسول الله (صلعم) وهو عنهم راضٍ» ثم دعا عليًا وعثمان والزبير وسعد فقال «انتظروا اخاكم طلحة ثلاثًا فان جاء والّا فاقضوا امركم فقد قبض رسول الله وهو عنكم راضٍ واني لا اخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكني اخافكم فيما بينكم فيختلف الناس فانهضوا الى حجرة عايشة باذنها فتشاوروا فيها ثلاثة ايام ولا يأتينّ اليوم الرابع الّا وعليكم اميرٌ منكم ويحضر عبدالله بن عمر مشيرًا ولا شيء له من الامر وطلحة شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروهُ امركم وان مضت الايام الثلاثة قبل قدومهِ فامضوا امركم. انشدك الله يا علي ان وُلّيت من امور الناس شيئًا ان تحمل بني هاشم على رقاب الناس انشدك الله يا عثمان ان وُلّيت من امور الناس شيئًا ان تحمل بني معيط على رقاب الناس انشدكَ الله يا سعد ان وُلّيت من امور الناس شيئًا ان تحمل اقاربك على الناس فتشاوروا واقضوا امركم وليصلّ بالناس صهيب» . وترى في الشكل الثامن عشر اسم الجلالة واسم الرسول (صلعم) واسماء الصحابة المتقدم ذكرهم مع اسماء الخلفاء الراشدين مكتوبة بالحرف الكوفي في شكل جميل

وبعد وفاة عمر تشاور الصحابة فيما اوصاهم عمر فبايعوا عثمان بن عفان في ٣ محرم سنة ٢٤ هـ . وفي سنة ٢٥ ازل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولّى عبدالله بن سعد بن ابي سرح اخيهِ من الرضاعة وكان عاملًا على الصعيد في امارة عمرو . فلما تولّى امارة مصر جبي خراجها للسنة الاولى ١٤ مليونًا من الدنانير وكان عمرو لا يجبي اكثر من ١٢ مليونًا فقال عثمان لعمرو «يا ابا عبدالله درّت اللقحة باكثر من درها الاول» فاجابهُ عمرو «لقد اضررتم بولدها ذلك ان لم يمت الفصيل»

وفي اثناء ذلك انفذ الروم حملة من جنودهم لاسترجاع مصر من



ش ١٨ اسماء الجلالة والرسول والصحابة بالحرف الكوفي

المسلمين وسبب ذلك ان الروم في القسطنطينية عظُم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنّوا انهم لا يمكنهم المقام في بلادهم بعد خروج الاسكندرية من يدهم فكاتبوا مَن كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فاجابوهم لانهم رأوا الجوّ خاليًا لهم بعد موت الامام عمر الذي كان يبعث كل سنة غازية من اهل المدينة ترابط بالاسكندرية وكان على الولاء لا يغفلها ويكثف مرابطها ولا يأمن الروم عليها . فسارت الجيوش من القسطنطينية في المراكب تحت قيادة منويل الخصي فلما بلغوا الاسكندرية كان عليها المقوقس فمنعهم من الدخول فنزلوا في ساحلها وانضم اليهم من كان فيها من الروم اما المقوقس ومن معهُ من جماعة القبط فلم ينقضوا عهدهم مع المسلمين فسأل اهل مصر الخليفة ان يقرّ عمرو بن العاص حتى يفرغ من قتال الروم فان لهُ معرفةً بالحرب وهيبةً في العدوّ ففعل فنزل

عمرو الفسطاط يتأهب لمناهضة الروم وكان حول الاسكندرية سور فحلف عمرو لئن اظفرهُ الله عليهم ليهدمنّ سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان. فقال خارجة بن حذافة لعمرو «ناهضهم قبل ان يكثر مددهم فلا آمن ان تنقض مصر كلها» فقال عمرو «لا ولكن ادعهم حتى يصيروا اليَّ فانهم يصيبون من مرّوا بهِ فيخزي الله بعضهم ببعض» فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من اهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون اطعمتها وينهبون ما مرّوا بهِ فسار اليهم عمرو ولم يتعرّض لهم حتى بلغوا نقيوس فلقوهم في البر والبحر فبدأت الروم القبط بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيئًا وكانت الروم قد تاهبت صفوفًا خلف صفوف فبرز احد كبار الفرسان من الروم عليهِ سلاح مُذهب فدعا الى البراز فبرز اليهِ رجلٌ من زبيد يقال لهُ حومل يكنى ابا مزحج فاقتتلا طويلًا برمحين يتطاردان ثم القى الرومي الرمح واخذ السيف فالقى حومل رمحهُ واخذ سيفهُ وكان يعرف بالنجدة فجعل عمرو يصيح ابا مزحج فيجيبهُ لبيك والناس على الجانبين وقوف في صفوفهم كأن على رؤُوسهم الطير فتجاولا ساعة بالسيف ثم حمل الرومي فاحتملهُ حومل واخترط خنجرًا كان في منطقتهِ فضربهُ بهِ في نحرهِ فسقط ميتًا فوثب اليهِ واخذ سلبهُ ثم مات حومل بعد ذلك ودفن في المقطّم فاشتد المسلمون وانهزم الروم فطلبهم المسلمون حتى الحقوهم بالاسكندرية وقتلوا منويل الخصي واثخنوا في رجالهِ فاستنجدوا المسلمين فامر عمرو برفع السيف عنهم وبنى في ذلك الموضع الذي رفع فيهِ السيف مسجدًا دعاهُ مسجد الرحمة اشارة الى رفع السيف هناك وهدم سور المدينة ثم جمع ما اصاب منهم فجاءهُ اهل تلك القرى ممن لم يكن نقض فقالوا قد كنّا على صلحنا وقد مرّ علينا هؤلاء اللصوص فاخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك فردّ عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوهُ واقاموا عليهِ البينة فقال بعضهم لعمرو «ما حلّ

لك ما صنعت بنا فقد كان لنا ان نقاتل عنا لانا في ذمتك ولم ننقض فاما من نقض فابعدهُ الله » فندم عمرو وقال يا ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الاسكندرية

ولما انهزم الروم وسكنت القلوب اراد الخليفة ان يكون عمرو على جند مصر وعبدالله بن سعد على خراجها فقال عمرو « انا اذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يستدرُّها » فابى عمرو وتنحى عن مصر فعاد عليها عبدالله بن سعد

وفي سنة ٢٧ ﻫ غزا عبدالله بن سعد افريقيا فقتل ملكها جرجير وضم البلاد الى حكمهِ

وفي سنة ٢٨ ﻫ غزا قبرص مع معاوية بن ابي سفيان فصالحهم اهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وعليهم ان يوذنوا المسلمين ان يجعلوا طريقهم الى العدو اليهم

وفي سنة ٣١ ﻫ نقضت بلاد النوبة فغزاها عبدالله بن سعد وحصر رجالها في دنقله حصارًا شديدًا ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرفهُ وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك فطلب ملكهم « قليدوروث » الصلح وخرج الى عبدالله وابدى ضعفًا وتواضعًا فتلقاهُ عبدالله ورفعهُ وقرّبهُ ثم قرّر الصلح معهُ على ثلاثمائة وستين راسًا في كل سنة . وفي هذه السنة غزا ذا الصواري ايضًا

« مقتل عثمان »

وفي سنة ٣٢ ﻫ كثرت الاشاعة بالامصار بالطعن على عثمان وعمالهِ وكتب بعضهم الى بعض في ذلك وتوالت الاخبار الى اهل المدينة فجاؤُوا الى عثمان واخبروهُ فلم يجدوا عندهُ علمًا منهُ فقال اشيروا عليَّ وانتم شهود

المؤمنين قالوا تبعث من تثق بهِ الى الامصار يأتوك بالخبر اليقين فنعل فجاءتهُ الاخبار فكتب الى اهل الامصار «اني قد رفع اليَّ اهل المدينة ان عمالي وقع منهم اضرار بالناس وقد أخذتهم ان يوافوني في كل موسم فمن كان لهُ حقٌّ فليحضر يأخذ بحقهِ مني اومن عمالي او تصدقوا فان الله يجزي المتصدقين»

وفي سنة ٣٥ هـ بعث الى عمال الامصار فقدموا اليهِ في الموسم وفيهم عبدالله بن سعد بن ابي سرح من مصر فقال الخليفة «ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة واني اخشى والله ان يكونوا صادقين وانما الامر كائن وبابهُ سيفتح ولا احبُّ ان يكون لاحد عليَّ حجة في فتحهِ وقد علم الله اني لم آلُ الناس خيرًا فسكتوا الناس وبيّنوا لهم حقوقهم» ثم قدم المدينة ودعا عليًّا وطلحة والزبير ومعاوية حاضر فكلمهم فاظهروا لهُ وجه حجتهِ بالحقوق

وكان عبدالله بن سعد قد استخلف على مصر عند قدومهِ الى عثمان عقبة بن عامر وكان فيها محمد بن ابي حذيفة ممن ثاروا على عثمان فجمع اليهِ عصبة واخرج عقبة بن عامر من الفسطاط ودعا الى خلع عثمان واسعر البلاد وعرَّض على عثمان بكل شرٍّ يقدر عليهِ فاعتزلتهُ شيعة عثمان ونابذوهُ وهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة وبسر بن ارطاة ومسلمة بن مخلد في جمع كثير وبعثوا الى عثمان بأمرهم وما صنعهُ ابن ابي حذيفة فبعث سعد بن ابي وقاص يصلح امرهم فخرج اليهِ جماعة فقلبوا فسطاطهُ وشجوهُ وسبوهُ فركب وعاد راجعًا ولما اقبل عبدالله بن سعد من مكة منعوهُ ان يدخل فانصرف الى عسقلان

وازداد المسلمون تعصبًا على عثمان فتكاتبوا من امصارهم في القدوم الى المدينة خفيةً فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في الف وخرج اهل الكوفة والبصرة وكلهم في مثل عدد اهل مصر وخرجوا جميعًا في شوال مظهرين للحج فلما أتوا المدينة واجه المصريون عليًّا وهو عند احجار

الزيت فعرضوا اليه أمرهم فصاح بهم وطردهم وفعل مثل ذلك طلحة مع البصريين وزبير مع الكوفيين فانصرفوا الى بعدٍ فتفرّق اهل المدينة ظنًّا منهم ان القوم قد رجعوا عن مرادهم فلم يشعروا الّا والتكبير في نواحيها وقد أحاط المصريون بعثمان ونادوا بأمان من كفّ يدهُ فغدا عليهم عليٌّ فقال "ما ردكم بعد ذهابكم" قالوا "أخذنا كتابًا مع بريدٍ بقتلنا والكتاب موقَّع عليهِ من عثمان" فدخل عليٌّ على عثمان واخبرهُ برجوع المصريين فاشرف عثمان على الجمع وخطب فيهم بريد زجرهم فنادوهُ من كل ناحية "اتقِ الله يا عثمان وتب اليهِ" وكان اولهم عمرو بن العاص فرفع الخليفة صوتهُ وقال "انا اوّل من اتّعظ واستغفرُ الله مما فعلت واتوب اليهِ فليأتِ اشرافكم يروني رأيهم فوالله اين ردّني الحقُّ عبدًا لاستنّنّ بسنّة العبد ولاذلّنّ ذلّ العبد وما عن الله مذهب الّا اليهِ فوالله لاعطينّكم الرضا ولا احتجب عنكم". ثم بكى وبكى الناس ورجع الى منزلهِ فدخل عليهِ عليٌّ ومحمد بن مسلمة وسألوهُ عن اعتراضهِ على ما يقولهُ اهل مصر فحلفَ ما كتب ولا علم ثم دخل عليهِ المصريون وقالوا لهُ «جئنا لقتلك فردّنا عليٌّ ومحمد وضمنا لنا النزوع عن هذا كلهِ فرجعنا ولقينا رسولك ناقلًا كتابًا وفيهِ امرك لابن ابي سرح (ولم يكونوا عالمين باعمال ابن ابي حذيفة) بجلدنا والمثلة بنا وهو بيد غلامك وعليهِ خاتمك» فحلف عثمان لا كتبَ ولا أمرَ ولا علمَ. قالوا «فكيف يجترأُ عليك بمثل هذا فقد استحقيت الخلع على التقديرين اذ لا يحلّ ان يولى الامور من ينتهي الى هذا الضعف فاخلع نفسك» فقال «لا أنزع ما البسني الله ولكني اتوب وارجع» قالوا «رأيناك تتوب وتعود فلا بدَّ من قتلك» وخرجوا وبقي محصورًا اربعين يومًا مُنع عنهُ الماء في اواخرها وفي ١٨ ذي الحجة قُتل منحورًا برمح محمد بن ابي بكر والقرآن في يدهِ فتخضب بالدماء. وهجمت نائلة امرأتهُ لتحميهُ بيدها فاصيبت بضربة قطعت اصابعها. وبقي في بيتهِ ثلاثًا ثم جاء حكيم ابن

حزام وجُبَيْر بن مطعم الى علي فأذن لهما في دفنهِ فخرجا بهِ ومعهما الزبير والحسن وابو جهم بن حذيفة ومروان فدفنوهُ في حش كوكب بعد ان تولّى الخلافة ١٢ سنة الاّ ١٢ يوماً

ولما علم اهل مصر بقتل عثمان ثار المتشيعون لهُ فيها وعقدوا لمعاوية بن حديج وبايعوهُ على الطلب بدم عثمان فساروا الى الصعيد فبعث اليهم ابن ابي حذيفة خيلاً فهزمت ومضى ابن حديج الى برقة ثم رجع الى الاسكندرية فبعث اليهِ ابن ابي حذيفة جيشاً آخر فالتقى بهِ في خربتا في اول شهر رمضان سنة ٣٦ فاقتتلوا وكانت النصرة لشيعة عثمان وانهزم الجيش واقامت شيعة عثمان في خربتا

خلافة علي بن ابي طالب

من سنة ٣٥ – ٤١ هـ او من ٦٥٥ – ٦٦١ م

امّا ما كان من امر الخلافة فان طلحة والزبير والمهاجرين والانصار اجتمعوا الى علي (رض) يبايعونهُ فأبى وقال « اكون لكم وزيراً خيرٌ من ان اكون اميراً ومن اخترتم رضيتهُ » فالحّوا عليهِ قائلين « لا نعلم احق منك ولا نختار غيرك » فبايعوهُ في المسجد يوم الجمعه في ٢٤ ذي الحجة سنة ٣٥ واول من بايعهُ طلحة ثم الزبير ثم بايعهُ الناس وبايعتهُ الانصار وتاخر منهم قليلون فخطب خطبتهُ الاولى في الناس بعد حمد الله فقال « وان الله انزل كتاباً هادياً يبيّن فيهِ الخير والشرّ فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض الفرائض أدوها الى الله تعالى يؤدِّكم الى الجنة . ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلها وشدّ بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانهِ ويدهِ الاّ بالحقّ ولا

يحلّ دم امرءٍ مسلم الّا بما يجب بادروا امر العامة وخاصّة احدكم الموت فان الناس امامكم وان ما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس اخراهم اتقوا الله عباد الله في بلادهِ وعبادهِ انكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم اطيعوا الله فلا تعصوهُ واذا رأيتم الخير فخذوا بهِ واذا رأيتم الشر فدعوهُ واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الارض»

ثم رجع الى بيتهِ فدخل عليهِ طلحة والزبير وعدد من اصحابهِ فقالوا يا علي انا قد اشترطنا اقامة الحدود وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل واحلّوا بانفسهم فقال «يا اخوتاه اني لست اجهل ما تعلمون ولكن كيف اصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم اعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا فهل ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون» قالوا لا فقال «فلا والله لا ارى الّا رأيًا ترونهُ ابدًا الا ان يشاء الله . ان هذا الامر امر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادة وذلك ان الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض آخذ بها ابدًا ان الناس من هذا الامر ان حُرّك على امور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا واشتدوا على قريش» ثم خرجوا من عندهُ وقد اضمروا لهُ شرًّا

وكان معاوية لما توجّه الى ولايتهِ في الشام اخذ قميص عثمان الملطّخة بالدماء واصابع نائلة امرأتهِ وعلّق القميص في المنبر وجعل يخطب في الناس ويغرس في اذهانهم ان قاتل عثمان انما هو عليّ ويحثهم على معاملة القاتل بالقتل وشدد النكير على عليّ فالتفّت عليهِ دعاة رغبة في الانتقام

وما زاد اعداء الامام عليّ عددًا انهُ لم تدخل سنة ٣٦ هـ حتى عزل جميع من كانوا على الامصار في ايام عثمان وولّى مكانهم من رأى من المتقربين فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة

وعبدالله بن عباس على اليمن ولما علم بقتل محمد بن ابي حذيفة ولّى مكانهُ قيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام عوضاً من معاوية اما سهل فخرج حتى اذا كان في تبوك لقيتهُ خيلٌ فقالوا من انتَ قال اميرٌ قالوا على اي شيءٍ قال على الشام فقالوا «ان كان بعثك عثمان فاهلاً بك وان كان بعثك غيرهُ فارجع» قال اما سمعتم بالذي كان قالوا بلى فرجع الى عليّ . اما قيس بن سعد فكان صاحب راية الانصار مع النبي (صلعم) وكان من ذوي الراي والبأس وكان ضخماً جسيماً صغير الرأس طويلاً جداً مطاعاً جواداً كريماً يُعدُّ من دهاة العرب ولما ولّاهُ على مصر قال لهُ «سِر الى مصر فقد ولّيتُكها واخرج الى رجلك واجمع اليك ثقاتك ومن احببت ان يصحبك حتى تأتيها ومعك جندٌ فان ذلك ارهب لعدوك واعز لوليّك واحسن الى المحسن واشدُد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فان الرفق يمنٌ» فقال لهُ قيس «اما قولك اخرج اليها بجند فوالله لئن لم ادخلها الّا بجند آتيها بهِ من المدينة لا ادخلها ابداً فانا ادع ذلك الجند لك تبعثهم في وجوهك» فخرج قيس حتى دخل مصر في مستهل رجب سنة ٣٧ هـ بسبعة من اصحابهِ فصعد المنبر وامر بكتاب امير المؤمنين فقُرئ على اهل مصر بامارتهِ ويأمرهم بمبايعتهِ واعانتهِ على الحق وقال «الحمد لله الذي جاء بالحق وامات الباطل وكبت الظالمين ايها الناس انّا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبيّنا فقوموا ايها الناس فبايعوهُ على كتاب الله وسنّة رسولهِ فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم» فقام الناس وبايعوا واستقامت مصر وبعث عليها عمّالهُ الّا خربتا وفيها من قد اعظموا قتل عثمان وعليهم رجل من بني كنانة اسمهُ يزيد بن الحرث فبعث الى قيس يدعوهُ الى الطلب بدم عثمان وكان مسلمة بن مخلد قد اظهر الطلب ايضاً بدم عثمان فارسل اليهِ قيس «ويحك أَعليَّ تثب فوالله ما احبُّ ان لي ملك الشام الى مصر واني قتلتك» فبعث اليهِ

مسلمة « اني كافٍ عنك ما دمت وانت والي مصر »

وكان معاوية لا يزال ساعياً على عليّ فلما رأى مصر قد استقام امرها خاف ان يُقبل عليٌّ في العراق وقيسٌ في مصر فيقع هو بينهما فكتب الى قيس « سلام عليك اما بعد فانكم نقمتم على عثمان ضربةً بسوط او شتيمة رجل او تسيير آخر واستعمال فتى وقد علمتم ان دمهُ لا يحلُّ لكم فقد ركبتم عظيماً وجئتم امراً إدًّا فتُب الى الله يا قيس فانك من المجلبين على عثمان فاما صاحبك فانا استيقنّا انهُ هو الذي اغرى الناس وحملهم حتى قتلوهُ وانهُ لم يسلم من دمهِ عظم قومك فان شئت يا قيس ان تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على امرنا ولك سلطان العراقين اذا ظهرت ما بقيت ولمن احببت من اهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان وسلني ما شئت فاني اعطيك واكتب اليّ برأيك » فلما جاءهُ الكتاب احب ان يراقعهُ ولا يبدي لهُ امرهُ ولا يتعجل الى حربهِ فكتب اليهِ « اما بعد فاني لم اقارف شيئاً مما ذكرتهُ وما اطلعت لصاحبي على شيءٍ منهُ وما ذكرت ان عظم عشيرتي لم يسلم فاول الناس كان فيهِ قياماً عشيرتي واما متابعتك فهذا امرٌ لي فيهِ نظر وفكرة وليس هذا مما يسرع اليهِ وانا كافٍ عنك وليس يأتيك من قبلي شيءٌ تكرههُ حتى ترى ونرى ان شاء الله تعالى » فلما قرأ معاوية كتابهُ رآهُ متقارباً متباعداً فكتب اليهِ « اما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فاعدك سلماً ولا تتباعد فاعدك حرباً وليس مثلي يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعهُ عدد الرجال واعنَّة الخيل والسلام » فلما قرأ قيس الكتاب ورأى انهُ لا تفيد معهُ المراقعة والمماطلة عمد الى مكاشفتهِ بما في نفسهِ فكتب اليهِ « اما بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك فيَّ واستسقاطك ابايَ اتسومني الخروج عن طاعة اولى الناس بالامارة واقولهم بالحق واهداهم سبيلاً واقربهم من رسول الله (صلعم) وسيلةً وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعةِ أبعد الناس من هذا الامر وأقولهم

بالزور واضلهم سبيلاً وابعدهم من رسول الله (صلعم) وسيلة ولد ضالين مضلين طاغوت من طواغيت ابليس واما قولك اني مالئ عليك مصر خيلاً ورجالاً فوالله ان لم اشغلك بنفسك حتى تكون اهم اليك انك لذو جدٍ والسلام» فلما رأى معاوية كتابة قنط منهُ وثقل عليهِ مكانهُ ولم تنجع فيهِ حيلة فجعل يسعى الى كيدهِ افساداً بينهُ وبين عليٍّ فقال لاهل الشام «لا تسبوا قيساً ولا تدعوا الى غزوهِ فانهُ لنا شيعة تاتينا كتبهُ ونصيحتهُ سراً الا ترون ما يفع باخوانكم الذين عندهُ من اهل خربتا يجري عليهم اعطياتهم وارزاقهم ويحسن اليهم» واتقانا لمكيدتهِ افتعل كتاباً عن قيس اليهِ بالطلب بدم عثمان والدخول معهُ في ذلك وقرأهُ على اهل الشام فبلغ ذلك علياً فاعظمهُ واكبرهُ فدعى ابنيهِ وعبدالله بن جعفر واعلمهم بذلك فقال ابن جعفر "يا امير المؤمنين دع ما يريبك الى ما لا يُريبك لعزل قيس عن مصر" قال عليٌّ "اني والله ما اصدق بهذا عنهُ" فقال عبدالله اعزلهُ فان كان هذا حقاً لا يعتزل لك . فبينما هم كذلك اذ جاءهم كتاب من قيس يخبر امير المؤمنين بحال المعتزلين وكفهِ عن قتالهم فقال ابن جعفر "ما اخوفني ان يكون ذلك ممالئة منهُ فمرهُ بقتالهم" فكتب اليهِ يأمرهُ بقتالهم فلما قرأ قيس الكتاب كتب جوابهُ اما بعد فقد عجبت لامرك تأمرني بقتال قوم كافين عنك ومتى حاددتهم ساعدوا عليك عدوّك فاطعني يا امير المؤمنين واكفف عنهم فان الراي تركهم والسلام"

فقرأ عليٌّ الكتاب بحضور ابن جعفر فقال لهُ يا امير المؤمنين ابعث محمد بن ابي بكر على مصر واعزل قيساً فبعث عليٌّ محمد بن ابي بكر الى مصر فلما وصلها قال لهُ قيس "ما بال امير المؤمنين ما غيّرهُ أدخل احدٌ بيني وبينهُ" قال لا وهذا السلطان سلطانك فقال قيس والله لا اقيم وخرج من مصر مقبلاً الى المدينة وسار الى عليٍّ واخبرهُ

الخبر فعلم انهُ كان يقاسي اموراً عظاماً من المكايدة

اما محمد بن ابي بكر لمَّا قدم مصر على ما تقدم جمع اليهِ سراة البلاد ورجال الدولة وتلا عليهم كتاب أمير المؤمنين ثم قام خطيباً فقال «الحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيهِ من الحقّ وبصرنا وإياكم كثيراً مما كان عميَ عنهُ الجاهلون ألا ان امير المؤمنين ولّاني امركم وعهد اليَّ ما سمعتم وما توفيقي الّا بالله عليهِ توكلت واليهِ انيب فان يكن ما ترون من امارتي واعمالي طاعة لله فاحمد الله على ما كان من ذلك فانهُ هو الهادي لهُ وان رأيتم عاملاً لي عمل بغير الحق فارفعوا اليَّ وعاتبوني فيهِ فاني بذلك أسعد وانتم جديرون وفَّقنا الله وإياكم لصالح الاعمال برحمتهِ»

وفي سنة ٣٨ هـ خرج معاوية بن حديج السكوني وطلب بدم عثمان فالتفَّ عليهِ قومٌ كثيرون وفسدت مصر على محمد بن ابي بكر

اما معاوية فكان قد استفحل امرهُ وكثر متبعوهُ فبايعوهُ على الشام ولم يكن لهُ همٌّ الّا مصر وكان يخشى منها لقربها منهُ وكان يعتقد انهُ اذا ظهر عليها مكنتهُ من الظهور على علي فتكون الخلافة كلها لهُ . فاجتمع بعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وغيرهما من سراة قومهِ وقال لهم «أتدرون لما جمعتكم فاني جمعتكم لامرٍ ليَ مهم» فقال عمرو «دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر فان كنت جمعتنا لذلك فاعزم واصبر فنعم الرأي رأيتَ في افتتاحها فانّ فيهِ عزك وعز اصحابك وكبت عدوك وذلّ اهل الشقاق عليك» فقال معاوية «اهمّك يا بن العاص ما اهمّك» وكان عمرو قد صالح معاوية على قتال عليٍ على ان لهُ مصر طعمة ما بقيَ حيًّا . فنظر معاوية الى من حضر من اصحابهِ وقال لهم «لقد أصاب ابو عبدالله فما ترون» فقالوا ما نرى الّا ما رأى عمرو قال «فكيف اصنع فان عمراً لم يفسّر كيف اصنع» فقال عمرو «ارى ان تبعث جيشاً كثيفاً عليهم رجلٌ حازم صابر صارم تأمنهُ وتثق بهِ فيأتي مصر فانهُ سيأتيهِ من كان

على مثل رأينا فيظاهرهُ على عدوّنا فان اجتمع جندك ومن بها على رأينا رجوت ان ينصرك الله » قال معاوية « ارى ان نكاتب من بها من شيعتنا فنمنيهم ونأمرهم بالثبات ونكاتب من بها من عدوّنا فندعوهم الى صلحنا ونمنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا فان كان ما اردنا بغير قتال فذاك الذي اردنا والاّ كان حربهم من بعد ذلك . انك يا ابن العاص بورك لك بالشدة والعجلة وانا بورك لي بالتؤدة » فقال عمرو « افعل ما ترى فما أرى أمرنا يصير الاّ الى الحرب »

فكتب معاوية الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج السكوني وكانا قد خالفا عليًا يشكرهما على ذلك ويحثهما على الطلب بدم عثمان ويعدهما المواساة في سلطانهِ فاجاب مسلمة بن مخلد الانصاري عن نفسهِ وعن ابن حديج ما نصهُ « اما بعد فان الامر الذي بذلنا لهُ أنفسنا واتّبعنا بهِ أمر الله أمرٌ نرجو بهِ ثواب ربّنا والنصر على من خالفنا وتعجيل النقمة على من سعى على إمامنا اما ما ذكرتَ من المواساة في سلطانك فتالله ان ذلك أمر ما لهُ نهضنا ولا اياهُ أردنا فعجّل الينا بخيلك ورجلك فان اعداءنا اصبحوا لنا هائبين فان يأتنا مدد يفتح الله عليك والسلام » فجاءهُ الكتاب وهو في فلسطين فدعا اوليك النفر وقال لهم ما ترون فقالوا نرى ان تبعث جندًا فعهد الى عمرو ان يسير في ستة الاف رجل واوصاهُ بالتؤدة وترك العجلة

فسار عمرو فنزل اداني ارض مصر فاجتمعت اليهِ دعاة العثمانية فاقام بهم وكتب الى محمد بن ابي بكر كتابًا ونصهُ « اما بعد فتنحَّ عني بدمك يا ابن ابي بكر فاني لا أحبُّ ان يصيبك مني ظفرٌ ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك فاخرج منها اني لك من الناصحين » وبعث معهُ كتاب معاوية بالمعنى ايضًا . فارسل محمد الكتابين الى عليٍّ واخبرهُ بنزول عمرو بارض مصر وانهُ رأى التثاقل

ممن عندهُ ويستمدّهُ فكتب اليهِ عليٌّ يأمرهُ ان يضمَّ شيعتهُ اليهِ ويعدهُ
انفاذ الجيوش اليهِ ويأمرهُ بالصبر لعدوهِ وقتالهِ . فقام محمد بن ابي بكر
في الناس وندبهم الى الخروج الى عدوّهم فانضم اليهِ ثلاثة آلاف فلما رأى
ذلك عمرو بعث الى معاوية بن حديج يستمدّهُ فامدّهُ والتقى الجيشان
فظهرت رجال عمرو وتفرقت اصحاب ابن ابي بكر فما زال عمرو بجيشهِ حتى
أقبل على محمد وكان قد تخلّى عنهُ رجالهُ ففرَّ من وجهِ عمرو يطلب ملجأ
فانتهى الى خربة بناحية الطريق فاوى اليها وسار عمرو حتى دخل الفسطاط
ثم ارسل معاوية بن حديج في طلب محمد بن ابي بكر فانتهى الى جماعة
على قارعة الطريق فسألهم عنهُ فقال احدهم دخلت تلك الخربة فرأيت
فيها رجلاً جالسًا فقال بن حديج هوهو فامسكوهُ فدخلوا عليهِ فاستخرجوهُ
وقد كاد يموت عطشًا واقبلوا بهِ نحو الفسطاط فوثب اخوهُ عبد الرحمن
بن ابي بكر الى عمرو وكان في جندهِ وقال «اتقتل اخي صبرًا فابعث الى
ابن حديج فانههِ عنهُ» فبعث اليهِ يأمرهُ ان يأتيهُ بهِ فجاؤوا بهِ وقد اعياهُ
الظمأ فقال لهم اسقوني ماء فقال لهُ معاوية بن حديج «لاسقاني الله ان
سقيتك قطرة ابدًا انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك حتى يسقيك
الله من الحميم والفساق» فقال لهُ محمد «يا ابن اليهودية النساجة ليس
ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي اولياءهُ ويظمئ اعداءهُ انت وامثالك
اما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا» فقال لهُ ابن حديج «اتدري
ما اصنع بك ادخلك جوف حمار ثم احرقهُ عليك بالنار» فقال محمد
«ان فعلت بي ذلك فطالما فعلتم مثلهُ باولياء الله واني لارجو ان يجعلها
عليك وعلى اوليائك ومعاوية وعمرو نارًا تلظى كلما خبت زادها الله
سعيرًا» . فغضب منهُ وقتلهُ وجعلهُ في جيفة حمار والقاهُ في النار فلما بلغ
ذلك عايشة جزعت عليهِ جزعًا شديدًا وقنتت في دبر الصلاة تدعو على
معاوية وعمرو واخذت عيال محمد اليها فكان القاسم بن محمد ابن ابي بكر

في عباءهم ولم تعد تأكل من ذلك الوقت شواء . هكذا تم فتح مصر لمعاوية على يد عمرو بن العاص فاتحها الاول

اما الامام علي فكان قد اجهد نفسهُ ليجمع مددًا الى محمد فلم يأتهِ من رجالهِ الاَّ نفر قليل وبينما هو يحث الناس على ذلك جاءهُ الخبر بقتل محمد بن ابي بكر وفتح مصر فاشتدَّ غيظهُ وخطب في الناس قائلاً

«الا ان مصر قد افتتحها اهل الفجور أُولو الجور والظلمة الذين صدُّوا عن سبيل الله وبغوا الاسلام عوجًا الا وان محمد بن ابي بكر قد استشهد فعند الله نحتسبهُ اما والله ان كان كما علمت لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر ويحب هدى المؤمنِ اني والله ما أَلوم نفسي على تقصيرٍ واني لمقاساة الحروب لجدير خبير واني لأَتقدم على الأَمر واعرف وجه الحزم واقوم فيكم بالرأي المصيب واستعرضكم معلنًا واناديكم نداء المستغيث فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي امرًا حتى تصير بي الامور الى عواقب المساءة فانتم القوم لا يُدرك بكم الثار ولا تنقض بكم الاوتار دعوتكم الى غياث اخوانكم من بضع وخمسين ليلة فتجرجرتم جرجرة الجمل الاشدق وتثاقلتم الى الارض تثاقل من ليست لهُ نية في جهاد العدوّ ولا اكتساب الاجر ثم خرج اليَّ منكم جُنيدٌ متذانبٌ كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون فافٍ لكم» ثم نزل

وفي ١٧ رمضان سنة ٤٠ ﻫ قتل الامام علي بن ابي طالب وبويع ابنهُ حسن مكانهُ وبقي هذا على كرسي الخلافة ستة اشهر فدخلت سنة ٤١ وفيها تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان خليفة الشام ومصر الذي لم يحل عن مقصدهِ حتى بلغهُ فنودي بهِ اميرًا للمؤمنين وبويع لخمس بقين من ربيع الاول سنة ٤١ هجرية

اما النقود التي ضُرِبت في عهد الخلفاء الراشدين فكلها نحاسية وفي غاية البساطة كما ترى في الشكل ١٩ ليس عليها من الكتابة الاَّ صورة

الشهادة بالحرف الكوفي . ولم تضرب النقود الفضية في الاسلام حتى ايام الخليفة عبد الملك كما سترى



ش ١٩ نقود الخلفاء الراشدين

الدولة الاموية

من سنة ٤١ ــ ١٣٢ هـ او من ٦٦١ ــ ٧٥٠ م

خلافة معاوية بن ابي سفيان

من سنة ٤١ ــ ٦٠ هـ او من ٦٦١ ــ ٦٨١ م

هكذا كانت نهاية دولة الخلفاء الراشدين وبداية دولة خلفاء بني أمية واولهم معاوية بن ابي سفيان . وكانت الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين انتخابية فجعلها معاوية وراثية فانحصرت في اعقابهِ تنفيذاً لمآربهِ وشرع في تولية العمّال على الامصار ولما كانت مصر من أهمّ تلك الامصار عهد أمرها لعمرو بن العاص لما عرف من علوّ همتهِ وحسن سياستهِ وجعلها لهُ طعمة بعد عطاء جندها والنفقة في مصلحتها . فعقد عمرو لشريك بن سمي لغزو البربر فغزاهم وصالحهم ثم انتقضوا فبعث اليهم عقبة بن نافع فغزاهم حتى هزمهم وعقد لعقبة ايضاً على غزو هوارة وعقد لشريك على غزو لبدة فغزواهما في سنة ٤٣ هـ ولما قفلا كان عمرو شديد الدنف يتقلب على فراش الموت فتوفي ليلة الفطر من السنة المذكورة وكان قصير القامة يخضب بالسواد وكان من أفراد الدهر دهاء وحزماً وفصاحة الّا انهُ كان يتلجلج بكلامهِ

ولما علم معاوية بوفاة عمرو تكدر كدراً عظيماً جداً لانهُ لم يعد يعلم لمن يعهد ولاية مصر بعدهُ . وبعد التردد في الامر لم يرَ بدّاً من تولية احد ابناء عائلتهِ فارسل اليها عتبة بن ابي سفيان أخاهُ في ذي القعدة من سنة

٤٢ فسار اليها وبعد ان اقام اشهرًا عرض لهُ سفر الى اخيهِ معاوية بدمشق فاستخلف عبدالله بن قيس ابن الحارث وكان في شدَّة وعسف فكرهِ المصريون ولايتهُ وامتنعوا منها فبلغ ذلك عتبة فاضطر الى الرجوع الى مصر ولما جاءها صعد منبر الخطابة فقال

«يا اهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم وقد وُليكم من اذا قال فعل فان أبيتم درأكم بيدهِ فان ابيتم درأكم بسيفهِ ثم رجى في الاخير ما ادرك في الاول ان البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل وأينا غدر فلا ذمَّة لهُ عند صاحبهِ» فناداهُ المصريون من جنبات المسجد «سمعًا سمعًا» فناداهم «عدلاً عدلاً» ونزل وعقد عتبة لعلقمة بن يزيد على الاسكندرية في اثني عشر الفًا من اهل الديوان تكون لها رابطة

وتوفي عتبة في الفسطاط في ذي الحجة سنة ٤٤ ﻫ وكانت مدة ولايتهِ سنة كاملة فاقام معاوية عوضًا عنهُ عقبة بن عامر ابن عبس الجهني وجعل لهُ صلاتها وخراجها وكان عقبة قارئًا فقيهًا مفرضًا شاعرًا لهُ الهجرة والصحبة والسابقة الاَّ انهُ لم يكن من السياسة وحسن التدبير على ما يرضي معاوية فولى مكانهُ مسلمة بن مخلد ابن صامت الانصاري وكان من سراة المدينة وامرهُ ان يكتم ذلك ليثما يخرج عقبة من مصر بحيلة

ففي ١٩ ربيع الاول سنة ٤٥ ﻫ انفذ معاوية امرهُ الى عتبة ان يسير الى رودس بحرًا فقدم مسلمة ورافق عقبة الى الاسكندرية وهو لم يعلم بامارتهِ فلما توجَّه سائرًا استوى مسلمة على سرير إمارتهِ فبلغ ذلك عقبة فقال «أخلعًا وغربةً» وكانت مدة ولايتهِ ثلاثة اشهر وقيل سنتين وثلاثة اشهر . واخذ مسلمة في اجراء الاحكام وجمع الصلات والخراج وانتظمت غزواتهُ في البر والبحر فانفذ الى الغرب جوشًا وشاد مدينة القيروان واقام حولها حصونًا ومعاقل وجعل فيها حامية . وفي سنة ٥٢ ﻫ في

امارتهِ نزلت الروم البرلس وقُتل يومئذٍ وردان مولى عمرو بن العاص في جمع من المسلمين . وأمر مسلمة بابتناء منارات المساجد وهو أوّل من أحدث المنار بالمساجد والجوامع . وفي سنة ٦٠ ه سافر مسلمة بن مخلد الى الاسكندرية واستخلف على مصر عابس بن سعيد وفي هذه السنة تُوفي معاوية في دمشق في غرة رجب وسنّهُ ثمان وسبعون سنة ومدة خلافتهِ تسع عشرة سنة وثلاثة اشهر وخمسة ايام

خلافة يزيد بن معاوية

من سنة ٦٠ – ٦٤ ه او من ٦٨١ – ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة معاوية بويع ابنهُ يزيد فاقرّ مسلمة بن مخلد على مصر فكتب اليهِ بأخذ البيعة فبايعهُ الجند الا عبدالله بن عمرو بن العاص فهدّدوهُ بالحريق فبايع ولم يكن يزيد اهلاً للخلافة ولولا قانون الوراثة الذي سنّهُ ابوهُ ما بلغ عمرهُ هذا المنصب لانهُ كان متبعاً هوى نفسهِ متغاضياً عن واجباتهِ . فحرك ذلك الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير على اقامة الحجة عليهِ وكانا في المدينة فبعث يزيد الى حاكمها ان يقبض عليهما ففرّا منها فالتفّ عليهما حزب كبير من اهل الكوفة وغيرها فارسل ابن الزبير في اثرها عبيد الله وعمر بن سعد في عدد من الاجناد فهجما على الحسين وقتلاهُ افظع قتلة واتوا برأسهِ الى يزيد فبالغ في اهانتهِ . لكنهُ لم يكد يبلغ مناهُ بقتل الحسين حتى قام عبدالله بن الزبير في مكة مستعظماً فعلهُ فشدد عليهِ النكير وجنّد اليهِ منتقماً للحسين

وكانت مصر اثناء ذلك ساكنة آمنة وفي ٢٥ رجب سنة ٦٢ ه توفي اميرها مسلمة بن مخلد بعد ان تولّاها ١٥ سنة واربعة اشهر فولّى الخليفة

مكانهُ سعيد بن يزيد الازدي من اهل فلسطين فدخل مصر في مستهل رمضان سنة ٦٣هـ فتلقاهُ عمر بن قحزم الحولاني وقد شقَّ عليهِ تولية من هو من غير بلادهِ عليهِ فقال « يغفر الله لامير المؤمنين اما كان فينا مئة شاب كلهم مثلك يولى علينا احدهم » ثم جعل اهل مصر يعرضون عنهُ ويعارضون في احكامهِ لكنهُ كان حازمًا لم يثنهِ ذلك عن اقامة الحد واتباع العدل فسادت الراحة واستتب النظام الى اخر ايامهِ

وما زالت الاحزاب في مكة والمدينة يشددون النكير على يزيد الى ان أجمعوا على خلعهِ رغمًا عن كثرة دعاة الامويين واخرجوا من كان منهم في المدينة فانفذ يزيد ١٢ الفًا من رجالهِ عليهم مسلمة بن عقبة المرسي لمحاصرة المدينة وأمرهم ان لا يكفُّوا عنها الا اذا اذعنت فاذا مضت ثلاثة ايام ولم تفعل فليحرقوها وهكذا حصل فانها اصبحت غنيمة للنار بعد الافاضة في النهب والقتل والاسر وكان ذلك في سنة ٦٣هـ

وفي سنة ٦٤هـ بويع عبدالله بن الزبير على الخلافة في مكَّة باجماع من كان فيها من اهلها والمهاجرين اليها من المدينة والحجاز فارسل يزيد الحصين بن النمير الى مكَّة فحاصرها وقاتل اهلها ورماها بالمنجنيق فاحرق البيت (الكعبة)[1] كل ذلك وابن الزبير فيها يدافع بالشيء الممكن الى ان جاءهُ الخبر بوفاة يزيد فقطع قول كل خطيب وكانت وفاتهُ في حوران من بلاد الشام في ٤ ربيع اول من تلك السنة بعد ان تولَّى الخلافة ثلاث سنين وتسعة اشهر الَّا بضعة ايام وسنُّهُ ٣٩ سنة

(١) البيت والكعبة شيء واحد

خلافة معاوية بن يزيد

ثم عبدالله بن الزبير ثم مروان بن الحكم

من سنة ٦٤ ـ ٦٥ ﻫ او من ٦٨٤ ـ ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة يزيد بُويع ابنهُ معاوية وسنهُ عشرون سنة ويدعوهُ بعضهم معاوية الثاني تمييزًا لهُ من معاوية بن ابي سفيان جدهِ وبعد ٤٥ يومًا من مبايعتهِ توفي ولا ولد لهُ

وفي ٩ رجب من تلك السنة هتف الناس بمبايعة عبدالله بن الزبير بالاجماع ويقال ان معاوية بن يزيد تنازل لهُ عن الخلافة من يوم بايعوهُ لما رأى من كثرة احزابهِ وعجزهِ عن مناهضتهِ فزهد في الدنيا رغمًا عن صغر سنهِ وطلب ان يكتب على قبرهِ «الدنيا غرور»

وكان عبدالله بن الزبير رجلًا مؤدبًا فطنًا جمع بين شرف النسب وعلو الهمة والاقدام حضر عدة مواقع حربية وهو شاب ولما افتتح عمرو بن العاص مصر كان عبدالله وابوهُ الزبير واخوهُ محمد من جيشهِ ولما كتبت معاهدة الصلح بين عمرو والاقباط وضع هؤلاء الثلاثة اختامهم عليها شهودًا . ولما ارسل الخليفة عثمان بن عفان عبدالله بن سعد امير مصر في جيش عظيم لافتتاح سواحل الغرب كان عبدالله بن الزبير معهُ . ومن اخلاقهِ انهُ كان مثابرًا في اعمالهِ ثابتًا في مقاصدهِ فلم ينفك منذ اختلاس معاوية بن ابي سفيان الخلافة من الخلفاء الراشدين وهو في سعي دائم عليهِ ثم على ابنهِ يزيد ثم على ابن ابنهِ معاوية الثاني حتى ظفر بمرامهِ ولما جاء الخبر بوفاة يزيد كان في مكة محاطًا بجيش من اليزيديين فلما علموا بالخبر عادوا على اعقابهم الى الشام فاستولى عبدالله على المدينة والحجاز واليمن

وبايعهُ من فيها ثم شرع في ترميم الكعبة فهدمها حتى الحقها بالارض وكانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق وجعل الحجر الاسود عندها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس وضرب عليها السور وادخل فيها الحجر

اما مصر فكان عليها سعيد الازدي كما مرَّ وكان عبدالله بن الزبير على بينة من امر مصر واهميتها فانفذ اليها عبدالرحمن بن عتبة بن جحدم واوصاه ان يدعو الناس الى مبايعتهِ غير ان سعيداً الازدي كان لا يزال متشيعاً للامويين فلم يُقبل على دعوة عبدالله من المصريين الاَّ بعضهم ولم ترسخ قدم عبدالله بن الزبير في الخلافة رغماً عن كثرة دعاتهِ واشياعهِ الاَّ بعد وفاة معاوية بن يزيد اذ رأى الكوفة والبصرة والموصل والعراق وقسماً من مصر يدعو باسمهِ فلم يعد في خشيةٍ من شيء فصرح بخلافتهِ . ثم همَّ الى اخضاع مصر فعقد على امارتها لعبد الرحمن بن عتبة الذي كان ارسلهُ اليها وكيلاً فوصلها في شعبان سنة ٦٤ هـ واخرج من كان فيها من دعاة الامويين وفيهم سعيد الازدي فبايعهُ الناس وفي قلوب بعضهم غلّ . اما اهل الشام فلما علموا بوفاة معاوية بن يزيد بايعوا مروان بن الحكم من العائلة الاموية فعظم ذلك على عبدالله بن الزبير فانفذ اليهِ الضحاك بن قيس في جيش من رجالهِ فساروا الى قرب دمشق فاتصل خبرهم بمروان فسار من الجابية لملاقاتهم فالتقى الجيشان في مرج راهط فحصلت بينهما مواقع كبيرة شفت عن انقلاب جيش عبدالله

وكان مروان قد انفذ ابنهُ عبدالعزيز في جيش من اهل الشام لفتح مصر اما بعد ظفره بجيش بن الزبير في مرج راهط فاشتدت عزيمتهُ وحمل بكل جيشهِ على مصر. فلما علم اميرها عبدالرحمن بن عتبة بذلك همَّ الى الدفاع فحفر حول الفسطاط خندقاً عميقاً لا يزال اثرهُ باقياً في القرافة فنزل مروان قرب المطرية ومعهُ عمرو بن سعد فخرج عبد الرحمن اليهِ واقتتلا قتالاً شديداً مدة يومين ولم يظفر احدهما بالاخر وبينما كان الجيشان

في شغل بين هجوم ودفاع سار عمرو بن سعد في نخبة من رجالٍ مروان قاصدًا الفسطاط فدخلها فلما علم عبد الرحمن بذلك لم يرَ بدًا من المصالحة فتصالحا ودخل مروان مصر في ١٠ جمادى الاولى سنة ٦٥ هـ فكانت مدة امارة ابن جحدم تسعة اشهر وفي هذا اليوم توفي عبدالله بن عمرو بن العاص فاتح مصر فلم يستطع القوم الخروج بجنازتهِ الى المدافن لشغب الجند على مروان فدفنوهُ في بيتهِ قرب جامع عمرو اما مروان فلم يكن واثقًا بالمصريين واخلاصهم فخشية ان يستغيبوهُ ويعقدوا لعبدالله بن الزبير ولَّى عليهم ابنهُ عبد العزيز

وفي الحال وضع مروان يدهُ على جميع خزائن مصر وأبطل العطاوات فبايعهُ جميع الناس الا جماعة من قبيلة المغافر قالوا لانخلع بيعة بن الزبير فقطع اعناقهم وعتى بن همام رئيس قبيلة لخم وكان من قتلة عثمان بن عفان فخافت الناس واجمعوا على مبايعتهِ

فاقام مروان في مصر شهرين ثم عهد مهامَّها الى ابنهِ عبد العزيز وهمَّ بالرحيل فقال لهُ ابنهُ «يا امير المؤمنين كيف المقام في بلد ليس بها احد من بني أبي» فقال لهُ مروان «يا بنيَّ عمَّهم باحسانك يكونوا كلهم بني ابيك واجعل وجهك طلقًا تصفُ لك مودتهم واوقع الى كل رئيس منهم انهُ خاصتك دون غيرهِ يكن لك عينًا على غيرهِ وينقاد قومهُ اليك وقد جعلت معك اخاك بشرًا مؤنسًا وجعلت لك موسى بن نصير وزيرًا ومشيرًا وما عليك يا ابني ان تكون اميرًا باقصى الارض أليس ذلك احسن من اغلاق بابك وخمولك في منزلك» ثم اوصاهُ عند خروجهِ من مصر الى الشام قائلاً «اوصيك بتقوى الله في سرِّ امرك وعلانيتهِ فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون واوصيك ان لا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً فان المؤذن يدعوا لي فريضة افترضها الله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا واوصيك ان لا تعد الناس موعدًا الا انفذتهُ

لهم وان حملته على الاسنة واوصيك ان لا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير فان الله لو اغنى احدًا عن ذلك لاغنى نبيهُ محمدًا (صلعم) عن ذلك بالوحي الذي يأتيهِ . قال الله عزهُ وجل وشاورهم في الامر »
وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة ٦٥ ه والحرب لا تزال سجالاً بين دعاة مروان ودعاة عبدالله بن الزبير

خلافة عبد الملك بن مروان

من سنة ٦٥ ـ ٨٦ ه او من ٦٨٤ ـ ٧٠٥ م

وفي غرة رمضان من تلك السنة تُوفّي مروان ولهُ من العمر ٦٢ سنة فبويع ابنهُ عبد الملك فاقرَّ اخاهُ عبد العزيز على مصر واخذ في متابعة مشروع ابيهِ فانفذ الاجناد الى جهات العراق والبصرة والجزيرة سعيًا الى تعميم خلافتهِ وفي آخر الامر حاصر عبدالله بن الزبير في مكة مدة سبعة اشهر وفي نهاية سنة ٧١ ه قُتل عبدالله بن الزبير فخلا الجوّ لعبد الملك وكانت وفاتهُ فصلاً نهائيًا لذلك الخصام الذي استمر عشر سنين متواليات ومملكة الاسلام تتنازعها خلافتان الواحدة في دمشق والاخرى في مكة

وفي سنة ٦٩ ه امر عبد العزيز بن مروان ببناء قنطرة الخليج الكبير في طرف الفسطاط بالحمراء القصوى وبنى مقياسًا للنيل في حلوان وهو اول مقياس بناهُ الاسلام في مصر ويقول بعضهم ان عمرو بن العاص بنى مقياسًا قبل ذلك ولا دليل على هذا القول

وفي سنة ٧٠ ه وقع الطاعون في مصر فخرج عبد العزيز منها ونزل حلوان فاتخذها دارًا وجعل فيها الاعوان وبنى فيها الدور والمساجد وعمرها احسن عمارة وغرس نخلها وكرمها

وفي سنة ٧٧ هدم جامع الفسطاط كله وزاد فيهِ وفي ايامهِ ضربت الدنانير المنقوشة الفضية والذهبية وكانت العرب الى ذلك العهد تتعامل بالدنانير الفارسية ولم تكن ضربت الّا القطع النحاسية وترى في الشكل العشرين صورة احد تلك الدنانير ضرب سنة ٧٩ للهجرة



وفي آخر ايام هذا الخليفة تمّ بناء السراي الجميلة المدعوة الدار المذهبة في شارع سوق الحمام

ش ٣٠ دنانير عبد الملك بن مروان

وكانة طائفة الكهنة الاقباط معافة من الضرائب والعوائد فضرب على الشخص الواحد منهم دينارًا وعلى البطاركة ثلاثة آلاف دينار سنوية وسنة ٨٦ ه توفي عبد العزيز بن مروان في الفسطاط في ١٢ جمادى الاولى بعد ان حكم فيها عشرين سنة وعشرة اشهر و١٢ يومًا وكان جوادًا حليمًا حازمًا بشوشًا فتولّى بعدهُ عبدالله بن عبد الملك بن مروان من قبل ابيهِ على صلاتها وسنّهُ ٢٩ سنة وطلب اليهِ ابوهُ ان يقتفي آثار عمهِ عبد العزيز بالفطنة والدراية

خلافة الوليد بن عبد الملك

من سنة ٨٦ ـ ٩٦ ه او من ٧٠٥ ـ ٧١٤ م

وفي هذه السنة توفي عبد الملك بن مروان وبويع ابنهُ الوليد بن عبد الملك الملقب بابي العباس فاقرّ اخاهُ عبد الله على مصر . وفي ايام الامير عبدالله جعلت الكتابة في دواوين مصر باللغة العربية وكانت لا تزال

الى ذلك الحين بالقبطية يتولى امرها اثناش فعزلهٔ وولى مكانهٔ بن بربوع الفزاري من اهل حمص . وغلت الاسعار في امارتهِ فتشام الناس بهِ وقالوا انهٔ كان يقبل الرشوة ثم وفد على اخيهِ في صفر سنة ٨٨ ه واستخلف عبد الرحمن بن عمر بن قحزم الخولاني واهل مصر في شدة عظيمة وضيق عيش مخيف

اما الوليد بن عبد الملك فقد حكم في الاسلام حكماً حسناً ووسع نطاق المملكة الاسلامية وحارب حروباً كثيرة عاد منها ظافراً منها الحروب الهائلة مع امراء تركستان والفرس والهند وملك القسطنطينية وقد فتح قوّاده من بلاد الروم والاندلس وسمرقند . كل هذه الفتوحات والغزوات وغيرها كانت على يد هذا الخليفة الباسل

وفي ١٢ ربيع اول سنة ٩٠ ه اقيم على مصر قرة بن شريك من اهل قنسرين بدلاً من عبد الله بن عبد الملك واحيى قرة بن شريك بركة الحبش وغرس فيها القصب فقيل لها اصطبل قرة واصطبل القماش

وقد تشكى القبط من جورهِ فهم يقولون انهٔ كان يحتقر اعتقاداتهم ويدخل احياناً الى كنائسهم ومعهُ رجال من حاشيتهِ ويوقفهم عن صلاتهم

وفي سنة ٩٢ ه اعاد قرة بن شريك بامر الوليد بن عبد الملك بناء جامع عمرو . وفي سنة ٩٦ ه توفي قرة في الفسطاط فاقيم مقامهٔ عبد الملك بن رفاعة بن خالد وكان قرة سيّئ التدبير خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً وبعد ثلاثة اشهر من امارتهِ توفي الخليفة الوليد في دمشق في ١٥ جمادى الثانية بعد ان حكم ٩ سنين ونصف وسنهٔ ٤٨ سنة وقد بنى مقياساً للنيل في جزيرة الروضة يقال ان النيل جرفهٔ وقال آخرون ان المأمون امر بهدمهِ . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٢ ه



ش ٢١ نقود الوليد بن عبد الملك

خلافة سليمان بن عبد الملك

من سنة ٩٦ ـ ٩٩ ﻫ او من ٧١٤ ـ ٧١٧ م

وبعد وفاة الوليد بويع اخوهُ سليمان بن عبد الملك الملقب بابي ايوب فسار على خطوات اخيهِ في توسيع نطاق مملكتهِ ففي اوَّل سنة من خلافتهِ فتح طبرستان وجورجيا وارسل اخاهُ مسلمة بن عبد الملك فحاصر القسطنطينية حصارًا شديدًا

وعند اول خلافتهِ اقرَّ عبد الملك بن رفاعة على مصر وجعل على خراجها أسامة بن يزيد المشهور بالظلم ولقبهُ بعامل الخراج وقد اتفق جمهور المؤرخين من مسلمين واقباط على استبداد هذا الرجل وعسفهِ ومما جعلهم يزيدون تظلمًا منهُ انهُ لم يكتفِ باعلان الرهبان باستمرار الضريبة عليهم على حين انهم كانوا ينتظرون رفعها عنهم لكنهُ امر ان يلبس كل منهم في كل سنة خاتمًا من حديد في اصبعهِ محفورًا عليهِ اسمهُ يأخذهُ من جابي الخراج اشارة الى خلوّ طرفهِ ومن يخالف ذلك تقطع يدهُ فاذا اصرَّ على المخالفة يُقتل فكانت العساكر تطوف الاديرة والمعابد في هذا السبيل فكم قتلوا من نفس زكية وربما كانوا يرون قتلها واجبًا . وكان اسامة مع ذلك يُظهر رغبةً شديدة في اصلاح شؤون البلاد وزيادة محصولاتها فكان من وقت الى آخر يتفقد الارض وريَّها ويتنبه خصوصًا لمقاييس النيل التي يعرف منها مقدار المحصولات . فعلم سنة ٩٦ ﻫ بسقوط مقياس حلوان فأعلم الخليفة بذلك فامر بإغفالهِ واقامة مقياس آخر في جنوبي الجزيرة بين الفسطاط والجيزة وهو المكان المعروف بالروضة

ومن ضرائب اسامة ضريبة فادحة مقدارها عشرة دنانير تطلب من المارّ في النيل صاعدًا او نازلًا ولا يمرّ الَّا من كان في يدهِ امرٌ مؤذن لهُ

بذلك بعد اداء المبلغ المفروض . ومما يحكى ان ارملة سافرت في النيل مع ابن لها بعد دفع المفروض ونوال تذكرة المرور ولكن بكل مشقة نظرًا لضيق ذات يدها فحدث وهي في اثناء المسير ان ابنها هذا تطاول الى النيل مستقيًا فاختطفه تمساح وابتلعه وثيابه والناس ينظرون وكانت تذكرة المرور في جيبه ولما وصلت المكان المقصود اعترضها صاحب التذاكر وابى الا ان تبرز تذكرتها فاخبرته ما كان من امر ضياع ابنها على مشهد من الناس فاغلق اذنه عن صراخها ولم يبرح عنها حتى باعت ما بين يديها ودفعت الفلس الاخير

كل هذه الاجرآات وغيرها جعلت المصريين في قنوط فثاروا على اسامة يطلبون الانتقام وفيما هم في ذلك جاءهم النبأ بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك فسكن جاشهم على امل ان ينالوا ما يريدونه ممن يخلفه . وكانت وفاته في ٢١ صفر سنة ٩٩ ه وهو يبني مدينة الرملة في فلسطين بعد ان حكم سنتين وثمانية اشهر وخمسة ايام وسنه ٤٥ سنة فبويع ابن عمه عمر بن عبد العزيز الملقب بابي الحفص لانه لم يكن من اخوته وولده من يصلح للخلافة

خلافة عمر بن عبد العزيز

من سنة ٩٩ ــ ١٠١ ه او من ٧١٧ ــ ٨٢٠ م

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز محبًا للعدالة فرفع اليه المصريون شكواهم على أسامة فأمر بعزله وتولية ايوب بن شرحبيل وكان هذا ورعًا متزهًا مستقيمًا عادلًا فزاد في الأعطيات وعطل الحانات فانسى المصريين ما كان من استبداد اسامة وغلاظته ثم بعث اليه الخليفة بالقبض على اسامة وتكبيله بالحديد وتسمير يديه ورجليه باطواق من الخشب وارساله اليه

فنعل فمات اسامة في الطريق

وكان على الجيش في مصر حيان بن شريح فبلغ عمر بن عبد العزيز انهُ يطالب المسلمين بالجزية فعظم عليهِ ذلك وكتب اليهِ «ارى يا حيان ان تضع الجزية عمن اسلم من اهل الذمة فان الله تعالى قال فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم وقال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسولهُ ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون» فاجابهُ حيان «اما بعد فان الاسلام قد اضرَّ بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار تممت بها عطاء اهل الديوان فان رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل» فكتب اليهِ عمر «اما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وانا عارف بضعفك وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً فضع الجزية عمن اسلم قبح الله رأيك فان الله بعث محمداً (صلعم) هادياً ولم يبعثهُ جابياً ولعمري لعمرُ أشقى من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يدهِ» وفي ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد ان حكم سنتين وخمسة اشهر و١٤ يوماً فرجعت الخلافة لابناء عبد الملك حسب اشتراط سليمان قبل موتهِ فبويع يزيد بن عبد الملك

خلافة يزيد بن عبد الملك

من سنة ١٠١ ــ ١٠٥ هـ او من ٧٢٠ ــ ٧٢٤

فاقر يزيد ايوب بن شرحبيل على مصر ثم انفذ اليهِ ان يسلم الحكم لبشر بن صفوان الكلبي وبعد يسير امرهُ ان يتوجه الى افريقية واقام

مكانهُ حنظلة بن صفوان وفي ايامهِ امر الخليفة بتكسير التماثيل والأصنام المقامة في مصر منذ القديم فكسر معظمها. وفي سنة ١٠٤ﻫ عزل حنظلة وتولّى الامارة محمد بن عبد الملك احد اخوة الخليفة . وفي ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ﻫ توفي الخليفة يزيد بن عبد الله في حران فبويع اخوهُ هشام ولم يرَ المصريون في مدة خلافة يزيد يوم نعيم

خلافة هشام بن عبد الملك

من سنة ١٠٥ ـ ١٢٥ﻫ او من ٧٢٤ ـ ٧٤٢م

فلما بويع هشام امر بصرف محمد بن عبد الملك عن مصر واقام عليها الحرّ بن يوسف وفي امارتهِ كان اول انتقاض القبط سنة ١٠٧ﻫ ثم وفد الى الخليفة واستعفى من الامارة في سنة ١٠٨ﻫ فولّى مكانهُ حفص بن الوليد وفي سنة ١٠٩ﻫ استبدل حفص بعبد الملك بن رفاعة وفي تلك السنة توفي ابن رفاعة فتولّى مكانهُ بامر امير المؤمنين اخوهُ الوليد بن رفاعة وفي ولايتهِ نقلت قبيلة قيس الى مصر ولم يكن فيها احد منهم فانزلوا في الحوف الشرقي. وفي ايامهِ خرج وهيب اليحصبي شاردًا في سنة ١١٧ﻫ من اجل ان الوليد أذن للنصارى في ابتناء كنيسة يوحنا بالحمراء وفي هذه السنة توفيت السيدة سكينة بنت الحسين بن علي بن ابي طالب . وتوفي الوليد في الفسطاط وهو والٍ اول جمادى الآخرة سنة ١١٧ﻫ بعد ان حكم تسع سنين. فتولّى مكانهُ عبد الرحمن بن خالد الفهمي وبعد سنة توفي عبد الرحمن وخلفهُ حنظلة بن صفوان فحكم في مصر هذه المرة مدة ست سنوات وكان عاتيًا غشومًا رغمًا عن رغبة الخليفة اليوان يعامل الناس بالرفق والمعروف ولم يكتفِ بالضرائب المفروضة على الانسان ففرضها

على الحيوانات وكان يختم الوصولات المعطاة منه بختم عليه صورة أسد وكان يقطع يد كل من لم يكن ناقلاً هذا الرسم من المسيحيين

فكاتب المصريون الخليفة بشأن ذلك فانفذ اليه في سنة ١٢٤ هـ يعزله من مصر ويأمره ان يتوجه الى افريقيا ففعل فولّى مكانه حنص بن الوليد الحضرمي وهذه هي المرة الثانية لامارته . وفي ٦ ربيع آخر من سنة ١٢٥ هـ توفي الخليفة هشام بن عبد الملك وسنه ٥٦ سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ اشهر و١١ يوماً ومن اعماله التي تستحق الذكر انه تغلب على الروم واسر ملك القسطنطينية سنة ١١٢ هـ

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ كما ترى في الشكل الثاني والعشرين



ش ٢٢ نقود الخليفة هشام

خلافة الوليد بن يزيد

من سنة ١٢٥ ـ ١٢٦ هـ او من ٧٤٣ ـ ٧٤٤ م

ولما توفي هشام بويع الوليد بن يزيد الملقب بابي العباس فأمر بصرف حنص عن مصر رغماً عما عُرف به من النزاهة والاستقامة وثقة الاهالي فيه واقام عوضاً عنه عيسى ابن ابي عطاء على الخراج فقط ولم يكن عيسى من السياسة على شيء فأثار بسوء تصرفه خواطر المصريين ثانيةً . والخليفة لم يكن احسن سياسةً منه لانه جمع جميع الصفات التي تحط من

قدر الملوك فاثار عليهِ رعاياهُ ولا سيما اهل الشام فشقُّوا عصا الطاعة وطلبوا ان يبدل بيزيد بن الوليد ابن عبد الملك وطلبوا من هذا اذا كان يقبل ذلك فاجاب ايجابًا وجعل لمن يأتيهِ برأس الوليد بن يزيد مائة الف دينار ثم قُتل الوليد وسنُّهُ ٤٢ سنة ولم يحكم الَّا سنة واحدة وشهرين و ٢٠ يومًا

خلافة يزيد بن الوليد ثم ابراهيم بن الوليد

من سنة ١٢٦ – ١٢٧ ﻫ او من ٧٤٤ – ٧٤٤ م

فبويع يزيد بن الوليد الملقب بابي خالد في ١٨ جمادى الاخرة من سنة ١٢٦ ﻫ الَّا ان تلك المبايعة لم تكن كافية لتسكين خواطر الناس لان الثورة كانت قد امتدت الى اطراف العالم الاسلامي حتى تهددت المملكة بالسقوط. فان اهل حمص لم يبايعوا يزيد بل قاموا يطالبون بدم الوليد. وسليمان بن هشام نجا من سجنهِ في عمَّان وجمع اليهِ اجنادًا وسار الى دمشق يطالب بحقوق الخلافة. واهل فلسطين ثاروا على اميرهم وقتلوهُ. ومروان بن محمد الحمار جرَّد من ارمينيا مطالبًا بدم الوليد وكان جيشهُ غفيرًا فلما بلغ حرَّان خافهُ يزيد فكاتبهُ وعاهدهُ على ان يخلي لهُ ما بين النهرين وارمينيا واذربيجان حقنًا لدم العباد. وبعد ذلك بيسير توفي يزيد بالطاعون وسنُّهُ ٤٠ سنة ولم يحكم الَّا خمسة اشهر وعشرة ايام

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابراهيم بن الوليد أخوهُ من ابيهِ ولم تكن تلك المبايعة مفرحة لهُ لانهُ جاء الخلافة وهي في معظم الاضطراب. فلما علم مروان بن محمد بوفاة يزيد نكث المعاهدة وجرَّد جيشًا من ٨٠ الف مقاتل الى قنسرين ناكرًا المبايعة على ابراهيم فبعث ابراهيم مائة الف

مقاتل تحت قيادة سليمان بن هشام لملاقاته في حمص وكان مروان يتخذ سبباً يخوّل له الهجوم على دمشق فادعى انهُ جاء لانقاذ الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد من سجن دمشق . وقبل مباشرة الحرب كتب مروان الى سليمان بن هشام في حمص يسألهُ اذا كان يتحد معهُ على خلع الخليفة ابراهيم وتولية احد ابناء الخليفة السابق فأبى فحاربهُ مدة ففرّ سليمان ورجالهُ الى دمشق فلما دخلها تعاقد مع الخليفة ابراهيم وجعلا ايديهما على الخزائن ثم اخرجا ابني الوليد من السجن وقطعا عنقيهما بناء على انهما منشأ تلك المتاعب وان بقتلهما يتخلصان من المقاومين فجاء الامر بالعكس اذ عظمت دعوى مروان فادعى ان الخليفة الذي يقتل ابناء اخيهِ بغير الحق لا يصلح للخلافة وطلب خلعهُ وما زال حتى دخل دمشق في الشهر الثاني من سنة ١٢٧ ﻫ ووضع يدهُ على الاحكام ودعا الى مبايعتهِ فبايعهُ الجميع حتى الخليفة ابراهيم لانهُ اشترى حياتهُ بهذه المبايعة وكانت مدة خلافة ابراهيم ٦٩ يوماً وعاش بعد الخلع ست سنوات

خلافة مروان بن محمد

من سنة ١٢٧ — ١٣٢ ﻫ او من ٧٤٤ — ٧٥٠ م

وكان لمروان بن محمد ثلاثة القاب الأول ابو عبد الملك لقب بهِ يوم ولادة ابنهِ البكر والثاني الجعدي نسبةً الى عمّهِ جعد بن درهم والثالث الحمار وكان مشهوراً بهِ اكثر مما بغيرهِ واصل تلقيبهِ بهِ انهُ كان ثابتاً في الحروب فلقبوهُ بحمار الوحش ثم أُهملت الكلمة الثانية (فتنوسيت) وبقيت الاولى وحدها . فلما تمت لهُ المبايعة سنة ١٢٧ ﻫ ابدل حفص بن الوليد امير مصر بحسان بن عتاهية التجيبي فشق ذلك على المصريين فوثبوا عليهِ

وقالوا لا نرضى الا بحنص وركب جماعة منهم الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحبسوا حسان في دارهِ وقالوا اخرج عنا فانك لا تقيم معنا ببلد فاخرجوهُ بعد ١٧ يوماً من توليتهِ واخرجوا معهُ عيسى ابن ابي عطاء صاحب الخراج فولّى مروان على مصر الحنص بن الوليد وهي المرة الثالثة لولايتهِ عليها. وفي سنة ١٢٨ﻫ صرفهُ مروان وولّى مكانهُ الحوثرة بن سهل بن عجلان والمصريون غير راضين بذلك فسار اليها في الآف في اول المحرم وقد اجتمع الجند على منعهِ فابى عليهم حنص فخافوا حوثرة وسألوهُ الامان فأمنهم ونزل ظاهر الفسطاط. وبعد سنة ونصف (في ٢٤ رجب سنة ١٣١) عزل حوثرة ووُلّي مكانهُ المغيرة بن عبيدالله النزاري وبعد يسير توفي المغيرة ووُلّي مكانهُ عبد الملك بن موسى (بن مروان بن النصير) وكان واليًا على الخراج فلما تولّى الامارة امر باتخاذ المنابر في الكوَر ولم تكن قبلهُ وكان ولاة الكور يخطبون على العصي الى جانب القبلة. والمغيرة آخر من تولى مصر من قبل الدولة الاموية. لانها كانت على شفا السقوط وقد انتشر الفساد في انحاء المملكة الاسلامية فثارت حمص على مروان وكانت اول من جاهر بدعوتهِ كما علمت فسامها الرضوخ فأبت ومثل ذلك فعلت دمشق وكانت اول من دعا الى بيعتهِ وبويع سليمان بن هشام على البصرة ثم تقدم بجيشهِ الى قنسرين فحاربهُ مروان وقتل من رجالهِ ثلاثين الفًا فانهزم سليمان الى حمص وحاصر فيها فجهّز اليهِ مروان وحاصرهُ هناك وكان عبدالله بن معاوية العلوي لا يزال خليفة في الكوفة الى ذلك الحين. وكثر منازعو مروان على الخلافة وفي مقدمتهم ابو العباس الهاشمي وكان اذ ذاك خليفة في اقصى الشرق (خراسان) بمساعدة عبد الرحمن بن مسلم الذي أُرسل اليها وكيلًا وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر لكنهُ اظهر همّة ودراية لا تكونان الّا بالرجال العظام فتملك قلوب الناس وجمع كلمتهم اليهِ وحارب جيوش مروان في خراسان فظفر بها فتقدم الى جورجان ثم الى

الكوفة فافتتحها وخطب فيهما لابي العباس . اما مروان فلم يظفر بحمص وسار الى الموصل فاضطهدهُ اهلها فقنط من النوز فعاد على اعقابهِ الى سوريا فاذا بها مجمعة على عصيانهِ فلم يرَ لهُ ملجأ الأ مصر لانها كانت لا تزال الى ذلك الحين معترفة بخلافتهِ

اما ابو العباس فلما استتب لهُ الامر في الكوفة جعل على البلاد التي صارت تحت حكمهِ ولاةً اختارهم من ذويهِ ثم بايعهُ اهل الشام ومَن والاهم وهكذا كانت نشأة الدولة العباسية التي اقيمت على انقاض الدولة الاموية . ثم رأى ابو العباس تثبيتاً لقدمهِ في الخلافة ان يقتل كل من بقي من ابناء الدولة الاموية ودعاتها ولو بايعوهُ فامر بالقبض عليهم فاذا بهم ثمانون نفساً بين نساء ورجال واولاد فأمر بذبحهم معاً بغير شفقة فلقب من ذلك الحين بالسفاح . ولم ينجُ من هذه المذبحة الا شاب من العائلة الاموية يقال لهُ عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام ففرَّ هارباً الى الاندلس (اسبانيا) واسس فيها دولة اخرى اموية

اما مروان فجاء الى مصر على نية ان يستبقيها لهُ فارسل عبدالله عمّ ابي العباس اخاهُ صالح بن علي يقتفي اثرهُ وامرهُ ان يقبض عليهِ باي وسيلة كانت فسار صالح في جيش عظيم ومعهُ ابو عون عبد الملك بن يزيد ونزل على جبل يشكر حيث جامع ابن طولون اليوم وكان قسماً من الفسطاط في اول عهدها ثم صار خراباً فأمر ابو عون اصحابهُ بالبناء فيهِ فابتنوا وقاموا فيهِ معسكرهم ودعوهُ بالعسكر واتصل بناؤهُ ببناء الفسطاط وبنيت فيهِ بعد ذلك دار الامارة وجامعٌ عرف بجامع العسكر ثم عرف بجامع ساحل الغلة وصار هناك مدينة ذات اسواق ودور عظيمة وصار امراء مصر ينزلون فيهِ من بعد ابي عون الى ان بنى احمد بن طولون القطائع واقام فيها قصرهُ

ثم اخذ صالح بن علي في استتباع مروان فادركهُ في قرية ابوصير من

الجبزة وقتلة في ٢٧ جمادي الاخرة سنة ١٣٢ ﻫ وسنة سبعون سنة وقال آخرون ٥٩ ونقل رأسة الى ابي العباس السفاح وكانت مدة خلافة مروان خمس سنوات وشهر واحد وهو آخر من ملك من الدولة الاموية

الدولة العباسية الاولى

حكمت من سنة ١٣٢ ـ ٢٥٧ ﻫ او من ٧٥٠ ـ ٨٧٠ م

خلافة ابي العباس بن محمد

من سنة ١٣٢ ـ ١٣٦ ﻫ او من ٧٥٠ ـ ٧٥٤ م

بويع الخليفة ابو العباس عبدالله بن محمد الملقب بالسفّاح في ١٢ ربيع اول سنة ١٣٢ ﻫ وهو من سلالة عبد المطلب واول الخلفاء العباسيين فبادر الى اقالة ولاة الامصار الذين كانوا قبل خلافتهِ وابدالهم بولاةٍ من اقاربهِ وذويهِ . فجعل على مصر عمهُ صالح بن علي قاتل مروان فسار صالح حتى دخلها في محرم سنة ١٣٣ ﻫ وبعد يسير بعث الى الخليفة وفداً من اهل مصر بمبايعتها ثم قبض على عبد الملك بن موسى وجماعتهِ وقتل كثيرًا من دعاة بني اميّة وحمل طائفة منهم الى العراق فقتلوا بقلنسوة من ارض فلسطين . وفي غرة شعبان سنة ١٣٣ ﻫ ورد اليهِ كتاب امير المؤمنين بامارتهِ على فلسطين وان يستخلف على مصر من اراد فاستخلف ابا عون عبد الملك بن يزيد نائبًا عنهُ وسار ومعهُ عبد الملك بن نصير وعدة من اهل مصر

وفي ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ ﻫ توفي ابو العباس في الهاشمية سرير خلافتهِ بعد ان قضى على دست الخلافة ٤ سنوات و٨ اشهر و٢٦ يومًا

وسنة ٣٢ سنة ونصف وهو اول من اتخذ وزيرًا لان خلفاء بني امية لم يكونوا يستوزرون ولكنهم استكتبوا

خلافة المنصور بن محمد

من سنة ١٣٦ - ١٥٨ ه او من ٧٥٤ - ٧٧٥ م

وخلف ابا العباس اخوهُ المنصور بن محمد الملقب بابي جعفر واتخذ الهاشمية سريرًا لملكهِ كما فعل سلفهُ . وفي سنة ١٤٠ ه عهد ولاية مصر الى ابي عون الذي كان نائبًا فيها . وفي سنة ١٤١ ه عزل ابا عون عن مصر وولَّى موسى بن كعب وكان احد نقباء العباسيين فدخل مصر في ١٥ ربيع آخر من السنة المذكورة ونزل العسكر . وفي ٥ ذي الحجة من تلك السنة عزل موسى وولَّى محمد بن الاشعث الخزاعي واراد توليتهُ امر الخراج فابى فتولاها نوفل بن الفرات ثم رأى بعد حين ان اهل الدواوين مالوا بكليتهم نحو صاحب الخراج فندم واكل الامر الى تنور بينهُ وبين نوفل . وفي ٥ رمضان سنة ١٤٢ ه صرف محمدًا وولَّى حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي فجاء مصر بجيش وفي ٢٢ ذي القعدة سنة ١٤٤ ه صرفهُ وولَّى يزيد بن حاتم المهلبي

فترى انهُ قد تقلب على مصر في مدة لا تجاوز السبع سنوات ستة امراء الامر الدالّ على ما فطر عليهِ المنصور من التقلب فانهُ كان لا يثق باحد ولا يقرُّ على امر وكان كثير الهواجس والظنون سريع الحكم ويدلُّك على ذلك ما كان من امرهِ مع ابن مسلم الذي لهُ الفضل على جميع الخلفاء العباسيين اذ لولا مساعيهِ ما وصلت الخلافة الى يدهم فانهُ بمجرد ما قيل لهُ ان ابن مسلم متشيع لاهل البيت امر بقتلهِ . ولشدة هواجسهِ ترك الهاشمية

التي كانت الى ذلك العهد (سنة ١٤٥ ه) سريرًا للخلافة العباسية وشرع في بناء مدينة دعاها مدينة السلام ثم دعيت بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين وقد جعلهُ سوء ظنهِ مترددًا لا يستقر على حال. فاوصى بالخلافة لابن اخيهِ عيسى بن موسى ثم ندم فاوصى بها لاخيهِ على ان يكون لعيسى حق بالخلافة بعدهُ ثم تردد بين الامرين ولم يجزم باحدهما

اما يزيد بن حاتم فتولى مصر في ايام المنصور نحوًا من ثماني سنين عمل فيها بامانة ونشاط فلقبهُ بامير مصر وجعل هذا اللقب لمن يخلفهُ من الولاة وفي امارتهِ ظهرت دعوة بني الحسن بن علي بمصر وتكلم بها الناس وبايع كثير منهم لعلي بن محمد بن عبدالله وطرق المسجد في ١٠ شوال سنة ١٤٥ ه ثم قدمت الخطباء برأس ابراهيم بن عبدالله بن حسن بن الحسين بن علي في ذي الحجة فنصب في المسجد. وفي تلك السنة منع يزيد اهل مصر من الحج ولم يحج منهم احد ولا من اهل الشام لما كان في الحجاز من الاضطرابات بأمر بني حسن. وفي سنة ١٤٦ه ورد كتاب ابي جعفر يأمر يزيد بن حاتم بالتحول من العسكر الى الفسطاط وان يجعل الديوان في كنائس القصر من اجل لياذ المسجد. وفي هذه السنة كان الفراغ من بناء مدينة بغداد فتحوَّل اليها الخليفة ابو جعفر المنصور في صفر فلما دخلها امر أن تجتمع اليهِ العلماء والفلاسفة. وفي سنة ١٤٧ ه حج يزيد واستخلف عبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج صاحب شرطتهِ وبعث جيشًا لغزو الحبشة من اجل خارجيٍّ ظهر هناك فظفر بهِ الجيش وقدم رأسهُ في عدة رؤوس فحملت الى بغداد. وفي سنة ١٤٨ ه ضم يزيد برقة الى عمل مصر وهو اوَّل من فعل ذلك. وفي سنة ١٥٠ ه خرج القبط في سخا فبعث اليهم جيشًا فرجع منهزمًا. وفي سنة ١٥٢ ه توفي يزيد بن حاتم واقام المنصور عوضًا عنهُ عبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج وهذا لم يحكم في مصر الا ٣ سنين. وفي سنة ١٥٥ ه

أُبدل باخيهِ محمد بن عبد الرحمن . وفي سنة ١٥٦ ﻫ توفي محمد المذكور فولّي مكانهُ موسى بن علي بن رباح . ولداعي هذه التغييرات الكثيرة في امارة مصر لم يرتح اهلها فلم يكن لها فرصة للتقدم خطوة نحو الامام وذلك لاعتقاد كل حاكم انهُ عن قليل معزول فبدلاً من ان يسعى الى زرع ما ربما لا يستغلهُ كان يسعى الى ما فيهِ صالحهُ الشخصي ولذلك كان كل واحد منهم يزيد في مقدار الضرائب المفروضة او يخترع ضرائب جديدة بحيث انهُ لم يبقَ شيء معاف من الضرائب حتى النعلة وبائعي البقول وقادة الجمال وكل الصناع حتى المتسولين كل هؤلاء كانوا يدفعون الضرائب فعم البلاء واشتد الجوع فاكل الناس الكلاب ولحم الادميين

وفي ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ ﻫ توفي ابو جعفر المنصور وهو في بير ميمون على بضعة اميال من مكة حيث توجَّهَ لقضاء فروض الحج وكان سنهُ ٦٢ سنة ومدة حكمهِ ٢٢ سنة الاّ ٧ ايام . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة المنصور سنة ١٤٦ ﻫ (انظر ش ٣٢)



ش ٣٢ نقود المنصور

خلافة محمد المهدي

من سنة ١٥٨ — ١٦٩ ﻫ او من ٧٧٥ — ٧٨٥ م

فخلفهُ محمد المهدي ابنهُ وهو الخليفة الثالث من بني العباس وكان كابيهِ متقلبًا مترددًا . وفي سنة ١٥٩ ﻫ صرف موسى بن علي عن مصر وولي محمد بن سليمان من اهالي سوريا ثم عزلهُ واعاد موسى بن علي وفي

سنة ١٦٠ هـ صرف هذا وولي عيسى بن لقمان الجمحي وفي سنة ١٦٢ هـ صرف عيسى وولي واضح مولى ابي جعفر وبعد يسير ابدلهُ بمنصور بن يزيد الرعيني وهو ابن خال الخليفة المهدي . وفي سنة ١٦٢ هـ ابدلهُ بيحيى بن داود الملقب بابي صالح من اهل خراسان وكان ابوهُ تركيًا وهو من اشد الناس واعظمهم هيبةً واقدمهم على الدم واكثرهم عقوبةً فمنع من غلق الدروب ليلاً ومن غلق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب . ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها وقال «من ضاع لهُ شيءٌ فعليَّ اداؤهُ» فكان الرجل يدخل الحمَّام فيضع ثيابهُ ويقول يا ابا صالح احرسها فكانت الامور جارية على هذا النمط مدة ولايتهِ وامر الاشراف والفقهاء واهل النوبات بلبس القلانس الطوال والدخول بها عليهِ يوم الاثنين والخميس بلا اردية وكان ابو جعفر المنصور اذا ذكرهُ قال هو رجل يخافني ولا يخاف الله . وفي سنة ١٦٤ هـ عزل ابو صالح ووُلّي سالم ابن سوادة التميمي . وفي ١٥ محرم سنة ١٦٥ هـ عزلهُ المهدي وولى ابراهيم بن صالح بن علي بن عبدالله بن عباس فابتنى دارًا عظيمة بالموقف من العسكر . وخرج دحية ابن المعصب من نسل عبد العزيز بن مروان نابذ ودعا الى نفسهِ بالخلافة فتراخى عنهُ ابراهيم ولم يحفل بامرهِ حتى ملك عامة الصعيد فسخط المهدي على ابراهيم وعزلهُ عزلاً قبيحًا في ٧ ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ وولّي موسى بن مصعب بن الربيع من اهل الموصل ولما جاء هذا مصر اخذ من ابراهيم ومن كان معهُ ثلثماية الف دينار ثم سيرهُ الى بغداد . وشدد موسى في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل وجعل يقبل الرشوة وضرب خراجًا على الحوانيت وعلى الدواب فتضايق الاهالي وكرهَ الجند ذلك ونابذوهُ وثارت قيس واليمانية وكاتبوا اهل الفسطاط فاتفقوا عليهِ فبعث بجيش لقتال دحية بالصعيد وخرج في جند مصر كلهم لقتال اهل الحوف فلما التقوا انهزم عنهُ اهل مصر باجمعهم

الحجة ومعهُ علي بن عبد العزيز الجروي لاخذ ما لهُ فلم يدفع اليهِ شيئًا فقتلهُ وصرف عبدويه وخرج الى برقة وولى عيسى بن منصور الرافعي فولّي من قبل المعتصم اول سنة ٢١٦ ﻫ على الصلات فانتقضت مصر السفلى عربها وقبطها في جمادى الاولى واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة فقدم الافشين من برقة في منتصف جمادى الاخرة ثم خرج هو وعيسى في شوال فاوقعا بالقوم واسرا منهم وقتلا ثم رجع عيسى فسار الافشين الى الحوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى ان قدم امير المؤمنين عبدالله المأمون في ١٠ محرم سنة ٢١٧ ﻫ فسخط على عيسى وحل لواءهُ وأخذهُ بلباس البياض عقوبة لهُ وقال لهُ «لم يكن هذا الحدث العظيم الأعن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتم الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد» ثم ولّى كيدر الصفدي بالنيابة عن المعتصم

وسبب قدوم الخليفة الى مصر انهُ كان عائدًا من محاربة الروم فرأى ان يمرّ بمصر لمراقبة شؤونها وكان قلقًا عليها لما بلغهُ من تمرّد اهلها ونقض عمالها فدخلها وجعل يمر بقراها يتفقد احوالها ويقال انهُ كان يبني لهُ في كل قرية دكة يضرب عليها سرادقهُ والعساكر حولهُ وكان يقيم في القرية يومًا وليلة. وبلغ الفسطاط في يوم الجمعة ٩ محرم سنة ٢١٧ ﻫ وما زال يتحرى اصول الفساد ويقتلعها الى ان بارح مصر في آخر صفر من تلك السنة قاصدًا دمشق

ولم يفتر المأمون اثناء تجولهِ في مصر عن تنظيم احوالها واصلاح داخليتها وتأييد مجالسها واحكامها وامر بترميم مقياس النيل الذي بناهُ اسامة في الروضة وبناء جامع فيهِ ومقياس آخر في بنبنودا (الصعيد) وترميم مقياس اخميم

وبعد ان بارح المأمون مصر بلغهُ ان الدواوين في مصر سارت على خطة لا يرضاها من حيث قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها

ممن كابد المشقّة والتعب في اصلاحها واسمادها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا نصب فلما علم بذلك أنكرهُ ومنع من ارتكابهِ واصدر أوامرهُ الصارمة باعناء الكافة اجمعين والضمناء والعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيهِ ويستولون عليهِ ما داموا مغلقين وباقساطهم قائمين وتضمَّن ذلك منشور قُرِئ على الناس ينبههم فيهِ الى ما جاء في الكتاب العزيز من قولهِ تعالى يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود

وفي ١٩ رجب سنة ٢١٨ ﻫ توفي الخليفة المأمون على اثر حمى حادة على نهر البذندون في سليسيا ودفن في طرسوس وسنهُ ٤٨ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافتهِ عشرون سنة وخمسة اشهر و ١٢ يومًا

اما آثار المأمون فاجلُّ آثار الخلفاء لانها تدلُّ على ما بلغهُ العلم وما بلغت اليهِ الصناعة من السعة والاتقان · وقد كان لشدة تعلقهِ بالعلم والصناعة يتعاطاهما بنفسهِ ويأخذ بناصرهما وكان يبذل النفس والنفيس في سبيل تقدمهما ولولاهُ لم يطّلع العرب على كثير من المؤلفات التي كتبت بالعبرانية او السريانية او اليونانية او اللاتينية فانهُ هو الذي سعى الى نقلها الى اللغة العربية ونشط رعيتهِ لمطالعتها والاستفادة منها · ولا يقتصر فضلهُ من هذا القبيل على ابناء اللغة العربية فان اهالي اوروبا عمومًا مديونون لهُ لانهُ حفظ لهم كتابات كثيرة يونانية ولاتينية لولا نقلها الى العربية وحفظها فيها لحطمتها يد الزمان كما حطمت غيرها مما نسمع بهِ ولم نرهُ · وكان كلفًا بمجالسة العلماء والحكماء لا يخلو مجلسهُ منهم ولم يكن يقتصر على العلماء من شعبهِ وملتهِ لكنهُ استدعى اليهِ من العلماء النصارى واليهود واليونان والفرس حتى المجوس والهنود وقرّبهم منهُ ولم يفرق بين احد منهم بالاكرام والسخاء · وكان اذا صرفهم انما يصرفهم متأسفًا على مفارقتهم وهم اشدُّ اسفًا منهُ على ذلك لانهم كانوا يرتاحون الى مجالستهِ لما كانوا يتمتعون بهِ من لطفهِ ودعتهِ

دينار على ان يتخلّى عن هدمها فأبى وكان كثير الصدقة فعلق بهِ الاهلون حتى قالوا انهُ اهل للخلافة فطمع فيها فسخط عليهِ هارون الرشيد وعزلهُ وولّى مكانهُ موسى بن عيسى العلوي في ٦ ربيع اول سنة ١٧١ ه وحالما استلم زمام الامارة أذن للمسيحيين بابتناء الكنائس التي هُدِمَت بامر علي ابن سليمان فابتنيت بمشورة الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة . وفي ١٤ رمضان سنة ١٧٢ ه عُزل بعد ان تولّى الامارة سنة وخمسة اشهر وتولّى مكانهُ مسلمة بن يحيى وفصل بين ادارة الحكومة والمالية او الخراج وجعل على الخراج عمر بن غيلان وفي ٥ شعبان سنة ١٧٣ ه عزل مسلمة بن يحيى عن الصلات وتولى محمد بن زهير وفي غاية ذي الحجة سنة ١٧٣ ه عُزل وتولى مكانهُ داود بن يزيد ابن حاتم بن قبيصة . وفي ٧ صفر سنة ١٧٥ ه عُزل داود بن يزيد وولّي مكانهُ موسى بن عيسى ثانيةً . وفي هذه السنة اوصى هارون الرشيد بالخلافة لابنهِ الثاني محمد الملقب بالامين وهو اذ ذاك لم يبلغ الخامسة من العمر واخوهُ المأمون في السادسة وسبب ذلك ان الامين كان ابن زبيدة ابنة عم الخليفة واما المأمون فكان ابن امرأة اخرى ليست بذات نسب عالٍ فغضبت زبيدة من حرمان ابنها من الخلافة وكان الرشيد يحبها فاوصى بالخلافة لابنها الامين على ان يكون للمأمون حق الخلافة بعدهُ رغماً عن كونهِ البكر

وفي ٢٦ صفر سنة ١٧٦ ه عهدت امارة مصر الى ابراهيم بن صالح ثانية وكان قد تولّاها في خلافة ابي جعفر كما تقدم . وفي ١٨ رمضان سنة ١٧٦ ه تولى امارة مصر عبدالله ابن المسيب بن زهير الضبي اخو محمد بن الزهير ثم صرف في رجب سنة ١٧٧ فخلفهُ اسحق بن سليمان من بني العباس فلما وصل مصر زاد في خراج المزارعين زيادة اجحفت بهم فخرج عليهِ اهل الحوف فحاربهم فقُتل كثير من اصحابهِ فكتب الى الرشيد بذلك فعقد لهرثمة بن اعين في جيش عظيم وبعث بهِ فنزل الحوف فتلقاهُ

اهله بالطاعة واذعنوا فقبل منهم واستخرج الخراج كلهُ فسر الخليفة مما اتاه هرثمة من النصر فصرف اسحق بن سليمان وولّى مكانهُ هرثمة في ٢ شعبان سنة ١٧٨ هـ وبعد قليل ارسل الرشيد هرثمة الى افريقية وولّى على مصر عبد الملك بن صالح اخا ابراهيم بن صالح على الصلات وارسل معهُ عبدالله بن زهير على الخراج . وفي ١٢ محرم سنة ١٧٩ هـ ابدل عبد الملك بن صالح بعبيدالله بن المهدي شقيق الخليفة وبعد قليل تنحّى هذا عن الامارة لموسى بن عيسى وهي المرة الثالثة لامارتهِ . وفي سنة ١٨٠ هـ عادت امارة مصر الى عبيدالله بن المهدي ثانية . وفي ٧ رمضان سنة ١٨١ هـ سلمت امارة مصر الى اسماعيل بن صالح وكان خطيبًا بليغًا فقال فيهِ بن عنير « ما رأيت على هذه الاعواد اخطب من اسماعيل بن صالح »

وفي ١٤ جمادى الاخرة سنة ١٨٢ هـ صرف الرشيد اسماعيل بن صالح وولى اسماعيل بن عيسى العباسي ثم صرف هذا وولّى الليث بن الفضل اليوردي من اهل يورد فقدم مصر في ٥ شوال سنة ١٨٢ هـ وخرج منها في رمضان سنة ١٨٣ الى الخليفة بالهدايا والمال واستخلف اخاهُ الفضل ابن علي في مصر ثم عاد في آخر السنة وخرج ثانيةً بالمال في ٢١ رمضان سنة ١٨٥ هـ واستخلف هاشم بن عبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ثم عاد في ١٤ محرم سنة ١٨٦ هـ فكان كلما أغلق خراج سنة وفرغ من حسابها خرج بالمال الى امير المؤمنين هارون الرشيد مع الحساب

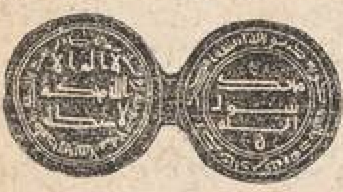
ثم بعث بمساح يمسحون الاراضي ومن جملتها اراضي اهل الحوف فانتقص لهم من القصبة اصابع فتظلموا الى الليث فلم يسمع منهم فتجمهروا وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم الليث في اربعة الاف من جند مصر في شعبان سنة ١٨٦ هـ فالتقى بهم في رمضان فانهزم عنهُ الجند في ١٢ منهُ وبقي في نحو المائتين فحمل بمن معهُ على اهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة وكان التقاؤهم على ارض جب عميرة وبعث الليث الى الفسطاط

بثمانين رأساً من رؤوس القيسية ولما عاد الى النسطاط عاد اهل الحوف الى منازلهم ومنعوا الخراج فسار الليث الى الخليفة هارون الرشيد في محرم سنة ١٨٧ ﻫ وطلب اليهِ الجيوش لانهُ لا يقدر على استخراج الخراج من اهل الحوف الّا بجيش يبعث بهِ معهُ وكان محفوظ بن سليم بباب الرشيد فرفع محفوظ الى الرشيد يضمن لهُ خراج مصر عن آخرهِ بلا سوط ولا عصا فولاهُ الخراج وصرف الليث بن الفضل عن صلات مصر وخراجها وفي ٢٥ جمادى الاخرة سنة ١٨٧ ﻫ عزل وأُقيم مقامهُ احمد بن اسماعيل بن صالح . وفي ١٨ شعبان سنة ١٨٩ ﻫ أُبدل بعبدالله بن محمد العباسي الملقب بابن زينبة . وفي هذه السنة ابدل عبدالله المذكور بحسين بن جميل الخناخ وفي ايامهِ امتنع اهل الحوف من الخراج فبعث اليهِ امير المؤمنين هارون الرشيد بحيى بن معاذ في أمرهم فنزل بلبيس في شوال سنة ١٩١ ﻫ وصرف الحسين بن جميل عن امارة مصر في شهر ربيع الاخر سنة ١٩٢ ﻫ وولي مالك بن دلهم وفرغ يحيى بن معاذ من امر الحوف وقدم النسطاط في جمادى الثانية فورد عليهِ كتاب الرشيد يأمرهُ بالخروج اليهِ فكتب الى اهل الحوف ان اقدموا حتى اوصي بكم مالك ابن دلهم وادخل بينكم وبينهُ في امر خراجكم فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد اعد لهم القيود فامر بالابواب فأُخذت ثم دعا بالحديد فقيدهم وتوجه بهم في منتصف رجب وفي السنة التالية عهدت الى الحسين قيادة الجيش والخراج فضلاً عن الامارة . وفي ١٢ ربيع آخر سنة ١٩٢ ﻫ أُبدل بمالك بن دلهم وكان على الخراج الخصيب ابن عبد الحميد واليهِ تنسب مدينة منية خصيب

واخيراً في ٤ صفر سنة ١٩٣ ﻫ عادت امارة مصر الى الحسن بن جميل الى ان توفي الخليفة هارون الرشيد في ٣ جمادى الآخرة من تلك السنة في طوس وسنهُ ٤٧ سنة مدة حكمهِ ٢٣ سنة وشهر و ١٩ يوماً . ولا

حاجة لتعداد خلال هذا الخليفة الذي رفع شأن الخلافة الاسلامية الى حد من العظمة لم تدركهُ في سائر اطوارها فقد كان حازماً عادلاً تقياً باسلاً وديعاً محباً للعلم والفضل واهلهما ولدينا من الاحاديث عن كرم اخلاقهِ ما تحدث بهِ العامة والخاصة فنكتفي بانهُ جعل الخلافة علماً هو مسمّاها فاذا قيل لنا ان الامر الفلاني حصل في ايام الخليفة لانفهم الا انهُ حصل في خلافة هارون الرشيد

ومما يحكى عنهُ انهُ كان بينهُ وبين شرلمان ملك فرنسا في ذلك العهد صداقة وولاء وانهُ اهدى اليهِ اشياء كثيرة من اعمال الشرق ومنها الساعة الشهيرة المكتوب عليها بالحروف الكوفية . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩١ ه انظر ش ٢٥



ش ٢٥ نقود هارون الرشيد

خلافة محمد الامين

من سنة ١٩٣ — ١٩٨ ه او من ٨٠٩ — ٨١٣ م

وفي يوم وفاة الرشيد خلفهُ ابنهُ محمد الامين اما المأمون فكان ابوهُ قبل وفاتهِ قد وهبهُ جميع حللهِ واسلحتهِ الخصوصية وولاهُ خراسان بما فيها من العدة والرجال وان يكون عليها حاكماً مستقلاً عن اخيهِ الامين . فالامين عند استلامهِ زمام الخلافة انكر على اخيهِ وصية ابيهما ولم يسلمهُ شيئاً مما لهُ الحق بهِ ويقال ان كل ذلك كان بدسيسة الفضل بن ربيع . فتنافر الاخوان والامين اشدهما ضغينة فارسل الى الكعبة فاتى بالكتابين اللذين جعلهما

الرشيد هناك ببيعة الامين والمأمون فاحرقهما الفضل وجعل ولاية العهد لموسى بن الامين فلم يعد بعد ذلك باب للمصالحة بين الاخوين . وكان الامين محبًا للهو ومعاقرة الخمرة اما المأمون فكان متيقظًا يترقب الفرص فدعى الى مبايعتهِ في خراسان فالتف حولهُ حزب كبير يدعون الى بيعتهِ لما رأوا فيهِ من العدل وكرم الاخلاق ثم جعل المأمون يجمع قواتهِ ويستنصر دعاتهُ واتحد معهُ هرثمة بن اعين الذي كان اميرًا على مصر قبل ذلك الحين فعظم الأمر على الامين فولّى حاتم بن هرثمة على مصر سنة ١٩٤ﻫ استعطافًا لابيهِ هرثمة ولكن ذلك لم يجدِهِ نفعًا لان هرثمة لم يتحول عن ولاء المأمون

وفي سنة ١٩٥ ﻫ انفذ الامين جيشًا فيهِ اربعون الف مقاتل الى خراسان لمقاتلة اخيهِ فلاقاهم طاهر بن الحسين قائد جند المأمون وارجعهم على اعقابهم فعظم المأمون في عيون المسلمين عمومًا فبايعهُ اهل خراسان وتابعهم كثيرون فلما رأى الامين ذلك ورأى ان تولية حاتم بن هرثمة على مصر لم تجدِهِ نفعًا عزلهُ وولى جابر بن الاشعث في السنة عينها . وابتنى حاتم بن هرثمة في سفح الجبل المقطم حيث القلعة الان قبة عظيمة دعاها قبة الهواء بقيت الى انقراض دولة بن طولون وخراب القطائع . وبعد تولية جابر على مصر اشتد ازر الامين وطمع بالتنوز على اخيهِ فجند جندًا آخر مؤلفًا من ٤٠ الفًا لمحاربتهِ وجندًا آخر انفذهُ من جهة اخرى تحت قيادة عبدالله بن حميد بن قحطبة الذي كان ابوهُ اميرًا على مصر في عهد ابي العباس . اما طاهر بن الحسين فسار لملاقاتهم ولم يبالِ بتلك الجيوش لكنهُ لم يلتقِ بها فتقدم الى الاهواز من واسط والمداين

وكان على مصر جابر بن الاشعث كما تقدم فلما حدثت فتنة الامين والمأمون قام السري بن الحكم غضبًا للمأمون ودعا الناس الى خلع الامين فاجابوهُ وبايعوا المأمون في ٢٢ جمادى الاخرة سنة ١٩٦ ﻫ وقام في

بغداد الحسين بن علي احد سراتها ودعا الناس الى خلع الامين وتولية اخيهِ المأمون فاجابوهُ وبايعوا المأمون في ١١ رجب من تلك السنة . ووثب العباس بن عيسى على الامين ووالدتهِ زبيدة واودعهما السجن موثقين . ثم تمكن الامين ببعض الوسائط من تسلُّق كرسي الخلافة ثانيةً فبايعهُ من في بغداد فقط اما خلافة المأمون فكانت على الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها وعقد على مصر لحاتم بن هرثمة بن اعين وارسل اليها عباد بن محمد نائباً عنهُ موقتاً

وفي سنة ١٩٧ هـ حمل طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين على بغداد وحاصراها نحواً من سنة فضجر الاهالي وملُّوا من طول هذه المحاصرة وصاروا ينظرون لها نهاية فلم يروا لها حلاً الَّا بخلع الامين فخلعوهُ للمرة الثانية ففرَّ وبعد قليل قُبض عليهِ وقُتل وجيء برأسهِ والخاتم والقضيب والبردة الى المأمون ولم يكن سنُّ الامين عند موتهِ الَّا ٢٩ سنة و٣ اشهر وبضعة ايام ومدة حكمهِ اربع سنين وثمانية اشهر وثمانية عشر يوماً وكفَّت بموتهِ الحروب وحقنت الدماء

خلافة عبدالله المأمون

من سنة ١٩٨ ـ ٢١٨ هـ او من ٨١٢ ـ ٨٣٢ م

فبويع المأمون مبايعةً قطعيةً في ٢٥ محرَّم سنة ١٩٨ هـ يوم قتل اخيهِ الامين . فاستقدم عباد بن محمد الذي كان عينهُ نائباً في مصر وعهد امارتها الى المطلب بن عبدالله الخزاعي وبعد اشهر قليلة ابدل بالعباس بن موسى بن عيسى الذي تولَّى على مصر ثلاث مرات في ايام هارون الرشيد فتولى صلاتها وخراجها . وفي سنة ١٩٩ هـ تخلى

العباس بن موسى عن امارة مصر فارسل المأمون عوضاً عنهُ المطلب بن عبدالله سلفهُ وبعد قليل ابدل بالسري بن الحكم · واخذت الراحة من ذلك الحين تنتشر في المملكة الاسلامية الأ ان الايام تلد العجائب فتأتيك كل يوم بنبأ جديد

فان سلالة الامام علي بن ابي طالب لم يكفّوا عن المطالبة بحقوقهم في الخلافة فدعوا الناس الى مبايعة علي بن موسى من سلالة الامام علي فلما علم المأمون بذلك استشار وزيرهُ الفضل بن ربيع في الأمر فنصح اليهِ ان يصرف تلك النازلة بان يوصي بالخلافة بعد وفاتهِ لعلي المذكور بشرط ان يكفوا عن كل ما يوجب الاضطراب · الأ ان تلك السياسة لم تفد الاَّ زيادة الخرق اتساعاً فتضاعف التمرد ونمت الاحزاب وقد شق ذلك خصوصاً على بني العباس لانهم رأوا الخلافة قد خرجت من ايديهم الى العلويين فثاروا سنة ٢٠٢ﻫ ثورة شنّت عن خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي اما سطوتهُ فلم تكن تتجاوز سور بغداد لانهُ لم يكن اهلاً للاحكام فخارت قواهُ دون ذلك فعجز الذين اقاموهُ عن استبقائهِ اكثر من سنة وبضعة اشهر فتنازل عن الخلافة سنة ٢٠٣ﻫ وفرّ هارباً فعاد المأمون الى بغداد في سنة ٢٠٤ﻫ فدخلها في حلة خضراء علوية وبعد اسبوع عادت الجنود الى الملابس السوداء العباسية

وفي هذه السنة توفي الامام محمد بن ادريس الملقب بالشافعي صاحب المذهب الشافعي وكانت وفاتهُ في الفسطاط ولم يبلغ من العمر اكثر من ٥٤ سنة · وتوفي ايضاً السري بن الحكم امير مصر واقيم مقامهُ محمد بن السري بمبايعة الجند لهُ بقطع النظر عن اوامر الخليفة بهذا الشان · وفي سنة ٢٠٧ﻫ توفي طاهر بن الحسين رئيس قواد المأمون في مرو عاصمة خراسان وكان قد اقامهُ المأمون هناك حاكماً فقدم ابنهُ عبدالله بن طاهر الى مصر واقام في بلبيس

ونظرًا لما بين مصر ودار الخلافة من المسافة اصبح الناس لا يعبأُون بما كان يأْتيهم منها من الاوامر وزِد على ذلك ان الدولة اصبحت في ابانه من الضعف لما كان يتهددها من تمرد عمالها واحتقار رعيتها لها ولا سيما المصريين فانهم كانوا لا ينفكون عن خرق حرمتها ومخالفة اوامرها حتى عقدوا لعبدالله بن السري عليهم بمبايعة الجند كما تقدم وما زالوا على ذلك نحوًا من خمس سنوات . وفي سنة ٢١١هـ تحصَّن عبدالله بن طاهر في بلبيس فالتفَّت عليهِ عصبة من اهلها وبايعوهُ فاستفحل امرهُ فسار الى الفسطاط في ربيع اول من تلك السنة وانزل عبدالله بن السري وجعل على الفسطاط عباد بن ابراهيم . وفي سنة ٢١٢ هـ ابدل عباد بعيسى بن يزيد الجلودي

وفي سنة ٢١٣ هـ انفذ المأْمون الى عبدالله بن طاهر ان يقف عند حدّهِ وينسحب من مصر وعقد على مصر وسوريا لاخيهِ المعتصم واعطاهُ خمساية دينار وامر بمثل هذا المبلغ هبةً لعبدالله بن طاهر للتعيش ويقال انهُ امر بمثل ذلك ايضًا لابنهِ العباس فيكون جملة ما اخرج من خزينتهِ في يوم واحد مليونًا وخمساية الف دينار وهذا منتهى السخاء

واستخلف المعتصم عمير بن الوليد التميمي على الصلات في ١٧ صفر فخرج ومعهُ عيسى الجلودي لقتال اهل الحوف وكانت بينهم معارك عظيمة قتل فيها عمير فاستخلف مكانهُ عيسى الجلودي فحارب اهل الحوف بمنية مطر ثم انهزم في رجب واقبل المعتصم الى مصر في اربعة الاف من اتراكهِ فقاتل اهل الحوف في شعبان ودخل الى مدينة الفسطاط في ٢٢ منهُ وقتل اكابر الحوف ثم خرج الى الشام في اول محرم سنة ٢١٥ هـ في اتراكهِ ومعهُ جمع من الاسارى في حر وجهد شديد وولى على مصر عبدويه بن جبلة على الصلات فخرج اهل الحوف في شعبان فبعث اليهم وحاربهم حتى ظفر بهم . ثم قدم الافشين حيدر بن كاوس الى مصر في ٢ ذي

الحجة ومعة علي بن عبد العزيز الجروي لاخذ ما لهُ فلم يدفع اليهِ شيئاً فقتلهُ وصرف عبدويه وخرج الى برقة وولى عيسى بن منصور الرافعي فولّي من قبل المعتصم اول سنة ٢١٦ ﻫ على الصلات فانتقضت مصر السفلى عربها وقبطها في جمادى الاولى واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة فقدم الافشين من برقة في منتصف جمادى الاخرة ثم خرج هو وعيسى في شوال فاوقعا بالقوم واسرا منهم وقتلا ثم رجع عيسى فسار الافشين الى الحوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى ان قدم امير المؤمنين عبدالله المأمون في ١٠ محرم سنة ٢١٧ ﻫ فسخط على عيسى وحل لواءهُ وأخذهُ بلباس البياض عقوبةً لهُ وقال لهُ «لم يكن هذا الحدث العظيم الأعن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتم الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد» ثم ولّى كيدر الصفدي بالنيابة عن المعتصم

وسبب قدوم الخليفة الى مصر انهُ كان عائداً من محاربة الروم فرأى ان يمرّ بمصر لمراقبة شؤونها وكان قلقاً عليها لما بلغهُ من تمردّ اهلها ونفض عمالها فدخلها وجعل يمر بقراها يتفقد احوالها ويقال انهُ كان يبني لهُ في كل قرية دكة يضرب عليها سرادقهُ والعساكر حولهُ وكان يقيم في القرية يوماً وليلة . وبلغ الفسطاط في يوم الجمعة ٩ محرم سنة ٢١٧ ﻫ وما زال يتحرى اصول الفساد ويقتلعها الى ان بارح مصر في آخر صفر من تلك السنة قاصداً دمشق

ولم يفتر المأمون اثناء تجوله في مصر عن تنظيم احوالها واصلاح داخليتها وتأييد مجالسها واحكامها وامر بترميم مقياس النيل الذي بناهُ اسامة في الروضة وبناء جامع فيهِ ومقياس آخر في بنبنودا (الصعيد) وترميم مقياس اخميم

وبعد ان بارح المأمون مصر بلغهُ ان الدواوين في مصر سارت على خطة لا يرضاها من حيث قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها

ممن كابد المشقة والتعب في اصلاحها واسمادها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا نصب فلما علم بذلك أنكرهُ ومنع من ارتكابهِ واصدر أوامرهُ الصارمة باعفاء الكافة اجمعين والضمناء والعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيهِ ويستولون عليهِ ما داموا مغلقين وباقساطهم قائمين وتضمَّن ذلك منشور قُرئ على الناس ينبههم فيهِ الى ما جاء في الكتاب العزيز من قولهِ تعالى يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود

وفي ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ توفي الخليفة المأمون على اثر حمى حادة على نهر البذندون في سليسيا ودفن في طرسوس وسنهُ ٤٨ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافتهِ عشرون سنة وخمسة اشهر و١٢ يوماً

اما آثار المأمون فاجلُّ آثار الخلفاء لانها تدلُّ على ما بلغهُ العلم وما بلغت اليهِ الصناعة من السعة والاتقان . وقد كان لشدة تعلقهِ بالعلم والصناعة يتعاطاهما بنفسهِ ويأخذ بناصرهما وكان يبذل النفس والنفيس في سبيل تقدمهما ولولاهُ لم يطّلع العرب على كثير من المؤلفات التي كتبت بالعبرانية او السريانية او اليونانية او اللاتينية فانهُ هو الذي سعى الى نقلها الى اللغة العربية ونشط رعيتهِ لمطالعتها والاستفادة منها . ولا يقتصر فضلهُ من هذا القبيل على ابناء اللغة العربية فان اهالي اوروبا عموماً مديونون لهُ لانهُ حفظ لهم كتابات كثيرة يونانية ولاتينية لولا نقلها الى العربية وحفظها فيها لحطمتها يد الزمان كما حطمت غيرها مما نسمع بهِ ولم نرهُ . وكان كلفاً بمجالسة العلماء والحكماء لا يخلو مجلسهُ منهم ولم يكن يقتصر على العلماء من شعبهِ وملتهِ لكنهُ استدعى اليهِ من العلماء النصارى واليهود واليونان والفرس حتى المجوس والهنود وقرَّبهم منهُ ولم يفرق بين احد منهم بالاكرام والسخاء وكان اذا صرفهم انما يصرفهم متأسفاً على مفارقتهم وهم اشدُّ اسفاً منهُ على ذلك لانهم كانوا يرتاحون الى مجالستهِ لما كانوا يتمتعون بهِ من لطفهِ ودعتهِ

وقد نبغ في ايامهِ علماء كثيرون من المسلمين وغيرهم بعلوم كثيرة كالفلك والهندسة والفلسفة العقلية وغيرها . منهم احمد بن كثير الملقب بالفرغني وعبدالله بن سهل ومحمد بن موسى ومشاالله اليهودي ويحيى بن ابي المنصور وقد أقام بواسطتهم الارصاد الكثيرة وكان عالمًا بالفلك فكان يعاونهم بالرصد احيانًا في مرصد شمسية بقرب بغداد واحيانًا في المرصد على جبل قسيون قرب دمشق . ومن الاطباء الذين كانوا يجالسونهُ سهل ابن سابور وجبرائيل الذي بحث في الرمد على الخصوص ويوحنا بن البطريق الملقب بالترجمان لانهُ ترجم الكتب الطبية من اليونانية الى العربية

ففي خلافة المأمون وأبيهِ بلغت دولة الاسلام مجدًا عظيمًا واتسع نطاق مملكتهم فبلغت حدود الصين شرقًا فاستولوا على الهند ومنها شمالاً الى السواحل المتجمدة من البحر الشمالي الى اقصى عشائر الاتراك وساروا في بلاد اليونان الى البوسفور ومن الجنوب الى جبال الحبش العليا الوعرة المسلك الى القبائل البربرية في داخلية افريقيا ومن الغرب الى الجزائر فطرابلس الغرب ومنها شمالاً في اوروبا الى ما وراء الاندلس في ارض فرنسا فكانت حدود تلك المملكة تلاطمها امواج الاوقيانوس الاتلانتيكي غربًا وامواج المحيط شرقًا والبحر الشمالي شمالاً والاقيانوس الهندي والعربي جنوبًا . الَّا انها قبل وفاة المأمون جعلت تسير القهقرى فانقسمت على نفسها فانحطت شوكتها وابتدأ ذلك في غربيها فانفصلت عنها الاندلس واستقلت بنفسها تحت دولة اموية جديدة عاصمتها قرطبة . وتمرد طاهر بن الحسين في خراسان (قبل وفاتهِ) فشق عصا الطاعة واستقل بالحكم بنفسهِ وجعلهُ ارثًا لنسلهِ من بعده بالاستقلال التام عن خلافة بغداد وتعرف دولتهم هذه بالدولة الطاهرية ومثل ذلك فعلت سائر الامارات اقتداءً بمن سار امامها فطلبت كل منها استقلالها . اما مصر فقد كانت

مقطعة للمعتصم ولم يبقَ تابعاً لخلافة بغداد سواها وهي لم تبقَ الّا لعلم المعتصم بالخلافة بعد المأمون

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المأمون في سنة ٢١٨ للهجرة وكان ذلك بامر ابنو العباس (انظر شكل ٣٦)



ش ٣٦ نقود المأمون

خلافة محمد المعتصم

من سنة ٢١٨ — ٢٢٧ هـ اومن ٨٣٢ — ٨٤٢ م

فلما توفي الخليفة المأمون خلفهُ اخوهُ محمد المعتصم بن هارون الرشيد الثالث في ١٨ رجب سنة ٢١٨ هـ وهو اول من اتخذ لفظ الجلالة في لقبهِ فلقب نفسهُ المعتصم بالله

وكان قد اقر امارة مصر لكيدر الذي كان نائباً عنهُ فيها ثم كتب اليهِ بأمرهُ باسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم ففي شهر ربيع آخر سنة ٢١٩ هـ توفي كيدر وتولى مكانهُ المظفر بن كيدر . وفي سنة ٢٢٠ هـ توفي المظفر وتولى مكانهُ موسى بن ابي العباس الملقب بالشيباني ويلقبهُ اخرون بالشامي . وفي سنة ٢٢٤ هـ استُدعي موسى من مصر فاستخلف مالك الذي يلقبهُ بعضهم بالهندي والبعض الآخر بالكندي وهو ابن كيدر المتقدم الذكر . وفي سنة ٢٢٥ هـ عزل مالك وعهدت ولاية مصر بامر الخليفة الى ابي جعفر اشناس وهو آخر من

وُلّي مصر بامر المعتصم

وفي سنة ٢٢٧ هـ اصيب الخليفة المعتصم بحمّى في سامرة وفي ١٨ ربيع اول من تلك السنة توفي. ومن الغريب ما لهذا الخليفة من الحظ في الرقم «٨» فان بينه وبين ابي العباس اول الخلفاء العباسيين ثمانية اعقاب وولد في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة القمرية وهو الخليفة الثامن من بني العباس وتولى الخلافة سنة ٢١٨ وسنه ٣٨ سنة وثمانية اشهر ومدة حكمهِ ٨ سنين و ٨ اشهر و ٨ ايام وتوفي في ١٨ ربيع في السنة الثامنة والاربعين من عمرهِ وترك ثمانية اولاد ذكور وثماني اناث وحضر ثماني مواقع حربية واخيرًا وُجد في خزينتهِ عند موتهِ ثمانية ملايين من الدنانير وثمانون الف درهم وقد قيل انهُ بناء على هذا الاتفاق الغريب دعي «بالمثمن»

وقد كان هذا الخليفة نقطة ابتداء تقهقر دولة العرب ولعلهُ كان السبب في ذلك التقهقر لانهُ كان ضعيف السياسة بعيدًا من الفضائل والآداب امياً لا يعرف الكتابة لكنهُ كان قوي البدن يحمل ما وزنهُ الف رطل (ليبرا) ويمشي بهِ خطوات وكان مع ذلك شجاعًا شديدًا ومحبًا على نوع خصوصي للحرب ولاقتناء الاسلحة والخيل الجياد والعساكر المنظمة

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المعتصم سنة ٢١٩ للهجرة او ٨٣٤ للميلاد (انظر شكل ٣٧)



ش ٣٧ نقود المعتصم بالله

مبدأ الدولة الطولونية

ان الامة العظيمة التي يدعوها بعض المؤرخين تركية وبعضهم تترية وفيها شعوب التركمان والمغول والتتر تشغل بسكانها بقعة من الارض في اسيا الشمالية تمتد من نهر جيحون الى حدود الصين ويحدها شمالاً الاوقيانوس المتجمد. ونظرًا لما بينها وبين شبه جزيرة العرب من الابعاد والجبال والاودية والانهار ما لا يسهل تخطيه كانت في مأمن من غزوات العرب وفتوحاتهم وفي غنى عن معاهداتهم او غير ذلك مما يستدعي ارتباطها الواحدة بالاخرى. الّا ان الشعوب التركية اخذت من عهد الخلفاء الراشدين في غزو بلاد التتر مما يلي بلادها والعرب ايضًا كانوا يفعلون مثل ذلك مما يلي ولاياتهم وما زالوا يفتحون فيها حتى بلغوا حدود تركستان وما وراءها فافضى الامر الى تزاحم هاتين الامتين فتنازعتا فقام الحرب بينهما سجالاً مدة طويلة في اماكن مختلفة وكان الاستئسار بينهما متبادلاً فكان العرب يرسلون باسراهم من الترك الى بلاط الخلافة بمثابة الجزية لاستعمالهم في منازل الخلفاء وكبار الامراء ويدعونهم بالمماليك

والمماليك الذين كانوا في دور الخلفاء كانوا يمتازون غالبًا بالقوة البدنية والعقلية وكانوا يتقربون من اسيادهم شيئًا فشيئًا حتى استخدموهم في بلاطهم وقد كان المماليك في بادئ امرهم في ظلمات من الجهل والعجمة وعلى ابعاد من الفضيلة وشعائر الدين لا يعرفون القراءة لكنهم بمخالطتهم للامراء ورجال الدولة اصبحوا على جانب من التهذيب والاستنارة لاعتناقهم الديانة الاسلامية ثم تدربوا شيئًا فشيئًا في شؤون الدولة فبرعوا في السياسة وتدبير الاحكام وادارة الاعمال فعظموا في اعين الخلفاء. فلما كثر تمرد ولاة الامصار صار الخلفاء يعهدون اليهم ولاية الامصار فكثر انصارهم فاقاموا لهم احزابًا من ابناء البلاد يجدونهم عند الحاجة. ولم يكن ذلك كل ما فعلة

الخلفاء لكنهم كانوا يبذلون المبالغ الوافرة في ابتياعهم يتنقون منهم المتازين جمالاً وقوة وذكاء ليدخلوهم في خدمتهم الخاصة . ومن ذلك ما فعله الخليفة المعتصم اذ رغب في تعزيز حاشيتهِ فابتاع من اولئك المماليك مئات فوق ما كان عندهُ منهم وامر بتدريبهم على استعمال السلاح والحاقهم بالجيش ليختار منهم متى شاء من يصلح لبطانتهِ فكبرت نفوسهم وجعلوا يعيثون فيمن حولهم فكثرت التشكيات في حقهم وكثر الهرج في بغداد حتى اضطر المعتصم الى مبارحتها فاستبدلها بسامرة

وكان للمعتصم بالله بطانة من المماليك عليهم رئيس يقال لهُ «طولون» من قبيلة الطغرغز احدى الاربعة وعشرين قبيلة التي تتألف منها تركستان وكانت عائلتهُ مقيمة في جوار بحيرة لوب في بخارى الصغرى فأُسر في احدى المواقع الحربية وجيء بهِ الى ابن اسد الصامي وكان من عمّال المامون يدفع لهُ جزية سنوية من المماليك والخيول التركية واشياء اخرى ففي سنة ٢٠٠ هـ للهجرة كان طولون في جملة من ارسلهم ابن اسد من المماليك وكان متناسب الاعضاء قوي البنية فاعجب المأمون فالحقهُ بحاشيتهِ وما زال يرقيهِ حتى جعلهُ رئيس حرسهِ ولقبهُ بامير الستر . وهذا المنصب لم يكن ينالهُ الأمن كان للخليفة ثقة خصوصية بامانتهِ واخلاصهِ ليكون محافظًا على حياتهِ الشخصية . وبعد ان صرف طولون نحوًا من عشرين سنة في هذا المنصب في ايام المأمون والمعتصم اصبح ذا عائلة واولاد منهم احمد الذي لُقب بعد ذلك بابي العباس وهو مؤسس الدولة الطولونية . ولد في بغداد وقال آخرون في سامرة سنة ٢٢٠ هـ من والدة تركية تدعى قاسمة ويدعوها بعضهم هاشمة كانت في عداد السراري وقال آخرون انهُ ابن المهلي خادم طولون وان طولون رباه صغيرًا والله اعلم

خلافة الواثق بن المعتصم

من سنة ٢٢٧ — ٢٣٢ ﻫ او من ٨٤٢ — ٨٤٧ م

وقبل ان يترعرع احمد بن طولون توفي المعتصم بالله وبويع ابنهُ هارون ابو جعفر فلقبوهُ بالواثق بالله وفي السنة الاولى من خلافتهِ عزل القسم الاعظم من ولاة الامصار واصحاب المناصب الذين كان قد ولاهم ابوهُ وكان في نيتهِ اقالة اشناس من امارة مصر لكنهُ لم يكد يفعل حتى توفي اشناس في الفسطاط سنة ٢٢٨ ﻫ فاقام مقامهُ علي بن يحيى الارمني وبعد نحو سنة ابدل بعيسى بن منصور للمرة الثانية. وفي سنة ٢٣١ ﻫ توفي الخليفة الواثق بالله في ٢٤ ذي الحجة وسنهُ ٣٤ سنة ومدة حكمهِ ٥ سنوات و ٩ اشهر و١٢ يوماً

خلافة المتوكل بن المعتصم

من سنة ٢٣٢ — ٢٤٧ ﻫ او من ٨٤٧ — ٨٦١ م

وعند وفاة الخليفة تواطأ وزراهُ احمد بن ابي داوود ومحمد بن عبد الملك الملقب بالزيات مع واصف التركي رئيس الحجاب على ان يبايعوا محمد بن الواثق ويلقبوهُ بالمهتدي بالله الا انهم رأوا سنهُ لا يجيز لهُ تعاطي الاحكام فعدلوا عنهُ الى جعفر بن المعتصم فبايعوهُ ولقبوهُ بالمتوكل على الله. وقد كان الواثق والمتوكل اخوين من اب واحد ووالدتين والدة الاول جارية يونانية تدعى كاراتيس ووالدة الثاني جارية تركية تدعى سرجه

وفي سنة ٢٣٢ ه عقد المتوكل على مصر لهرثمة بن نصر الجبلي وفي السنة التالية ابدلهُ بابنهِ المنتصر بن المتوكل وسنة ٢٣٤ ه تولّاها حاتم بن هرثمة . وفي ايامهِ ثارت البجة في النوبة بعد ان كانوا عاهدوا المأمون على الصلح فانفذ المتوكل لحربهم محمد بن عبدالله فخرج اليهم من مصر في عدة قليلة ورجال منتخبة على المراكب في النيل فاجتمع البجة في عدد عظيم قد ركبوا الابل فهاب المسلمون ذلك فبعث اليهم محمد بن عبدالله كتاباً لفهُ بثوب فاجتمعوا لقراءتهِ فحمل عليهم وفي اعناق الخيل الاجراس فانزعرت جمال البجة ولم تثبت امام صلصلة الاجراس فركب المسلمون اقفيتهم واثخنوا فيهم وقتلوا كبيرهم فقام من بعدهِ ابن اخيهِ وبعث يطلب المدنة فصالحوهُ على ان يطأ بساط امير المؤمنين فسار الى بغداد وقدم على المتوكل وصولح على اداء الادوات والبقط واشترط عليهِ ان لا يمنع المسلمين من العمل بالمعدن

وفي تلك السنة ابدل حاتم بن هرثمة بعلي بن يحيى الارمني (ثانيةً) وفي سنة ٢٣٥ ه ابدل هذا باسحق بن يحيى الجبلي وفي هذه السنة اوصى المتوكل بالخلافة بعدهُ لابنهِ المنتصر وبعدهُ ابنهُ الثاني المعتز بالله وبعد هذا ابنهُ الثالث المؤيد بالله وجعل مملكتهُ حصصاً فاعطى المنتصر افريقيا وكل المغرب من العريش الى اخر حدود المغرب بما فيهِ مصر واضاف الى ذلك قنسرين وسوريا وبين النهرين وديار بكر والموصل وكل الاراضي التي يرويها الدجلة ومكة والمدينة واليمن وحضرموت والبحرين والسند وسامرة والكوفة وكل توابعها . واعطى المعتز خراسان وطبرستان والفرس وارمينيا واذربيجان . واعطى المؤيد دمشق وحمص ومرج الاردن وفلسطين . اما المنتصر فلم يقنع بما قسم لهُ وطمع بتوليتهِ الخلافة قبل وفاة ابيهِ فاخذ يسعى الى خلعهِ

وفي سنة ٢٣٦ ه اقيم على مصر خوط عبد الواحد بن يحيى وفي

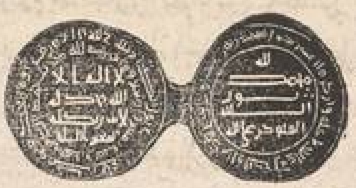
سنة ٢٢٨ﻫ ابدل بعنبسة بن اسحق وفي سنة ٢٢٩ﻫ امر المتوكل ببناء حصن في مدينة الفرما وحصون اخرى في دمياط وتانس وتولى بناءها عنبسة وصرف عليها مبالغ وافرة وقاية من غزوات الروم لكنهم لم يكادوا يتحصنوا حتى هجم الروم على دمياط وملكوها ومن فيها وقتلوا جمعاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والاطفال واهل الذمة فلما علم بذلك عنبسة ركب اليهم يوم النحر في جيشهِ ونفر كثير من الناس فأخبروهُ ان الروم قد ساروا الى تانس وتحصنوا في اشموم فلم يتبعهم عنبسة فكتب يحيى بن الفضل الى الخليفة المتوكل على الله رسالة فيها هذه الابيات

اترضى بان يوطأ حريمك عنوة ... وان يستباح المسلمون ويحربوا
حمار أتى دمياط والروم وثّب ... بتانيس رأى العين منهُ واقربُ
مقيمون بالاشموم يبغون مثلما ... اصابوهُ من دمياط والحرب ترتبُ
فما رام من دمياط شبراً ولا درى ... من العجز ما يأتي وما يتجنبُ
فلا تنسنا انا بدارٍ مضيعة ... بمصر وان الدين قد كاد يذهبُ

وفي ٢٠ رجب سنة ٢٤٢ﻫ سار المنتصر الى ابيهِ في سامرة واخذ يسعى بالدسائس والتواطئ مع المفسدين على ابيهِ واستخلف على مصر يزيد بن عبدالله . وفي سنة ٢٤٥ﻫ خرج يزيد بن عبدالله الى دمياط مرابطاً ثم رحل فبلغهُ نزول الروم في الفرما فرجع اليها فلم يلقهم . وفي سنة ٢٤٧ﻫ بنى مقياس النيل في جزيرة الروضة وكان قد سقط بزلزلة فاعاد بناءهُ فعرف من ذلك الحين بالمقياس الجديد او الكبير وهو المقياس الباقي هناك الى هذه الغاية . وجرت على العلويين في ايام يزيد شدة . هذا ما كان من امر يزيد

اما المتوكل ففي سنة ٢٤٣ﻫ انتقل الى دمشق على نية ان يتخذها مستقراً الى حين فتبعهُ المنتصر وما زال ساعياً بالمفاسد توصلاً الى بغيتهِ حتى سنة ٢٤٤ﻫ اذ قارب الفوز بغرضهِ الوخيم فثارت عصبة من الاتراك

الجندين في دمشق على الخليفة بدعوى تاخر دفع مرتباتهم وكان ذلك بدسيسة المنتصر فتلافى الخليفة الشر بدفع المتأخر لهم وترك دمشق عائدًا الى سامرة . وفي سنة ٢٤٧ هـ علم الخليفة بمقاصد ابنهِ فامر بهِ اليهِ فوبخهُ على مسمع من الناس . وفي يوم الاربعا الرابع من شوال من السنة المذكورة ذُبح المتوكل على فراشهِ في منتصف الليل بيد احد ضباط الحرس التركي المدعو بغا الصغير بدسيسة المنتصر وكان سن المتوكل عند موتهِ ٤١ سنة ومدة حكمهِ ١٤ سنة و ١٠ اشهر و ٣ ايام . وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ (انظر شكل ٢٨)



ش ٢٨ نقود المتوكل على الله

خلافة المنتصر بن المتوكل

من سنة ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ او من ٨٦١ — ٨٦٢ م

فاستوى المنتصر على منصب الخلافة قبل ان تفارق اباهُ رجفة الموت فلما استتب لهُ الملك حدثتهُ نفسهُ ان يحرم اخويهِ مما اوصى بهِ ابوهُ لهما على ما مرَّ بك . فحملهما سنة ٢٤٨ هـ على ان يوقّعا على صك بحرمانهما من الخلافة وما اوصى لهما بهِ ابوهما من المدن . وساعد المنتصر على ذلك وصيف التركي وشركاؤُهُ بقتل المتوكل مخافة ان يلقوا جزاء ما فعلتهُ ايديهم اذا وصلت الخلافة الى احد الاخوين . على ان حياة المنتصر لم تكن لقصرها تستحق كل هذه الاحتياطات لانهُ اصيب بعد توليتهِ بايام بداء اعيى الاطباء وما زال حتى ذهب بحياتهِ وهو يتقلب على مثل جمر الغضا من الالم

خلافة المستعين بن محمد

من سنة ٢٤٨ – ٢٥٢ هـ او من ٨٦٢ – ٨٦٦ م

وبعد وفاة المنتصر تشاور وصيف التركي وبغا الصغير وبغا الكبير والوزراء والاعيان فيمن يجب ان يكون الخليفة عليهم فاجمعوا على حرمان ابناء المتوكل ووقع اختيارهم على احمد بن محمد بن المعتصم وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم فبايعوهُ يوم وفاة المنتصر ولقبوهُ بالمستعين بالله . ولم يكد يتم ذلك حتى قامت عصبة يريدون استخلاف المعتز بالله الّا انهم كانوا نفرًا يسيرًا فتفرقوا ولم تكن النتيجة الّا القبض على ولدي المعتصم وسجنهما

ومن ذلك الحين اخذ نجم احمد بن طولون بالظهور في افق الاعمال السياسية فتوفي والدهُ سنة ٢٢٩ هـ وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر وكان ذلك في ايام الخليفة المتوكل في الثماني سنوات الاول فرأى في احمد اللياقة ليخلف اباهُ على امارة الستر . وكان احمد قد تعلم وتربى تربية حسنة وكان تقيًّا رضي الخلق كريم النفس لين العريكة مع اقدام وبسالة وعلم بالسياسة وكان مغرمًا بمطالعة الحديث فاكتسب شهرةً بالتقوى والعدالة والعلم فاحبَّهُ جميع الضباط الاتراك الذين كانوا في بلاط الخليفة وفيهم احد كبرائهم يرقوق فازوج احمد ابنتهُ فجاءهُ منها غلام دعاهُ عباسًا

ومن الغريب ان احمد بن طولون شبَّ بين الدسائس والمفاسد ولم يصبُ اليها ولم تحدثهُ نفسهُ يومًا باتباعها بل كان يمجُّها وينفر منها اما آدابهُ ومعارفهُ فكانت تتسع يوميًّا بالاختبار والمراقبة فقد كان على كثرة شواغلهِ لا يترك فرصةً في توسيع دائرة علمهِ فكان يسيرُ من وقت الى آخر الى ترسوس في آسيا الصغرى للتعلم في مدارسها وكان لشدة كلفهِ بالعلم كلفًا

بالعلماء . فالتمس من عبيد الله بن يحيى رئيس وزراء الخليفة اذنًا بالتوجه الى ترسوس لملازمة دروسهِ فاذن لهُ مع استبقاء مركزهِ ولقبهِ ومرتباتهِ كالعادة فسار اليها ثم دعتهُ والدتهُ ان يأتي اليها فجاء اليها في سامرة في خلافة المستعين بالله غير عالم بشيء مما حصل في غيابهِ من قتل المتوكل وتولية المنتصر

وحدث بينما كان عائدًا من ترسوس هذه المرة وسنهُ ١٩ سنة ان بعض اهل البادية هجموا على الركب الذي كان هو برفقتهِ يريدون سلبهُ وفيهِ ما يساوي مبالغ وافرة كلها محمولة الى الخليفة المستعين بالله فخافت حامية الركب وكاد اللصوص يظفرون فدفعهم احمد بعزم شديد واعادهم على اعقابهم القهقرى صفري الايدي . فلما بلغ الركب سامرة اخبروا الخليفة بما كان من بسالة ابن طولون فنفحهُ بجائزة الف دينار وانزلهُ منزلة الامراء ووهبهُ احدى جواريهِ واسمها ميّة وهي التي ولدت لهُ ابنهُ الثاني «خمارويه» سنة ٢٥٠ ﻫ وهي اول سني ظهور نجمهِ

وفي اثناء ذلك ثارت عصبة كبيرة تريد خلع المستعين . وتفصيل ذلك ان المماليك الاتراك الذين كانوا يخدمون في بلاط الخلفاء وجندهم على ما تقدم كانوا يزدادون عددًا وقوة منذ ايام المعتصم لتقلبهم في المناصب العالية فامسوا وفي ايديهم ازمّة الدولة يديرونها كيف شاءوا . وقد كانوا قبل وفاة المتوكل يقنعون بعزل وتولية الامراء والوزراء وقتل من شاءوا ممن ليس على غرضهم لكنهم بعد ذلك لم يعد يرضيهم الَّا التداخل في عزل وتولية الخلفاء فكانوا اذا لم يعجبهم خليفة سعوا الى استبدالهِ فيستنجدون احزابهم وينفذون مآربهم . وقد كانت تولية المستعين بالله بمساعي بعض كبراء الحرس الخاص فاستاء البعض الآخر وجعلوا يسعون الى خلعهِ فخلعوهُ سنة ٢٥٢ ﻫ بعد ان تولى امرها ثلاث سنوات و ٨ اشهر

خلافة المعتز بن المتوكل

من سنة ٢٥٢ ـ ٢٥٥ ﻫ او من ٨٦٦ ـ ٨٦٩ م

وبعد خلع المستعين بايعوا ابن عمهِ المعتز بالله وهو ابن المتوكل على الله واخو المنتصر وكان محروماً من حقوق الخلافة منذ قتل ابيهِ وسنهُ اذ ذاك ١٨ سنة وبضعة اشهر وكان بعد ان فرَّ من سجن سامرة مع اخيهِ المؤيد بالله قد اعادهما ابن عمهما المستعين الى القيود. فالاحزاب التي قويت بعد ذلك وخلعت المستعين لم يكن لها دخل في قتل المتوكل فحلُّوا قيود المعتز وبايعوهُ يوم الجمعة في ٤ محرم سنة ٢٥٢ ﻫ وجاءوا الى المستعين واجبروهُ على ان يتنازل ففعل فنقلوهُ الى قلعةٍ وجعلوا عليهِ حرساً ثم ارسلوهُ الى واسط في سرب تحت قيادة احمد بن طولون فقُتل في الطريق. ويقال ان الحاجب سعيد هو الذي قتلهُ بناء على اوامر سرّية من المعتز بالله وقال البعض ان احمد بن طولون هو الذي فعل ذلك بيدهِ غير ان الجمهور مجمع على تبرئتهِ من هذهِ التهمة الفظيعة

والأظهر ان الاحزاب التي دعت الى خلع المستعين واجبارهِ على الاستقالة امروا بابعادهِ الى واسط ولم يريدوا ان يصحبهُ الاَّ من لا يرتاب احد في امانتهِ لهُ واخلاصهِ فلم يجدوا انسب من ابن طولون وكان الى ذلك العهد مكتسباً ثقة الطرفين فعهدوا اليهِ تلك المهمة فقام بها حق القيام ثم ان الاحزاب في سامرة رغماً عن فوزهم بخلع المستعين وتولية المعتز أوجسوا شرًّا من بقاء الاول في قيد الحياة فاوعزوا الى الثاني ان خلافتهُ لا ترتاح الاَّ بقتل المستعين . فكتبت قبيحة ام المعتز الى احمد بن طولون وهو في طريقهِ الى واسط تحثهُ على قتل المستعين وتعدهُ بولاية واسط مكافأة لهُ فرفض ذلك احمد بعفس أنفة فارسلت حاجباً يدعى سعيداً وبيدهِ اوامر

الى احمد بن طولون مؤذنة بتسليم المستعين الى سعيد وعود احمد الى سامرة فاذعن احمد الى الاوامر فسلم المستعين الى سعيد . فسار بهِ في الصحراء تبعاً للاوامر السرية التي كانت معهُ وذبحهُ في فسطاطهِ وعاد برأسهِ الى المعتز ورمى بهِ الارض بين اقدامهِ

اما احمد بن طولون فدخل الى خيمة المستعين بعد ذهاب سعيد فاذا بالجثة بغير رأس فعلم الدسيسة وتكدَّر من هذا الفعل الوحشي الذي قضى بموت البريء مقتولاً ثم همَّ الى الجثة فغسلها وكفنها ونقلها الى سامرة حيث صلي عليها ودفنت . وقد قال احمد بن طولون عند استيلائهِ على مصر وسوريا ما مفادهُ « وُعدت بولاية واسط على ان اقتل المستعين فأبيت محافظة على القسم الذي قسمتهُ وما زلت في تقوى الله وقد كافأني من فضلهِ بولاية مصر وسوريا ولا يفلح الظالمون »

وكانت مصر اثناء جميع هذه الحوادث ينتابها ما ينتاب غيرها من الامارات الاسلامية . فان يزيد بن عبدالله الذي كان استخلفهُ المنتصر على مصر اصبح عليها اميرًا عند ما صار المنتصر خليفة وبقي يزيد قائماً باعباء مصالحها طول مدة خلافة المستعين بالله اما المعتز بالله فبعد ما جلس على دست الخلافة عزلهُ في ٢ ربيع اول سنة ٢٥٢ هـ وولَّى مزاحم بن خاقان من اعيان الاتراك الذين ساعدوهُ في حصولهِ على الخلافة . ومن اعمالهِ انهُ اكثر من الايقاع بسكان النواحي وولَّى الشرطة أرجوز فمنع النساء من الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين والنوائح . وفي رجب منها منع من الجهر بالبسملة في الصلاة بالجامع ولم يزل اهل مصر على الجهر بها في الجامع منذ الاسلام الى ان منع منها ارجوز واخذ أهل الجامع بتمام الصفوف ووكل بذلك رجلاً من العجم يقوم بالسوط من مؤخَّر المسجد وامر اهل الحلق بالتحوُّل الى القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التي يُستند اليها ومن الحصر التي كانت للمجالس في الجامع وامر أن تصلَّى التراويح في

رمضان خمس تراويح ولم يزل اهل مصر يصلّونها سنّاً الى رمضان سنة ٢٥٢ ﻫ ومنع من التثويب وامر بالآذان في يوم الجمعة في مؤخر المسجد وان يُغلس بصلاة الصبح ونهى ان يشق ثوب على ميت او يسوّد وجه او يحلق شعر او تصيح امرأة وعاقب في ذلك وشدد فيهِ . وفي ٥ محرم سنة ٢٥٤ ﻫ توفي مزاحم فتولى ابنهُ احمد بن مزاحم وفي تلك السنة استُقيل هذا فعيّن المعتز مكانهُ باكباك احد كبار الاتراك . وكان هؤلاء يتولون الامارات اسماً بلا رسم لانهم لم يكونوا يبارحون مجلس الخليفة اما الاحكام في الامارات فكانت موكولة الى نواب يعهدون اليهم امرها . وكان عدد مثل هؤلاء النواب في مصر يكثر احياناً فقد يكون منهم نائب في الفسطاط وآخر في اسكندرية وآخر في الصعيد الخ وكان يستبد احدهم بالاعمال العسكرية والآخر بالاعمال الادارية والآخر بالقضاء وهكذا . ونظراً لما كان لاحمد بن طولون من السمعة الحسنة انتخبهُ باكباك المتقدم ذكرهُ وجعلهُ قائداً للقوة العسكرية في الفسطاط اما الادارة المالية او الخراج فعهدها الى احمد بن المدبّر ودعاهُ مفتش الخراج

وابن المدبّر هذا لم يكن من التدبير على شيءٍ بل كان عاتياً غشوماً فزاد الضرائب وشدد الوطأة خصوصاً على المسيحيين . وكان من دهاة الناس وشياطين الكتّاب فابتدع في مصر بدعاً صارت مستمرة من بعدهِ لا تنقض فاحاط بالنطرون وحجر عليهِ بعد ما كان مباحاً لجميع الناس وقرّر على الكلاء الذي ترعاهُ البهائم مالاً سماهُ المراعي وقرر على ما يطعمهُ الله من البحر مالاً سماهُ المصائد فانقسم مال مصر الى خراجي وهلالي اما الخراجي فهو ما يؤخذ مسانهةً من الاراضي التي تزرع حبوباً ونخلاً وعنباً وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج وغيرهِ من طرف الريف واما الهلالي فعلى نوعين سماها بالمرافق والمعاون وهو ما يؤخذ من الضرائب على مثل ما ابتدعهُ ابن المدبر كما تقدم . فكره

الاهلون هذه المعاملة وجعلوا يسعون الى الكيد به وقد كان عالمًا بذلك فجعل في حاشيته الخاصة نحوًا من ماية غلام هنديّ ممتازين بالقوة والشجاعة كانوا يرافقونهُ الى حيث توجّه

فلما قدم احمد بن طولون الى الفسطاط ليستلم زمام القوة العسكرية فيها قدم احمد بن المدبر بحاشيته للقائهِ تزلفًا منهُ واهدى اليهِ هدايا قيمتها عشرة الاف دينار وقدم معهُ شقير الخادم غلام قبيحة ام المعتز وهو يتقلد البريد فرأى ابن طولون بين يدي بن المدبر ماية غلام قد تقدمت الاشارة اليهم وكان لهم خلق حسن وطول اجسام وبأس شديد عليهم اقبية ومناطق ثقال عراض وبايديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة وكانوا يقفون بين يديهِ في حافتي مجلسهِ اذا جلس فاذا ركب ركبوا بين يديهِ فيصير لهُ بهم هيبة عظيمة في صدور الناس فلما بعث ابن المدبر بهديتهِ الى ابن طولون ردّها عليهِ فقال ابن المدبر ان هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همتهُ لا يؤمن على طرف من الاطراف فخافهُ وكره مقامهُ بمصر معهُ وسار الى شقير الخادم صاحب البريد واتفقا على مكاتبة الخليفة بازالة ابن طولون فلم يكن غير ايام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول لهُ « قد كنت اعزّك الله اهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ولم يجز ان يغتنم مالك كثّرهُ الله فرددناها توفيرًا عليك ونحب ان تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم احوج منك » فقال ابن المدبر لما بلغتهُ الرسالة « هذه اخرى اعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يردّ الاعراض والاموال ويستهدي الرجال ويثابر عليهم » ولم يجد بدًا من ان يبعثهم اليهِ فتحولت هيبة ابن المدبر الى ابن طولون فكتب ابن المدبر فيهِ الى الخليفة يغريهِ بهِ ويحرض على عزلهِ فبلغ ذلك ابن طولون فكتم ما في نفسهِ ولم يبدهِ

وفي ٢٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ كثرت دسائس الاتراك في بغداد بمساعدة

الحاجب صالح بن واصف احد قتلة المتوكل فاوعزوا الى المعتز وسنُّهُ اذ ذاك ٢٤ سنة ان يتنازل عن الخلافة ولم يحكم فيها الاَّ ٤ سنوات و٦ اشهر فتنازل في ذلك اليوم فاودعوهُ سجنًا مظلمًا وقطعوا عنهُ الغذاء فمات جوعًا بعد ستة ايام فاقاموا عوضًا عنهُ ابن عمهِ المهتدي بالله بن الواثق وسنُّهُ ٣٧ سنة

خلافة المهتدي بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل

من سنة ٢٥٥ ــ ٢٥٧ هـ او من ٨٦٩ ــ ٨٧٠ م

وفي ايام المهتدي بن الواثق ظهر لابن طولون عدوٌّ آخر في مصر هو ابراهيم الصوفي مأمور اقليم اسنا وكان قد وضع يدهُ على البلاد التي حولهُ وقتل كل من كان يحاول مقاومتهُ فانفذ اليهِ احمد فرقة من جيشهِ فحاربها وغلبها فرجعت متقهقرة الى قرب اخميم وهناك اتتها نجدة اتحدت معها فتغلبت على جيوش ابن الصوفي ففرَّ المذكور في البرية ملتجئًا الى الواحات في بطن الصحراء الكبيرة مع من بقي معهُ من الرجال

وكان احمد بن عيسى بن شيخ الشيباني يتقلد جندي فلسطين والاردن فلما مات وثب ابنهُ على الاعمال واستبدَّ بها فبعث ابن المدبر بسبعماية وخمسين الف دينار حملاً من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في اصحابهِ وكانت الامور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ في التغلب على الشامات واشيع انهُ يريد مصر

وفي رجب سنة ٢٥٦ هـ ذبح المهتدي في سامرة وبويع المعتمد على الله وسنُّهُ ٢٥ سنة وهو ابن المتوكل الثالث فبايعهُ الجميع الاَّ ابن شيخ فانهُ لم يدعُ لهُ ولم يبايعهُ لا هو ولا اصحابهُ فبعث اليهِ بتقليد ارمينيا فوق ما

معهُ من بلاد الشام وفسح لهُ في الاستخلاف عليها والاقامة على عملها فدعا حينئذٍ للمعتمد وبايعهُ ثم كتب الخليفة سرًّا الى ابن طولون ان يتأهب الى حرب ابن شيخ وان يزيد في عدتهِ وكتب لابن المدبران يطلق لهُ من المال ما يريد فعرض ابن طولون الرجال واثبت من يصلح واشترى العبيد من الروم والسودان وجهز كل ما يحتاج اليهِ وخرج في احتفال عظيم وجيش كبير وبعث الى ابن شيخ يدعوهُ الى طاعة الخليفة وردّ ما اخذ من المال فاجاب بجواب قبيح فسار احمد في ٦ جمادى الآخرة مستخلفًا اخاهُ موسى بن طولون على مصر وبينما هو في الطريق ورد اليهِ كتاب الخليفة يأمرهُ الى العود فعاد الى الفسطاط ودخلها في شعبان واتى عوضًا عنهُ لمحاربة ابن شيخ أماجور التركي فلقيهُ اصحاب ابن شيخ وعليهم ابنهُ فحاربهم أماجور فانهزموا منهُ وقتل قائدهم واستولى أماجور على دمشق ولحق ابن شيخ بأرمينيا وتقلد أماجور اعمال الشام كلها وهدأت الاحوال

اما ابن طولون فلما عاد الى الفسطاط شرع في بناء الاستحكامات وتحصين البلاد وكان الى ذلك الحين يسكن السراي التي كان يسكنها اسلافهُ من ولاة الاحكام ولم تكن هذه السراي داخل سور الفسطاط بل كانت في ضاحية العسكر وكان العسكر اشبه بمدينة فيها الاسواق والشوارع والبنايات الجميلة وكان كافيًا لسكنى روساء الجيوش وولاة الامور اما في ايام ابن طولون فضاق ذرعًا عن سعة مهامهِ وعبيدهِ وتحفهِ فاخذ يسعى الى ايجاد محل آخر وافٍ بالمقصود مع قربهِ من الفسطاط فصعد الى المقطَّم ونظر الى ما حولهُ فرأى بين العسكر والمقطَّم بقعة من من الارض مساحتها نحو ميل مربع لا شيء فيها من العمارة الا بعض المدافن للنصارى واليهود فاختارها للبناء فامر بحرث المدافن وهدمها واختط في موضعها بناء عظيمًا دعاهُ القصر ومحلاًّ آخر بالقرب منهُ دعاهُ الميدان وتقدم الى اصحابهِ وغلمانهِ واتباعهِ ان يختطوا لانفسهم حولهُ فاختطوا

وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ثم قطعت الى قطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها فكانت لغلمان النوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ولغلمان الروم قطيعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطيعة تعرف بهم ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم وبنى القواد مواضع متفرقة فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والازقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والافران وسميت اسواقها فقيل سوق العيارين وسوق الفاميين وهكذا البقالين والشوايين الخ ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع المذكورة مدينة كبيرة اعمر واحسن من الشام . وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من اعلاه من يدخل ومن يخرج

واتسعت احوال ابن طولون وكثرت اصطبلاته وكراعه وعظم صيته فبلغ ذلك أماجور والي الشام فاخذته غائلة الحسد وخشي من مد سلطة ابن طولون اليه فاخذ يسعى الى خلعه فكتب الى الخليفة المعتمد على الله ما نصه « ان قوات ومهمات ابن طولون اصبحت اعظم مما كانت لابن شيخ الذي لما ثار في سوريا لم نخضعه الا بعد شق الانفس وهذا ابن طولون قد كثرت حاشيته وقويت سطوته بالرجال والمال وصار يخشى منه والامر لامير المؤمنين » . وكتب ابن المدبر متنش الخراج ايضاً مثل ذلك وفي قلبه من احمد ما تعلم من الضغائن وتواطأ على ذلك مع كاتب سره شقير الخادم

فارسل المعتمد الى ابن طولون ان يتخلف عن مصر حالاً الى سامرة ويستخلف مكانه من يشاء . فلما بلغ ابن طولون ذلك الامر همّ الى القيام به وهو لا يدري ما وراء الاكمة فجاءه من ذويه من اطلعه على معنى هذا الاستدعاء الى سامرة فلما علم بدخيلة الامر جهز احمد الواسطي كاتب سره وصديقه وارسله مكانه الى سامرة بالهدايا الفاخرة الى الوزير فاستجلب

خاطرهُ فسعى امام الخليفة فالغى الامر السابق واصدر امرًا آخر بزيد مدة مأموريته ابن طولون في مصر ويصرح له بنقل عائلته جميعها اليها وقد كانت الى ذلك اليوم في سامرة . فسر ابن طولون بهذا الفوز وفرق في الناس الزكاة

وفي سنة ٢٥٧ ه حُكم على باكباك امير مصر الاصيل الذي كان قد عين ابن طولون قائدًا للقوة العسكرية بقطع الرأس لجناية ارتكبها وعُين مكانه برقوق حمو احمد بن طولون وهذا حالما استلم الامر بالامارة عهد الى صهره النيابة العامة ليس فقط على الفسطاط بل على سائر القطر المصري فامر عيسى بن دينار متولي الاسكندرية ان يسلم زمامها اليه فتوجه ابن طولون الى الاسكندرية وتسلم ادارتها ثم سلمها لعيسى المذكور واقرَّهُ عليها . فاصبحت سياسة مصر جميعها بيد احمد ابن طولون . وفي السنة التالية توفي برقوق فولِّي احمد مكانه واليًا عامًا على القطر المصري

الدولة الطولونية

من سنة ٢٥٧ – ٢٩٢ ه او من ٨٧٠ – ٩٠٥ م

حكم احمد بن طولون

من سنة ٢٥٧ – ٢٧١ ه او من ٨٧٠ – ٨٨٤ م

وكان احمد بن طولون قد عرف دسائس ابن المدبر وشقير الخادم وكان الوزير قد ارسل اليه جميع التحارير الواردة منهما بحقه وبعد يسير توفي شقير خوفًا وهمَّ ابن طولون الى عزل ابن المدبر لكنه عرف بعد ذلك ان

اخاه على خزينة الخليفة فاغضى عنهُ . اما ابن المدبر فكان قد ملَّ من مناظرة ابن طولون وهو لا يقوى على كيدهِ فطلب الى اخيهِ ان ينقلهُ الى وكالة خراج سوريا حالاً ففعل وقبل تركهِ مصر اجتهد حتى اعاد صلات المودة مع ابن طولون وتوطيدًا لها ازوج ابنتهُ لخوماروبه بن احمد بن طولون ووهبهُ معها جميع الاملاك التي كانت لهُ في مصر ثم ارسل المعتمد يستحث ابن طولون في جمع الخراج فاجابهُ لست اطيق ذلك والخراج في يد غيري فاحيل الخراج اليهِ فاصبحت جميع اعمال مصر الادارية والعسكرية والمالية بيدهِ فالغى الخراج الهلالي الذي وضعهُ ابن المدبر وقبل الغائهِ حسب مقدارهُ فبلغ مائة الف دينار سنويًا فاحب ان يستشير بشأنهِ فتشاور مع عبدالله بن دسومة امين متولي الخراج وكان عانيًا ذا طمع في الدنيا . فقال إن امَّنني الامير تكلمت بما عندي فقال لهُ قد أمَّنك الله عزَّ وجل فقال «ايها الامير ان الدنيا والآخرة ضرَّتان والحازم من لم يخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فيتلف اعمالهُ ويبطل سعيهُ وافعال الامير ايدهُ الله الخير وتوكلهُ توكل الزهّاد وليس مثلهُ من ركب خطة لم يحكمها ولو كنا نثق بالنصر دائمًا طول العمر لما كان شيء عندنا اكثر من التضييق على انفسنا في العاجل بعمارة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات . وترك الانسان ما قد امكنهُ وصار في يدهِ تضييع ولعل الذي حماه من نفسهِ يكون سعادة لمن يأتي من بعدهِ فيعود ذلك توسعة لغيرهِ بما حرمهُ هو ويجتمع للامير ايدهُ الله بما قد عزم على اسقاطهِ من الهلالي في السنة بمصر دون غيرها مائة الف دينار وان فسخ ضياع الامراء والمتقبلين في هذه السنة لانها سنة ظماء توجب الفسخ زاد مال البلد وتوفر توفرًا عظيمًا فيضاف الى مال الهلالي فيضبط بهِ الامير ايدهُ الله امر دنياه وهذه طريقة أمور الدنيا واحكام امور الرياسة والسياسة وكل ما عدل الامير ايدهُ الله اليهِ من امر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا

رأيي والامير ايدهُ الله على ما عساه يراهُ» فقال ابن طولون ننظر في ذلك ان شاء الله وشغل قلبهُ كلامهُ فبات تلك الليلة بعد ان قضى اكثر الليل يفكر في كلام ابن دسومة فرأى في منامهِ رجلاً من اخوانهِ الزهاد في طرسوس وهو يقول «ليس ما اشار عليك من استشرتهُ في امر الارتفاق والفسخ برأيٍ تحمد عاقبتهُ فلا تقبلهُ ومن ترك شيئاً لله عزَّ وجل عوضهُ الله عنهُ فامضِ ما كنت عزمت عليهِ» . فلما اصبح انفذ الكتب الى سائر العمال بذلك فابطل الضرائب المتقدم ذكرها ونشرت في سائر الدواوين بامضائهِ . ثم دعا ابن دسومة واخبرهُ بما كان فقال لهُ «قد اشار عليك رجلان الواحد حيٌّ في اليقظة والآخر ميت في النوم وانت الى الحي اقرب وبضمانتهِ اوثق» فقال لهُ «دعنا من هذا فقد قضي الامر ولست قائلاً منك ما تقول»

وفي غد ذلك اليوم ركب احمد نحو الصعيد فلما امعن في الصحراء ساخت في الارض يد فرس احد غلمانهِ فسقط الغلام في الرمل فاذا بنفق فتح فتقدم احمد وامرهم ان يحفروا هنا ففعلوا فاصاب فيهِ من المال ما كان مقدارهُ مليون دينار وهو الكنز الذي شاع خبرهُ وكتب بهِ الى العراق احمد يخبر بهِ المعتمد ويستأذنهُ فيما يصرفهُ فيهِ من وجوه البر وغيرها فاذن لهُ فبنى منهُ مستشفى وحصناً وسبيلاً وجوامع وفرق قسماً منهُ في الفقراء

واول جامع شادهُ ابن طولون جامع التنُّور ابتناهُ على قمة جبل المقطَّم في مكان كان يدعى تنُّور فرعون يقال انهُ سمي كذلك لانهُ على مرتفعٍ فكانوا يضرمون فيهِ النار ليلاً فظن بعض المشايخ ان في ذلك المكان كنزاً فاخذ يحتفر فيهِ فلم يظفر بشيءٍ فعلم ابن طولون فاحتفر فاصاب مالاً اكثر كثيراً من ذي قبل وعند ذلك امر ببناء الجامع هناك ودعاهُ جامع التنُّور . واحتفر ابن طولون بئراً عند بركة الحبش تعرف ببئر عنصة

وابتنى سقاية وقناطر خارج المغافر عرفت بقناطر بن طولون ناظر بناءها مهندس مسيحي ماهر ولا تزال آثارها باقية

وفي سنة ٢٦٠ هـ اعاد احمد بن طولون حفر ترعة الاسكندرية وكانت قد سدت بالرمال المحمولة اليها وبنى في الاسكندرية آبارًا مسقوفة بالبناء العقد واحواضًا تحت الارض لكي يأتي منها بالماء العذب النقي ما يكفي المدينة . وفي تلك السنة ركب مع رئيس خزنته ابي ايوب والقاضي بكَّار في جزيرة الروضة فرأى المقياس محتاجًا الى اصلاح فأمر باصلاحهِ اصلاحًا متقنًا انفق عليهِ عشرة آلاف دينار . واقام ابو ايوب بعد يسير مقياسًا آخر في دار الاسلحة في الجزيرة المذكورة حيث بنيت السجون ولكن لم يبقَ منها الى ايام المقريزي الَّا اثر طفيف

وفي اواخر السنة المذكورة توجه احمد بن طولون الى الاسكندرية لتفتيش الاشغال التي كان امر باجرائها واوصى بها لابنهِ البكر العباس ثم امر بترميم منارة الاسكندرية واقام فوقها القبة ويقال ان هذه المنارة كان ارتفاعها خمساية قدم

وفي ذلك الوقت امر ابن طولون ببناء المستشفى في العسكر وقد كانت الفسطاط قبلهُ مجردة من مثل ذلك وخصص لاجل النفقات اليومية للمستشفى والبنايات الاخرى اطيانًا واسعة تأْخذ محصولاتها وخصص لها ايضًا دخل مبيع الرقيق وكان يأتي بنفسهِ لزيارة المستشفى وتفقد سير الاطباء فيهِ وعيادة المرضى والمجاذيب واتفق ذات يوم ان احد المجانين في المستشفى همَّ الى قتلهِ ولولا القضاء لذهب بجنانهِ ولم يكن شيء من ذلك لينثني عزمهُ عن العبادة . وبنى في العسكر حمامين وقد بلغ مقدار مصاريف بناء المستشفى والحمامين والجامع عند جبل المقطم ستين الف دينار . وبقيت هذه البنايات رغمًا عن جميع التقلبات السياسية التي كان يخشى ان تذهب بها ولا يزال كثير من آثارها الى هذه الغاية

قلنا ان ابراهيم ابن الصوفي فرَّ من وجه احمد بن طولون والتجأ الى الواحات الكبرى في الصحراء فهذا تمكن بعد ذلك من التجنيد والتقدم نحو مدينة اشمونين فبلغ ذلك ابن طولون فانفذ اليهِ جيشاً تحت قيادة ابن ابي الغيث وهذا لم يلتق بجيش ابن الصوفي فسار لمحاربة ابي عبد الرحمن العمري وكان معتدياً على حدود نوبيا وبعد حرب شديدة سار ابن الصوفي الى اصوان فلاقاهُ ابن ابي الغيث مغضياً عن ابي عبد الرحمن وحاربهُ ففر من وجههِ وسار من طريق عيذاب الى مكة حيث قُبض عليهِ وأُرسل الى احمد بن طولون فالقاهُ في السجن مدة ثم صرفهُ مؤذناً لهُ بالسكنى في المدينة وبقي فيها الى ان توفاهُ الله

اما ابو عبد الرحمن العمري فاستفحل امرهُ واقام الاستحكامات في نوبيا فشق ذلك على احمد ولم يستطع صبراً فانفذ اليهِ جيشاً اخر تحت قيادة شبه البيكي الى اصوان فلما بلغها رأى ابا عبد الرحمن منشغلاً بمقاومة جيوش زكريا ملك نوبيا والحرب بينهما قائمة فقال هذه فرصة لا يصح ضياعها فهجم على حصون ابي عبد الرحمن بدون ان يستأذن من ابن طولون فلم يعبأ ابو عبد الرحمن بتكاثر الاعداء عليهِ فجعل رجالهُ فرقتين وحارب الاثنتين وتغلب على شبه واعادهُ على اعقابهِ صفر اليدين الى الفسطاط فلم يصادف من ابن طولون الاَّ احتقاراً وانتهاراً

وبعد ذلك بقليل قدم الفسطاط عبدان حاملين برأس ابي عبد الرحمن العمري فرمياهُ بين اقدام احمد بن طولون فسألهما عمَّا اتى بهما اليهِ وما حملهما على قتل سيدهما فاجابا ان لا غرض لهما الاَّ الحصول على رضا امير القطر المصري فقال لهما احمد «ان ما ارتكبتماهُ تستوجبون عليهِ عقاب الله وعقابي» وأمر بقتلهما وغسل رأس ابي عبد الرحمن ودفنهِ بما يلزم من الاحترام . وحقيقة الامر ان العبدين لم يقتلا سيدهما بايديهما وانما قتل بمكيدة محمد بن هارون شيخ قبيلة مضر فسوَّلت لهما النفس ان

بقطعا رأسهُ ويحملاهُ الى ابن طولون فينالان جائزة عظيمة وما علما ان الشهامة وكرم الاخلاق تأبيان مثل ذلك

ثم ثار ابو نوعة صديق ابن الصوفي القديم فانضم اليهِ عصبةٌ من الاتباع فجاهر بالعصيان ضد ابن طولون فارسل اليهِ حملة فغلبها فانجدها ابن طولون فغلبتهُ وفرَّ ابو نوعة الى الواحات واضطر اخيرًا الى التسليم رغمًا عنهُ

وبعد سنة من هذه الحادثة ثار محمد بن فاراب الفرغني وتابعهُ اهالي برقة جميعهم فارسل اليهم احمد بن طولون لؤلؤًا وقال لهُ نجّ المدينة من العصاة فتكن عليها واليًا فحاربهم لؤلؤ وفاز عليهم فجعلهُ ابن طولون واليًا على برقة ومتعلقاتها

وفي السنة نفسها اضطر ابن طولون الى محاربة شديدة كان يخشى عليهِ منها وهي محاربة ابي احمد طلحة الملقب بالموفق بالله احد ابناء المتوكل على الله واخو المعتمد على الله الخليفة . وذلك ان صاحب الزنج (بجوار زنجبار) ادعى انهُ من سلالة علي بن ابي طالب فقدم البصرة سنة ٢٥٤ ﻫ واستولى عليها وعلى الكوفة وغيرهما واستفحل امرهُ فانفذ امير المؤمنين المعتمد على الله يستقدم اخاهُ ابا احمد الموفق بالله من مكة وكان الخليفة المهتدي بالله قد بعثهُ اليها منفيًا فقدم سنة ٢٥٧ ﻫ فاوصى المعتمد بالخلافة من بعدهِ لابنهِ المفوَّض وبعدهُ للموفق وجعل غربي الممالك الاسلامية للمفوَّض وشرقيها للموفق وكتب بينهما بذلك كتابًا ارتهن فيهِ ايمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليهِ الشروط

وكان الموفق يحسد اخاهُ المعتمد على الخلافة ولا يراهُ اهلاً لها فلما جعل المعتمد الخلافة من بعدهِ لابنهِ ثم للموفق بعدهُ شق ذلك عليهِ وزاد في حقدهِ وكان المعتمد متشاغلاً بملاذ نفسهِ من الصيد واللعب والتفرُّد بجواريهِ فضاعت الامور وفسد تدبير الاحوال وفاز كلّ من كان متقلدًا

عملاً بما تقلدهُ

وكان في الشروط التي كتبها المعتمد بين المفوّض والموفق انهُ ما يحدث في عمل كل واحد منهما من حدث تكون النفقة عليهِ من مال خراج قسمهِ . واستخلف على قسم ابن المفوض موسى بن بغا فاستكتب موسى ابن بغا عبيد الله بن سليمان بن وهب . وانفرد الموفق بقسمهِ من ممالك الشرق وتقدم المعتمد الى كل منهما ان لا ينظر في عمل الآخر وجعل كتاب الشروط بالكعبة

ولما كانت البصرة والكوفة واقعتين في حصة الموفق كان عليهِ محاربة الزنوج ودفعهم فتأهب في جيش كبير وسار اليهم وناهضهم فطال زمن المحاربة حتى انقطعت مواد خراج المشرق عن الموفق وتقاعد الناس عن حمل المال الذي كان يحمل في كل عام واحتجوا باشياء اخرى فدعت الضرورة الموفق الى ان كتب الى احمد بن طولون في مصر في حمل ما يستعين بهِ في حروب صاحب الزنج وكانت مصر في قسم المفوّض لانها من الممالك الغربية الّا ان الموفق شكا في كتابهِ الى ابن طولون شدة حاجتهِ الى المال بسبب ما هو في سبيلهِ وبعث الكتاب مع نحرير خادم المتوكل ليقبض منهُ المال

فما هو الّا ان وصل نحريرُ الى ابن طولون واذا بكتاب المعتمد قد ورد عليهِ يأمرهُ فيهِ بحمل المال اليهِ على رسمهِ مع ما جرى الرسم بحملهِ مع المال في كل سنة من الطراز والرقيق والخيل والشمع وغير ذلك وكتب اليهِ ايضاً كتاباً سريًّا يقول فيهِ « ان الموفق انما انفذ نحريرًا اليك عينًا ومستقصيًا على اخبارك وانهُ قد كاتب بعض اصحابك فاحترس منهُ واحمل المال الينا وعجل انفاذهُ »

وكان نحرير الخادم لما قدم الى مصر انزلهُ احمد بن طولون معهُ في دارهِ بالميدان فمنعهُ من الركوب والخروج من الدار التي انزلهُ بها حتى

سار من مصر وتلطف في الكتب التي اجاب بها الموفق ولم يزل بنحرير حتى اخذ جميع ما كان معهُ من الكتب التي وردت من العراق الى مصر وبعث معهُ الى الموفق ألف ألف دينار ومائتي الف دينار وما جرى الرسم بحملهِ من مصر وأخرج معهُ العدول وسار بنفسهِ صحبتهُ حتى بلغ بهِ العريش وكان قد ارسل الى أماجور متولي الشام فقدم عليهِ بالعريش فاسلمهُ خادم الموفق والمال واشهد عليهِ بتسليم ذلك ورجع الى مصر ونظر في الكتب التي اخذها من نحرير فاذا هي الى جماعة من قوادهِ باستمالتهم الى الموفق فقبض على اربابها وعاقبهم حتى هلكوا في عقوبتهِ

فلما وصل جواب ابن طولون الى الموفق ومعهُ المال كتب اليهِ كتابًا ثانيًا يستقل فيهِ المال ويقول «ان الحساب يوجب اضعاف ما حملت» وبسط لسانهُ بالقول والتمس ممَّن معهُ مَن يخرج الى مصر ويتقلدها عوضًا عن ابن طولون فلم يجد احدًا عوضهُ لما كان من دعة ابن طولون وملاطفتهِ وجوه الدولة

فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال «وأيّ حساب بيني وبينهُ او حال توجب مكاتبتي بهذا او غيرهِ» وكتب اليهِ بعد البسملة. «وصل كتاب الامير أيدهُ الله تعالى وفهمتهُ وكان أسعدهُ الله حقيقًا بحسن التخير لمثلي ونصيرهِ اياي عمدتهُ التي يعتمد عليها وسيفهُ الذي يصول بهِ وسنانهُ الذي يتقي الاعداء بحدهِ لاني دائب في ذلك وجعلتهُ وكدي واحتملتُ الكلف العظام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة واستدعاء كل منعوت بغنى وكفاية بالتوسعة عليهم وتواصل الصلات والمعاون لهم صيانة لهذه الدولة وذبًا عنها وحسمًا لاطماع المتشوقين لها والمنحرفين عنها. ومن كانت هذه سبيلهُ في الموالاة ومنهجهُ في المناصحة فهو حريٌّ ان يعرف لهُ حقّهُ ويوفر من الاعظام قدرهُ ومن كل حالٍ جليلة حظهُ ومنزلتهُ فعوملتُ بضدّ ذلك من المطالبة بحمل ما امر بهِ والجفاء في المخاطبة

بغير حال توجب ذلك ثم اكفّ على الطاعة جعلاً وألزم في المناصحة ثمنًا وعهدي بمن استدعى ما استدعاهُ الامير من طاعتي ان يستدعيهُ بالبذل والاعطاء والارغاب والارضاء والاكرام لا ان يكلف ويحمل من الطاعة مؤونة وثقلاً واني لا اعرف السبب الذي يوجب الوحشة ويوقعها بيني وبين الامير أيدهُ الله تعالى ولا ثمَّ معاملة تقتضي معاملةً او تحدث منافرة لان العمل الذي انا بسبيلهِ لغيرهِ والمكاتبة في امورهِ الى من سواهُ ولا انا من قبلهِ . فانهُ والامير جعفر المفوّض أيدهُ الله تعالى قد اقتسما الاعمال وصار لكلّ واحد منهما قسم قد انفرد بهِ دون صاحبهِ وأُخذت عليهِ البيعة فيهِ انهُ من نقض عهدهُ او اخفر ذمتهُ ولم يفِ لصاحبهِ بما أكّد على نفسهِ فالأُمة بريئة منهُ ومن بيعتهِ وفي حل وسعة من خلعهِ . والذي عاملني بهِ الامير من محاولة صرفي مرّة واسقاط رسمي اخرى وما يأتيهِ ويسومنيهِ ناقض لشرطهِ منسد لعهدهِ . وقد التمس اوليائي واكثروا الطلب في اسقاط اسمهِ وازالة رسمهِ فآثرت الابقاء وان لم يؤثرهُ واستعملت الاناة وان لم تستعمل معي ورأيت الاحتمال والكظم اشبه بذوي المعرفة والفهم فصبّرت نفسي على احرّ من الجمر وامرّ من الصبر وعلى ما لا يتسع بهِ الصدر . والامير أيدهُ الله تعالى أولى من اعانني على ما اوثرهُ من لزوم عهدهِ وأتوخاهُ من تاكيد عقدهِ بحسن العشرة والانصاف وكفّ الاذى والمضرّة وان لا يضطرني الى ما يعلم الله عزّ وجل كرهي لهُ ان اجعل ما قد اعددتهُ لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة والعساكر المتضاعفة التي قد ضرّست رجالها من الحروب وجرت عليهم محن الخطوب مصروفًا الى نقضها . فعندنا وفي حيزنا من يرى انهُ احقّ بهذا الامر وأولى من الامير . ولو أمنوني على انفسهم فضلاً عن ان يعثروا مني على ميل او قيام بنصرتهم لاشتدت شوكتهم ولصعبَ على السلطان معاركتهم . والامير يعلم ان بازائهِ منهم واحدًا قد كبر عليهِ وفضّ كلّ جيش انهضهُ اليهِ على انهُ لا ناصر لهُ

الاَّ لنيف البصرة واوباش عامتها فكيف من يجد ركناً منيعاً وناصراً مطيعاً وما مثل الامير في اصالة رأيهِ يصرف مائة الف عنان عدَّة له فيجعلها عليهِ بغير ما سبب يوجب ذلك فان يكن من الامير اعتاب او رجوع الى ما هو اشبه بهِ واولى والاَّ رجوتُ من الله عزَّ وجل كفاية امرهِ وحسم مادَّة شرّهِ واجراءنا في الحياطة على اجمل عادتهِ عندنا والسلام »

فلما وصل الكتاب الى الموفق اغاظهُ غيظاً شديداً فاحضر موسى بن بغا وكان عون الدولة واشد اهلها بأساً واقداماً فتقدم اليهِ في صرف احمد ابن طولون عن مصر وتقليدها أماجور فامتثل وكتب الى أماجور كتاب التقليد وانفذهُ اليهِ فلما وصل اليهِ الكتاب توقف عن ارسالهِ الى احمد بن طولون لعجزهِ عن مناهضتهِ . ثم خرج موسى بن بغا عن الحضرة مقدّراً انهُ يدور عمل المتوّض ليحمل الاموال منهُ ولما علم بتوقف أماجور عن مناهضة احمد بن طولون كتب اليها يأمرها بحمل الاموال وعزم على قصد مصر والايقاع بابن طولون واستخلاف أماجور عليها فسار الى الرقة

وبلغ ذلك ابن طولون فاقلقهُ ليس لانهُ يقصر عن مناهضة موسى ابن بغا لكن لتحملهِ هتك الدولة وان يأتي سبيل من قاوم السلطان وحاربهُ وكسر جيوشهُ الاَّ انهُ لم يجد بدًّا من المحاربة ليدفع عن نفسهِ ما يكره فتأمل مدينة فسطاط مصر فوجدها لا تؤخذ الاَّ من جهة النيل فاراد لكبر همتهِ وتدبرهِ ان يبني حصناً على الجزيرة التي بين الفسطاط والجيزة (جزيرة الروضة) يكون معقلاً لحرمهِ وذخائرهِ وخاصتهِ ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتي من البر

وقد زاد فكرهُ في من يقدم من النيل فأمر ببناء الحصن على الجزيرة واتخذ مائة مركب حربية سوى ما يضاف اليها من العلاليات والحمائم والعشاريات والسنابيك والزوارق وقوارب الخدمة وعمد الى سد وجه البحر الكبير وان يمنع ما يجيء اليهِ من مراكب طرسوس وغيرها من البحر

الملح الى النيل بأن توقف هذه المراكب الحربية في وجه البحر الكبير خوفًا مما سيجيء من مراكب طرسوس كما فعل محمد بن سليمان من بعده باولاده كأنه ينظر الى الغيب من ستر رقيق وجعل فيها من يذب عن هذه الجزيرة وانفذ الى الصعيد والى اسفل الارض يمنع من يحمل الغلال الى البلاد ليمنع من يأتي من البر الميرة

واقام موسى بن بغا بالرقة عشرة اشهر وقد اضطربت عليه الاتراك وطالبوهُ بارزاقهم مطالبة شديدة بحيث استتر منهم كاتبه عبيدالله بن سليمان لتعذر المال عليه وخوفه على نفسه منهم فخاف موسى بن بغا عند ذلك ودعتهُ ضرورة الحال الى الرجوع فعاد الى الحضرة ولم يقم بها سوى شهرين ومات من علة في صفر سنة ٢٦٤ ﻫ

هذا واحمد بن طولون يجدُّ في بناء الحصن على الجزيرة وقد الزم قوادهُ وثقاته امر الحصن وفرَّقهُ عليهم قطعًا فقام كلُّ واحد بما لزمهُ من ذلك وكدَّ نفسهُ فيه وكان يتعاهدهم بنفسهِ في كل يوم وهو في غفلة عما صنعهُ الله تعالى له من الكفاية والغنى عمَّا يعانيه . ومن كثرة ما بذل في العمل قدّر ان كل طوبة منهُ وقفت عليه بدرهم صحيح . ولما تواترت الاخبار بموت موسى بن بغا كف عن العمل وتصدَّق بمال كثير شكرًا لله تعالى على ما منَّ به عليه من صيانته عما يقع فيه عنهُ الاحدوثة وما رأى الناس شيئًا كان اعظم من عظيم الجد في بناء هذا الحصن ومباكرة الصناع له في الاسحار حتى فرغوا منهُ فانهم كانوا يخرجون اليه من منازلهم في كل بكرة من تلقاء انفسهم من غير استحثاث لكثرة ما سخا به من بذل المال فلما انقطع البناء لم يرَ احد من الصناع التي كانت فيه مع كثرتها كانما هي نار صُبَّ عليها ماء فطفئت لوقتها ووهب للصناع مالاً جزيلاً وترك لهم جميع ما كان سلفًا معهم وبلغ مصروف هذا الحصن ثمانين الف دينار ذهبا وقال سعيد بن القاضي من ابيات بشان ذلك

وان جئت رأس الجسر فانظر تأملاً الى الحصن او فاعبر اليهِ على الجسرِ
ترى اثرًا لم يبقَ من يستطيعهُ من الناس في بدو البلاد ولا حضرِ
مآثر لا تبلى وان باد اهلها ومجد يؤدي وارثيهِ الى الفخرِ

اما الموفق فلما تفرق جيشهُ لم يعد يرى بدًّا من الاغضاء عن مقاومة احمد بن طولون اغضاءهُ وقتيًا

وكثر اتباع احمد بن طولون ورجال حاشيته وجندهُ حتى ضاق جامع العسكر ذرعًا عن احصائهم ايام الجمعة للصلاة فرفعوا اليهِ ان يبتني لهم جامعًا آخر اكثر اتساعًا فاستجاب التماسهم على ان يبتنيهُ على جبل يشكر وكان لهذا الجبل شأن ديني عندهم وكانوا يقولون ان موسى الكليم ناجى ربهُ عليهِ مرارًا وانهُ اقتبل في ذلك المكان بعض الشرائع المقدسة . وعزم احمد ان يجعل ذلك الجامع اعظم ما بني من الجوامع الى ذلك العهد وان يقيمهُ على ثلثماية عمود من الرخام فقيل لهُ ان مثل هذا العدد لا يتيسر الحصول عليهِ وانهُ اذا اصرَّ على عزمهِ لا يترك للمسيحيين ما يقوم ببناء معابدهم فتردد بين ان يتم مشروعهُ وان لا يحرم الطوائف الاخرى من التمتع بحقوقها الدينية في بناء المعابد

وكان المهندس المسيحي الذي تقدم انهُ من ذوي الاطلاع والمعرفة بفن الهندسة وصنعة البناء قد اودع السجن لتهمة توجهت نحوهُ بغير الحق فلما بلغهُ ما كان من عزم ابن طولون وتردده كتب اليهِ من السجن انهُ قادر على اتمام مشروعهِ وانهُ لا يحتاج في ذلك الى اكثر من عمودين يجعلها عمودي القبلة . فاستحضرهُ امامهُ وقد طال شعرهُ حتى نزل على وجههِ وطلب اليهِ ان يشرح لهُ عن كيفية ذلك فرسم الجامع على الكيفية التي كانت في ذهنهِ فاعجب ابن طولون كثيرًا وامر باطلاقهِ وخلع عليهِ وجعل تحت امرهِ ماية الف دينار وقال لهُ انفق وما احتجت اليهِ بعد ذلك اطلقناهُ لك وامر ابن طولون ان يكون بناء الجامع من القرميد والجير

ونهى عن ادخال اي مادة كانت مما يقبل الاشتعال قائلاً « ورغبتي من ذلك انهُ اذا طرأ على الفسطاط دمار بالماء ام بالنار فلا يكون على جامعي بأس فيبقى ولو دمرت جميعها »

ولما اتم بناء هيكل الجامع اخذ في زخرفتهِ فبيَّضهُ وعلق فيهِ القناديل الجميلة النحاسية بالسلاسل النحاسية الطوال وجعل على طول افاريزهِ آيات من القرآن الشريف لا يزال معظمها ظاهرًا الى هذا اليوم وفرش فيهِ الحصر وحمل اليهِ صناديق المصاحف ونقل اليهِ القرَّاء والفقهاء ويقال انهُ بناهُ على مثال جامع مكة وقال آخرون بل على مثال جامع سامرة وانهُ هو الذي رسم القبلة والمنارة بنفسهِ وجعلها منفصلة عنهُ برواق يحيط بالجامع ويفصل المنارة عن صحن ثانٍ خارجي وقد هدم بعض هذه المنارة الآن الناظر اليها لا يسعهُ الاَّ التعجب من عظمتها ويقال ان قبالة المنارة المذكورة الباب الكبير وجعل للجامع ٤٢ شباكًا . وجعل بجوار الجامع بناء دعاهُ دار الامارة يستطرق الى الجامع من كوة في جدارهِ القبلي بجوار المحراب . والمنبر مزين بالستائر وفيهِ المساند الجميلة والطنافس الثمينة فكان ابن طولون ينزل في تلك الدار اذا راح الى الصلاة يوم الجمعة فانها كانت تجاه القصر والميدان فيجلس فيها ويجدد وضوءهُ ويغير ثيابهُ وفي موضعها الان سوق الجامع

ومن يزر هذا الجامع اليوم يرهُ خرابًا مهجورًا وقد استعملتهُ الحكومة مرارًا منازل للحجاج والفقراء فبنوا في قناطرهِ فسدوها وقد هُدم بعض تلك القناطر وبعض المنارة وفي صحن الجامع الميضاة ولا يزال اثر المنبر الخشبي باقيًا وفي جوار المنارة غرف يقال انها كانت مصلَّى احمد ابن طولون وذريتهِ

وقد اقتضى لبناء هذا الجامع سنتان فانتهى في شهر رمضان سنة ٢٦٢ﻫ فاذن ابن طولون بالصلاة فيهِ ولكن المسلمين لم يكونوا يدخلونهُ خيفةَ ان

يكون مبنيًا من دراهم لم تكتسب بالطريق الحق والعدل فاقسم لهم انهُ لم ينفق عليهِ درهمًا من الدراهم التي وجدها اتفاقًا فصدقوهُ فاحتفل بتكريسهِ في يوم الجمعة التالي وصار يرد اليهِ الجماهير من المسلمين . وتذكارًا لذلك الاحتفال كتبوا على الواح كبيرة من الرخام الابيض بعض الآيات من القرآن الكريم حفرًا . وقال المقريزي انهم كانوا يحرقون اقراص الند اثناء الصلاة فيعبق الجامع بدخانهِ والمؤمنون في الصلاة . وكان القاضي بكار بن قتيبة الامام الاول وربيع بن سليمان الخطيب الاول لهذا الجامع . وفي ذلك الحين اقام محمد بن ربيع مدرسة عمومية في احدى غرف الجامع وكان ابن طولون واولادهُ وجميع حاشيتهِ لا يتركون الجامع الَّا بعد ان يتم محمد تدريسهُ ويعطي الدروس اللازمة . وكانت دروس هذه المدرسة محصورة في الحديث وممن كان يحضر عليهِ ابناء احمد بن طولون وكانوا يواظبون على الحضور والانصراف كسائر التلامذة كل ذلك بأمر والدهم . وفي مساء يوم التكريس عاد ابن طولون الى دار الامارة لاعادة الوضوء وتغيير الثياب فمكث مدة طويلة في الجامع يُصلّي الى الله ويشكرهُ على ما اولاهُ من النعم بتنجيح جميع مشروعاتهِ ووهب الجامع عشرة الاف دينار وخصص لهُ مدفوعات معلومة تدفع لهُ من مالهِ ما بقي حيًا . وبنى ابن طولون بجوار الجامع خارج صحنهِ حوضًا وفسقية للوضوء ثم بنى اجزخانة يحضر فيها بأمرهِ كل يوم جمعة طبيب يطبّب الفقراء مجانًا لا سيما الذين يأتون للصلاة وحسبت نفقات البناء فبلغت مائة وعشرين الف دينار فضلًا عما اوقف لهُ . ويقال ان احمد بن طولون وجد ما عدا الكنزين المتقدم ذكرهما كنزًا ثالثًا من الذهب النقي ويقال ان هذا الذي جعلهُ يضرب الدينار الاحمدي المشهور بنقاوتهِ والمفضَّل على سائر انواع الذهب القديم للتذهيب بهِ

وفي اثناء بناء الجامع توفي أماجور الذي كان حاكمًا في سوريا

فخلفهُ ابنهُ علي فاستغنم احمد بن طولون تلك الفرصة لبضم سوريا الى مصر والموفق منشغل عنهُ بمحاربة الزنوج فاظهر انهُ عازم على محاربة الروم جهادًا في سبيل الدين وجمع جيشًا جرارًا فيهِ قسم كبير من المتطوعين فكتب الى ابن أماجور يستنصرهُ في تلك الحرب وان يبايعهُ على سوريا بدعوى ان الخليفة اقطعهُ اياها فاجاب مطيعًا

وفي غرة سنة ٢٦٥ﻫ بارح احمد بن طولون مصر مستخلفًا ابنهُ عباسًا وسنهُ اذ ذاك ٢٣ سنة وعهد تدبير الاحكام الى وزيرهِ احمد الواسطي . ولما احتشدت جيوش ابن طولون في فلسطين اتاهُ محمد حاكم الرملة مسلمًا خاضعًا فاقرَّهُ في منصبهِ ولما بلغ دمشق ترحب بهِ علي بن أماجور وأمر بان يخطب باسمهِ فاقرَّهُ في مركزهِ ايضًا وهكذا فعل ايضًا في حمص وعليها عيسى فاقرَّهُ عليها ثم وضع يدهُ على حلب وحماه وكانتا تحت حكومة انطاكية وحاكمها يدعى سيما الطويل فحرر اليهِ احمد بن طولون يطلب مبايعتهُ فوعدهُ ولكنهُ لم يفِ فاعاد الطلب فوعد ايضًا ولما تكرر منهُ الوعد والاخلاف تقدم احمد بجيشهِ الى اسكندرونة ثم هاجم انطاكية من جهة باب البحر فلم يفز لانهُ كان منيعًا فهاجمها ثانية وثالثة ولا فائدة وما زال حتى كاد يهاجمهُ اليأس فاتاهُ بعض اهالي المدينة ينبئُونهُ بباب آخر في الجهة المقابلة يدعى باب الفرس لجهة الجبال وقالوا انهُ سهل المأخذ فسار احمد بجيشهِ وهاجم المدينة من ذلك الباب وما طلع الفجر الاَّ والمتاريس في يدهِ . واما سيما فدافع دفاعًا حسنًا حتى قتل وجيء برأسهِ الى احمد بن طولون فشقَّ عليهِ قتلهُ لانهُ كان صديقًا لهُ واما المدينة فذهبت فريسة الفتك والنهب حتى نودي بالطاعة فسكنت الغوغاء . ووضع احمد يدهُ على بالياس وادنة وترسوس . وبينما كان يهمُّ بالتقدم في فتوحاتهِ الى ما وراء ذلك جاءهُ من انباء مصر ان ابنهُ عباسًا الذي استخلفهُ في مصر قد شقَّ عصا الطاعة ومد يدهُ الى الخزائن والاحكام واستبد فيهما فلم يرد احمد

الرجوع الى مصر قبل اتمام اعمالهِ في سوريا فسار الى محاربة محمد حاكم رقَّة ثم اخيهِ موسى ولم يرجع الى مصر الَّا في نهاية سنة ٢٦٥ هـ بعد ان فتح كل سوريا وبعض آسيا الصغرى واستخلف في رقَّة لؤلؤًا الذي كان حاكمًا على مصر وحلب وحمص وقنسرين

اما عباس فبعد ان نبذ طاعة والدهِ انقيادًا لذوي الاغراض شعر بخطائهِ وخاف سوء العقبى فجمع اليهِ الخزينة وفيها مليونان من الدنانير واستدان فوقها ٢٠٠ الف دينار وفرَّ بمن معهُ الى الجيزة على ضفة النيل الغربية وساق معهُ احمد الواسطي وزير والدهِ مغلولًا ولكنهُ خشي ان لا يكون مكانهُ هناك أمينًا فعهد حكومتهُ فيهِ الى اخيهِ ربيع مظهرًا السفر الى الاسكندرية وسافر الى برقة

فلما وصل احمد بن طولون الى الفسطاط ونزل العسكر ورأى من أمر ابنهِ ما رأى احب استجلابهِ بالحسنى فحرر اليهِ تحارير لطيفة كلها حنوٌ ونصح وارسلها مع بكار بن قتيبة فعاد بلا نتيجة كل ذلك بدسيسة من التف حولهُ وهم الذين اغروهُ على كل ما فعل ولكنهم مع ذلك ومع كونهم لم يكونوا يشعرون بالسلطة الابوية كانوا يخافون غضب ذلك الامير الخطير فاوعزوا الى عباس ان يمعن في داخلية افريقيا ففي سنة ٢٦٧ هـ جمع اليهِ رجال دعوتهِ وسار في داخلية البلاد ساعيًا جهدهُ في استجلاب مشايخ القبائل اليهِ فلم يفز الَّا مع القليل منهم فكتب الى ابراهيم امير قيروان ليبايعهُ على افريقيا مدعيًا ان الخليفة امر بذلك وكان سعيهُ مع هذا باطلًا ايضًا . ثم هاجم قلعة لبدة ففتحت لهُ ابوابها فدخلها واتباعهُ ذابحين ناهبين فاستاء الاهالي فحرروا الى الياس بن المنصور فوعدهم بالمساعدة

وفي اثناء ذلك سار ابراهيم امير القيروان بجيش الى طرابلس الغرب لمهاجمة عباس فهاجمهُ وبقيت الموقعة الى الليل وكان عباس مشهورًا في

ذلك العهد بالشجاعة والحماسة وكان شاعرًا فصيحًا ينشد الاشعار الحماسية اثناء المحاربة ومما انشدهُ قولهُ

لله دري اذا أعدو على فرسي الى الهياج ونار الحرب تستعرُ
وفي يدي صارم افري الرؤوس بهِ في حدّهِ الموت لا يبقي ولا يذرُ
ان كنتِ سائلة عني وعن خبري فها انا الليث والصمصامة الذكرُ
من آلِ طولون اصلي ان سألتِ فما فوق لمفتخر بالجود مفتخرُ
لو كنتِ شاهدة كرّي بلبدة اذ بالسيف اضربُ والهامات تبتدرُ
اذًا لعاينت مني ما تبادرهُ عني الاحاديث والانباء والخبرُ

وفي الصباح التالي وصل الباس ومعهُ ١٢ الفًا من قبيلة العبابدة مددًا لابراهيم فضمهُ الى جيشهِ واستأنف الحرب مع عباس وخسر عباس في هذه الموقعة اكثر ضباط جيشهِ واشجع جنودهِ وجميع المؤن والمهمات العسكرية التي اتى بها من مصر اما هو فتمكن بعد الجهد من الفرار الى برقة فبلغ ذلك اباهُ فانفطر لهُ قلبهُ رغمًا عن سابق عصيانهِ ومعاداتهِ . وفي اواخر سنة ٢٦٧ هـ انفذ احمد جيوشًا الى برقة وبعد بضعة ايام اتى بنفسهِ الى الاسكندرية في جيش كبير قيل انهُ كان مؤلفًا من ماية الف رجل فاتاهُ احمد الواسطي وكان قد تخلص من عباس فجهزهُ ابن طولون بجيش وارسلهُ الى برقة يهاجم من فيها من العصاة فهاجم وقتل العدد الاعظم منهم اما عباس فقبض عليهِ حيًّا وجاء بهِ الى ابيهِ وكان ذلك في منتصف سنة ٢٦٨ هـ وبعد بضعة ايام عاد ابن طولون الى الفسطاط ومعهُ ابنهُ العباس ولما بلغ الفسطاط حجز عليهِ في سرايتهِ

وبعد ثلاثة اشهر وصلت الجيوش ومعهم الاسرى الباقون فاحضرهم وعباس معهم فأمرهُ ابوهُ ان يقطع ايدي هولاء المفسدين وارجلهم بيدهِ فنعل ثم التفت اليهِ ووبخهُ بكلام تتفتت لهُ الحجارة ثم امر بان يُضرب ماية جلدة فنال ذلك وقلبهُ يقطر دمًا ثم اعادهُ الى بيت تحت الحجز وامر

بقتل من بقي من العصاة والقاء جثثهم في النيل

وما كادت مصر تتخلص من هذه الاضطرابات الداخلية حتى داهمتها اضطرابات خارجية اشدّ وطأة وأصعب مراسًا . فان ما كان بين احمد ابن طولون والموفق من الضغائن كان لا يزال كامنًا الى ذلك العهد وما اصاب الخزينة من السلب وما تكبدهُ ابن طولون على اثر ذلك من النفقات في الحروب قد حملهُ على الاقتصاد في النفقات والاعتدال بالسخاء فساء ذلك بعض من كانوا يقتربون منهُ استنزافًا لذات يدهِ وفيهم لؤلؤ الذي كان منغمسًا بانعامهِ وقد ولاهُ بلادًا واسعة فاضمر لهُ شرًّا منقادًا الى ذلك بايعاز كاتبهِ محمد بن سليمان الذي لم يكن ابن طولون يحبهُ فامسك لؤلؤ عن دفع الجزية الى ابن طولون على ان يدفعها الى الموفق ويبايعهُ على ما تحت حكمهِ فطار الموفق فرحًا اما الضباط الذين كانوا مع لؤلؤ فلم يكن بينهم وبين احمد بن طولون ما يوجب النفور فاعلموهُ بغدرهِ فادرك جميع العواقب الناجمة عن هذه الخيانة ولكنهُ اتخذ الحزم والتأني نبراسًا فحرر الى لؤلؤ يستدعيهِ الى طاعتهِ بعبارات لطيفة فأبى واستنكر

فنظر احمد في الامر نظرًا بعيدًا فتراءى لهُ ان العاقبة محمودة فكتب الى المعتمد سرًّا يعلمهُ انهُ في خشية من خيانةٍ ربما كان فيها خطر على حياة الخليفة ويدعوهُ الى مصر قائلاً « ان لدينا هنا ماية الف مقاتل مستعدة للدفاع عن امير المؤمنين وقمع عدوهِ (يعني بهِ الموفق) واعادة السلطان ليدهِ » وبعث مع هذا الكتاب هدية تساوي ماية الف دينار وسار في جيش جرار سنة ٢٦٩ هـ وتقدم الى دمشق وابنهُ عباس بمعيتهِ مستخلفًا على مصر ابنهُ الثاني المدعو خمارويه مجاهرًا انهُ انما قدم لأمرين وهما انقاذ الخليفة المعتمد ومعاقبة لؤلؤ فلم يظفر بلؤلؤ لانهُ كان قد انضمّ الى الموفق على محاربة الزنوج

وثارت في اثناء ذلك فرقة من الجند كان قد ارسلها احمد الى سلبسيا

وعصت قائدها خالا فتمكن هذا من الفرار بحياتهِ الى دمشق فاغتنم سكان طرسوس هذه الفرصة لخلع طاعة ابن طولون فابطلوا الصلاة باسمهِ فجهز اليهم اقتصاصًا منهم ثم ورد اليهِ كتاب من المعتمد اوقفهُ عن عزمهِ . وسبب ذلك ان الخليفة المعتمد أدرك بعدئذٍ ان ليس في يدهِ من الخلافة الاَّ الاسم وان اخاهُ الموفق اضرَّ بنفوذهِ ضررًا بليغًا فلما جاءهُ تحرير ابن طولون قبلهُ بكل سرور واجابهُ متشكرًا منهُ ومتشكيًا من تصرف اخيهِ والقى اليهِ ان يتصرف بالامر بمقتضى حكمتهِ وان يلاقيهُ في رقة فانفذ اليها ابن طولون جيشًا لانتظارهِ لان المعتمد احب ان يغتنم فرصة اشتغال اخيهِ بالحرب مع الزنوج للقدوم الى احمد فتظاهر بالخروج في حاشيتهِ للصيد وسافر في جمادى الاولى حتى بلغ اسحق بن كنداجيق حاكم الموصل وما بين النهرين وكان قد كتب اليهِ وزير الموفق بما كان واوعز اليهِ ان يحتال في القبض على الخليفة . فاستقبل اسحق الخليفة بكل اكرام واحترام وشيعهُ الى آخر حدود البلاد التي هي تحت حكم ابن طولون وهناك ابعد بعض رجال الخليفة بحيلة ودس في الباقين سم الحسد ايقاعًا بابن طولون وطلب اليهم ان يأتوا اليهِ على انفراد ليتشاوروا في شأن ابن طولون قبل ان يقعوا في يدهِ فادخلهم الى خيمتهِ وهناك قبض عليهم وأغلَّهم واحدًا واحدًا ثم توجه في اثر الخليفة فلاقاهُ وهو غير عالم بما كان فجعل يكلمهُ بلسان الثعلب فاقنعهُ ان لا يسعى لتغيير حدود مملكتهِ بل يبقيها كما تركها اباؤهُ وان يعهد امرها لاخيهِ افضل من ان يعهدها لرجل غريب وعلى ذلك رجع المعتمد وغير المغلولين من رجالهِ الى سامرة . فعلم الموفق بذلك فسرَّ لكنهُ خشي ان يعود اخوهُ مرةً ثانيةً الى قصدهِ الاول فارسل اليهِ من يراقب حركاتهِ ووهب اسحق جميع البلاد التي هي تحت حكم ابن طولون فاصبح حكمهُ ممتدًا من بغداد الى اطراف افريقيا واهداهُ سيفين ولقبهُ بذي السيفين اشارة الى تسلطهِ على الشرق والغرب

فلما علم ابن طولون بذلك اشتد غيظة فجمع اليه من كان في دمشق من قضاة بلادهِ وعلمائها وإشرافها وإعلمهم ان الموفق قد هتك حرمة الاخوَّة نحو اخيهِ وحاول الاستقلال بالدولة الاسلامية وإن الخليفة امير المؤمنين قد اصبح في حالة يرثى لها يقضي نهارهُ بالاسف والكدر الشديدين وما زال ينهض هممهم ويحرك عواطفهم حتى تحرروا ان يذكر الخطيب بعد ان يتم صلاة الجمعة امام الجمهور حالة الخليفة ويطلب الى الله ان يحفظة ويكبت اعداءهُ وزادوا على ذلك ان الموفق عاصٍ على الخليفة فهو محروم من حقوق الخلافة ثم زاد هو على هذا ان الموفق خلع الطاعة وبرئ من الذمة فوجب جهادهُ على الامة فاعترض بعض الحضور على ذلك ومنهم بكار فقال ان تحارير الخليفة تخالف ما قررتموهُ لانهُ تحرر بان يكون الموفق وارثًا للخلافة قطعيًا فاجابهُ ابن طولون ان الخليفة لم يكن حرًّا بما فعل والقى بكارًا في السجن ريثما يرد من الخليفة الجواب على تلك الاقرارات . وانتهى الامر باقرار الجميع على ما سبق ذكرهُ وإن يحافظوا على كل كلمة فاهوا بها وإن ينادوا بذلك في الجماهير ايام الصلاة كما تقدم

فلما بلغ الموفق ذلك سعى الى اخيهِ المعتمد ان يحرم ابن طولون وما انفكَّ حتى اجابهُ الى طلبهِ فصرح بحرمان ابن طولون في جميع جوامع العراق وإن يلعن على المنابر بعبارة ونصها «اللهمَّ العنهُ لعنًا يفلُّ حدَّهُ ويتعس جدَّهُ واجعلهُ مثلًا للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين» فصرح ابن طولون بحرمان الموفق في جميع بلادهِ وإرسل جيشًا للاستيلاء على مكة فعلم حاكمها هارون فانفذ الى الموفق الخبر فارسل اليهِ مددًا تحت قيادة جعفر فحاربوا المصريين في مكة فغلبوهم بعد ان قتلوا ما بقي رجل منهم وإسروا قائدهم فنودي بحرمان ابن طولون في جامع مكة

الَّا ان هذا جميعهُ لم يكن ليثني ابن طولون عن عزمهِ في اجراآت اخرى فانهُ سار الى سليسيا لاخماد الثورة ومقاصة المعتدين فمرَّ اثناء

المسير على دمشق وبنى قبة مرتفعة على مدفن الخليفة معاوية كان قد هدمها العباسيون وزيّنها بالقناديل وجعل فيها من يتلو القرآن الشريف ثم قدم ادنة لمقاصة بزماز حاكمها لامتناعهِ عن مبايعتهِ وكان بزماز قد قبض على رسل ابن طولون فشق ذلك على ابن طولون فاسرع الى محاصرتهِ بفرقة من الجند فحوّل بزماز نهر سدنُس على جيش ابن طولون وكانوا في منتصف الشتاء ففاضت مياههُ وساعدها البرد القارص فاهلكا معظم العساكر فاضطر احمد الى رفع الحصار وتأجيل الانتقام الى فرصة اخرى فنهض لنجدة جهات اخرى كان يتهددها اليونان فسار بفرقة من رجالهِ الى باياس فانطاكية حيث كان ينتظرهُ القضاء المُبرَم وذلك انهُ شرب فيها كمية وافرة من لبن الجاموس دفعة فاضرّت بصحتهِ فانذرهُ الطبيب الذي كان برفقتهِ واسمهُ سعيد ثيوفيل وكان مسيحيًا فاهمل انذارهُ وتغافل عن الاحتماء الصارم فاشتد مرضهُ كثيرًا فترك عبدالله بن الفتاح حاكمًا في حلب واسرع عائدًا الى مصر محمولاً على الاذرع في هودج لأن الضعف لم يسمح لهُ بالاستمرار على هذه الكيفية فنزل عند الفرما ثم سافر الى الفسطاط في النيل فبلغها في آخر السنة وهو في حالة خطرة فنادى اليهِ اطباء المدينة وتهددهم بالقتل اذا لم يبذلوا الجهد في شفائهِ

فحدث في مصر من القلاقل ما اشغل ابن طولون عن الاهتمام بصحتهِ كما يجب وذلك ان احد العلويين واسمهُ احمد بن عبدالله لما بلغهُ ما فيهِ احمد بن طولون من المرض شق عصا الطاعة فانضمت اليهِ فرقة من رجال الصعيد مجمولة بالاغواء فانفذ اليها احمد فرقة من رجالهِ ففرقتها وعادت برأس قائدها وعاد معها الامن واستتبت الراحة

اما الموفق فبعد ان حارب الزنوج طويلاً فاز بهم ولكنهُ ملّ الحرب ومال الى المسالمة وكأن شعائرهُ العدوانية نحو ابن طولون قد اصبحت على طول الزمن آخذة في الخمود فرغب في حقن الدماء واقامة الحدود

ولم تكن سطوة ابن طولون اقل اعتبارًا في عين الموفق من ذي قبل والظاهر ان المرض اضعف منهُ حاسة الانتقام من الموفق فمال الى انهاء التلاقل التي كان الموفق اشد رغبة في انهائها . فعهد الموفق الى سعيد بن مخلّد وجماعة من ذويهِ ان يكتبوا الى ابن طولون كتابة يوهمونهُ انها صادرة منهم على غير علم الموفق يبينون لهُ ان ما حصل من الخصام انما كان من عواقب العجلة في الحكم وسوء التفاهم وان يتفقوا معهُ على المصالحة فنعلوا كما امرهم فلما اطلع ابن طولون على هذه الكتب علم انها من نفثات الموفق مكتوبة بخط من هي بامضائهم على ان ذلك لم يمنع من قبولهِ بالمصالحة فاجاب موافقًا على نسيان كل ما سبق حصولهُ من سوء التفاهم واعدًا باعادة الصلات الودية مشترطًا على الموفق ان يصرح جهارًا بتنازلهِ عن كل حاسات الحقد او الانتقام . فعلم الموفق من مطالعة الكتاب ان ابن طولون قد استطلع ضميرهُ فاجابهُ بدون تردد انهُ نادم على ما فرط منهُ في الماضي وعامل على استئصال جرائم الحقد وانهُ يرغب الى صديقهِ الجديد ان يقبل تلك المصالحة رسميًا فقبل . اما المعتمد فسُرّ جدًا لما دار بينهما وحرر رسالة بخط يدهِ الى ابن طولون يحمد سعيهُ ويطلب اليهِ ان يستمر مسالمًا لاخيهِ الموفق واخبرهُ انهُ قد ابطل الحرمان الذي كان قد صرح بهِ ضدهُ وبعث الرسالة مع حسن بن عطاف فلم تبلغ مصر الّا بعد وفاة ابن طولون لان صحتهُ كانت تتأخر يومًا فيوم وكان الالم المعدي المتسبب عن افراطهِ من شرب لبن الجاموس يشتد عليهِ مصحوبًا بحمى شديدة وضعف عام ثم رافق كل ذلك اسهال ذهب بكل ما بقي من قواهُ

فلما استحس احمد بقرب الاجل استغاث بصلوات شعبهِ على اختلاف معتقداتهم فاجتمع الاسلام بقرآنهم والمسيحيون باناجيلهم واليهود بتوراتهم الى الجبل المقطم حيث اقاموا فروض الدعاء الى الله تعالى ان يشفي لهم مليكهم وكان من جملة من حضر هذا الاحتفال معلمو المدارس وتلامذتها

اما جوامع المدينة فكانت في الوقت عينهِ غاصة بالجماهير يقرأُون القرآن الشريف كل ذلك والحسنات تفرق في الناس بكميات وافرة فانتفع الناس في موتهِ كما انتفعوا في حياتهِ . ولما تأكد قرب الساعة صلَّى قائلاً « ايها الاله العظيم ارحم عبدك وعلمهُ قيمة نفسهِ لانهُ لم يعرف لها قيمة وانصفهُ برحمتك » واخذ بعد ذلك بتكرار سورة الشهادة الى ان قضى . وقبل وفاتهِ بقليل اخرج بكاراً من السجن لكنهُ لم يلبث بعد وفاة ابن طولون الَّا اياماً قليلة وتوفي ودفن في الفسطاط ولا يزال مقامهُ مكرماً . وكانت وفاة احمد بن طولون يوم الاحد العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٢٧٠ ﻫ (موافق ١١ مايو سنة ٨٨٤ م) ودفن عند سفح المقطم في تربة على طريق المتوجه الى القرافة الصغرى

ولما بلغ المعتمد خبر وفاة ابن طولون حزن حزناً شديداً ورثاهُ بقصيدةٍ تدل على ان المعتمد كان شاعراً اكثر مما كان حاكماً . وكانت مدة حكم ابن طولون ١٨ سنة كلها حروب وظفر . ومن تأمل بسيرة حياتهِ يرى ان فخرهُ لم يكن الَّا بكثرة المصاعب وهي التي كانت تثير فيهِ الهمة وتحملهُ على توسيع نطاق مملكتهِ وقد ترك ثروة قدرها عشرة ملايين دينار وعدداً وافراً من الاسلحة والامتعة و ٧ الاف عبد تحت السلاح و ٢٤ الف عبد بغير سلاح وعدداً عظيماً من الخيل والبغال والجمال وحيوانات اخرى . ويقال ان محصولات مصر بلغت في ايامهِ مائة مليون دينار سنوياً وقال آخرون انها لم تبلغ اكثر من عشر هذا القدر وهو الارجح وقد كان شجاعاً نشيطاً حليماً شفوقاً

ومن امثال شفقتهِ انهُ ركب في غداة باردة الى المقس في ضواحي الفسطاط فاصاب بشاطئ النيل صياداً عليهِ خلق لا يواريهِ منهُ شيء ومعهُ صبي لهُ في مثل حالهِ وقد القى شبكتهُ في البحر فلما رآه رق لحالهِ وقال « نسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً » فدفعها اليهِ ولحق ابن طولون فسار

احمد ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح فظن ابن طولون ان بعض سودانهِ قتلهُ واخذ الدنانير منهُ فوقف بنفسهِ عليهِ وسأل الصبي عن ابيهِ فقال لهُ هذا الغلام «واشار الى نسيم الخادم» دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقلّبهُ حتى وقع ميتاً فقال فتّشهُ يا نسيم فنزل وفتّشهُ فوجد الدنانير معهُ بحالها فحرّض الصبيان يأخذها فأبى وقال هذه قتلت ابي وان اخذتها قتلتني فاحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخهُ وامرهم ان يشتروا للصبي دارًا بخمساية دينار تكون لها غلة وان تحبس عليهِ وكتب اسمهُ في اصحاب الجرايات . وقال انا قتلت اباهُ لان الغنى يحتاج الى تدريج والّا قتل صاحبهُ . هذا كان يجب ان يدفع اليهِ دينار بعد دينار حتى تاتيهُ هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينهِ . واحمد بن طولون اول من جلس في مصر للنظر في المظالم فكان يجلس لذلك يومين في كل اسبوع في محل يقتبل فيهِ التظلمات وينصف اصحابها . وكان تقيًّا يحترم الشعائر الدينية كثيرًا فكان لهُ في قصرهِ حجرة جعل فيها ١٢ رجلاً سمّاهم بالمكبرين يبيت منهم في كل ليلة اربعة يتناوبون الليل نوبًا يكبرون ويسبحون ويحمدون ويهللون ويقرأُون القرآن تطريبًا بالحان ويتوسلون بقصائد زهدية ويؤذّنون اوقات الاذان . ومن صفاتهِ الحميدة حبهُ لعمل الخير المجرد والتصدق على كل من طلب الصدقة فكان ينفق في سبيل ذلك الفي دينار شهريًا سوى ما يطرأُ عليهِ من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم وسوى مطابخهِ التي اقيمت في كل يوم للصدقات في دارهِ وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويفرق للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر او قصعة لكل مسكين اربعة ارغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الاخران ما على القدر وكانت تعمل في دارهِ وينادى من احب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب ويدخل الناس الميدان وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكرهُ ينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسرهُ

ذلك ويحمد الله على نعمتهِ . ولقد قال لهُ مرة ابراهيم بن قراطقان وكان متوليًا توزيع الصدقات «ايد الله الامير انا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقات فتخرج لنا الكف المخضوبة نقشًا والمعصم الرائع فيهِ الحديدة والكف فيها الخاتم» فقال «يا هذا من مدَّ يدهُ اليك فاعطهِ فهذه هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانهُ في كتابهِ فقال يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف احذر ان تردَّ يدًا امتدت اليك» . وابن طولون اول من بنى قلعة في يافا . وترك عند وفاتهِ ثلاثين ولدًا ١٧ ذكورًا و ١٢ اناثًا مع انهُ لم يكن سنهُ عند وفاتهِ اكثر من خمسين سنة . وقد اوصى قبل وفاتهِ ان تكون الاحكام ثابتة لبنيهِ من بعدهِ ليكون لهُ من نسلهِ دولة تخلد لهُ ذكرًا الَّا ان هذه الدولة لم تمكث بعدهُ الَّا مدة ٣٢ سنة فقط . وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد ابن طولون سنة ٢٥٧ ﻫ عليها اسمهُ واسم الخليفة المعتمد (انظر شكل ٣٩)



ش ٣٩ نقود المعتمد وعليها اسم ابن طولون

حكم خمارويه بن احمد

من سنة ٢٧١ ـــ ٢٨٢ ﻫ او من ٨٨٤ ـــ ٨٩٥ م

وبعد وفاة ابن طولون اقيم ابنهُ خمارويه حالًا في مكانهِ في شهر ذي القعدة من سنة ٢٧٠ ﻫ وسنهُ ٢٠ سنة ولقب بابي الجيش فسرَّ الناس من توليتهِ . واما عباس فكان لا يزال في السجن وقد كرهتهُ الامة لما كان من عقوقهِ . وقد قال بعضهم ان اباهُ ناداهُ قبل وفاتهِ وسامحهُ عما كان أتى بهِ

واوصى ان يكون على سوريا تحت امارة اخيهِ خمارويه لكنهُ ما لبث ان اقيم اخوهُ على الاحكام حتى ذهبت حياتهُ بامرهِ . ولم يشأ خمارويه ان يجعل مركز حكومتهِ في الفسطاط كما فعل ابوهُ فاقامها في منتصف القطائع التي كان قد بناها ابوهُ مقرًّا لرجالهِ

واول شيء اجراهُ خمارويه كان موجبًا لتملكهِ قلوب الرعية لما كان فيهِ من النزاهة ونصرة الحق . ذلك ان كنيسة الاسكندرية كانت سنة ٢٦٨ هـ تحت رعاية البطريرك ميخائيل وهذا كان قد عزل الاسقف سكا لسوء سيرتهِ وتعاليمهِ فسار هذا الاسقف الى الفسطاط مضمرًا شرًّا فسعى الى احمد بن طولون فسادًا مدعيًا ان البطريرك كثير الثروة على حين انهُ لا يحتاج الى المال وكان احمد اذ ذاك يتأهب للذهاب الى سوريا وفي احتياج للنفقات فاستحضر البطريرك المذكور وقال لهُ «ان من كان في مركزك ايها البطريرك لا يحتاج الى اكثر من حاجات الطعام واللباس وقد علمتُ انك ذو ثروة عظيمة والبلاد في احتياج الى نفقات كبيرة فادفع كل ما لديك الى خزينة الحكومة» فحاول البطريرك رفع تلك التهمة عنهُ فذهب اجتهادهُ عبثًا فالقي في السجن ومعهُ احد شمامستهِ المدعو ابن المنذر سنة كاملة فاخذ يوحنا وابراهيم ابنا موسى كاتب سر احمد بن طولون على عاتقهما ان يُطلق البطريرك بشرط ان يدفع مبلغًا معينًا يجمعهُ من المسيحيين الذين هم تحت رعايتهِ . فكتب على نفسهِ صكًا بمبلغ ٢٠ الف دينار بدفعة على دفعتين لكنهُ لم يدفع الدفعة الاولى الاَّ بعد العناء العظيم والاستقراض وبيع اوقاف الكنيسة لان ما كان مضروبًا على ابناء الكنيسة لم يكن وافيًا بالمطلوب فاصبح البطريرك في حالة اليأس منزويًا في دير القديسة مريم في قصر الشمع بجوار الفسطاط لا يعلم كيف يقوم بدفع المبلغ الباقي فاكثر الضرائب على الاسقفيات الى حد لم يكن في الامكان القيام بدفعهِ فنُسب اليهِ الاستبداد وهو براءٌ منهُ ولما آن وقت الدفع لم يكن

قادرًا عليهِ فقيد ثانيةً الى السجن وبعد يسير توفي ابن طولون . فلما تولى خمارويه رأى من العدالة ان يخلي سبيلهُ ويبرئ ذمتهُ مما كان باقيًا عليهِ ففعل وكان لذلك وقع عظيم ولا سيما عند طائفة المسيحيين

ثم اخذ في تدبير الاحكام فلم يغير شيئًا مما كان على ايام ابيهِ فابقى الرتب والوظائف على حالها فبقيت قيادة جيش سوريا في يد ابي عبدالله وقيادة ما بقي من الجيوش في يد سعيد الايسر ولكي يتأكد تحصين سوريا ارسل اليها مراكب حربية تجول في سواحلها . ولما اطمأنَّ بالهُ من قبيل الخارجية عكف على الداخلية فاقبل على قصر ابيهِ وزاد فيهِ واخذ الميدان فجعلهُ كلهُ بستانًا وزرع فيهِ انواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وانواع الورد والزعفران وكسا اجسام النخل نحاسًا مذهبًا وجعل بين النحاس واجساد نخل مزاريب الرصاص واجرى فيها الماء المدبَّر وغرس فيهِ من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وطعموا لهُ شجر المشمش باللوز واشباه ذلك وبنى في البستان برجًا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافر ليقوم مقام الاقفاص وسرح فيهِ من اصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر مستحسن حسن الصوت وجعل فيهِ اوكارًا تفرخ الطيور فيها . وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها . وعمل في دارهِ مجلسًا في رواقهِ سماهُ بيت الذهب طلى حيطانهُ كلها بالذهب المجاول باللازورد على احسن نقش وجعل في حيطانهِ صورًا بارزة من خشب معمول على صورتهِ وصور حظاياهُ والمغنيات اللاتي تغنّينهُ بما عليهن من اللباس بالوانهِ وجعل عليهنَّ من الحلي مثل ما اعتدن لبسهُ وجعل بين يدي هذا البيت فسقية ملأها زئبقًا وسبب ذلك انهُ شكا الى طبيبهِ كثرة السهر فاشار اليهِ بالتمريز فانف من ذلك فقال تأمر بعمل بركة من زئبق فعمل بركة يقال انها ٥٠ ذراعًا طولاً في ٥٠ عرضًا

وملأها من الزئبق وجعل في اركان البركة سككًا من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير في حلق من الفضة وعمل فراشًا من ادم يُحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذٍ شدُّهُ ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي بحلق الفضة في سكك الفضة وينام على هذا الفراش ولا يزال هذا الفراش يرج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليهِ ولم يُعرف ملك قط تقدم خمارويهَ في عمل مثل هذه البركة . وبنى ايضًا بالقصر قبة تضاهي قبة الهواء سماها الدكة وكان كثيرًا ما يجلس فيها ليشرف منها على جميع ما في دارهِ من البستان وغيرهِ ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة . وبنى ميدانًا آخر اكبر من ميدان ابيهِ . وبنى ايضًا في دارهِ دارًا للسباع عمل فيها بيوتًا بآزاج كل بيت يسع سبعًا ولبوتهُ وبجانب كل بيت حوض من رخام وجعل لتلك السباع سياسًا يقومون بما تحتاج اليهِ من الطعام والشراب والتنظيف . وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال لهُ زريق قد انس بخمارويه وصار مطلقًا في الدار لا يؤذي احدًا ويقام لهُ بوظيفتهِ من الغذاء في كل يوم فاذا نُصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديهِ يلتقط ما يرميهِ اليهِ من فضلاتها فاذا نام جاء زريق ليحرسهُ فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير واذا كان على الارض فبجانبهِ لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة

واتسعت ايضًا اصطبلات خمارويه فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلًا مفردًا وعمل للنمور دارًا مفردة ومثل ذلك للفهود وللفيلة والزرافات كل ذلك سوى الاصطبلات التي في الجيزة . وكان لهُ ايضًا بمصر اصطبلات تنتج فيها الخيل لحلبة السباق وللرباط في سبيل الله برسم الغزو . وبلغت مرتبات الجيش في ايامهِ تسعماية الف دينار في كل سنة . وكانت حلبة السباق في ايامهم تقوم مقام الاعياد لكثرة الزينة وركوب سائر العساكر والغلمان على كثرتهم بالسلاح التام والعدة الكاملة فيجلس

الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون للاعياد وكان له معرض للخيل فريد

وقد تقدم ان خمارويه قتل اخاهُ وكان ذلك بايعاز ابي عبدالله قائد جنود سوريا ثم خاف ابو عبدالله ان يعود خمارويه الى الانتقام منهُ اذ يندم على قتل اخيهِ فعكف الى المكيدة فكاتب الموفق يقول له «ان هذا الشاب خمارويه لا يفهم من امور الاحكام الَّا انها وسيلة للتمتع بالملاهي والملذات» وكتب اليهِ غير ذلك مما شوَّق الموفق الى الاستيلاء على مصر. واخذت العداوة من ذلك الحين تنمو بينهما. وفي سنة ٢٧١ ه‍ حصلت موقعة عظيمة بين احمد بن الموفق الملقب بالمعتضد بالله وخمارويه تدعى واقعة الطواحين بما كان بين والديهما من العداوة

وتفصيل واقعة الطواحين ان احمد بن الموفق لما كان في قلبهِ من البغض لخمارويه ما كان اتى دمشق فاستولى عليها لان ابا عبدالله سلمهُ اياها بدون حرب فلما علم خمارويه بذلك جرد جيشهُ قاصدًا استرجاعها حتى بلغ الرملة ومعهُ سعيد الايسر قائد الجنود المصرية العام فبلغ ذلك المعتضد بالله فسار من دمشق نحو الرملة الى عساكر خمارويه فاتاه الخبر بوصول خمارويه الى عساكرهِ وكثرة من معهُ من الجموع فهمَّ بالعود فلم يمكنهُ من معهُ من اصحاب خمارويه الذين صاروا معهُ. وكان المعتضد قد اوحش ابن كنداجيق وابن ابي الساج ونسبهما الى الجبن حيث انتظراهُ ليصل اليهما ففسدت نياتهما معهُ ولما وصل خمارويه الى الرملة نزل على الماء الذي عليهِ الطواحين فملكهُ فنسبت الواقعة اليهِ ثم وصل المعتضد وقد عبي اصحابهُ وكذلك ايضًا فعل خمارويه وجعل له كمينًا عليهم سعيد الايسر فحملت ميسرة المعتضد على ميمنة خمارويه فانهزمت فلما رأى ذلك خمارويه ولم يكن رأى مثلهُ قبلهُ ولَّى منهزمًا في نفر من الاحداث الذين لا علم لهم بالحرب ولم يقف دون مصر فنزل المعتضد الى خيام خمارويه وهو لا يشك في تمام النصر فخرج الذين عليهم سعيد الايسر وانضاف اليهم

من بقي من جيش خمارويه ونادوا بشعارهم وحملوا على عسكر المعتضد وهم مشغولون بالنهب ووضع المصريون السيف فيهم فظن المعتضد ان خمارويه قد عاد فركب وانهزم ولم يلوِ على شيء فوصل الى دمشق ولم يفتح لهُ اهلها بابها فمضى منهزماً حتى بلغ ترسوس وبقي العسكران يضطربان بالسيوف وليس لواحد منهما امير فطلب سعيد الايسر خمارويه فلم يجده فاقام اخاهُ ابا العشائر وتمت الهزيمة على العراقيين وقتل منهم خلق كثير وقال سعيد للعساكر ان هذا اخو صاحبكم وهذه الاموال تنفق فيكم. ووضع العطاء فاشتغل الجند عن الشغب بالاموال وسيرت البشارة الى مصر ففرح خمارويه بالظفر وخجل للهزيمة غير انهُ اكثر الصدقة وفعل مع الاسرى فعلة لم يسبق الى مثلها قبلهُ فقال لاصحابهِ ان هؤلاء اضيافكم فاكرموهم ثم احضرهم بعد ذلك وقال لهم من اختار منكم القيام عندنا فلهُ الاكرام والمواساة ومن اراد الرجوع جهزناهُ وسيرناهُ. فمنهم من اقام ومنهم من سار مكرماً وعادت عساكر خمارويه الى الشام ففتحتها اجمع فاستقر ملك خمارويه لهُ. وهذه الموقعة كانت الاخيرة بين خمارويه والموفق وبعد ذلك عادت الصلات الودية بين الاثنين وضربا النقود وعليها اسماهما واسم المعتمد في وقت واحد كما ترى في الشكل الثلاثين



ش ٣٠ نقود عليها اسماء المعتمد والموفق وخمارويه

وفي سنة ٢٧٨ هـ توفي الموفق واوصى بولاية العهد لابنهِ المعتضد بعد المفوض ابن اخيهِ وفي اول سنة ٢٧٩ هـ خلع المعتمد ولاية العهد عن ابنهِ المفوض وجعلها للمعتضد. وفي تلك السنة توفي الخليفة المعتمد على الله بعد ان حكم ٢٣ سنة فبويع ابن اخيهِ المعتضد بالله فاغتنم خمارويه فرصة لتوطيد العلائق بينهُ وبين الخليفة الجديد فانفذ حسين بن عبد الله

المعروف بابن القصار وفدًا الى بغداد ناقلاً معهُ الهدايا الثمينة يعلن الخليفة ان مصر ستدفع لهُ جزية سنوية قدرها مائتا الف دينار وانها ستدفع ايضاً عن السنين الماضية ٣٠٠ الف دينار فاجابهُ الخليفة بتثبيتهِ في حكومتهِ لمدة ٣٠ سنة على جميع الاراضي والمدن التي كانت تحت امارتهِ او امارة ابيهِ وارسل اليهِ ايضاً السيف والبردة المختصتين بهذه المصلحة فدفع خمارويه الدفعة الاولى تمامًا اما ما بعدها فكانت تقل شيئًا فشيئًا وتتأخر رويدًا رويدًا لكنهُ لم يكن يغفل عن توطيد علاقات المودة بينهُ وبين الخليفة فارسل اليهِ وفدًا آخر يعرض عليهِ ازواج ابنتهِ المسماة قطر الندى لابن المعتضد فقبل الخليفة بان يكون الزواج لهُ وحصل الزفاف على اعجب سبيل فحملت قطر الندى الى المعتضد وذهبت برفقتها عمتها العباسة ابنت احمد بن طولون مشيعة لها الى آخر اعمال مصر من جهة الشام ونزلت هناك وضربت فساطيطها وبنت هناك قرية فسميت باسمها وقيل لها العباسة

ولما استقر لهُ السلام على هذه الصورة مع الخليفة جعل يوسع سطوتهُ فامر طغج بن جف الذي كان اقامهُ حاكمًا على دمشق ان يتقدم بفرقة من عساكر ترسوس الى اراضي اليونان ففعل وحارب اليونان واستولى على عدة مدن وعاد بالغنائم . وفي سنة ٢٨٢ هـ التي كانت زاهية بعقد زفاف قطر الندى سوِّدت بموت خمارويه مقتولاً في دمشق وذلك انهُ نُمي اليهِ ان بعض نسائهِ كنَّ يتخابرن مع بعض كبراء خدامهِ مخابرة حبية سرية الى ان تمكنوا مما ارادوهُ فنمي ذلك على خمارويه فاخذ في تحقيق الامر وتأكيد الجرم على فاعلهِ ومقاصتهِ بما تقتضيهِ العدالة الصارمة فخشي هؤلاء من العقاب الشديد فاتفقوا مع نسائهِ على قتلهِ لينجو الجميع من شرّهِ فقتلوهُ على فراشهِ في ليلة من ليالي ذي الحجة من سنة ٢٨٢ هـ وقال آخرون في كيفية قتلهِ غير ذلك . وبعد موتهِ القي القبض على نحو من عشرين من الخدم الذين

وقعت عليهم الشبهة وبعد التحقيق تأكدت الجريمة على العشرين فحكم عليهم بالاعدام فنقلت جثة خمارويه الى مصر ودفنت بسفح المقطم بقرب جثة ابيهِ احمد وكانت مدة حكمهِ ١٢ سنة و١٨ يومًا وكان من احسن الناس خطًا. وحال موتهِ بويع ابنهُ جيش الملقب بابي العساكر وهو صغير لم يبلغ رشدهُ

حكم جيش بن خمارويه

من سنة ٢٨٢ ـ ٢٨٣ هـ او من ٨٩٥ ـ ٨٩٦ م

وفي سنة ٢٨٢ هـ أبى طغج بن جف حاكم الشام مبايعة جيش على بلادهِ وبعد يسير ثارت الجيوش في مصر عليهِ بدعوى انهم لا يقبلون موضع احمد بن طولون صبيًا لم يبلغ رشدهُ وكانوا يقولون انهُ لا يعرف شيئًا من امور الاحكام وكان اذا ابدل مامورًا بآخر قالوا قد اختار من هو في سنهِ او على شاكلتهِ . وبعد تسعة اشهر من حكمهِ ثار عليهِ الجميع وقتلوهُ ونهبوا سرايتهُ واحرقوا المدينة

حكم هارون بن خمارويه

من سنة ٢٨٣ ـ ٢٩٢ هـ او من ٨٩٦ ـ ٩٠٤ م

واقام رؤساء الثورة اخاهُ هارون مكانهُ وقبل ان المعتضد ثبتهُ على مصر لانهُ وعدهُ بجزية مقدارها مليون من الدنانير . وفي السنة المذكورة توفي لؤلؤ الذي كان سعى فسادًا بين احمد بن طولون والموفق سعيًا آل الى حرب بين الفريقين . وكان لؤلؤ كما تقدم معنا قد ضمَّ جيشهُ الى جيش الموفق في محاربة الزنوج الّا انهُ لم يأتِهِ ذلك الضم بفائدة تذكر ولما وصل

احمد بن طولون الى سوريا لم يمكنهُ القبض على لؤلؤ نفسهِ فقبض على ما كان لهُ في دمشق من المتلكات والحريم وفيهنّ نساؤهُ واولادهُ وحظاياهُ وباعهم عبيدًا في سوق الفسطاط فلما بلغ ذلك لؤلؤًا حزن جدًّا واخذ منهُ الغيظ كل مأخذ فتوجه الى الموفق وطلب اليهِ ان يعطيهُ جيشًا ليغزو بهِ على مصر يمتلكها وينتقم من ابن طولون وكان الموفق قد عقد صلحًا مع ابن طولون كما تقدم ولم يشأ ان يجيب لؤلؤًا سلبًا فوعدهُ بنوال مرغوبهِ وكرر الوعد مرارًا وكان الموفق قد فعل ذلك على نية ان يحفظهُ عندهُ لعلهُ يحتاج الى مصالحة ابن طولون فيرسلهُ اليهِ هدية ولما توفي ابن طولون بقي لؤلؤ في خدمة الموفق ٣ سنوات واخيرًا جردهُ من سائر ممتلكاتهِ وطردهُ من خدمتهِ فاتى مصر حيث يعث نساؤهُ واولادهُ وبقي هناك الى ان مات شرّ موتة

وفي سنة ٢٨٤ ه اي بعد تنصيب هارون بسنة اخذ الاهلون ورجال الحكومة يقللون من الطاعة لاوامرهِ ويحتقرون مشوراتهِ شيئًا فشيئًا الى ان صاروا في استعداد كلي لنبذ الطاعة والمجاهرة بالعصيان ورئيس هذه الثورة طغج بن جف حاكم سوريا . وفي سنة ٢٨٥ ه علم المعتضد ما كان من انقسام بلاد هارون وكره الرعايا لهُ فرأى ان يغتنم تلك الفرصة لاسترجاع تلك البلاد التي كانت في بادئ الامر تحت سلطة اسلافهِ فتقدم نحو مدينة اميده فبايعهُ حاكمها محمد بن احمد بن عيسى بن شيخ وكان حكمهُ بها مستقلًّا ثم تقدم الى قنسرين وتملّكها

فلما بلغ ذلك هارون اوجس خيفة ولم يعد يعلم ماذا يفعل ولهُ من رعاياهُ اعداء الدّاء فكاتب المعتضد مصرحًا انهُ مستعد لتسليمهِ جميع البلاد التي هي قريبة من العصيان عليهِ وحرّر ايضًا الى حكام قنسرين والعواصن جميعها ان يعتبروا سلطة الخليفة المعتضد عليهم فقبل المعتضد تلك العطية بكل سرور فوضع يدهُ على تلك الاماكن فبايعهُ اهلها

وفي سنة ٢٨٩ هـ زادت القلاقل التي كانت تهدد هارون بانتشار القرامطة في سوريا . ومنشأ هذه الطائفة بالبحرين سنة ٢٨١ هـ وكيفية ظهورها ان رجلاً يعرف بيحيى بن المهدي قصد قطيف فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلي بن حمدان مولى الزياديين وكان يغالي في التشيع فاظهر لهُ يحيى انهُ رسول المهدي وانهُ خرج الى شيعتهِ في البلاد يدعوهم الى امرهِ وان ظهورهُ قد قرب فوجه علي بن المعلي الى الشيعة من اهل القطيف فجمعهم واقرأهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي اليهم من المهدي فاجابوهُ وانهم خارجون معهُ اذا ظهر امرهُ . ووجه الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فاجابوهُ وكان فيمن اجابهُ ابو سعيد الجنابي وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم . ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ثم رجع ومعهُ كتاب يزعم انهُ من المهدي الى شيعتهِ ونصهُ « قد عرَّفني رسولي ابن المهدي مسارعتكم الى امري فليدفع اليهِ كل رجل منكم ستة دنانير وثلثين » ففعلوا ذلك ثم غاب عنهم وعاد ومعهُ كتاب مفادهُ ادفعوا الى يحيى خمس اموالكم فدفعوا اليهِ الخمس وكان يحيى يتردد في قبائل قيس ويورد لهم كتباً يزعم انها من المهدي وانهُ ظاهر فيكونون على اهبة . وصار ينتشر امر هؤلاء ويتعاظم عددهم حتى طمعوا بالغزو فبلغوا الشام واستفحل امرهم حتى حاربوا طغج حاكم دمشق وحاصروها سنة ٢٩٠ هـ فاجتمع اليها جميع قوات سوريا وهاجموا القرامطة وشتتوهم بعد ان قتلوا شيخهم يحيى

وفي سنة ٢٩٢ هـ كان على منصب الخلافة العباسية الخليفة المكتفي بالله بن المعتضد فاحب ان ينفذ ما كان نواه سلفهُ في سوريا ومصر فانفذ جيشاً الى سوريا تحت قيادة محمد بن سليمان فتملكها حالاً وكانت لهُ مباه ثم هجم على مصر فاخترقها حتى بلغ العاصمة (الفسطاط) فاستعد هارون للمدافعة ورجالهُ ينقصون يوماً فيوماً مما كان يسير منهم الى صفوف الاعداء اثر كل وقعة . ولم يكن هناك منتهى الشقاء فان معسكر هارون نفسهُ كان مرتعاً

تتلاعب فيهِ الدسائس وينمو فيهِ الخصام بين رجالهِ واشتد القتال بينهم يوماً فركب هارون جوادهُ واخذ في ردعهم بعضهم عن بعض فاصيب بطعنة من احد المغاربة فسقط ميتاً في ١٨ صفر سنة ٢٩٢ هـ وكانت مدة حكم هارون ٩ سنوات كلها تعاسة وشقاء ويقال ان عمهُ شيبان هو الذي قتلهُ .

حكم شيبان بن احمد

من سنة ٢٩٢ ــ ٢٩٢ هـ او من ٩٠٤ ــ ٩٠٤ م

وفي يوم موتهِ اقيم عمهُ شيبان مكانهُ الا انهُ لم يهنأ بالحكم لان الشعب رفضهُ بصوت واحد وخابروا محمد بن سليمان ان يعطيهم الامان فأمنهم ثم حركوهُ على المسير الى مصر فسار حتى نزل العباسة فلقيهُ طغج في اناس من القواد كثير بن فساروا بهِ الى الفسطاط واقبل اليهم عامة اصحاب شيبان ولما رأى شيبان اصرارهم على ذلك ولم يعد لديهِ احد ممن يعتمد عليهم وافقهم على التسليم فاستلم محمد بن سليمان زمام الامور فاعطاهم الامان فبايعوهُ . اما شيبان فلم يكن بأمن من سكناه في مدينة اقام فيها مغتصبها منهُ ففرَّ من المعسكر ليلاً فبعث محمد بن سليمان من يقبض عليهِ فلم يظفر بهِ وقال اخرون انهُ لم يفرَّ ولكنهُ قتل جزاء قتلهِ هارون بعد عشرة ايام من قتلهِ . وهكذا انتهت الدولة الطولونية بعد ان حكمت ٣٧ سنة وبضعة اشهر

ويوم الخميس اول ربيع اول من تلك السنة القى محمد بن سليمان النار في القطائع ونهب اصحابهُ الفسطاط وكسروا السجون واخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا وهتكوا وفعلوا كل قبيح من اخراج الناس من دورهم وغير ذلك واخرجوا ولد احمد بن طولون وهم عشرون انساناً

واخرجوا قوادهم ولم يبقَ في مصر منهم احد يذكر وخلت منهم الديار وعفت منهم الاثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الايام ثم سبق اصحاب شيبان الى محمد بن سليمان وهو راكب فذُبحوا بين يديهِ كما تذبح الشياه وقتل من السودان سكان القطائع خلق كثير وهكذا بادت دولة بني طولون فرثاهم الشعراء والكتباء . وقد عثرت على عدة قصائد لكثير من الشعراء المعاصرين للدولة المذكورة يرثون بها هذه الدولة ويبالغون في الاسف عليها منهم احمد بن محمد الحبيشي واحمد بن يعقوب واسماعيل بن ابي هاشم وسعيد بن القاضي واحمد بن اسحق الجفر ومحمد بن طسويه وغيرهم . فمما قالهُ سعيد بن القاضي من قصيدة طويلة قد مرَّ بعضها قولهُ

جرى دمعهُ ما بين سحرٍ الى نحرِ
ولم يجرِ حتى اسلمتهُ يد الصبرِ
وهل يستطيع الصبر من كان ذا اسى
يبيت على جمر ويضحى على جمر
تتابعُ احداث يضيعنَ صبرهُ
وغدر من الايام والدهر ذو غدرِ
أصاب على رغم الأُنوف وجدعها
ذوي الدين والدنيا بقاصمة الظهر
وفقد بني طولون في كل موطن
امرٌ على الاسلام فقدًا من القطرِ
وكان ابو العباس احمد ماجدًا
جميل المحيا لا يبيت على وترِ
كأن ليالي الدهر كانت لحسنها
واشراقها في عصرهِ ليلة القدر

يدلُّ على فضل ابن طولون همّةٌ
محلّقة بين السماكين والغفرِ
فان كنت تبغي شاهدًا ذا عدالة
يخبّر عنهُ بالجليّ من الامرِ
فبالجبل الغربي خطة يشكر
لهُ مسجد يغني عن المنطق الهذرِ
وتنّور فرعون الذي فوق قلّة
على جبل عالٍ على شاهق وعرِ
بنى مسجدًا فيهِ يروق بناؤُهُ
ويهدى بهِ في الليل ان ضلَّ من يسري
وعين معين الشرب عين زكية
وعين اجاج للرواة وللطهرِ
بناءٌ لو ان الجن جاءت بمثلهِ
لقيل لقد جاءت بمستفظع نكرِ
ولا تنسَ مارستانهُ واتساعهُ
وتوسعة الارزاق للحول والشهرِ
وان جئت رأس الجسر فانظر تاملاً
الى الحصن او فاعبر اليهِ على الجسرِ
ترى اثرًا لم يبقَ من يستطيعهُ
من الناس في بدو البلاد ولا حضرِ
وقام ابو الجيش ابنهُ بعد موتهِ
كما قام ليث الغاب في الاسل السمرِ
اتتهُ المنايا وهو في امن دارهِ
فاصبح مسلوبًا من النهي والامرِ

وورَّث هارون ابنهُ تاج ملكهِ
كذاك ابو الاشبال ذو الناب والهصر
وقد كان جيش قبلهُ في محلهِ
ولكن جيشًا كان مستقصر العمر
فقام بامر الملك هارون مدة
على كظظ من ضيق باعٍ ومن حصرِ
وما زال حتى زال والدهر كاشح
عقاربهُ من كل ناحية تسري
فمن يبكِ شيئًا ضاع من بعد اهلهِ
لفقدهم فليبكِ حزنًا على مصر
ليبكِ بني طولون اذ بان عصرهم
فبورك من دهرٍ وبورك من عصر

اما القرامطة فاغتنموا فرصة غياب الجيوش لمحاربة مصر وعادوا الى ما كانوا عليهِ في سوريا فعلم محمد بن سليمان بذلك فسافر الى بغداد مستخلفًا في مصر حاميتها وجيش الخليفة الآن الامور لم تكن قد سكنت تمامًا فثار ابن قلندج وضمَّ اليهِ عصبة سببت اضطراب الراحة مدة فاستدركها ابن كيغلغ حاكم سوريا فترك دمشق ومعهُ كل جيش الخليفة الذي كان تحت قيادتهِ وجاءَ لاخماد ثورة مصر فاغتنم القرامطة فرصة اخرى واستولوا على دمشق وتقدموا الى طبريا فنهبوها ولكنهم لم يتجاوزوها مخافة ان تلاقيهم الجيوش التي كانت في مصر فعادوا قاصدين الكوفة وكان هناك من المواقع ما لا علاقة لهُ بهذا التاريخ

الدولة العباسية الثانية

من سنة ٢٩٢ ـ ٣٢٢ ﻫ او من ٩٠٥ ـ ٩٣٤ م

خلافة المكتفي بن المعتضد

من سنة ٢٩٢ ـ ٢٩٥ ﻫ او من ٩٠٥ ـ ٩٠٨ م

فعاد المكتفي خليفة على مصر فاقام عليها عيسى النوشري وبعد ٣ سنوات توفي المكتفي يوم الاثنين في ١٢ ذي القعدة سنة ٢٩٥ ﻫ وسنّهُ ٣١ سنة و ٣ اشهر بعد أن حكم مدة ٦ سنوات و ٧ اشهر و ٢٢ يوماً

خلافة المقتدر بن المعتضد

من سنة ٢٩٥ ـ ٣٢٠ ﻫ اومن ٩٠٨ ـ ٩٣٢ م

وفي يوم وفاة المكتفي بويع اخوهُ جعفر المقتدر بالله وسنّهُ اذ ذاك ١٣ سنة . وهذا لم يحدث في الامارات تغييراً يذكر فاقرّ عيسى النوشري على مصر على انهُ اضطر بعد مدة ان يتخلى عنها لمحمد بن الخليج وهذا لم يلبث بضعة اشهر حتى اقتضت الاحوال اعادة النوشري فعاد فتولاها نحو ٣ سنوات وفي شعبان سنة ٢٩٧ ﻫ توفي فابدل بتكين الخزري ابي منصور وبقي الى سنة ٣٠٢ ﻫ فاقيل واقيم مقامهُ زكا الرومي ابو حسن الاعور فتولى مصر خمس سنوات وتوفي في ربيع اول سنة ٣٠٧ ﻫ فاعيد

تكين ثانيةً وبعد ايام قليلة توفي تكين تاركًا ولدًا يدعى محمدًا وهذا وضع يدهُ على حكومة مصر بدون اذن الخليفة . اما الخليفة المقتدر فقُتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ ه وسنهُ ٣٨ سنة بعد ان حكم ٢٤ سنة و ١١ شهرًا و ١٦ يومًا

وهذه صورة النقود التي ضربت على عهد المقتدر بالله سنة ٣١٦ ه (انظر شكل ٢١)



ش ٢١ نقود المقتدر بالله

خلافة القاهر بن المعتضد

من سنة ٣٢٠ — ٣٢٢ ه او من ٩٣٢ — ٩٣٤ م

فبويع اخوهُ القاهر بالله الابن الثالث للمعتضد بالله . فاراد هذا ان يقاصص محمد بن تكين على جسارتهِ فولّى على مصر ابا بكر محمد بن طغج ومن هذا نشأت دولة حكمت على مصر وسوريا مدة من الزمن

مبدأ الدولة الاخشيدية

وكان محمد ابو بكر ابن طغج في ذلك الحين حاكمًا في دمشق واصلهُ من اولاد ملوك فرغانة وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلب اليهِ من فرغانة جماعة كبيرة ووصفوا لهُ جف (والد محمد ابي بكر) وغيرهُ بالشجاعة والتقدم بالحروب فوجه المعتصم من احضرهم . فلما وصلوا اليهِ بالغ في اكرامهم واقطعهم قطائع نسر من رأى وقطائع جف لا تزال الى الآن معروفة هناك . فاقام بها وجاءتهُ الاولاد وتوفي جف في بغداد في

الليلة التي قتل فيها المتوكل وكانت ليلة الاربعاء في ٢ شوال سنة ٢٤٠ ه
وخرج اولادهُ الى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معايش واتصل طغج بن
جف بلؤلؤ غلام ابن طولون وهذا اذ ذاك مقيم بديار مصر فاستخدمهُ على
ديار مصر ثم انحاز طغج الى جملة اصحاب اسحق بن كنداج فلم يزل معهُ الى
ان مات احمد بن طولون وجرى الصلح بين ابو خمارويه وبين اسحق بن
كنداج ونظر ابو الجيش خمارويه الى طغج بن جف في جملة اصحاب
اسحق فاعجب بهِ واخذهُ من اسحق وقدمهُ على جميع من معهُ وقلدهُ دمشق
وطبرية ولم يزل معهُ الى ان قتل ابو الجيش فرجع طغج الى الخليفة المكتفي
بالله فخلع عليهِ وعرف لهُ ذلك وكان وزير الخليفة يومئذٍ العباس بن الحسن
فسام طغج ان يجري بالتزلف لهُ مجرى غيرهِ فكبرت نفس طغج عن ذلك
فاغرى بهِ الملك المكتفي فقبض عليهِ وحبسهُ وابنهُ ابا بكر محمد بن طغج
المذكور فتوفي في السجن وبقي ولدهُ ابو بكر معهُ محبوساً مدة ثم اطلق وخلع
عليهِ ولم يزل يراسل العباس بن الحسن الوزير المذكور حتى اخذ بثار
ابيهِ هو واخوهُ عبيدالله في الوقت الذي قتلهُ فيهِ حسين بن احمد بن
حمدان . ثم خرج ابو بكر واخوهُ عبيدالله في سنة ٢٩٦ ه وهرب عبيدالله
الى ابن ابي الساج وهرب ابو بكر الى الشام واقام متغرباً في البادية سنة
ثم اتصل بابي منصور تكين الخزري فكان اكبر اركانهِ وما كبر بهِ اسمهُ
سريتهُ في البعث الى الجمع الذين تجمعوا على الحجاج لقطع الطريق عليهم
وذلك سنة ٣٠٦ ه وهو حينئذ يتقلد عمان وجبل الشراة من قبل تكين
المذكور وظفر بهم ونجا الحجاج وقد فرغ من امرهم بقتل من قتلهُ واسر
من اسرهُ وشرد الباقين . وكان قد حج في هذه السنة من دار الخليفة
المقتدر بالله امرأة تُعرف بعجوز فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت منهُ فانفذ
اليهِ خلعًا وزادهُ في رزقهِ ولم يزل ابو بكر في صحبة تكين الى سنة ٣١٦ ه
ثم فارقهُ بسبب اقتضى ذلك وسار الى الرملة فوردت كتب المقتدر اليهِ

بولاية الرملة فاقام بها الى سنة ٣١٨ ه فوردت كتب المقتدر اليهِ بولاية دمشق وسار اليها ولم يزل بها الى ان ولاه القاهر بالله ولاية مصر في رمضان سنة ٣٢١ ه لكنهُ لم يذهب الى مصر لاستلام مركزه المشار اليهِ ولم يلقَّب بهِ الا مدة شهر فقط ثم عين الخليفة مكانهُ احمد بن كيغلغ سنة ٣٢١ ه . وحصل في تلك الايام اضطرابات في الخلافة بلغ صداها القطر المصري

خلافة الراضي بن المقتدر

من سنة ٣٢٢ – ٣٢٩ ه او من ٩٣٤ – ٩٣٤ م

وفي ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ ه عزل القاهر بالله عن دست الخلافة بعد ان حكم سنة و ٦ اشهر وستة ايام وفي اليوم الثاني بويع ابن اخيهِ الراضي بالله ابن المقتدر وحال توليتهِ الخلافة عزل ابن كيغلغ عن مصر وولّى مكانهُ محمد بن طغج فقدم لاستلام امارة مصر فامتنع ابن كيغلغ من تسليمهِ وتخاصما حتى استخدما السلاح وبعد محاربات شديدة كان الفوز لمحمد بن طغج وفر احمد بن كيغلغ بمن معهُ من ذويهِ الى برقة ومنها الى قيروان

وكانت قيروان وسواحل الغرب تحت سلطة دولة مستقلة عن الدولة العباسية تدعى الدولة الفاطمية نسبة الى الفاطميين الذين هم من قبيلة كتامة بالقرب من مدينة فاس في الطرف الغربي لافريقيا ويدعون انهم من سلالة اسماعيل الامام السادس من سبط علي وبعبارة اخرى من سلالة فاطمة ابنة النبي ومنها لقبهم ويلقبون ايضًا بالاسماعيليين والعبيديين والعلويين وكانوا قد اخذوا في نشر سلطتهم منذ سنة ٢٦٩ ه في الجهات الغربية من افريقيا في احزاب من الاغالبة والادريسيين الذين كانوا قد خلعوا طاعة الخلفاء العباسيين في بغداد وخلفاء بني أمية في الاندلس .

وفي سنة ٢٨٠ ﻫ وضع زعيم الفاطميين ابو محمد عبيدالله يدهُ على قيروان. وفي سنة ٢٩٦ ﻫ رأى من نفسهِ القوة فادعى الخلافة فبويع ولقب بالخليفة عبيدالله المهدي وكان من آخر الايمة العلويين الذي يدعي انهُ منهم وانهُ احق من سواه بالخلافة. فاصبحت الدولة الاسلامية بذلك منقسمة الى ثلاث دول على كل منها خليفة يدّعي الاحقية بالخلافة وهم بنو امية في الاندلس وبنو العباس في بغداد والفاطميون في قيروان. فلما سمع عبيدالله زعيم الفاطميين عن حالة مصر مع ما هي عليهِ من الثروة والخصب تاقت نفسهُ اليها واخذ يسعى للاستيلاء عليها

وبعد ظهور خلافتهِ بخمس سنوات اي في سنة ٣٠١ ﻫ بعث الى مصر اربعين الف مقاتل في ٣ فرق مع الرجاء الوطيد بفوزها. فعلم الخليفة المقتدر بالله ما نواهُ المهدي فجهز جيشًا كافيًا لدفع هذه الرزية عن مصر فحصلت بين الفريقين مواقع عديدة شفت عن فوز الجيوش المصرية فعاد الفاطميون على اعقابهم وتبعهم المصريون حتى اخرجوهم من حدود مصر. فرأى عبيدالله بعد هذا الانكسار ان يؤجل افتتاح مصر لوقت آخر ولكنهُ رأى ايضًا ان استحكاماتهِ غير كافية فاسس مدينة اخرى دعاها المهدية نسبة اليهِ على نية ان تكون عاصمة وقتية لبعد فتوح مصر فيجعل عاصمتها عاصمتهُ لانهُ كان مصمّمًا على افتتاحها. الّا ان ذلك الافتتاح لم يتيسر لعبيدالله ولا لخلفهِ الاول ولا الثاني. وفي سنة ٣٢٢ ﻫ توفي عبيدالله المهدي في رقادة وسنّهُ ٦٣ سنة بعد ان تولّى الخلافة الفاطمية ٢٦ سنة فتولّى ابنهُ ابو القاسم محمد الملقب بالقايم بامر الله وكان اكثر تشوقًا للافتتاح من ابيهِ

وفي ايام ابي القاسم جاء احمد بن كيغلغ مطرودًا من مصر يطلب ملجأ عندهُ وجعل يحثهُ على المسير الى مصر وافتتاحها فرأى القايم ان في افتتاحها عظمة وفخرًا فجهز اليها فعلم محمد بن طغج ذلك فحصن الحدود

الغربية لمصر وجعل فيها حامية قوية لكن ذلك لم يمنع من نزول المقدور لان الفاطميين بعد ان مكنوا قدمهم في الاسكندرية تقدموا بجيوشهم حتى بلغوا الفسطاط واحتلوا قسماً كبيراً من الصعيد. ثم رأى القائم بامر الله ان جنده لا يقوون على افتتاح العاصمة فاجل ذلك ريثما تضعف شوكة الدولة العباسية اكثر من ضعفها اذ ذاك فيسهل عليه افتتاحها

اما الدولة العباسية فكانت على وشك الانحلال لان اماراتها اخذت تستقل عنها شيئاً فشيئاً . فاستولى القرامطة على سوريا وقسم من جزيرة العرب والسامانيون وضعوا ايديهم على خراسان والامويون على الاندلس والفاطميون على افريقيا والحمدانيون على ما بين النهرين وديار بكر وبنو بويه على الفرس ولم يبقَ للعباسيين الا بغداد وبعض ضواحيها ومصر

الدولة الاخشيدية

من سنة ٣٢٣ – ٣٥٨ ه او من ٩٣٤ – ٩٦٨ م

حكم محمد الاخشيد

من سنة ٣٢٣ – ٣٣٤ ه او من ٩٣٤ – ٩٤٦ م

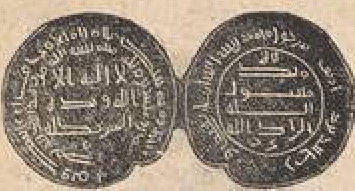
فلما رأى ابو بكر محمد بن طغج امير مصر ما كان من انحلال الدولة العباسية وانقسام الدولة الاسلامية على ما تقدم طلب نصيبهُ من تلك القسمة فصرح باستقلالهِ في مصر سنة ٣٢٤ ه فاضطر الخليفة الى تثبيتهِ رغماً عنهُ وملكهُ فوق ذلك سوريا مع انها لم تكن بيدهِ وفي ٣٢٧ ه لقبهُ بالاخشيد وكان ذلك لقب ملوك فرغانا وهو من اولادهم ومفاد هذه اللفظة

في لغتهم ملك الملوك وكان كل من ملك فرغانا لقبوهُ بالاخشيد كما يلقب الفرس ملكهم كسرى والروم قيصر والترك خاقان والشام هرقل واليمن تبع والحبشة النجاشي الخ . ومن سلالة ابي بكر هذا كانت الدولة الاخشيدية . وفي تلك السنة امر الاخشيد بنقل دار الصناعة من الجيزة الى ساحل النيل فنقلت

وفي سنة ٣٢٨ هـ اعطى الخليفة الراضي بالله لقب امير الامراء لمحمد ابن رائق حكمدار فلسطين وكان مستقلاً بالحكم عنهُ فلاح له ان يغزو سوريا وكان عليها الامير بدر من قِبَل محمد الاخشيد لمحاربتهِ فهرب بدر فنهض محمد الاخشيد لانجادهِ مستخلفاً في مصر اخاهُ الحسن وعسكر في الفرما وكانت جيوش محمد بن رائق قد بلغت هناك . فتداخل بعض الامراء في الامر فانصرفت النازلة بالتي هي احسن وتصالحا فعاد محمد الاخشيد الى الفسطاط وما بلغها حتى أُنبيء ان محمد بن رائق بارح دمشق وفي نيتهِ مهاجمة مصر فاسرع الاخشيد حالاً الى ما كان عليهِ فعاد بجيشهِ الى سوريا فالتقى بمقدمة جيش ابن رائق في العريش فحصلت موقعة شفت عن انكسار جيش محمد بن رائق وانهزامهِ الى دمشق فوضع محمد الاخشيد يدهُ على الرملة واسر خمسمائة رجل من جيش ابن رائق . وفي هذه الموقعة قتل حسين اخو الاخشيد . فما كان من ابن رائق رغماً عمَّا كان بينهُ وبين الاخشيد من العدوان الاَّ انهُ انفذ اليهِ ابنهُ مزاحم ناقلاً علامة الأمان ليقدم احترامات ابيهِ ويعزي الاخشيد على فقد اخيهِ . فلما بلغ هذا النائب محمد الاخشيد اكرم مثواهُ وخلع عليهِ وعقد معهُ معاهدة من مقتضاها ان يتخلَّى هو عن دمشق وان يدفع له ابن رائق مقابلة لذلك جزية سنوية مقدارها مائة الف واربعون دينار وان تكون البلاد من الرملة الى الى حدود مصر للاخشيد . وبعد ان اتم محمد الاخشيد هذه المعاهدات عاد بجيشهِ الى مصر سنة ٣٢٩ هـ

وفي ٦ ربيع اول من هذه السنة توفي الخليفة الراضي بالله ولم يكن سنه اكثر من ٣٢ سنة ومدة حكمه ست سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام فبويع اخوه ابو اسحق ابراهيم الملقب بالمتقي لله

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة الراضي بالله سنة ٣٢٨ هـ كما ترى في شكل ٣٢



ش ٣٢ نقود الراضي بالله

وفي سنة ٣٣٠ هـ اقر المتقي لله محمد الاخشيد على مصر ثم اتصل بمحمد الاخشيد ان محمد بن رائق قُتل بسيف الحمدانيين فاغتنم الفرصة لاسترجاع البلاد التي كان اقام بينه وبين ابن رائق المعاهدة عليها فدخل سوريا مسرعاً ولم يعد الى مصر حتى استولى على دمشق وما جاورها . وسنة ٣٣١ هـ تأكد محمد الاخشيد ثبوت قوته فاوصى بالحكم من بعدهِ لابنهِ ابي القاسم محمود الملقب بابي هور

وفي سنة ٣٣٢ هـ حصل شغب في بغداد وسببه ان لقب امير الامراء الذي كان يهبه الخليفة لكبار الاتراك اصبح في عينهم اشرف من لقب الخلافة . فلما ناله احدهم المدعو طوزون جعل يقاوم الخليفة في احكامهِ حتى حمله على ترك بغداد والمهاجرة الى الموصل فاستجار هناك بناصر الدولة وسيف الدولة من امراء بني حمدان واستنصرهما فنصراه وجردا جيشاً قوياً وسارا وبرفقتهما الخليفة الى بغداد فهاجموا طوزون فغلبهم وعادوا على اعقابهم الى الموصل فخلع الخليفة على كلٍ من الاميرين الحمدانيين خلعة الشرف وهذا غاية ما كان للخلفاء ان يهبوهُ في ذلك العهد . ثم سار الخليفة من الموصل الى رقة فلاقاهُ كتاب طوزون بدعوهُ الى العود الى بغداد . فلما رأى الخليفة ان نصراءهُ من بني حمدان عجزوا عن نجدتهِ لاح

له قبول ما دعاهُ اليهِ طوزون وقبل ان يهم الى ذلك جاءهُ محمد الاخشيد من مصر يدعوهُ اليها مباء له فرفض فالحّ عليهِ الاخشيد متعهدًا ان يقوم بكل ما يلزم الخليفة من النفقات والارزاق بشرط ان لا يعود الى بغداد ويلقي نفسهُ بين ايدي طوزون فتردد الخليفة بين الامرين. فلما رأى طوزون المذكور تمنع الخليفة عن القدوم الى بغداد خشي ان يكون على ثقة ممن ينصرهُ عليهِ فجاءهُ بنفسهِ وترامى على اقدامهِ والحّ عليهِ ان يتوجه معهُ الى بغداد مدعيًا انهُ لا يعرف احدًا غيرهُ خليفة على المسلمين فسار معهُ ولم يكد يبلغ تلك العاصمة حتى خلعهُ طوزون في ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ﻫ بعد ان حكم ٤ سنوات و ١١ شهرًا وولّى مكانهُ ابنهُ ابا القاسم عبدالله تحت لقب المستكفي بالله وفي ٢٢ جمادى الثانية سنة ٣٣٤ ﻫ عزل المستكفي بعد ان حكم سنة و٤ اشهر ويومين. فبويع مكانهُ الفضل بن المقتدر تحت لقب المطيع لله وبقي هذا على دست الخلافة نحوًا من ٣٠ سنة لكنهُ كان آخر من كانت لهُ السيادة على مصر من الخلفاء العباسيين

وهذه صورة النقود التي ضربت على عهد الخليفة المطيع لله سنة ٣٥٢ ﻫ كما ترى في شكل ٣٢



ش ٣٢ نقود الخليفة المطيع لله

اما محمد الاخشيد فلما رأى الخليفة المتقي ميالاً الى مطاوعة طوزون في السفر الى بغداد مكث في دمشق بضعة ايام ثم عاد الى مصر فسار سيف الدولة الى حلب وكان حاكمها يانس المونسي من قبل محمد الاخشيد فحاربهُ فاستولى عليها ثم سار متعقبًا ابراهيم الأوكيلي قائد الجيوش المصرية وغلبهُ بين سرمين والمعرَّة واستولى على دمشق التي كانت الى ذلك العهد تحت حكم محمد الاخشيد فارسل محمد الاخشيد في الحال كافورًا الى

سوريا وكان من مواليهِ وكان لهُ فيهِ الثقة التامة وارسل معهُ جيشًا كبيرًا .
وكان كافور عبدا اسود خصيا مثقوب الشفة السفلى بطينًا قبيح القدمين معتدل البدن جلب الى مصر وعمرهُ عشر سنين فما فوقها في سنة ٣١٠ هـ فباعهُ الذي جلبهُ لمحمد بن هاشم احد المتقبلين للضياع فباعهُ لابن عباس الكاتب واتفق ان ابن عباس الكاتب ارسلهُ بهدية يومًا الى الامير ابي بكر محمد بن طغج الاخشيد وهو يومئذٍ احد قواد تكين امير مصر فاخذ كافورًا ورد الهدية فترقّى عندهُ بالخدم حتى صار من اخص خدمهِ . فلم يكن باسرع من ورود الخبر من دمشق بان سيف الدولة علي بن حمدان اخذها وسار الى الرملة حتى سار لملاقاتهِ فالتقى الجيشان وكان ذلك يوم الجمعة فاعتذر بنو حمدان انهم لا يحاربون في هذا اليوم المبارك فتركوا معسكرهم وساروا يطوفون في الخلاء المجاور فاستغنم كافور فرصة غيابهم وهجم على معسكرهم وسلب كل مؤنهم ففر سيف الدولة الى حمص فتبعهُ كافور فسار الى حماه ومنها الى رستن فتبعهُ كافور وكان سيف الدولة في انتظارهِ هناك بقدم ثابتة فلما قدم جيش كافور وجد بينهُ وبين العدو نهر العاصي فاضطر الى عبورهِ بجيشهِ فاغتنم سيف الدولة فرصة في غاية المناسبة والعساكر المصرية سابحة في الماء وهجم عليهم فاخذ منهم خمسة آلاف اسير وجميع امتعتهم وفر كافور الى حمص ومنها الى دمشق

فلما بلغ ذلك محمد الاخشيد سار من مصر بجيش كبير حتى وصل المعرة فعلم سيف الدولة بمجيء الجيوش المصرية تحت قيادة الاخشيد فهالهُ الامر ولكنهُ لم يشأ الهرب فعمد على ان يهاجم العدو مهاجمة اليأس فارسل خزائنهُ وعبيدهُ وحرمهُ الى ما بين النهرين وتقدم بجيشهِ لمقابلة الاخشيد فالتقى بهِ في قنسرين فقسم محمد الاخشيد جيشهُ الى فرقتين وجعل الرماحة الى الامام وسار هو وعشرة آلاف رجل من نخبة الرجال الى الوراء فهاجم سيف الدولة الفرقة الامامية وشتتها اما فرقة الخلفية فكانت راسخة القدم

فلم يقدر سيف الدولة على تشتيتها تماماً لكنهُ استولى على بعض متاعها فافترق الجيشان ولم تنتهِ الغلبة لاحدهما وسار سيف الدولة الى موج فعبر بحيرتها قاصداً ما بين النهرين فمرض في رقة وكانت جيوش محمد الاخشيد هناك لا يفصل الجيشين الا نهر الفرات وبقيا عدة ايام بدون حرب . ثم عقدا صلحاً على شروط من مقتضاها ان حمص وحلب وما بين النهرين تكون لسيف الدولة وان جميع الاراضي من حدود حمص الى حدود بلاد العرب تبقى لمحمد الاخشيد وحفروا خندقاً بين جوشنا ولبوه حداً فاصلاً بين المقاطعتين حيث لا يوجد لها فواصل طبيعية . وتأييداً لهذا الصلح تزوج سيف الدولة ابنة محمد الاخشيد وعاد كل منهما الى بلادهِ الا ان المعاهدة المذكورة لم تلبث حتى نقضت بما حصل بين الاخشيد وبني حمدان من المواقع التي آلت الى استرجاع حلب للاخشيد

وفي سنة ٣٣٤ هـ توفي محمد الاخشيد في دمشق في ذي الحجة وسنهُ ستون سنة ومدة حكمهِ ١١ سنة و٣ اشهر ويومين ودفن في القدس الشريف . وكان ممتازاً بصفات حميدة اخصها البسالة والتدبير في الحرب فكان ملكاً حازماً شجاعاً متأنياً كثير التيقظ في حروبهِ ومصالح دولتهِ حسن التدبير مكرماً للجند شديد القوى لا يكاد يجرّ غيرهُ قوسهُ وكان لهُ ثمانية آلاف مملوك يحرسهُ في كل ليلة الفان منهم ويوكل بجانب خيمتهِ الخدم اذا سافر ثم لا يثق حتى يمضي الى خيم الفراشين ولم يكن ينام ليلتين متواليتين في مكان واحد فلم يكن احد عالماً بمكان نومهِ . على ان المورخين لم يطلعونا على شيء صريح عن حدود مملكتهِ على اختلاف الازمان الا انهم يقولون انهُ كان يملك كما ملكت الدولة الطولونية في زمانها اي على مصر وفلسطين وسوريا وبين النهرين الى الفرات وقسم كبير من بلاد العرب . وقد شكى المسيحيون من جورهِ فكان اذا جرد حملة واحتاج لمعاونة اخذها منهم ولو باعوا اثاث بيوتهم او كنائسهم في سبيل ذلك . وقال احد

المورخين المعاصرين ان محمد الاخشيد كان يردُّ لهم ما يأخذهُ في سبيل الاعانة ومما يبرئ ساحة الاخشيد انهُ ظفر بخبأة في الآثار القديمة اصاب فيها كثيرًا من المواد الثمينة التي تساوي مبالغ وافرة فلم يكن والحالة هذه في احتياج الى سلب مال الاهلين

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد محمد الاخشيد سنة ٣٣٣ ﻫ كما ترى في الشكل ٣٤



ش ٣٤ نقود محمد الاخشيد

حكم انوجور بن الاخشيد

من سنة ٣٣٤ – ٣٤٩ ﻫ او من ٩٤٦ – ٩٦١ م

وتولَّى بعد محمد الاخشيد ابنهُ ابو القسم محمد الملقب بانوجور وكان صغير السن ليس من السياسة على شيء فعهد تدبير الاحكام الى كافور وزير ابيهِ . فاخذ كافور يتصرف نحو ابي القسم تصرفًا امينًا نشيطًا مستقيمًا يستوجب عليهِ المدح الجزيل فعزل ابا بكر محمد جابي الخراج لتعدد التشكيات وثبوتها عليهِ واقام مقامهُ رجلًا من ماردين يقال لهُ محمد كان عفيفًا مستقيمًا . فعلم سيف الدولة بوفاة محمد الاخشيد وسفر ابنهِ الى مصر فاغتنم الفرصة وقدم دمشق واستولى عليها فعلم كافور بذلك فاسرع حالًا بجيش عظيم فلاقى سيف الدولة في الرملة قادمًا من دمشق لملاقاتهِ والتحم الفريقان فانهزم سيف الدولة الى رقة واستولى كافور على دمشق قبل ان يستقر سيف الدولة فيها

وفي سنة ٣٤٥ هـ اغار ملك نوبيا على املاك مصر في بلادهِ حتى اتى اصوان فاوقع فيها السلب والنهب فارسل كافور جيشاً تحت قيادة محمد ابن عبدالله الخازن عن طريق البر وانفذ عمارة بحرية في النيل وفرقة سارت الى البحر الاحمر فنزلت على سواحلهِ ومنها الى ما وراء نوبيا لتسد على النوبيين السبيل فتضائق النوبيون وفروا يطلبون النجاة تاركين حصنهم في ابريم (على ١٥٠ ميلاً وراء اصوان) بيد المصريين

وفي ذي القعدة سنة ٣٤٩ هـ توفي انوجور بن محمد الاخشيد بعد ان حكم ١٤ سنة وعشرة ايام وُولِّي مكانهُ اخوهُ علي الملقب بابي الحسن

حكم ابي الحسن علي بن الاخشيد

من سنة ٣٤٩ـ ٣٥٥ هـ او من ٩٦١ـ ٩٦٦ م

وحكم ابو الحسن على مصر خمس سنوات وشهرين ويومين وكان كافور مع علي كما كان مع اخيهِ انوجور . وفي سنة ٣٥١ هـ لم يرتفع ماء النيل الارتفاع اللازم لري الاراضي وفي السنة التالية كان اقل ارتفاعاً ثم نزل بغتةً والاراضي لم ترتوِ فحصل في مصر جوع شديد تعاقب القحط بعدهُ ٩ سنوات رافقهُ اضطراب داخلي آل الى الانشقاق بين ابي الحسن وكافور

وفي اثناء هذه الاضطرابات الداخلية في سنة ٣٥٤ هـ قدم يونانيو القسطنطينية تحت قيادة الامبراطور نيسوفورس فوكاس الى سوريا ودخلوها بجيش جرار فتملكوا حلب وكانت لا تزال الى ذلك الحين في حوزة بني حمدان والتفوا بسيف الدولة فحاربوهُ . فتجند وليم الاوقازلي حكمدار دمشق تحت رعاية الاخشيديين واسرع لمساعدة بني حمدان بعشرة آلاف رجل وعلم نيسوفورس بمجيء هذا المدد فاختار الانسحاب

حكم كافور الاخشيدي

من سنة ٣٥٥ – ٣٥٧ ﻫ او من ٩٦٦ – ٩٦٨ م

وفي محرم سنة ٣٥٥ ﻫ توفّي ابو الحسن علي فخلفهُ كافور وتلقب بالاخشيدي وطلب من الخليفة المطيع لله ان يثبتهُ في مصر ففعل وهكذا عادت سلطة العباسيين الى مصر وكان يدعى لكافور على المنابر بمكة والحجاز جميعهِ والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس وغيرها

وبقي كافور في منصبهِ هذا مدة سنتين و٤ اشهر وكان الفاطميون قد استولوا على الفيوم والاسكندرية كما تقدم فاخذوا في مدّ سلطتهم رويدًا رويدًا الى جميع الصعيد . وتوفّي كافور في ١٠ جمادى الاولى سنة ٣٥٧ ﻫ ودفن في القرافة الصغرى وقبتهُ مشهورة هناك

حكم ابي الفوارس بن علي

من سنة ٣٥٧ – ٣٦٣ ﻫ او من ٩٦٨ – ٩٧٣ م

فخلف كافور احمد ابو الفوارس بن ابي الحسن علي بن محمد الاخشيد ولم يكن لابي الفوارس من العمر اكثر من احد عشرة سنة فلم يثبتهُ الخليفة في الحكم . اما سوريا وغيرها من البلاد الخاضعة للاخشيديين فبايعت حسين الاخشيدي الّا انهُ ما لبث ان استتبّ لهُ المقام حتى جاءهُ القرامطة واخذوا البلاد من يدهِ ففر الى مصر قاصدًا اغتيالها من احمد ابي الفوارس

ولما انقسمت العائلة الاخشيدية على نفسها قرب حين انقراضها شأن

كل الممالك والدول . فلما رأى رجال الدولة ما حصل من الانقسام بين افراد العائلة الحاكمة ملّوا الانتظار فساروا يستنجدون الفاطميين الذين كانوا قد تملكوا قسماً عظيماً من مصر فلبّوا الدعوة ففرّ حسين الى سوريا واستولى على دمشق واما احمد ابو الفوارس فعزل من مركزهِ وهو آخر من تولى مصر من الدولة الاخشيدية وبعزلهِ انتهت ايام هذه الدولة ولم يدم حكمها اكثر من ٣٤ سنة و ٢٤ يوماً

الدولة الفاطمية

من سنة ٣٦٢ ــ ٥٦٧ هـ او من ٩٧٢ ــ ١١٧١ م

خلافة المعز بن المنصور

من سنة ٣٦٢ ــ ٣٦٥ هـ او من ٩٧٢ ــ ٩٧٥ م

وكانت الدولة الفاطمية اذ ذاك في خلافة معد ابي تميم الملقب بالمعز لدين الله بن القائم بامر الله وقاعدتها المهدية وسلطتها منتشرة على امارات افريقيا والغرب ومالطا وسردينيا وسيسيليا واكثر جزائر البحر المتوسط . وما فتئ هذا الخليفة منذ جلوسهِ على دست الخلافة يمد سطوتهُ في القطر المصري وقد حاول افتتاحها اكثر من مرة ولم يفز حتى اذا كان الخلاف بين ابي الحسن علي وكافور اغتنم الفرصة وتقدم في البلاد المصرية . فلما تولّى كافور هذه الديار بنفسهِ توقف المعزّ قليلاً وعند نهاية حكم كافور جرد جيشاً ارسلهُ تحت قيادة جوهر

وهو مملوك رومي ربّاه المعزّ لدين الله ابو تميم معد وكنّاه بابي الحسن

وعظم محلهُ عندهُ . وفي سنة ٣٤٧ هـ صار في رتبة الوزارة فصيرهُ قائدًا للجيوش وبعثهُ في صفر منها في جيش فسار الى تاهرت واوقع في عدة اقوام وافتتح مدنًا وسار الى فاس فنازلها مدة ولم يأخذ منها شيئًا فرحل الى سجلماسة ومنها الى ان بلغ البحر المحيط واصطاد منهُ سمكًا جعلهُ في قلة ماء وبعث بهِ الى مولاهُ المعزّ واعلمهُ انهُ قد استولى على كل ما مرّ بهِ من البلدان والامم حتى انتهى الى البحر المحيط . ثم عاد الى فاس والحّ عليها بالقتال حتى استولى عليها عنوة . ثم عاد في اخريات هذه السنة وقد عظم شأنهُ وبعد صيتهُ . ولما قوي عزم المعزّ على تسيير الجيوش لاخذ مصر وتهيأ امرها فقدم القائد جوهر فبرز الى رمادة ومعهُ ما ينيف على مائة الف فارس وبين يديهِ اكثر من الف صندوق من المال وكان المعزّ يخرج اليهِ كل يوم ويخلو بهِ ويتداول معهُ سرًّا واطلق يدهُ في بيوت امواله فاخذ منها ما يريد زيادة على ما حملهُ معهُ ويُحكى ان المعز خرج يومًا فقام جوهر بين يديهِ وقد اجتمع الجيش فالتفت المعزّ الى المشائخ الذين وجههم مع جوهر وقال والله لو خرج جوهر هذا وحدهُ لفتح مصر ولتدخلنّ مصر بالاردية من غير حرب ولتنزلن في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تسمّى القاهرة تقهر الدنيا . وامر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة للعيان وامر اولادهُ واخوتهُ الامراء وولي العهد وسائر اهل الدولة ان يمشوا في خدمة جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عمالهِ يامرهم اذا قدم عليهم جوهر ان يترجلوا مشاة في خدمتهِ . فلما قدم برقة افتدى صاحبها من ترجله ومشيهِ في ركابهِ بخمسين الف دينار ذهبًا فابى جوهر الاّ ان يمشي في ركابهِ ورد المال فمشى . ولما رحل من القيروان الى مصر في ١٤ ربيع اول سنة ٣٥٨ هـ ودعهُ اهلها . ومما قالهُ محمد بن هاني بهذا الشأن قولهُ

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمعُ ... وقد راعني يومٌ من الحشر اروعُ
غداة كأنّ الافق سدّ بمثلهِ ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلعُ

فلم ادرِ اذ ودَّعت كيف اودع ولم ادرِ اذ شيعت كيف اشيعُ

ومنها قوله

اذا حل في ارضٍ بناها مدائناً وان سار عن ارضٍ غدت وهي بلقعُ
تحل بيوت العز حيث محلهُ وجم العطايا والرواق المرفعُ
رحلتَ الى الفسطاط اول رحلةٍ بايمن فالٍ بالذي أنتَ تجمعُ
فان يكُ في مصر ظماءٌ لموردٍ فقد جاءهم نيلٌ سوى النيل يهرعُ

فسار جوهر نحو الصعيد واسرع جنوباً ليرد هجمات ملك نوبيا الذي كان نازلاً نحو مصر ولم يدركهُ جيش جوهر حتى بلغ اصوان وقد نهبها وذبح اهلها واستعبد من بقي حيًّا وعاد الى بلادهِ اما جوهر فكان قد تملك الصعيد جميعهُ

ولما توفي كافور ووقع الخلاف بين احمد ابي الفوارس وحسين كان جوهر على حدودِ الفسطاط فأتاهُ الاهالي والامراء ومعهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان الى الجيزة في يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٣٥٨ ه والتقوا بالقائد ونادى منادٍ فترجل الناس كلهم الاَّ الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليهِ واحدًا واحدًا والوزير عن شمالهِ والشريف عن يمينهِ ولما فرغوا من السلام ابتدأوا في دخول البلد فدخلوا من زوال الشمس وعليهم السلاح والعدد ودخل جوهر بعد العصر وطبولهُ وبنودهُ بين يديهِ وعليهِ ثوب ديباج مثقل وتحتهُ فرس اصفر ونزل في ما هو موضع القاهرة اليوم ثم نزل الى الفسطاط بمن معهُ وخطب في جامع عمرو باسم المعزّ لدين الله وازال الشعار الاسود العباسي والبس الخطباء الثياب البيض فبايعهُ الناس وبعد يسير اصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية بدون اقل مقاومة فحرر لمولاهُ المعز بما اتاه الله من الفتح

وفي يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة امر جوهر ان يزاد عقيب الخطبة « اللهم صلِّ على محمد المصطفى وعلى عليّ المرتضى وعلى فاطمة

البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا اللّهم وصلِ على الايمة الطاهرين اباء المؤمنين » . وفي ايامهِ صار يذكر بالاذان حي على خير العمل . ثم ارسل جوهر الى سوريا احد اركان حربهِ المدعو جعفر ليتعقب الحسين

وكانت الخلافة العباسية لا تزال في يد المطيع لله الذي لم تكن حكومتهُ الّا تقهقرًا مستمرًا وانحطاطًا متتابعًا . فان الدولة العربية التي كانت في القرون الثلاثة الهجرية الاولى شمسًا باهرة باعثةً اشعتها على القسم المعمور من الارض امست في ايام المطيع وقد ذهب بهاؤها كانهُ قد عراها كسوف فاستقلت اماراتها وعلى كل منهـا اميرٌ مسلم لكنهُ غير عربي فلم تعد تصح تسميتها بعد ذلك بالدولة العربية بل الدولة الاسلامية وكان امراء بني بويه قد اغتصبوا الخلفاء العباسيين جميع املاكهم في اسيا من جهة بلاد فارس . والمطيع وان كان مقيمًا في بغداد الّا انهُ لم يكن لهُ نفوذ فيها وقد هجرهُ وزيرهُ واقام لهُ بنو بويه وزيرًا من غرضهم تنفيذًا لمآربهم . وغاية ما بقي للمطيع من السلطة في الدولة الاسلامية انما هو تثبيت الولاة متى اقيموا على ولاياتهم لا توليتهم . فكانت الاندلس قد اصبحت في حوزة الدولـة الاموية الغربية واسيا العليا في حوزة بني سامان والبصرة وواسط والاهواز والفرس في حوزة بني بويه . والموصل وديار بكر في حوزة بني حمدان . وسوريا العليا وارمينيا كان بعضها في حوزة القرامطة والبعض الآخر تابعًا لمصر التي كانت الى ذلك العهد في حوزة الدولة الاخشيدية تحت رعاية الخلفاء العباسيين وعلى وشك الانتقال الى الدولة الفاطمية

فلم يألُ القائد جوهر جهدًا في تثبيت قدم هذه الدولـة في الديار المصرية وقد اخذ على عاتقهِ صلاحها وخراجها وكان قد هجرها النظام منذ تداخل بها الفساد وساد فيها الخصام الناتج عن زيادة الضرائب وسوء الاحكام . فاخذ في تخفيض الضرائب وحفر الترع فارتوت الارض فزادت

غلتها فشبع الزارع وربح التاجر فاستتب النظام وساد الأمن وبلغ خراج مصر في السنة التي دخلها فيها جوهر ثلاثة آلاف واربعمائة الف دينار

فلما رأى جوهر مناعة الديار المصرية ووفرة عزها لم يقنع لها بالفسطاط عاصمة فشرع ببناء مدينة جديدة جعلها قاعدة القطر المصري دعاها بالقاهرة . وكان تشييد المدن سنة عمومية في ملوك الشرق اذ ذاك فكانوا يبنون المدن وينقلون اليها عظمتهم ولعلهم كانوا يريدون بذلك تخليد ذكرهم . فقد كانت قاعدة المملكة المصرية في عهد الفراعنة منف ثم ابدلت بطيبة ثم بغيرها فغيرها الى عهد اليونان فاستبدلت بالاسكندرية ولما جاء المسلمون ابتنوا الفسطاط حتى اذا كانت الدولة الطولونية استبدلت الفسطاط على نوع ما بالعسكر والقطائع الى ان جاء جوهر القائد فرغب في تخليد ذكره وذكر مولاهُ فعمد الى بناء عاصمة الفاطميين على كيفية يناخر بها بغداد عاصمة العباسيين

ففي سنة ٣٥٩ هـ شرع جوهر ببناء القاهرة فاختط بقعة من الارض حيث أناخ جمالهُ يوم جاء لفتح الفسطاط فانه نزل الى شماليها فيما مكانه اليوم الجامع الازهر وبيت القاضي وخان الخليلي وبين القصرين وما جاورها من الاماكن التي بين الجبل والخليج وكانت هذه البقعة رمالاً فيما بين الفسطاط وعين شمس (المطرية) ولما نزل فيها جوهر لم يكن فيها الا بساتين قليلة منها بستان الاخشيد الكافوري شرقي الخليج وميدان الاخشيد ودير للنصارى كان يدعى دير العظام فيهِ بئر لا يزال باقياً يعرف ببئر الجامع الاقمر وتسميه العامة بئر العظمة . وكان في تلك البقعة موضع يعرف بقصير الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك . فأمر جوهر ببناء القاهرة في ذلك المكان وابتنى فيها قصرين احدهما اكبر من الآخر عرفا بالقصر الكبير والقصر الصغير جعلهما لاقامة المعز عند قدومهِ الى مصر ولا يزال من اثرهما الى الآن محل المحكمة الشرعية المعروف

ببيت القاضي يتصل اليوم من شارع النحاسين

ففي نحو ثلاث سنوات تمّ بناء القاهرة (في اواخر سنة ٣٦١ ﻫ) وقد بُني حولها السور وفيهِ الابواب ولم يزل بعض آثارها باقيًا الى هذا العهد. فبعث جوهر الى مولاهُ المعز بذلك فترك المنصورية التي بناها ابوهُ وسار قادمًا الى عاصمتهِ الجديدة مستخلفًا على افريقيا وزيرهُ يوسف بن زيري فركب في عمارة بحرية الى جزيرة سردينيا ومنها الى سيسيليا فصرف فيها بضعة اشهر يتفقد احوالها ثم سار منها الى طرابلس الغرب ومنها الى الاسكندرية فالقاهرة فوصلها في شعبان سنة ٣٦٢ ﻫ وكان دخولهُ اليها باحتفال عظيم من باب زويلة بصحبة يعقوب بن يوسف بن كلّس. وكان لزويلة بابان متلاصقان بجوار زاوية سام بن نوح المجاورة لسبيل العقادين بجوار الخرنفش فدخل المعزّ من الباب الملاصق ولم يبقَ لهُ اثر الآن فتيامنَ الناس بهِ وهجروا الباب الآخر حتى جرى على الالسنة ان من مرَّ بهِ لا تقضى لهُ حاجة

وفي يوم الثلاثاء ٥ رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ دخل المعز لدين الله قصرهُ بالقاهرة وعند دخولهِ خرَّ ساجدًا ثم صلَّى ركعتين وصلَّى بصلاتهِ كل من دخل معهُ واستقرَّ في قصرهِ باولادهِ وحشمهِ وخواص عبيدهِ والقصر يومئذٍ بهجة وكلهُ تحفٌ ومثمنات وبعد ذلك باسبوع اذن بدخول من يريد مقابلتهُ للتهنئة وجلس في الايوان فدخل اولاً الاشراف ثم اذن بعدهم للاولياء وسائر وجوه الناس وكان القائد جوهر قائمًا بين يديهِ يقدم الناس قومًا بعد قوم. وبعد وصولهِ بيسير امر ببناء تربة في القصر الكبير دفن فيها اجدادهُ الذين استحضرهم معهُ بتوابيت من بلاد المغرب وصارت بعد ذلك مدفنًا يدفن فيهِ الخلفاء واولادهم ونساؤهم وكانت تعرف بتربة الزعفران وكان موقعها حيث الخان الخليلي الآن. فلما انشأ الامير جهاركس الخليلي خانهُ اخرج ما شاء من عظامهم فألقيت على المزابل

وفي سنة وصوله عهد ليعقوب بن يوسف بن كلس خراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع ما يضاف الى ذلك في سائر الاعمال . ويعقوب هذا كان يهوديًا من بغداد ثم جاء مصر وتقلد بعض مصالحها في ايام كافور الاخشيدي واسلم طمعًا بالترقي فاحبهُ كافور ورقاهُ . واشترك مع يعقوب في امر الخراج عسلوج بن الحسن وكتب المعزّ لهما سجلاً بذلك فجلسا في دار الامارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للقبالات (الالتزام) وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبلين والمالكين والعمال واستقصيا بالطلب ونظرا في المظالم فتوفرت الاموال وزيد في الضياع وتزايد الناس وتكاثفوا وحسنت الاحوال وكثر ضرب النقود الى حدٍ يفوق التصديق

ثم ابتنى جوهر جامعًا دعاهُ الجامع الازهر وهو اقدم جوامع القاهرة الاّ جامع ابن طولون واكثرها اتساعًا ولذلك لُقب بالجامع الكبير . واقام جوهر في الجامع المذكور بامر الملك العزيز الآتي ذكرهُ مكتبة نفيسة ومدرسة ذاع صيتها في الآفاق وقد كانت نبراس العلم ونادي العلماء من سائر المشرق ولا تزال في مثل ذلك الى هذه الغاية . وكانت تُعلَّم فيها كل العلوم العربية كاللغة والفقه والمنطق والطب والفلك والرياضيات والتاريخ وكانت تأتيها التلامذة من الاقطار البعيدة كالمغرب وسوريا والعراق والهند وغيرها وكانت تتكاثف الطلبة فيها حتى تُعد بالآلاف ومعدَّل ذلك العدد اثنا عشر الفًا . والفقراء منهم يأكلون ويشربون ويلبسون على نفقة الجامع

وقد زاد في بناء الجامع الازهر وغيَّر فيهِ كثير من الملوك والامراء الذين تولّوا امر مصر بعد المعزّ وعلى الخصوص الملك الظاهر بيبرس وقايت باي والغوري من سلاطين المماليك والسيد محمد باشا من ولاة الدولة العثمانية واسماعيل بك وعبد الرحمن كخيا من امراء المماليك

وعبد الرحمن كخيا المذكور جدّد فيه اشياء كثيرة وجعل فيه مدفناً له دُفن فيه . واخيراً سعيد باشا ابن محمد علي باشا سنة ١٢٧٣ هـ . ولذلك يكاد لا يوجد فيه الآن شيء من الجدران والاعمدة التي وضعها جوهر القائد

فلما رسخت قدم الفاطميين بمصر اصبحت المملكة الاسلامية يتنازعها خليفتان المعز لدين الله الفاطمي في مصر والمطيع لله العباسي في بغداد وكل منهما يجتهد في اثبات الخلافة العامة له وحرمان الآخر منها . ودعوى المعز بالاسبقية مبنية على انتسابه لفاطمة ابنة النبي (صلعم) وقد اختلف النسابون في حقيقة دعواهُ على انه قلّما كان يعتمد على شرف الحسب والنسب . ومما يحكى عنه انه لما كان قادماً الى القاهرة وخرج الناس للقائه اجتمع به اناس من الاشراف وفيهم عبدالله بن طباطبا المشهور فتقدم الى الخليفة المعزّ وقال له «الى مَن ينتسب مولانا» فقال له «سنعقد مجلساً نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا» ولما استقرّ المعزّ في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس بهم وقال «هل بقي من رؤسائكم احد» قالوا «لم يبقَ معتبر» فسلّ نصف سيفه وقال «هذا نسبي» ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال «هذا حسبي» فقالوا جميعاً سمعنا واطعنا

ولم يسكن المعزّ لدين الله قصرهُ طويلاً لانه توفي بعد ثلاث سنوات من حكمه بمصر (الجمعة في ١١ ربيع آخر سنة ٣٦٥ هـ) وسنُّه ٤٥ سنة ومدة حكمه جميعها ٢٤ سنة معظمها في المغرب . وكان عاقلاً حازماً اديباً حسن النظر محبّاً للنجامة شاعراً وينسب اليه من الشعر قوله

لله ما صنعت بنا تلك المحاجر بالمعاجر
امضى واقضى في النفوس من الخناجر في الحناجر
ولقد تعبت ببينكم تعب المهاجر في الهواجر

ويُنسب اليه ايضاً

اطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك اطلّا

وكأن الجمال خاف على الور د جنافاً فمدّ بالشعر ظلّا

وترى في الشكل الخامس والثلاثين صورة نقود المعزّ مضروبة بعد دخوله القاهرة بسنة واحدة



ش ٣٥ نقود المعزّ لدين الله

خلافة العزيز بن المعز

من سنة ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ او من ٩٧٥ — ٩٩٦ م

فلما توفي المعزّ بويع ابنهُ نزار بن معد ابو منصور الملقب بالعزيز بالله ويدعوهُ بعضهم العزيز بدين الله ومولدهُ المهدية في افريقيا . واتسعت المملكة في ايامهِ حتى اتصلت بمكة . ولم يكن سن العزيز عند مبايعتهِ الا ٢١ سنة فترك ازمة الجند لجوهر . وفوّض ليعقوب بن يوسف النظر في سائر الامور وجعلهُ وزيراً لهُ في رمضان سنة ٣٦٨ هـ . وفي محرم سنة ٣٧٢ هـ امر العزيز ان تكون جميع المكاتبات الرسمية باسم يعقوب وان تمضى الاوامر باسمهِ . واهداهُ كثيراً من الغلمان والاموال فرتّب يعقوب الدواوين فجعل ديواناً للجيش وآخر للاموال وآخر للخراج وآخر للسجلات والانشاء وآخر للمستغلات وجعل في كلٍّ منها كتّاباً ورؤساء كتّاب . وكان يجلس في مجلسهِ الادباء والشعراء والفقهاء وارباب الصنائع وخصّص لكلٍّ منهم الارزاق وألّف كتباً في الفقه والقرآآت وكان يجلس في كل يوم جمعة يقرأ مصنفاتهِ على الناس بنفسهِ وكان لهُ مجلس في دارهِ للنظر في رقاع المرافعين والمتظلمين ويوقع بيدهِ في الرقاع ويخاطب الخصوم بنفسهِ . وتوفي الوزير يعقوب في ٥ ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ وهو اول وزراء الدولة الفاطمية بمصر

وكان العزيز بالله قد تزوّج امرأةً مسيحيةً من الطائفة الملكية وكان يحبها كثيرًا فاكتسبت نفوذًا عليه فكان يراعي ابناء طائفتها ويرفق بهم اكرامًا بها حتى اتخذ طبيبهُ الخاص منهم وجعل اخويها في مصاف البطاركة الواحد في الاسكندرية والآخر في القدس الشريف

وقدم الى الشام في ايام العزيز هنتكين الشرابي من بغداد لغزو دمشق . وهنتكين هذا يقال لهُ الفتكين ابو منصور التركي الشرابي غلام معزّ الدولة احمد بن بويه ترقى في الخدم حتى غلب في بغداد على عزّ الدولة مختار بن معزّ الدولة وكان فيه شجاعة وثبات في الحرب . فلما سارت الاتراك من بغداد لحرب الديلم جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هنتكين الّا ان اصحابهُ انهزموا عنهُ وصار في طائفة قليلة فسار بمن معهُ من الاتراك وهم نحو الاربعماية الى ان قرب من حوشبة احدى قرى الشام وقد وقع في قلوب العربان منهُ مهابة . وما زال ينتقل من محل الى آخر ويجمع اليه الاحزاب ومنهم القرامطة حتى غزا القسم الاعظم من سوريا الى دمشق ونزل على السواحل

فعلم بذلك العزيز بالله فارسل اليهِ جيشًا تحت قيادة جوهر فبلغ هنتكين ذلك وهو في عكا اما القرامطة فكانوا في الرملة ولما بلغهم قدوم جوهر وجيوش العزيز فروا عنها فنزلها جوهر وسار من القرامطة الى الاحساء التي هي بلادهم جماعةٌ وتأخر عدة . اما هنتكين فسار من عكا الى طبرية وقد علم بمسير القرامطة وتأخُّر بعضهم فاجتمع في طبرية واستعد للقاء جوهر وجمع الاقوات من بلاد حوران والثنية وادخلها الى دمشق . ثم سار اليها وتحصن فيها فعلم جوهر بذلك فسار الى دمشق ونزل على ظاهرها في ٢٢ ذي القعدة وبنى على معسكره سورًا وحفر خندقًا عظيمًا وجعل لهُ ابوابًا

فتجمع هنتكين برجاله لقتال جوهر وطال الاخذ والرد الى ١١ ربيع

اول سنة ٣٦٦ ﻫ . وعند ذلك اختلَّ امر هفتكين وهمَّ بالفرار ثم انهُ استظهر ووردت الاخبار بقدوم احمد القرمطي الى دمشق فطلب جوهر الصلح على ان يرحل عن دمشق من غير ان يتبعهُ احد وذلك انهُ رأى اموالهُ قد قلَّت وهلك كثير مما كان في عسكرهِ حتى صار اكثر عسكرهِ رجالة واعوزهم العلف وخشي فوق ذلك قدوم القرامطة . فاجابهُ هفتكين وقد عظم فرحهُ فرحل جوهر في ٢ جمادى الاولى وجدَّ في المسير الى ان بلغ طبرية وكان قد قرب القرامطة فتعقبوهُ اليها فسار منها الى الرملة فبعث القرامطة بسرية كان لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب . ثم طال الكفاح مدة ١٧ شهرًا ففرَّ جوهر الى عسقلان فغنم هفتكين شيئًا كثيرًا . ثم سار فحاصر عسقلان فبلغ ذلك العزيز فاستعد للمسير ليمد جوهر . اما جوهر فلما طال حصارهُ راسل هفتكين يطلب اليهِ تقرير الصلح على مال يحملهُ اليهِ وان يخرج من تحت سيفهِ فعلق هفتكين سيفهُ على باب عسقلان وخرج جوهر ومن معهُ من تحتهِ وساروا الى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز يريد المسير فساروا معهُ وما زالوا حتى نزلوا الرملة وكان هفتكين في طبرية فسار الى لقاء العزيز ومعهُ عدة من رجالهِ فالتقى الجيشان فلم يكن غير ساعة حتى انهزم جيش هفتكين وفاز العزيز فطلبوا هفتكين فاذا هو قد فرَّ على فرس بمفردهِ فقبض عليهِ احد العرب وجاء بهِ الى العزيز وعمامتهُ في عنقهِ فامر بهِ فطيف بهِ على العسكر على جمل فاخذ العسكر يلطمونهُ ويهزؤُون لحيتهُ . ثم سار العزيز بهفتكين والاسرى الى القاهرة فاستخدمهُ ومن معهُ واحسن اليهِ غاية الاحسان وانزلهُ في دارٍ وواصلهُ بالعطاء والخلع حتى قال لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله ونظوفي اليهِ بما غمرني من فضلهِ واحسانهِ . فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمهِ حيدرة « يا عم والله اني احب ان ارى النعم عند الناس ظاهرة وارى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع

والعقار وان يكون ذلك كله من عندي » وما زال هفتكين يرتقي في ظل العزيز الى ان توفي سنة ٣٧٢ هـ فظن العزيز ان يعقوب بن كلس سمّه (وكان لا يزال حيًّا) لانه كان يلاحظ بينهما مناظرة في التقرب من الخليفة فاعتقله مدة ثم اطلقه

وفي ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ توفي العزيز بالله في بلبيس على اثر مرض طويل بالقولنج والحصاة وسنّهُ ٤٢ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته ٢١ سنة وخمسة اشهر ونصف فنقل الى القاهرة ودفن في تربة القصر مع ابائهِ . وكان العزيز كريمًا شجاعًا حسن العفو عند المقدرة وكان اسمر اللون اصهب الشعر اشهل العين عريض المنكبين حسن الخلق قريبًا من الناس لا يؤثر سفك الدماء محبًّا للصيد ولا سيما صيد السباع وكان اديبًا فاضلاً

ومما يحكى ان احد الشعراء نظم قصيدة هجا بها وزيرهُ وكاتب سرّهِ فرفعا الشكوى اليهِ وطلبا عقاب الشاعر فاطلع على القصيدة فرأى فيها هجوًا بهِ ايضًا فقال لهما « بما اني شاركتكما باحتمال الاهانة شاركوني بالعفو عن هذا الشاعر »

والعزيز اول من اتخذ وزيرًا اثبت اسمهُ على الطرز وقرن اسمهُ باسمهِ واول من لبس منهم الخفّين واول من اتخذ منهم الاتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد واول من رمى منهم بالنشاب واول من ركب منهم بالذؤابة الطويلة وضرب بالصوالجة ولعب بالرمح واول من اقام طعامًا في جامع القاهرة لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان واول من اتخذ الحمير لركوبهِ اياها . ومن آثارهِ انهُ اسس جامع الحاكم فلما جاء الخليفة الحاكم اتمّهُ

وترى في الشكل ٣٦ صورة نقود العزيز بالله ضربت في القاهرة سنة ٣٧٦ هـ



ش ٣٦ صورة نقود العزيز بالله

خلافة الحاكم بامر الله بن العزيز

من سنة ٣٨٦ ـ ٤١١ هـ او من ٩٩٦ ـ ١٠٢١ م

ولما توفي العزيز خلفهُ ابنهُ المنصور ابو علي فبويع ولقب بالحاكم بامر الله ولكنا سنرى انهُ لم يحكم الَّا خلافًا لامر الله . وكان سنهُ عند مبايعته احد عشرة سنة فكان الوصي عليهِ الوزير ارجوان فاغتنم ارجوان الفرصة وتمتع بالنفوذ الكلي حتى تجاوز الحد

وكانت مدة حكم الحاكم نحو ٢٥ سنة ثارت في اوائلهـا عصبة ادعى زعيمها انهُ من سلالة الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وحصل بسبب ذلك خصام وحروب كان النصر فيها متبادلاً وفي المرة الاخيرة قبض على زعيم العصاة والقي في السجن وهرب اتباعهُ ثم اراد الحاكم ان يبرهن على اختلال شعور هذا الرجل فاركبهُ جملاً واركب من ورائهِ قردًا وطوَّفهُ المدينة والقرد لا ينفك عن قرع ذلك الرجل على راسهِ الى ان مات اشر موتة

واقام الحاكم في القاهرة مكتبة دعاها دار العلم او دار الحكمة جلس فيها الفقهاء والعلماء وحملت الكتب اليها من خزائن القصور المعمورة ودخل الناس اليها فكانوا بين ناسخ ومطالع فكانت تغص بالجماهير من جميع انواع طلبة العلم بين منجمين ونحويين وفقهاء وغيرهم وكانت تلك الدار مزخرفة بالستائر والنقوش والفرش الثمين واستجلب لها الكتب الثمينة من الاقطار وجعل فيها ما يحتاج اليهِ من الحبر والاقلام والورق اشبه بما هو في ايامنا المكتبة الخديوية . وكان الحاكم يدعو اليهِ العلماء والاطباء والفقهاء كل فئة على حدة للمناظرة بين يديهِ فانهُ كان يرى في ذلك لذة عظيمة .

وفي سنة ٣٩١ هـ امر الحاكم الناس بان يقدوا القناديل في سائر

البلد على جميع الحوانيت وابواب الدور والمحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ولازم الركوب في الليل وكان ينزل في كل ليلة الى موضع موضع والى شارع شارع والى زقاق زقاق وصار الناس من الزينة والوقود الكثيرة في الليل يوصلون ليلهم بنهارهم فيقضون طول الليل في البيع والشراء. وكان اذا مشى في موكبهِ امر حاشيته ان لا تمشي بقربهِ وزجرهم وقال ابعدوا ولا تمنعوا احدًا مني فكانت تقترب الناس منهُ وتحدق بهِ وتكثر من الدعاء لهُ

وبعد يسير اصيب الحاكم بتغيير في عقلهِ لم يفارقهُ حتى فارقتهُ الحياة. وظهر في اثناء ذلك متمذهب يدعى درار وتبعهُ جماعة عرفوا بالدرارية. ثم توفي الزعيم وخلفهُ احد تلامذتهِ المدعو حمزة بن احمد الملقب بالهادي وسنَّ هؤلاء شرائع كثيرة وعلموا تعاليم مختلفة منها تعظيم يوم الجمعة والاحتفال بالاعياد والتعويض عن الحاج لمكة بزيارة مقام طالب في اليمن ومن شرائعهم انهم اباحوا الزيجة بين الاخ واختهِ والاب وبناتهِ والام وابنائها وجاءوا بامور كثيرة تخالف او تناقض ما جاء في القرآن الشريف

فارتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة وافتتن بها فتبعها ونسي ديانة ابيهِ وجدهِ. وكان يصعد كل صباح منفردًا الى الجبل المقطَّم حيث ادَّعى انهُ يناجي الجلالة كما كان يفعل موسى. وبعد ان كان اشدَّ نصير للديانة الاسلامية نادى جهارًا بمقاومتها وادعى بالسوء على الصحابة وسعى الى ابطال الديانة الاسلامية واقامة ديانة جديدة فحبطت مساعيهِ فاحتقرتهُ الرعية ولم تعد تعبأ بمدعياتهِ فعاد الى نصرة الاسلام فاضطهد النصارى واليهود والزمهم ان يحملوا على ثيابهم علامة تميزهم من المسلمين وامرهم بشد الزنار ولبس الغيار وان يحمل اليهودي اذا دخل الحمام جرسًا والمسيحي يحمل على صدرهِ صليبًا من الخشب كبير طولهُ ذراع في مثلهِ ووزنهُ خمسة

ارطال وان يكون مكشوفًا ليراهُ الناس ومنعهم من ركوب الخيل وان يكون ركوبهم البغال او الحمير بسروج الخشب والسيور السود وان لا يستخدموا مسلمًا ولا يشتروا عبدًا ولا امة وتتبّع آثارهم في ذلك فاسلم منهم عدة وهدم الكنائس واخذ جميع ما فيها وما لها من الرباع وكتب بذلك الى الاعمال فهدمت ما بها ثم امر اليهود والنصارى بالخروج من مصر الى بلاد الروم وغيرها · ونهى عن اكل الملوخيا والجرجير وذبح الابقار السليمة من العاهة · ومنع الناس ان لا يخرجوا بعد الغروب في الطرقات وان لا يظهر احد بها لبيع اوشراء فخلت الطرق من المارة وامر بكسر اواني الخمور فاريقت من سائر الاماكن واشتد خوف الناس وقويت الشناعات وزاد الاضطراب

ومنع من بيع الزبيب والقى منهُ في النيل شيئًا كثيرًا ومنع من حملهِ وقطع كروم الجيزة كلها · ونهى عن لعب الشطرنج وكان يقاصص من يخالف اوامرهُ مقاصة عاربة من كل رفق

ثم عاد فاذن للنصارى واليهود ان يعودوا الى تعاليمهم القديمة وان يعلموها جهارًا · ثم اخرب كنيسة القيامة القائمة على الجلجلة في اورشليم ثم عاد فبناها على نفقتهِ الخاصة · اصدر امرًا بسب السلف وامر الناس ان ينقشوا ذلك ويكتبوهُ بالالوان في سائر المواضع ثم اصدر امرًا بضد ذلك واظهر تأسفهُ لما صدر منهُ من مثل هذه الجسارة · واصدر امرًا مآلهُ ان لا يخرج النساء في الطرقات فلم ترَ امرأة في طريق البتة وغلقت حماماتهنَّ وامر الاساكفة ان لا يصنعوا لهنَّ احذية البتة وان بائعي المأكولات يبيعوهنَّ ما يلزمهنَّ منها بطريقة لا يرى احدهما الآخر فيها وهي ان يضع البائع المواد المباعة في مغرفة ذات يد طويلة يدخلها الى البيت من كوة فتأخذ الامرأة ما فيها وتضع عوضًا عنهُ الدراهم المتفق عليها · وتمادى الحاكم بالادعاء حتى ادعى الالوهية وفتح سجلًا يكتب فيها اسماء

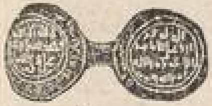
الذين يسلمون له بذلك فكان عدد من كتبوا اسماءهم نحوًا من ١٧ الفًا من اهل القاهرة ولم يفعلوا ذلك الاَّ فرارًا من العقاب . واحب الحاكم ان يشهر يوم تألُّهِهِ فعلّق النار بالمدينة فاحترق بعضها ونهبت عساكرهُ البعض الآخر . فكان هذا الحاكم حملاً ثقيلاً على عاتق المصريين والسوريين ولم يستطع احد مقاومتهُ فكان كل منهم يكظم غيظهُ وهو يسمع باذنهِ رنَّة السهم في قلبهِ

ولكن الامور تجري على سنن محدودة ولا بد لكلّ منها من نهاية فعلمت اخت الحاكم وقائد جيشهِ ان الحاكم امر بقتلهما فعمدا على اغتيالهِ قبل ان يغتالهما فاتخذا الاحتياطات الممكنة . وفي سنة ٤١١ هـ قتلاه على الجبل المقطَّم وبعد موتهِ تولَّت مكانهُ اختهُ موقتًا ثم نادت بابنهِ علي ابي الحسن الملقب بالظاهر لاعزاز دين الله وريثًا لهُ فاستلم زمام الاحكام فبايعوهُ وبقيت الاحكام في يدهِ ١٧ سنة . ومن آثار الحاكم بامر الله الجامع المعروف بجامع الحاكم وقد تقدم ان العزيز وضع اساسهُ بواسطة وزيرهِ يعقوب ابن كلس فاتمَّ الحاكم بناءهُ وانفق في سبيل ذلك اربعين الف دينار ودعاهُ جامع باب الفتوح لمجاورتهِ لهُ وجعل فيهِ المفروشات الثمينة والاواني الفضية والذهبية وكان هذا الجامع عند بنائهِ خارج سور القاهرة . ثم لما جاء امير الجيوش وجدد الاسوار فابتنى باب الفتوح حيث هو اليوم فاصبح الجامع داخل السور . ثم تهدم بعضهُ بزلزلة حصلت في ١٢ ذي الحجة سنة ٧٠٢ هـ في ايام ركن الدين بيبرس الجاشنكير فامر بترميمهِ وجعل فيهِ دروسًا اربعة لتعليم الفقه على مذاهب الايمة الاربعة ودرسًا لاقراء الحديث وجعل فيهِ مكتبة نفيسة وصهاريج للماء واماكن اخرى . ثم جُدِّد هذا الجامع وبُلِّط جميعهُ في ايام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٦٠ هـ على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس ويقال ان الشيخ المشار اليهِ وجد في الجامع حجرًا مكتوبًا عليهِ هذه الابيات لغزًا في الحجر المكرم

ان الذي اسررت مكنون اسمهِ وكتمتهُ كيما افوز بوصلهِ
مال لهُ جذر تساوى في الهجا طرفاهُ يضرب بعضهُ في مثلهِ
فيصير ذاك المال الاّ انهُ في النصف منهُ نصاب احرف كلهِ
واذا نطقت بربعهِ متكلمًا من بعد اولهِ نطقت بكلهِ
لا نقط فيهِ اذا تكامل عدهُ فيصير منقوطًا بجملة شكلهِ

وجامع الحاكم الآن قد تداعت اركانهُ واقيم مؤخرًا في صحنهِ متحف للآثار العربية تحت ادارة نظارة الاوقاف فيهِ كثير من الآثار العربية من ادوات الجوامع وغيرها

وهذه صورة النقود الذهبية التي ضربت في ايام الحاكم بامر الله (انظر شكل ٢٧)



ش ٢٧ نقود الحاكم بامر الله

خلافة الظاهر بن الحاكم

من سنة ٤١١ – ٤٢٧ ﻫ او من ١٠٢١ – ١٠٣٦ م

وفي ايام الظاهر (سنة ٤٢٢ ﻫ) توفي الخليفة القادر بالله العباسي الذي كان قد اقيم سنة ٣٨١ ﻫ خلفًا للطائع واقيم مقامهُ في بغداد القائم بامر الله

وفي سنة ٤٢٧ ﻫ توفي الظاهر لاعزاز دين الله في ليلة الاحد منتصف شعبان فبويع ابنهُ معد ابي تميم خليفة مكانهُ ولقب بالمستنصر بالله

وهذه صورة نقود الظاهر لاعزاز دين الله ضربت في القاهرة سنة ٤٢٥ ﻫ انظر ش ٢٨



ش ٢٨ نقود الظاهر لاعزاز دين الله

خلافة المستنصر بن الظاهر

من سنة ٤٣٧ ــ ٤٨٧ ه او من ١٠٣٦ ــ ١٠٩٤ م

ولم يكن سنّ المستنصر عند مبايعتهِ اكثر من سبع سنوات وكانت امهُ جارية سوداء ابتاعها الظاهر من تاجر يهودي اسمهُ ابو سعيد سهل بن هارون التستري . فلما رأَت ابنها في هذا المنصب اتت بسيدها الاصلي وولَّتهُ الاستشارة وكانت مدة خلافة المستنصر اطول من مدة كل خليفة فاطمي واكثر حوادث من الجميع

ففي سنة ٤٢٩ ه عقد هدنة مع امبراطور اليونان وكان لا ينفك قبل ذلك عن مهاجمة التخوم الاسلامية حتى اخضع حلب ثم تبعها جميع سوريا اما بعد الهدنة فساد الامن الى ان اتت سنة ٤٣٤ ه بويلاتها فثارت داخلية مصر بفتنة جديدة لظهور رجل ادعى انهُ الخليفة الحاكم عاد متقمصاً وانهُ جاء لاستلام منصبهِ الاول وقد ساعد هذا الرجل على دعوتهِ ما كان بينهُ وبين الحاكم من المشابهة فتبعهُ عدد من الاهالي وصارت لهُ عصبة اجتمعت امام سراي المستنصر منادية بصوت واحد (هوذا الحاكم) الَّا انها لم تكن قوية الى حد ان تستدعي استعداد الحكومة وبعد يسير افتضح كذب هذا الرجل اذ عرف اصلهُ فاذا هو رجل من شعب يقال لهم سكين وقد جاء للخديعة فهجرهُ اتباعهُ وقُبض عليهِ وقتل

ثم سعت ام الخليفة فسادًا في الاحكام فغيرت في الوزارة ونقلت الادارة السياسية من يد احمد بن علي ليد حسن بن العنبري ومنهُ الى صدقة الفلاحي وهذا قتل سلفهُ سنة ٤٤٠ ه فحكم عليهِ بالقتل فابدل بمحسين الجرجاري وفي شوال سنة ٤٤١ ه قبض عليهِ وارسل منفيًا الى سوريا واقيم مقامهُ ابو الفضل بن مسعود والقاضي يازوري وقد حاز هذا الاخير

على رضا المستنصر فقربهُ منهُ بحيث انهُ كان يعطيهِ الالقاب الخاصة بالخليفة ويضرب النقود باسمهما معاً

وفي اثناء ذلك اضطربت الخارجية بسبب معز الدولة وكان قد ولاهُ الخليفة على حلب سنة ٤٣٦ ﻫ فحاول الاستقلال بها فانفذ اليهِ الخليفة جيشاً تحت قيادة ناصر الدولة ابن ابي الهيجاء فكسرهُ فاسترجعهُ وارسل عوضاً عنهُ الاميرين طرف ورفيق وتحتهما جيوش مصرية فلم ينالا اكثر مما نال ولحسن الطالع اعتاض معز الدولة عن الهجوم على مصر بعد ما رأى من انتصاره على جيشها بعقد الصلح. فانفذ ابنهُ وزوجتهُ ليعقدا صلحاً مع المستنصر وكانت زوجتهُ بديعة الجمال فاخذت بمجامع قلب المستنصر فوافقها بالتنازل عن حلب لزوجها

وما انتهت هذه المعضلة في الشرق حتى نشأت معضلة اخرى في الغرب وذلك ان اميراً يدعى معز بن باديس تظاهر بالعصيان في افريقيا لمكاتبات عدوانية حصلت بينهُ وبين الوزير اليازوري فابطل ذكر المستنصر في الخطبة واستعاض عنهُ باسم الخليفة العباسي القائم بامر الله ولم يكن لدى المستنصر جيشٌ كافٍ يرسلهُ لاخماد هذه الثورة لاشتغالهِ باضطرابات داخلية آلت الى سفك الدماء بين قبيلتين من العرب وهما بني زايح وبني رباح فرأى الوزير ان يستدرك الخطب الداخلي قبل الخطب الخارجي وان يستخدم العدو الواحد لابادة الآخر فاجتهد حتى اصلح بين القبيلتين ثم حركهما للهجوم على المعز بن باديس على ان يجعل لهم في مقابل ذلك قسماً من الارض ملكاً خاصاً بهم لا يشاركهم فيهِ احد فقبلوا فوعدهم ببرقة وطرابلس الغرب

فاستعدَّ المعز بن باديس لملاقاة العربان فحشد جيشاً مؤلفاً من ٣٠ الف فارس ولم يكن العربان اكثر من ٣ الاف مقاتل فلما التقوا بجيش المعز هابوه فطلبوا الفرار فناداهم قائدهم مونس ان يجالدوا في

القتال فاجابوه «اين نطعن هؤلاء القوم المكسوّين بالخود والدروع» فقال «في عيونهم» ومن ذلك الحين لقب مونس هذا بابي العيون وعادت رجالة وقد ثارت فيهم الحمية العربية وما زالوا حتى انتصروا على المعزّ في تلك الوقعة ثم بقيت الحرب سجالاً بين الفريقين مدة ست سنوات وكانت الغلبة طوراً لهؤلاء وطوراً لهؤلاء.

اما المستنصر في مصر فرأى الخارجية في شاغل عنهُ فعمد الى تزيين القاهرة وبناء البنايات الجميلة فيها فاعاد تذهيب جامع عمرو سنة ٤٤١ هـ وبنى فيهِ في السنة التالية منبراً من الخشب الثمين قائماً على عمد من خشب الصندل واقام فيهِ منارة جديدة وخصص لهذه الترميمات مبلغاً من خزينتهِ الخاصة

وفي سنة ٤٤٢ هـ توفي في مصر اميرتان من اغنى امراء مصر وهما راشدة وعبدة وكلاهما ابنتا الخليفة المعزّ لدين الله فتركت الاولى ثروة مقدارها مليونان وسبعمائة الف دينار والثانية مثل ذلك وطالما كان الخلفاء الفاطميون ينتظرون موتهما فماتتا ولم يرثهما احد فكان غنيمة باردة للخليفة المستنصر

وفي سنة ٤٤٤ هـ وصل القاهرة نبآن مختلفان . الاول ان الخليفة العباسي في بغداد اصدر منشوراً عمومياً الى سائر العالم الاسلامي بان ادعاء الخلفاء الفاطميين باتصالهم بعلي لا صحة لهُ . والثاني ان امير اليمن علي ابن محمد الصالحي امر ان يخطب باسم المستنصر في الصلاة وارسل اليهِ هدايا فسرّ الخليفة المستنصر لهذين الخبرين الذين يوازن احدهما الآخر ولم يبدِ حراكاً لاضطراب داخليتهِ على اثر جوع عظيم نتج عن عدم وفاء النيل تلك السنة فاشتد القحط وكان قد احتكر الحنطة وكان يبتاع منها كل سنة بمبلغ مائة الف دينار ويحفظها في خزائنهِ ليبيعها عند الحاجة بالاثمان العالية فاذا كانت سنة رخاء كان الوزير اليازوري يستبدل تلك الحنطة

بقيمتها من الخشب او الحديد او ما شاكل . في سنة ٤٤٦ هـ لم يفِ النيل
ولم يكن في خزائن الحنطة الا ما يكفي للخليفة واهل حاشيتهِ قوتاً ضرورياً
فقلّت الحنطة وغلا العيش فبلغ ثمن الكيس الصغير من القمح ثمانية دنانير
واخذ الجوع يتزايد وتبعهُ الطاعون وامتد الاثنان الى سوريا حتى بلغا
بغداد وتبع هاتين الضربتين ضربة ثالثة وهي الحرب . وسببها ان الخليفة
المستنصر لما اشتد الجوع في بلادهِ ارسل الى القسطنطينية يستنجد
امبراطورها بالحنطة فرضي الامبراطور ان يرسل لهُ اربع مائة الف اردب
ولكنهُ مات قبل ارسالها . فلما تولت الامبراطورة ولية العهد اوقفت ارسال
الحنطة على ان يعقد لها المستنصر معاهدة (هجومية ودفاعية) فلم يرضَ فلم
ترسل الحنطة فاستشاط غضباً وامر بالجهاد الديني فانتدب ناصر الدولة
الى اللاذقية وانطاكية لمحاربتهما فقُبض عليهِ وتفرق جيشهُ فتعاظم لذلك
غيظ المستنصر واشتد انتقامهُ فامر بالحجز على كل ما في كنيسة القيامة في
القدس الشريف من الاموال والادوات الثمينة فاضطربت العلاقات
الودية بين الدولة اليونانية ومصر

ومما زاد المصريين رعباً نجمٌ ذو ذنب طويل ظهر في افق مصر في
١٢ جمادى الثانية سنة ٤٤٥ هـ ولم يغب الى ١٥ رجب منها . غير ان
الوزير لم يألُ جهداً في تدبير الامور بكل حكمة ورزانة فخفف المصائب
واستجلب القوت الى البلاد رويداً رويداً . على ان سلطة المستنصر كانت
لا تزال تزداد في الخارج يوماً فيوم حتى ان الامير ارسلان البساسيري
قائد جيوش الخليفة العباسي القائم بامر الله لما كبر شأنهُ رفض الطاعة
لخليفتهِ ورفع في بغداد العلم الفاطمي الابيض ودعا للمستنصر على منابرها سنة
٤٥٠ هـ وفعل مثل ذلك اهل واسط والكوفة وسائر المدن الشرقية
الشهيرة واضطر القائم بامر الله ان يوقع على صكٍ من مقتضاه ان الحق
بالخلافة انما هو بجملتهِ للخلفاء الفاطميين

فانتشر نفوذ المستنصر الديني لغاية خراسان وشرقي بلاد فارس فرأى السلطان طغرلبك الذي كان حاكمًا هناك ان انتشار الطائفة العلوية في بلادهِ يضرُّ بهِ فجعل لما حدًّا هناك وسار بجيشهِ الى بغداد واعاد القائم بامر الله الى منصبهِ واعاد العلم العباسي والخطبة للخليفة القائم في ٢٦ ذي القعدة سنة ٤٥١ ه

وكان المستنصر قد ارسل الى ارسلان مددًا من العدة والرجال وخمسمائة الف دينار ومؤنًا وذخائر وثيابًا وخيلاً ولكن لما علم باعادة تنصيب الخليفة خشي منهُ ولم يعد يمدّهُ واكتفى باتخاذ الاحتياط لمنع تقدمهِ ولولا ذلك لانتشرت سطوة الدولة الفاطمية الى اقصى ما بلغت اليهِ الدولة العباسية في عزها . وحصل في اثناء ذلك في سوريا حروب آلت الى ضعف سطوة المستنصر . وذلك ان مدينة حلب كانت الى ذلك الحين لمعز الدولة وكان عرضة لهجوم عرب بني كلاب الذين اقلقوا راحتهُ وطمعوا بذات يدهِ فلم يرَ طريقةً للتخلص منهم الاَّ بالالتجاء الى المستنصر فكتب اليهِ انهُ لم يعد قادرًا على البقاء في حلب على هذه الحال ولذلك يطلب ان يرد هذه المدينة الى الخليفة وان يأخذ بدلاً منها بلدًا لا يكون للعربان يدٌ اليها . فقبل المستنصر بذلك واعطاه مدن بيروت وعكا وجبيل وجعل على حلب مكين الدولة احد قوادهِ فحصنها في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٨ ه . ثم سافر معزّ الدولة الى مصر وعقد فيها معاهدة مع المستنصر على المدن التي اعطيت لهُ . وكان مكين الدولة لطيف المعاملة حليمًا وكان الشعب سعيدًا في ايامهِ فرخصت الاسعار واستتبت الراحة الاَّ ان بني كلاب لم ينفكوا عن سلب راحتهِ تحت قيادة الامير محمود ابن اخ اميرهم الاول وكان قد عنَّف عمهُ لتسليمهِ للخليفة باراضي قبيلتهم واحتسب نفسهُ سعيدًا لاتخاذهِ هذه القيادة بنفسهِ فجاء مدينة حلب وغزاها فقتل حاميتها ودخلها فسلمت لهُ في ٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٢ ه

اما مكين فكان محاصرًا في الحصن فارسل الى مصر بطلب النجدة فسار اليهِ ناصر الدولة بجيش جرار وكان قد اطلق من انطاكية فلما علم العرب بقدومهِ اخلوا المدينة فدخلها بسلام ولا معارض ولكن في اليوم التالي الاربعاء آخر يوم من رجب عاد العرب الى حلب وفتحوها واسروا ناصر الدولة ففُتحت هذه المدينة في مدة ثلاثة ايام ثلاث مرات

وبعد ان دخل الامير محمود حلب اخلى سبيل ناصر الدولة وصرح لهُ بالذهاب الى مصر وارسل معهُ هدايا فاخرة . فلما وصل مصر رأى الخليفة ان يكافئهُ على عدم نجاحهِ فولاهُ دمشق . وفي سنة ٤٥٥ﻫ ابدل ببدر الجمالي وهو ارمني المولد لكنهُ كان مملوكًا عند جمال الدولة ومنهُ لقبهُ وقد تقلب في عدة مناصب وكان يظهر منهُ ما يدل على انهُ ثابت حازم . ولم تمضِ على سوريا مدة تحت ولايتهِ حتى ساد فيها الامن لان الخليفة سمح للامير محمود ان يتولَّى حلب ولقبهُ بامير الامراء وعضد الدولة وسيف الخلافة . اما مصر فكانت اقل طمأنينة من غيرها لان الوزير بازوري كان يضطهد المسيحيين اضطهادًا شديدًا ويسومهم اشد العذاب ظلمًا واعتسافًا واسرًا واغتصابًا وكان يثير ضدهم الاحزاب في المدبريات والقى القبض على البطريرك كريستودول وبعض الاساقفة وساقهم الى القاهرة . اما الخليفة فلم يكن راضيًا بذلك فامر باخلاء سبيلهم بكل احترام فشقَّ ذلك على الوزير فامر بقفل جميع الكنائس المسيحية في القطر المصري من يعقوبية وملكية فثار مسيحيو القطر فاستدرك الخليفة الامر بالقبض على الوزير المستبد ونفيهِ الى تانس وبعد قليل اعدمهُ الحياة وذلك سنة ٤٥٢ﻫ

فتشاءم المسيحيون من تلك الحوادث اذ رافقها تغيرات فلكية منها الشفق الشمالي وكسوف تام للشمس فكان منظر السماء مهيبًا استمر ٤ ساعات اشتد فيها الظلام بحيث كان يمكن مشاهدة النجوم عيانًا وقد التجأت الطيور الى اعشاشها رهبة . وولَّى الخليفة مكان بازوري ابا الفرج البابلي

وبعد نحو شهر ابدل بعبدالله بن يحيى ثم بغيرهِ ثم بغيرهِ حتى تقلب على وزارة مصر نحو من ٢٥ وزيراً في مدة ١٢ سنة ولم تكن تزيدها هذه التقلبات الا تعقيدًا . كل ذلك والشكيات ترد الى الخليفة تترى من رجال الدولة والرعايا فاحتار في امرهِ ولم يكن يعلم مصدر هذه القلاقل فاستدعى الى حضرتهِ رجالاً من جميع الرتب وكلهم مليًا وجعل يستطلعهم حقيقة الامر فلم يظهر لهُ شيءٌ مما كان يسمعهُ . ثم ازداد نفوذ السوقة على رجال الدولة فكانوا اذا اجمعوا على امر انفذوهُ ولو كان مناقضاً للاوامر العالية فازداد الخليفة اضطراباً وكانت ترد لهُ التقارير متناقضة فلا يعلم ايها يتبع . ورجال القضاء بدلاً من ان ينظروا في التقارير كانوا يصرفون اوقاتهم وقواتهم في المدافعة عما كان يتقدم في حقهم من التشكيات . فاشتد النفور من جانب الاهالي في الامارات حتى هاجر بعضهم البيوت فازدادت الفوضى وكثر اللغط الى حد يفوق التصديق

وكان المستنصر يحتال في امر الحج فيذهب في زمرة من الحجاج على الجمال مظهرًا الحج فاذا بلغ بهم محطة بركة عميرة حيث اعتادوا المبيت في ذهابهم الى الحج وإيابهم منهُ وتدعى الآن بركة الحج ينزل بهم هناك فتدار عليهم الخمرة عوضاً من الماء ثم يعودون الى القاهرة . ففي سنة ٤٥٤ هـ بينما كان الخليفة ومعهُ الحجاج في المكان المعهود افرط احد الاتراك بالشرب فسكر فجرد سيفهُ على احد العساكر السود من حرس الخليفة فهجم رفاقهُ على التركي وقتلوهُ فاغتاظ الاتراك وتجمهروا بكثرة واتوا الى المستنصر قائلين « اذا كان قتل هذا برضاك فالسمع والطاعة وان كان من غير رضى امير المؤمنين فلا نرضى بذلك » فاجاب الخليفة ان ما حصل انما حصل بغير رضاه فانقضَّ الاتراك على السودانيين وكانوا كثارًا لان ام الخليفة كانت سودانية وكانت تحب الاستكثار من مواطنيها فكانت تبتاعهم من كل الجهات حتى ملأت سرايتها منهم وكان منهم في اسواق

القاهرة الوف بتألف منهم زمرة قوية . فتخاصم الفريقان طويلاً وبعد هرق دماء كثيرين انتهى الامر بان يعقدوا بينهما صلحاً على ان يكون القائل تحت اوامر الاتراك ثم عادوا الى القاهرة . الاّ ان الضغينة كانت تتزايد من الجانبين يوماً فيوم . ولم ينفكوا عن الخصام من وقت الى آخر وكان السودانيون تبعاً لاوامر الوزير يتعاطون مصالحهم تحت الحجز في قشلاقهم اما الاتراك فما فتئوا يستجلبون اليهم عصباً من العرب يتفقون معهم على المشاركة في السراء والضراء . واخيراً اقاموا عليهم ناصر الدولة الذي تقدم معنا انهُ لم ينجح في حملتهِ على سوريا وكان قد عُزِل من منصبهِ في دمشق واضمر للخليفة ووزرائهِ شرّاً وكان في القاهرة ينتظر سنوح الفرصة للانتقام . فقبل تلك القيادة آلةً لتنفيذ ما ربهِ . ثم علم السودانيون انهم غير كفء لمقاومة تلك العصبة فهاجروا الى الصعيد فانضم اليهم كثيرون من اهلهِ فاشتد ازرهم وكثر عددهم حتى بلغ خمسين الف مقاتل فاحتشدوا الى القاهرة والاسكندرية وهاجموا الاتراك في كوم شريك على الشاطئ الغربي لفرع رشيد من النيل (وقد اشتهر هذا المركز بعدئذٍ في الحملة الفرنساوية حيث غُلِبت المماليك) . فلم يكن الاتراك الاّ عشرة آلاف وقد كمنوا لاعدائهم حتى اذا جاءت الساعة هجموا على السودانيين وهم على الشاطئ فالقوا بعضهم في الماء وذبحوا بعضاً آخر وفرّ الباقون وقد قال بعض المؤرخين ان جملة من قتل وغرق منهم بلغت ثلاثين الفاً

وكانت والدة الخليفة قد تظاهرت جهاراً لحزب السودانيين مواطنيها فشق عليها امر انكسارهم فغضبت على الاتراك وحقدت عليهم ولا سيما لانهم قتلوا احد اصدقائها المخلصين المدعو ابو سعيد فانفذت الى السودانيين مدداً امكنهم معهُ المدافعة نوعاً فحصلت مواقع دموية في اماكن مختلفة في جوار القاهرة وفي مصر العلى والسفلى . وكانت التشكيات العديدة لا تزال ترد الى الخليفة في امور مختلفة وجوابهُ الوحيد عليها قولهُ « ان ما

حصل انما حصل بدون علمي فما انا مسئول عنهُ » . وبعد طول الخصام وتكرار المواقع ضعف الفريقان فضعفت فيهم حاسة الانتقام فعادوا الى السكينة الاّ ان القلوب لا تزال على غلّ تنتظر فرصة للانتقام . وكان عدد الاتراك يزداد كلّ يوم وقد اصبحت بيدهم اهمُّ اعمال الحكومة فاقلقوا الخليفة بالحاحاتهم المتكررة طلبًا لزيادة مرتباتهم . اما هو فكانت قد نفدت ثروتهُ عبثًا فرأى انهُ غير قادر على اشباع مطامعهم وقد اصبح رقًّا لاولئك الارقاء الذين قد ربوا في كنفهِ ولم يأنفوا الاّ الحماية لشخصهِ . وكانت والدة المستنصر تزيد في الطين بلة وتاتيهِ كل يوم بنبإ جديد وتطلب اليهِ امورًا ما انزل الله بها من سلطان وتصر على ان لا يحاول رفض احدها فضاق المستنصر ذرعًا حتى اضطر في سنة ٤٥٧ هـ الى الفرار على قدميهِ منفردًا نحو جامع عمرو متظاهرًا بتخلية الاحكام والانزواء في هذا المعبد لعبادة الله تعالى الاّ ان ارباب دولتهِ لما علموا بمكانهِ حملوهُ على العدول عن هذا القصد فعاد قانطًا من الحيل

وفي سنة ٤٥٩ هـ قويت شوكة الاتراك وزاد طمعهم في المستنصر واصرُّوا على طلب الزيادة في مرتباتهم وضاقت احوال العبيد واشتدت ضرورتهم وكثرت حاجتهم وقلّ مال الخليفة واستضعف جانبهُ فبعثت ام المستنصر الى قواد العبيد تغريهم بالاتراك فاجتمعوا بالجيزة وخرج اليهم الاتراك في مقدمتهم ناصر الدولة فاقتتلا عدة مرار ظهر في آخرها الاتراك على العبيد وهزموهم الى بلاد الصعيد فعاد ناصر الدولة الى القاهرة وقد عظم امرهُ وقوي جاشهُ وكبرت نفسهُ واستخف بالخليفة واحتقرهُ

اما السودانيون فاجتمعوا بعد هذا الانهزام وتكاثر عددهم حتى بلغ نحوًا من ١٥ الف مقاتل فاستولوا على الصعيد ثم حاولوا النزول نحو القاهرة ونزل بعضهم الاسكندرية والبعض الآخر في الفسطاط . فثار الذين في الفسطاط بدسيسة والدة المستنصر فاستشاط ناصر الدولة

غضباً وعزم على قطع دابر السودانيين من القطر المصري او ان ينفصل الامر اما له واما عليه فجمع عصبة وحارب السودانيين وظهر عليهم واثخن في قتلهم واسرهم في الفسطاط ثم سار الى الصعيد فحاربهم وشتتهم ثم عاد الى مصر السفلى فاخرجهم منها وخصوصاً من الاسكندرية واقام فيها من يثق به ثم عاد الى القاهرة فنظفها من آثارهم وقتل كل من وصلت اليه اخبارهُ ثم دخلت سنة ٤٦٠ ه والمستنصر عبثاً يحاول اعادة نفوذهِ فاستشار كثيرين من ذوي شوراه فلم يجدهِ احدهم نفعاً لانهم هم انفسهم لم يكونوا يعتبرون فيه اللياقة لهذا المنصب

وفي اثناء ذلك اغتنم بدر الجمالي فرصة فاستقل بسوريا وكانت الصعيد لا تزال في حوزة السودانيين ومصر السفلى لم تكن تخضع الا لناصر الدولة ولا سيما بعد استيلائه على اسكندرية . وكانت الفسطاط والقاهرة ايضاً تحت اوامرهِ واما اوامر المستنصر فكانت بالكاد تجري على حاشيته . وقد استفحل الاتراك واستهانوا بالخليفة واستخفوا بقدره وصار مقررهم في كل شهر اربعمائة الف دينار بعد ما كان ٢٨ الفاً

هذه حالة المستنصر في داخل مصر اما خارجها فلم يكن الحال اصلح لان الصالحي امير اليمن الذي كان قد بايع الفاطميين قتلهُ احد قوادهِ ودخلت مكة واليمن في حوزة الخلفاء العباسيين وكانت الفتن لا تنفك قائمة على الحدود بين حكام الاقسام ومن يعتدي عليهم من الخوارج فيخرجونهم من اماكنهم ويحتلونها فيقدم حكام الاقسام الى القاهرة منهزمين . وفي ختام الاضطرابات جاهر اليونانيون بالحرب . ومما زاد الطين بلة ان المستنصر لسوء تصرفهِ افسد العلاقات بينهُ وبين الامير محمود متولي حلب الذي قد تقدم انهُ حصل على رضائهِ ونال منهُ اشرف الالقاب . فلما طلب اليونانيون الحرب كتب اليهِ المستنصر ان يساعدهُ بكمية من النقود لمحاربة اليونان وصرف الاتراك من بلاده فاجاب محمود بقولهِ

«اما النقود فلا وجود لها عندي لاني قد اقترضت مبلغاً كبيراً لاعادة حلب الى يدي واصحاب المال يطالبونني · اما اليونان فقد عقدت معهم صلحاً فاقرضوني مالاً لسد احتياجاتي واخذوا ابني رهناً عليها فلا يمكنني معاداتهم · اما الاتراك فهم قوم اقوى مني كثيراً فاذا حاولت طردهم طردوني». فاستشاط المستنصر غضباً لهذا الجواب وحرر الى بدر الجمالي حاكم سوريا يعهد اليه الاقتصاص من امير حلب العاصي فلم يصدّق بدر الجمالي ان جاءهُ هذا البلاغ فجند الى حلب واقام عليها حرباً

وفي اثناء ذلك خرج ناصر الدولة من القاهرة لمحاربة السودانيين في الصعيد فلاقى منهم هذه المرة مقاومة لم يسبق له مقاساة مثلها لانه حاربهم مراراً وكانوا يغلبونه في كل مرة فكتب الى الخليفة من الجيزة يشتكي اليه امر السودانيين ويلقي كل التبعة على والدة الخليفة بانها المهيجة لهم وانها تمدهم بالعدة والمال سراً بمعرفة ابنها · فاجاب الخليفة انه لا يعلم شيئاً عن امه وانما يتكلم عن نفسه ويقسم انه لم يتداخل في هذا الامر لا اولاً ولا آخراً فتشدد ناصر الدولة ورجاله وضمّوا اليهم مدداً وعادوا لمهاجمة اعدائهم مهاجمة اليأس ففازوا بهم واثخنوا فيهم فالذي لم يقتل لم يرَ سبيلاً للنجاة الا في الفرار فتبعثروا وتلاشت من ذلك الحين قوتهم

ولم يكن نصر ناصر الدولة الا حملاً ثقيلاً على عاتق الخليفة ونقمة لضعفه فاصبح لا ينظر اليه الا نظر الاحتقار وقد اسقط اعتبارهُ ونفوذهُ بين رجاله الاتراك فلم يعودوا يكترثوا باوامره ولا يخصوه واصبح صعلوكهم يقول على الخليفة بكل سوء وتجمهروا يطلبون زيادة مرتباتهم فانزعج الخليفة لذلك ولم يكن يأمن على حياته ولا يرتاح في اكله ولا شربه ولا نومه حتى ولا في صلاته ومثل ذلك ناب الوزراء فتنازلوا عن الوزارة وكانت مطاليب الاتراك مجرد تحكّم لانهم كانوا قد نالوا الزيادة اللازمة فبلغت مرتباتهم الشهرية اربعمائة الف دينار كما تقدم · فضلاً عن ان المال نفد فبعثوا

يطالبونهُ بالمال فاعتذر اليهم بعجزه عما طلبوهُ فلم يعذروهُ وقالوا بع ذخائرك فلم يجد بدًّا من اجابتهم واخرج كلَّ ما كان في القصر من الذخائر الثمينة التي كان يجمعها الفاطميون منذ تأسيس دولتهم وصاروا يقومون ما يخرج اليهم باقل الاثمان ويأخذون ذلك في واجباتهم واقتسموها بينهم حسب ما تراءى لهم لا فرق في كونهِ حقًّا او تعديًا . وقد شاهد الخليفة ووزيرهُ ماليتهِ المزاد قائمًا على امتعتهم بدون قياس وهم لا يبدون حراكًا وقد بالغ المؤرخون في مقدار تلك الامتعة الثمينة الى ما يفوق التصديق . ولما نهبوا السراي على ما تقدم كفُّوا عن طلب زيادة المعاش بعد ان علموا انهُ لا يملك شيئًا لكنهم دخلوا مقبرة اجدادهِ واخرجوا منها كل ما وجدوهُ بها من التحف ثم عمدوا الى المكتبة الملوكية وكان فيها نحو عشرين الف مجلد خطّي فاقتسموها بينهم الّا قسمًا كبيرًا منها كان يخص ابن المحترق حاكم الاسكندرية فارسل يطلبهُ اليهِ فأرسل لهُ فلما بلغوا بالكتب ابيارسطا عليهم بعض العربان من قبيلة لواتة فنهبوها واحرقوا قسمًا منها بعد ان اخذوا جلودها ليصطنعوا منها احذيةً لهم وتركوا القسم الباقي آكامًا على الرمال وساروا ولم تمضِ مدة حتى غطتها الرمال فاصبحت تلًّا عظيمًا يعرف بتل الكتب وفي سنة ٤٦١ هـ لم يكتفِ ناصر الدولة بما حط من نفوذ الخليفة السياسي فعمد على ان يحط من نفوذهِ الديني ويقيم خليفة غيرهُ ولم يكن ذلك ممكنًا ما لم يأتِ بحجة تخرج المستنصر فلبث يترقب الفرص فاتفق بينما كان خارجًا مرة من بيت الوزير ان لاقاهُ رجل وطعنهُ بخنجر فهمَّ اليهِ ناصر الدولة وخنقهُ حالًا لان جرحهُ لم يكن بليغًا ورأى بعدئذٍ انها فرصة لا يحسن ضياعها فادعى ان الخليفة المستنصر هو الذي اغرى هذا الرجل على قتلهِ وان مثل هذا الخليفة الغارق في الملاهي والمسكرات لا يليق للقبض على ازمّة الخلافة وكان ناصر الدولة قد اتفق مع ابي طاهر حي دارا احد الاشراف وكان مطرودًا من سوريا بامر بدر الجمالي وقد اتى

القاهرة وجمع اليهِ عصابة يشد بها ازرهُ وكان معروفاً بالتقوى والتدين .
فوعدهُ ناصر الدولة ان يوليهُ الخلافة بعد المستنصر بشرط ان يتعهد بقتل
بدر الجمالي حاكم سوريا قبلاً وكان هذا مستقلاً هناك ولكن ناصر الدولة
خاف من قدومهِ الى مصر . فانضم الى الشريف ابي طاهر اميران من بدو
سوريا وبعد ان اخذ من ناصر الدولة اربعين الف دينار للنفقات
الابتدائية سافر الثلاثة الى سوريا والتف عليهم هناك عدد وافر من
الاحزاب اما بدر الجمالي فكان ساهراً على حكومتهِ فلم يلبث المؤامرون
ان قابلوا حصون بدر الجمالي حتى قُبض عليهم واخذت امتعتهم وقتل
حي دارا سحقاً

اما ناصر الدولة فلم ينفك ساعياً الى مرادهِ واصبحت القوة العسكرية
قسمين الواحد على غرض ناصر الدولة وهم الاتراك والآخر على غرض
الخليفة . فلم يرَ الخليفة بدّاً من اتباع خطة الدفاع بالقوة فكتب الى ناصر
الدولة ينذرهُ وينصح اليهِ بما نصهُ « لما تقربت منا وطلبت حمايتنا حميناك
واوسعناك هبات وخيرات فكافيتنا بالعقوق ومازادك حلمنا الاّ قحة فالقيت
عصا الشقاق في جيوشنا وتواطأت مع ذويك على دمارنا فالآن اخرج
من عاصمتنا ونحن نضمن لك الامان التام ونؤذن لك بان تحمل معك من
ثروتك ما شئت الى حيث شئت وان لم تذعن الى امرنا هذا اوقعنا بك
عقاباً صارماً » . فاجابهُ ناصر الدولة ساخراً ومحتقراً فبعث المستنصر الى
قواد الاتراك الذين كانوا من حزبهِ وبينهم دكوز وهو من الد اعداء ناصر
الدولة (مع انهُ حموهُ) وجاء معهم قواد المغاربة وامراء كتامة وطلب اليهم
مبايعتهُ ثانية فبايعوهُ . فرأى ناصر الدولة عدد رجالهِ قليلاً فبارح القاهرة
الى الجيزة فاغتنم حزب الخليفة فرصة غيابهِ فنهبوا بيتهُ وبيوت جميع من
معهُ وقتلوا كثيرين من اتباعهِ ثم ركب المستنصر جوادهُ ولبس درعهُ
وتبعتهُ الموسيقى العسكرية واحاطت بهِ الاعلام فمر من تحتها جميع من في

القاهرة من الاتراك وفيهم عدد عظيم من ضباط ناصر الدولة وسار الموكب حتى اتى فيما بين القاهرة والفسطاط فنودي بالنصر للخليفة المستنصر. اما ناصر الدولة فلما رأى ما كان من قلة رجالهِ ونفاد مالهِ فرَّ الى الاسكندرية وتحصن فيها وبعث الى عائلتهِ واولادهِ ان يقدموا اليهِ ثم عمل على بث مبادئهِ في مصر السفلى بمساعدة بعض القبائل البدوية فحمل الناس على خلع المستنصر ومبايعة القائم بامر الله العباسي

اما الفسطاط والقاهرة فلم تكونا في معزل عن مثل تلك القلاقل لان الجوع كان قد تمكن منهما لتقصير النيل مدة خمس سنوات متواليات وامتد الجوع الى سنة ٤٦٤ هـ لكن معظمهُ كان في سنة ٤٦٢ هـ. ومنذ سنة ٤٥٧ هـ لم يكن وفاء النيل كافياً لري الاراضي ثم جاءت بعد ذلك القلاقل التي اقتضت الاسراف بالحبوب ورافق كل ذلك انشغال الحكومة عن الزراعة باصلاح سياستها الداخلية فكل هذه الاسباب جعلت الحنطة نادرة جداً فبلغ ثمن الاردب الواحد مائة دينار والقطة ٣ دنانير والكلب ٥ دنانير ومع هذه الاثمان لم يكن ثمَّ شيءٌ من الطعام ورافق هذه الغلاء وباء شديد مكث سبع سنين فلم يوجد من يزرع وشمل الخوف من في العسكرية وكانت ثورة العبيد فانقطعت الطرقات برّاً وبحرّاً الا بالخفارة الكثيرة. ولما استفحل امر الجوع جاء المستنصر الى محافظ القاهرة وانذرهُ مقسماً براسهِ انهُ اذا كان لا يتخذ طريقة لتخفيف هذه النازلة بقطع عنقهُ وكان الوالي عارفاً بوجود مخابئ كثيرة من الحنطة ولكنهُ لم يكن يعلم مقرها فاخرج بعض المسجونين المحكوم عليهم بالاعدام والبسهم ملابس الاغنياء واوقفهم في رحبة عمومية وامر بقطع رؤوسهم بدعوى انهُ لم يرَ سبيلاً لتخفيف وطأة الجوع الا بقتل الاغنياء وقال انهُ لن ينفك عن قتل مثل هولاء حتى يشبع الناس فخاف الاغنياء الذين كانوا قد اخفوا الحنطة وفتحوا مخازنهم وفرقوا الزاد على العباد

وكان ناصر الدولة قد عقد النية على حصر جميع حبوب مصر السفلى وقطع ورادتها الى القاهرة وجهاتها واغتنم هذه الفرصة للقدوم الى القاهرة ومحاصرتها بعد ان أحرق كل ما مرَّ بهِ من القرى والمدن فاضطرَّ الخليفة بعد طول المقاومة ان يفتح ابواب المدينة لناصر الدولة واتباعهِ . ولما دخل ناصر الدولة القاهرة زاد قحة وطمعاً فعاد الى مطاليبهِ مدعياً ان له على الخليفة مرتبات متاخرة وبالغ في احتقارهِ الى ما تنفر النفس من سماعهِ . فيحكى ان ناصر الدولة بعث مرة الى الخليفة فرآه الرسول في سراية خربة جالساً على حصير بالٍ لم يكن في تلك السراي من الفرش غيرهُ وقد اصبح لا حاشية عندهُ الاَّ ثلاثة عبيد نصف عراة فطلب الرسول دفع المتأخرات فالتفت اليهِ الخليفة قائلاً « أما يكفي ناصر الدولة ان اجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير فليأخذ اذن هذا الحصير وهولاء العبيد وهذه الاثواب التي لا تكاد تستر عورتي ولينصرف عني » فبكى الرسول ورجع الى ناصر الدولة واخبرهُ فتأثر من هذا القول واحمرَّ خجلاً وتنازل عن طلبهِ وخصص للمستنصر مرتباً شهرياً (ويقال يومياً) مقدارهُ مائة دينار ينفقة في حاجات بيتهِ

وفي سنة ٤٦٥ ﻫ تصالح ناصر الدولة مع حميهِ دكوز الا ان هذا لم يزل في ريبة من مقاصد صهرهِ فعمد الى ايقاع الأذى بهِ فدخل عليهِ يوماً في بيتهِ وطعنهُ بالخنجر فقتلهُ وقتل اخاهُ فخر العرب واخذ رأسيهما والقى بهما بين رجلي الخليفة . على ان ذلك لم يكن ليسكن بال المستنصر اذ قد تخلص من شر ووقع في آخر لان دكوز لم يكن اقل معاكسة له من صهرهِ فالتجأ الى الاستنصار ببدر الجمالي حاكم سوريا المتقدم ذكرهُ فكتب اليهِ سرًّا ان يأتي بجيشهِ الى مصر وهو يوليهِ عليها فقبل بدر الجمالي مشترطاً التصريح له ان يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من السوريين

فسافر بدر الجمالي من سوريا في عصبة من رجال قد اختبر شجاعتهم

واماتهم من مدة طويلة وسار في البر حتى اتى عكا فسار منها بحرًا وكانت الريح جيدة على غير المعتاد في مثل ذلك الفصل لانهُ بارح عكا في اول دسمبر (كانون الاول) وبلغ مصر ولم يشعر احدٌ بهِ ونزل بين تانس ودمياط فاستقبلهُ سليمان كبير اهل البحيرة وساروا جميعًا نحو القاهرة فنزلوا في قليوب وطلبوا من الخليفة ان يقبض على دكوز قبل دخولهم القاهرة فقبض عليهِ واعتقلهُ في خزانة البنود فدخل بدر الجمالي القاهرة يوم الاربعا في ٢٩ جمادى الاولى سنة ٤٦٧ هـ . ولم يكن عند الامراء علم من استدعائهِ فما منهم الا من اضافهُ فلما انقضت نوبهم في ضيافتهِ استدعاهم الى وليمة اعدها لهم في منزلهِ وبيّت مع اصحابهِ ان القوم اذا أجنّهم الليل فانهم لا بدّ يحتاجون الى الخلاء فمن قام منهم الى الخلاء يُقتل هناك ووكل بكل واحد واحدًا من اصحابهِ وانعم عليهِ بجميع ما يتركهُ ذلك الامير من دار ومال واقطاع وغيره . فصار الامراء اليهِ وظلوا نهارهم عندهُ وباتوا مطمئنين فما طلع ضوء النهار حتى استولى اصحابهُ على جميع دور الامراء وصارت رؤوسهم بين يديهِ فقويت شوكتهُ وعظم امرهُ وخلع عليهِ المستنصر بالطيلسان المقوّر وقلدهُ وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر ارباب الدولة من تحت يدهِ وزيد في القابهِ لقب امير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين . وتتبّع المفسدين فلم يبقَ منهم احد حتى قتلهُ وقتل من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة ثم خرج الى الوجه البحري فاسرف في قتل من هناك من لواتهُ واستصفى اموالهم وازاح المفسدين وافناهم بانواع القتل وصار الى البر الشرقي فقتل منهم كثيرًا ونزل الى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ابنهِ الاوحد فحاصرها اياما من محرم سنة ٤٧٧ هـ الى ان اخذها عنوة وقتل جماعة ممن كان بها وعمر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائهِ في ربيع الاول سنة ٤٧٩ هـ ثم سار الى الصعيد فحارب جهينة والثعالبة وافنى اكثرهم بالقتل وغنم

من الاموال ما لا يعرف قدرهُ كثرة فصلح بهِ حال الاقليم بعد فساده

وكان يسعى جهدهُ في سعادة الاهالي لينسيهم ما قاسوه طويلاً فنشط الزراعة واباح الارض للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفّهت احوال الفلاحين واستغنوا في ايامهِ وسهل سبل التجارة فاحضر التجار الى مصر لكثرة عدلهِ بعد انتزاحهم منها في ايام الشدة وامر باقامة البنايات العظيمة في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة وشاد الجوامع في الاسكندرية والقاهرة وجزيرة الروضة بقرب المقياس وكان المقياس في احتياج الى الاصلاح فاصلحهُ اصلاحاً يصح ان يقال فيهِ انهُ بناهُ ثانيةً وبنى دار الوزارة الكبرى ودعيت بالدار الافضلية وسكنها ولم يزل يسكنها بعدهُ من يلي امرة الجيوش الى ان انتقل الامر الى بني ايوب فاستقر سكن الملك الكامل في قلعة الجبل خارج القاهرة وسكنها السلطان الملك الصالح ولدهُ ثم ارصدت دار الوزارة لمن يرد من الملوك ورسل الخليفة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية الى الديار المصرية وغيرها وعادت مكة الى مبايعة المستنصر بعد ان صرفت خمس سنوات تحت حماية الخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد ورفعوا الغطاء الاسود عن الكعبة ووضعوا مكانهُ الغطاء الابيض (١) منقوشاً عليهِ اسم المستنصر بالله ولقبهُ . وبقيت مصر بعد ذلك مدة عشرين سنة ولم يحدث فيها ما يهم التاريخ ذكرهُ واقلُّ الامم ذكراً في التاريخ ابعدها

اما سوريا فان الامير انسز احد الامراء التركمانيين اغتنم فرصة غياب بدر الجمالي امير الجيوش عنها فقدم اليها غازياً فاستولى على بيت المقدس وطبريةَ وما بعدها حتى دمشق ثم قدم الى مصر في عشرين الف مقاتل وعسكر في سهل بجوار القاهرة وكانت الجيوش المصرية مشتغلة في اطفاء

(١) اللون الابيض يختص بالفاطميين والاسود بالعباسيين والاخضر بالامويين

ما بقي من نيران الثورة في الصعيد فاضطرب اهل القاهرة ولم يرَ بدر الجمالي بدًا من مصالحة أنسز التركماني على مبلغ مائة وخمسين الف دينار يدفعها له بعد انسحابه من مصر فنظرًا لفروغ جيب أنسز قبل بتلك الشروط لكنها لم تدم اكثر من خمسين يومًا تمكن امير الجيوش اثناءها من استدعاء جيوشه من الصعيد واستجلاب قسمٍ من كبار العربان الذين تتألف منهم معظم خيالة أنسز وبعض رجال التركمان الذي اتوا معهُ .
فلما صارت الجيوش المصرية على مقربة من القاهرة كتب امير الجيوش الى قافلة كانت تهيأت الى الحج كتابًا ونصهُ «ان الجهاد في سبيل الله اعظم ثوابًا عند الله من زيارة الحرمين فانضموا الى جيوشنا» فاطاعوهُ ففرق فيهم المال والسلاح . فلما تكامل عدد رجاله جمعهم وهجم على أنسز ذات صباح بغتةً واحكم في رجالهِ السيف فانهزموا بعد ان خسروا عددًا وافرًا منهم فتبعهم العربان والمصريون الى مسافة بعيدة ثم عادوا الى معسكرهم فوجدوا فيه نحوًا من عشرة الآف ولد بين اناث وذكور قد اسرهم التركمان من مصر . وخسر التركمان على اثر تلك الموقعة جميع الاراضي التي افتتحوها في سوريا فدخلت في حوزة الخليفة المستنصر . ومات أنسز في دمشق اشقى موتة

فلم يعد امام بدر الجمالي من يخالف اوامرهُ او يقف في سبيل مقاصده في اصلاح البلاد . وكان سور القاهرة قد تهدم بعضهُ فشرع في ترميمهِ وتقويتهِ فزاد فيهِ الزيادات التي فيما بين بابي زويلة وباب زويلة الكبير وفيما بين باب الفتوح الذي عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن وزاد عند باب النصر ايضًا جميع الرحبة التي تجاه جامع الحاكم الى باب النصر وجعل السور من لبن واقام الابواب من حجارة وبنى باب زويلة وعلى ابراجهُ ولم يعمل له باشورة كما هي عادة ابواب الحصون من ان يكون في كل باب عطف حتى لا تهجم عليهِ العساكر في وقت الحصار

ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة لكنهُ جعل في بابهِ زلاقة من حجارة صوانية عظيمة بحيث اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوان فلم تزل هذه الزلاقة باقية الى ايام السلطان الملك الكامل بن العادل الايوبي فاتفق مرورهُ من هناك فاختل فرسهُ وزلق بهِ واحسبهُ سقط عنهُ فامر بنقضها فنقضت وبقي منها شيء يسير وكان احدها في ايام المقريزي لا يزال موجودًا قرب قبو الخرنفش. وبعد بضع سنين اضطرب القطر من عصبة ثارت تحت قيادة ابن بدر الجمالي لكنها لم تكد تأتي بضرر حتى انكسرت شوكتها

وفي سنة ٤٨٣ هـ احصى امير الجيوش الاراضي المصرية ومقدار خراجها وقابلهُ بما كان بحصلهُ الحكام قبلهُ فرأى ان الخراج الذي كان يُستخرج منها قبلهُ لا يزيد عن مليونين وثمانماية دينار اما في ايامهِ فتجاوز ثلاثة ملايين ومائة الف دينار وما ذلك الّا لاعتنائهِ الخصوصي بالزراعة وتنشيط التجارة وكانتا زاهرتين في ايامهِ. وما زال عاملاً بنشاط الى اوائل ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ فتوفي في القاهرة وسنهُ ثمانون سنة بعد ان حكم في مصر عشرين سنة حكمًا مطلقًا وكان محترمًا ومهابًا من الجميع وفي يدهِ ازمَّة الاحكام يدبرها بكل حكمة ودراية وثبات فتكاثرت ثروة البلاد وخصبها الى حد لم تبلغهُ قبلاً وكان ينشط الزراعة والتجارة والعلم والادب على السواء. وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة قيل انهُ قتل من مصر خلائق لا يحصيها الّا خالقها منها نحو عشرين الف من البحيرة ومثل ذلك من اهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد واصوان والقاهرة الّا انهُ عمَّر البلاد واصلحها بعد فسادها باتلاف المفسدين من اهلها. ولا يزال امير الجيوش معدودًا لدى المصريين بمنزلة عمرو بن العاص واحمد بن طولون

وبعد وفاة امير الجيوش ببضعة ايام توفي الخليفة المستنصر في ١٨

من الشهر نفسهِ وسنة ٦٧ سنة وخمسة اشهر صرف منها ستين سنة في منصب الخلافة الاَّ انهُ لم يكن اهلاً لادارة الاحكام لضعفهِ وقصر حجتهِ وتصديقهِ كلما يقال لهُ مهما كانت حقيقتهُ فلم يكن لقب الخلافة لهُ الاَّ اسماً لغير مسمًّى ٠ وعلى طول مدة خلافتهِ لم يحدث فيها خلا تلك الضيقات العظيمة ولم تكن مصر وحدها التي قاست العذاب تحت حمايتهِ فان سيسيليا التي كانت اغنى اراضي الفاطميين تربة وكانت قبلاً تحت حكم الاغالبة نظراً لبعدها من كرسي الخلافة لم تكن فيها فائدة وكان الولاة الذي يرسلون اليها لا ينفكون عن محاولة الاستقلال . ففي ايام الخليفة المعزّ لدين الله كان على هذه الجزيرة والٍ يقال لهُ احمد رأى منهُ الخليفة ميلاً عن الطاعة فنفاهُ الى افريقيا واقام مقامهُ بايس وبعدهُ غيرهُ وساروا كلهم على خطة واحدة فكانت القلاقل وانقسم اهالي الجزيرة على انفسهم فلم يعد في امكانهم دفع من يغزوهم من المسيحيين وزد على ذلك ان المسيحيين المقيمين في الجزيرة نظراً لما كانوا يُعاملون بهِ من الاستبداد كانوا يودون النجاة من نير المسلمين فجعلوا يكاتبون ابناء ملتهم من الدول الاخرى وكان كل هذا في ايام المستنصر وانتهى بخروج تلك الجزيرة من المملكة الاسلامية

وكيفية ذلك ان اسلام هذه الجزيرة كانوا على حزبين متضادين برأس احدهما ابن تمامة فتحاربا فانهزم ابن تمامة برجالهِ والتجاء الى مدينة كاتان وكانت في حوزة الفرنساويين منذ سنة ٢٧٢ ﻫ فاستبشر الفرنساويون بقدومهِ فاكرموا وفادتهُ وامدّوهُ بالعدة والرجال اما الحزب الآخر فكان قد استمد المعزّ بن باديس فامدهم بفرقة من افريقيا فكانت بين الحزبين موقعة احتدمت نارها على الخصوص بين الاحزاب المساعدة وهم رجال المعزّ بن باديس من الجهة الواحدة والجيوش الفرنساوية تحت قيادة القمس روجر الاول من الجهة الاخرى وانتهت بانتصار ابن تمامة ورجال روجر وانهزام من كان في الجزيرة من المسلمين فدخلها روجر

وقد نفذ سهمه على يد ابن ثمامة فاخذ يسعى الى تمكين قدمه فبايعه اهلها سنة ٤٥٣ هـ وهكذا خرجت هذه الجزيرة من سلطة الفاطميين . وما زالت سيسليا في حوزة روجر الى ان مات فخلفه ابنه ولقب روجر الثاني في سنة ٤٩٥ هـ فتتبع خطوات ابيه في اصلاح شأن الجزيرة فتقدمت في ايامه تقدمًا عظيمًا لم تبلغه في سائر ازمانها فنست الازمان التي مضت عليها وهي غارقة في التقلبات والتحزبات وسفك الدماء . اما المسلمون الذين اختاروا المكوث في الجزيرة فكانوا متمتعين بجميع حقوقهم المدنية والسياسية والدينية



وترى في الشكل التاسع والثلاثين صور النقود التي ضربت على عهد ملوك سيسليا الاقدمين في بالرم عاصمة ايطاليا اذ ذاك

ش ٣٩ نقود ملوك سيسليا القدماء مضروبة في بالرم

وفي الشهر الاول من سنة ٤٨٧ هـ توفي المقتدي بالله الخليفة السابع والعشرين من بني العباس وفي الشهر الاخير توفي المستنصر ووزيره الباسل امير الجيوش كما تقدم وكانت وفاتهما خسارة جسيمة على العالم الاسلامي وصدمة قوية على الخلافة . وترى في الاشكال ٤٠ و٤١ و٤٢ صور النقود الذهبية التي ضربت في ايام الخليفة المستنصر بالله فالاولى ضربت



في القاهرة سنة ٤٢٨ هـ والثانية في صور سنة ٤٤٢ هـ والثالثة ضربت سنة ٤٦٥ هـ . ولم يغفل بدر الجمالي قبل موته عن النظر في

ش ٤٠ نقود المستنصر ضربت سنة ٤٢٨ هـ

مستقبل المملكة فاوصى بتدبيرها لولدهِ الثاني شاهين شاه (لان الاول كان عاصياً كما تقدم) فانهُ كان فاضلاً حكيماً وكان قبل وفاة ابيهِ لا ينفك عن ملاصقتهِ والاكتساب



ش ٤١ نقود المستنصر ضربت سنة ٤٤٣ هـ

من سيرتهِ فتدرب على يدهِ وكان يساعدهُ في آرائهِ فرأى فيهِ ابوهُ رجلاً يليق بادارة الاحكام واستلام زمام الامور . ولما تولى شاهين شاه



ش ٤٢ نقود المستنصر ضربت سنة ٤٦٥ هـ

الوزارة لُقب بالافضل وبجميع الالقاب والامتيازات التي كانت لابيهِ امير الجيوش

خلافة المستعلي بن المستنصر

من سنة ٤٨٧ ــ ٤٩٥ هـ أو من ١٠٩٤ ــ ١١٠١ م

اما المستنصر فاوصى بالخلافة لابنهِ الثاني احمد الملقب بابي القاسم فبادر الافضل الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقَّبهُ بالمستعلي بالله وسير الى الامير نزار والامير اسماعيل اولاد المستنصر فجاءُوا اليهِ فاذا اخوهم قد جلس على سرير الخلافة فامتعضوا لذلك وشق عليهم فامرهم الافضل بتقبيل الارض وقال لهم « قبلوا الارض لمولانا المستعلي بالله وبايعوهُ فهو الذي نصَّ عليهِ الامام المستنصر قبل وفاتهِ بالخلافة من بعدهِ » فامتنعوا من ذلك وقال كل منهم ان اباهُ قد اوصى لهُ بالخلافة وقال نزار لو قُطعت ما بايعت من هو اصغر مني

وخطُّ والدي عندي باني وليُّ عهدهِ وانا احضرهُ وخرج مسرعًا ليحضر الخط فمضى لا يدري بهِ احد وتوجه الى الاسكندرية فلما ابطأ مجيئهُ بعث الافضل اليهِ ليحضر بالخط فلم يعلم لهُ خبرًا فانزعج لذلك انزعاجًا عظيمًا . وكان الافضل حاقدًا على نزار لاسباب منها انهُ دخل يومًا من باب وهو راكب فصاح بهِ نزار انزل يا ارمني الجنس فحقدها عليهِ وصار كل منهما يكره الآخر فلما مات المستنصر خاف الافضل من مبايعة نزار لانهُ كان رجلاً كبيرًا ولهُ حاشية واعوان فعمد على مبايعة اخيهِ احمد بعد ان اجتمع بالامراء وخوَّفهم من نزار وما زال بهم حتى وافقوهُ على الاعراض عنهُ وكان من جملتهم محمود بن مصال فبعث الى نزار واعلمهُ بما كان من اتفاق الافضل مع الامراء على اقامة اخيهِ احمد وادارتهِ لهم عنهُ ثم كان استدعاء الافضل لهُ ولاخيهِ لمبايعة اخيهما . فلما خرج نزار ليأتي بوصية ابيهِ لهُ بالخلافة سار من القصر متنكرًا ومعهُ ابن مصال الى الاسكندرية وفيها الامير نصر الدولة افتكين احد مماليك امير الجيوش بدر الجمالي ودخلا عليهِ ليلاً واعلماهُ بما كان من الافضل وترامَيا عليهِ ووعدهُ نزار بان يجعلهُ وزيرًا مكان الافضل فقبلهما اتم قبول وبايع نزارًا واحضر اهل الثغر لمبايعتهِ فبايعوهُ ونعتهُ بالمصطفى لدين الله فبلغ ذلك الافضل فاخذ يتجهز لمحاربتهم وخرج في آخر محرم سنة ٤٨٨ هـ بعساكرهِ وسار الى الاسكندرية فبرز اليهِ نزار وافتكين وكانت بين الفريقين عدة حروب شديدة انكسر فيها الافضل ورجع بمن معهُ منهزمًا الى القاهرة فقوي نزار وافتكين وصار اليهما كثير من العرب واشتد نزار وعظم واستولى على بلاد الوجه البحري واخذ الافضل يتجهز ثانيةً لمحاربتهِ ودسَّ الى اكابر العربان ووجوه اصحاب نزار وافتكين ووعدهم وسار قاصدًا الاسكندرية فنزل اليها وحاصرها حصارًا شديدًا والحّ في مقاتلتها . فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد البلاء من الحصار جمع ابن مصال مالهُ وفرَّ في

البحر الى جهة بلاد الغرب فانكسرت شوكة نزار واشتد الافضل وتكاثرت جموعهُ فبعث نزار وافتكين اليهِ يطلبان الامان فامَّنهما ودخل الاسكندرية وقبض على نزار وافتكين وبعث بهما الى القاهرة فاما نزار فانهُ قتل في القصر بان اقيم بين حائطين بُنيا عليهِ فمات بينهما واما افتكين فقتلهُ الافضل بعد قدومهِ

فعاد النظام الى البلاد فعكف الافضل على استرجاع البلاد التي كانت قد خرجت من الدولة الفاطمية ودخلت في حوزة دولة جديدة أُقيمت على أثر الدولة العباسية نعني بها دولة الأُرتقيين

وكيفية نشوء هذه الدولة ان السلجوقيين خرجوا من بلاد التتر قبل ذلك الحين بنصف قرن فافتتحوا بلاد فارس وكانت تابعة للدولة العباسية ثم التقوا في غربيها بقبائل من التركمان عائشين على تربية المواشي لا معرفة لهم بالحروب فاخرجوهم من ضواحي بحر قسبين وساقوهم الى حدود سوريا. فلما بلغوا ذلك المكان اضطروا لتنازع البقاء ان يقاوموا من يمنعهم من نوال رزقهم فاستخدموا قوتَي الهجوم والدفاع حتى اصبحوا كغيرهم من المحاربين ولكنهم ما لبثوا ان اصبحوا كذلك حتى كانت الدولة السلجوقية قد امتدت الى حيث هم فدفعتهم امامها فتقهقروا الى غربي سوريا وانتشروا فيها وفي فلسطين. فامير التركمانيين المتقدم ذكرهم كان يدعى ارتُق ابن اكسك استولى على اورشليم فاسَّس دولة عرفت بدولة الارتقيين. وفي سنة ٤٨٤ هـ توفي أُرتُق تاركًا ولدين الغازي وسقمان فحكما معًا في بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا وكانت جميع هذه البلاد في قبضة الخلفاء الفاطميين. ففي ايام شاهين شاه الافضل كان الارتقيون على ما تقدم والسلجوقيون في بلاد فارس والقسم الشرقي من سوريا

وفي سنة ٤٩١ هـ سار امير الجيوش الافضل لتخليص بيت المقدس

من الارتقيين فطلب التسليم فابوا فضربها بالمنجيق فهدم بعضها فسلمت وفرّ الارتقيون الى شرقي سوريا فسار سقمان الى الرها واقام لنفسهِ حكومة فيها وضمّ اليهِ ديار بكر واستولى الغازي على العراق العربي وانشأ مملكة في ماردين

ثم كانت الحروب الصليبية اذ ذاك في اول نشأتها . تلك ايام التعصبات الدينية العمياء التي يخجل التاريخ من ذكرها فكم اهرقت من الدماء وكم احرمت من الراحة فان ذلك التعصب قد ساق اهل اوربا من بلادهم بالعدة والرجال لمحاربة سوريا وفلسطين ومصر ولم تكن النتيجة الّا اهلاك العباد المقصود انقاذهم فمن نجا من السيف لم ينجُ من الاستعباد وانما نمسك القلم عن الخوض في هذا الموضوع الذي يسوّد القلوب ويشوّه وجه الانسانية فنتأمل الحالة التي كانت البلاد الاسلامية فيها من الارتباك وما كان في طريقها من العقبات . فقد تقدم انها كانت منقسمة فيما بينها ثم قام اهل اوروبا جميعًا وجاهروا بمحاربتها جهادًا في سبيل الدين على ما يزعمون وكانوا يجتشدون في القسطنطينية بامر الامبراطور الكسيس كمنين الاول وكان السلجوقيون يتقدمون في اسيا يفتحون البلد بعد الآخر حتى بلغوا الاناضول فاصبحوا يتهددون المسلمين في مصر كما يتهددون النصارى في القسطنطينية وما زالوا سائرين نحو القسطنطينية حتى شاطئ البوسفور الشرقي فلم يعد بينهم وبين القسطنطينية الّا ذلك البوغاز وكان اذا ذكر اسم الله في معسكر المسلمين وقت الصلاة يسمعهُ المسيحيون واضحًا في كنيسة القديسة صوفيا على الجانب الآخر . ثم قطعت جيوش النصارى البوسفور وكان عددها عظيمًا فقابلها السلطان قلج ارسلان السلجوقي ابن سليمان مؤسس الدولة السلجوقية فحاربوه وارجعوهُ وجيشهُ الى الوراء واستولوا على مدينة نيسي ثم انطاكية وعند ذلك جاء المسلمين مدد مؤلف من كتبوغا امير الموصل ودقاق امير دمشق وجناح الدولة امير حمص ومع

كل منهم فرقة من الرجال فاحاطوا بالصليبيين وضيقوا عليهم فتجمع هولاء من اليأس ودفعوا قوات المسلمين وفرقوها فلم يعد امامهم ما يوقفهم عن التقدم فاستولوا على المعرة بعد حرب ودخلوا حمص بدون حرب وانتشرت جيوش النصارى في جميع انحاء سوريا الغربية وفلسطين كالامواج المتلاطمة فلاقتها جيوش مصر هناك وكانت بيت المقدس تحت حكم الخليفة المستعلي الفاطمي منذ استخلصها من الارتقيين فحاصرها الصليبيون اربعين يومًا ثم افتتحوها عنوة ودخلوها يوم الاربعاء في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ ﻫ (١٤ يوليو (تموز) سنة ١٠٩٩ م) في مذبحة استمرت اسبوعًا فاصبحت الجثث متراكمة في الاسواق فجعلوا يجمعونها في الجامع الاقصى وقيل انه قتل في تلك المعركة نحو من سبعين الف نفس واغتنم الصليبيون غنائم كبيرة وساروا لفتح مصر

فاضطربت مصر لتلك الاخبار واصبحت تخشى ان يصيبها مثل ذلك فجند امير الجيوش لمحاربة الصليبيين جيشًا جرارًا تحت قيادة سعد الدولة فسار الجيش وما زالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبية عند اسوار عسقلان فحاربوها فارجعوها على اعقابها . فلما رأى الصليبيون انهم خارج حدود مصر لم يعودوا يطمعون فيها فوجهوا مطامعهم شرقًا نحو ما بين النهرين فالتقت فرقة منهم بكمشتكين امير ملاطية وسيواس فكسرها الاّ ان ذلك لم يوقفهم عن مرادهم فساروا من الجهة الواحدة نحو ديار بكر الى السروج ومن الجهة الاخرى حتى استولوا على ارصوف وقيصرية

ومرّت سنتا ٤٩٣ و٤٩٤ ﻫ في مثل هذه المناوشات وفي يوم الثلاثا ١٧ صفر سنة ٤٩٥ ﻫ توفي الخليفة المستعلي بالله في القاهرة بعد ان حكم ٧ سنوات وشهرين وله ولد اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره فشاهين شاه الذي كان وصيًا على المستعلي كان وصيًا على ابنه ايضًا وكان قد عُهد اليه ان يلقبه عند مبايعته بالآمر باحكام الله ففعل

خلافة الآمر بن المستعلي

من سنة ٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ او من ١١٠١ ـ ١١٣٠ م

وكان الصليبيون اثناء ذلك لا يزالون في فتوحاتهم في سوريا مغتنمين فرصة انقسام القوات الاسلامية . وقد كان الواجب في مثل هذه الحال ان يتحدوا يداً واحدة لمقاومة الاغراب لكنهم جاءوا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتت القوات فكانت تلك فرصة لجماعة الصليبين لم يضيعوها لان الكونت سنجيل بعد ان استولى على طرطوس وحمص وجبيل وطرابلس الشام تقدم نحو عكا سنة ٤٩٧ هـ وحاصرها براً وبحراً . وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالجيوشي لانه كان من اتباع امير الجيوش . وطال امد الحصار حتى ملّ الصليبيون الانتظار فهاجموا المدينة ودخلوها عنوة وفتكوا بمن فيها وفرّ زاهر الدولة الى الشام ومنها الى مصر

ووصل الى مصر في ذلك الحين ايضاً الامير خلف بن ملاعب من قبيلة بني كلاب وكان والياً على حمص واخرجه منها تناش حاكم دمشق زوراً سنة ٤٨٥ هـ فاتى الى مصر عارضاً نفسه لخدامة الخلفاء الفاطميين بعد ان طاف جميع انحاء المملكة الاسلامية لاستطلاع احوالها شأن المحب لمعرفة حقائق الاشياء فوصل مصر والخليفة باحتياج الى خدامته وذلك ان ابامه غربي سوريا كان قد تملكها السلطان رضوان فخر الدولة السلجوقي واقام عليها والياً من قبله فخر هذا الوالي لامير الجيوش سرًّا انه مستعد لتسليم المدينة لأيّ من يكون مرسلاً من خليفة مصر . فتقدم الامير خلف لهذه المهمة فقبل فسار الى ابامه وتملكها للحال الا انه لم ترسخ قدمه فيها حتى

نبذ الطاعة واوقف دفع الجزية فاراد الخليفة معاقبتهُ فلم يستطع لما كانت عليهِ سوريا اذ ذاك من القلاقل الجسيمة فانف قاضي تلك المدينة واعيانها من البقاء على تلك الحال فحرروا الى والي حلب يطلبون حمايتهُ فحماهم فسلموا لهُ المدينة وقتلوا خلفًا وبعض افراد عائلتهِ . لكن الدهر لم يدم لهم لانهم ذهبوا غنيمة للصليبيين في سنة ٤٩٩ هـ واول من قتل منهم القاضي المتقدم ذكره

وفي اثناء ذلك كان الكونت سنجيل محاصرًا لطرابلس الشام واميرها توجه الى بغداد يستمد الخليفة المستظهر والسلطان ملك شاه السلجوقي فلم يمدَّاهُ بشيء فاحتمى اهلها بخليفة مصر فحماهم وبعث الافضل الى طرابلس احد اوليائهِ وتملكها باسم الخليفة الآمر وارسل اليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع عنها الصليبيين فتأخر وصولها لمعاكسة الريح لها . وفي ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ (٣ يوليو سنة ١١١٠ م) فتح الصليبيون طرابلس الشام عنوة وقتلوا قسمًا من اهلها واستعبدوا القسم الآخر فسببوا بدخولهم اليها من الخسائر ما لا يمكن ان تسببهُ الحرب . وفي مدة سبع سنين كلها حروب دموية استولى الصليبيون على سوريا وفلسطين وجعلوا بيت المقدس عاصمة لملكهم . اما مصر فكانت في جميع هذه الحوادث ملتزمة جانب الحيادة الاَّ المدافعة عند مسّ الحاجة وكانت تعد ذاتها سعيدة لنجاتها من هجمات اولئك الصليبيين كل ذلك بتدبير الافضل امير الجيوش

وفي سنة ٥٠٦ هـ امر الافضل ببناء خليج سماه بحر ابي المنجا لان الذي ناظر على حفره هو ابو المنجا ابو شعيا اليهودي . واقام الافضل ايضًا مرصدًا عظيمًا كلفهُ مشقة ليست يسيرة وجعل مركز ذلك المرصد على ارتفاع في جوار المقطم كان يعرف قديمًا بالجرف ثم لما اقيم فيهِ المرصد صار يعرف بالرصد

على ان هذه الهمة والنشاط والغيرة التي كان يبذلها الافضل امير

الجيوش في سبيل صالح البلاد ووقايتها لم تكن تحرّك من الخليفة الآمر باحكام الله ساكنًا فقد كان منغمسًا بالملاهي لا يسمع بغانية جميلة الا استدعاها وكان لهُ شغف خصوصي بالجواري البدويات . ومن اقاصيصهِ انهُ بلغهُ ان في الصعيد جارية من أكمل العرب واظرف نسائهم شاعرة جميلة فيقال انهُ تزيّا بزيّ بداة الاعراب وصار يجول في الاحياء الى ان انتهى الى حيّها وبات هناك في ضائفة وتحيل حتى عاينها فما ملك صبرهُ ورجع الى مقر ملكهِ وسرير خلافتهِ فارسل الى اهلها يخطبها فاجابوهُ الى ذلك وزوجوهُ بها فلما صارت الى القصور صعب عليها مفارقة ما اعتادت عليهِ واحبت ان تسرح طرفها في الفضاء ولا تقبض نفسها تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء الذي اشتهر في الجزيرة بالهودج وكان على شاطئ النيل بشكل غريب . الّا ان البدوية بقيت متعلقة الخاطر بابن عمّ لها ربيت معهُ يعرف بابن مياح فكتبت اليهِ وهي في قصر الخليفة الآمر

يا ابن مياح اليك المشتكي	مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حيّيَ مرءًا مطلقًا	نائلاً ما شئت منكم مدركا
فانا الآن بقصر مؤصد	لا ارى الّا حبيسًا ممسكا
كم تثنينا باغصان اللوا	حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى	حيثما شاء طليق سلكا

(فاجابها)

بنت عمي والتي غذيتها	بالهوى حتى علا واحتنكا
بحتِ بالشكوى وعندي ضعفها	لو غدا ينفع منها المشتكى
مالك الامر اليهِ يشتكى	هالك وهو الذي قد هلكا
شأن داود غدا في عصرنا	مبديًا بالتيه ما قد ملكا

فبلغت الآمر فقال لولا انهُ اساء الادب في البيت الرابع لرددتها الى حيهِ وزوجتها بهِ

وفي اواخر سنة ٥١١ ﻫ خرج بردويل ملك الصليبيين من بيت المقدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح اهلها واحرق جميع جوامعها وهمّ الى مصر فداهمهُ مرض حملهُ على العود حالاً فعاد قاصداً بيت المقدس فمات قبل ان ادرك العريش فنزعوا احشاءهُ ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العريش في وسط ارض رملية واقاموا على قبرهِ حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً الى ايامنا هذه باسم رمال بردويل اما جثتهُ فحملوها الى بيت المقدس . وبموت بردويل نجت مصر من فتوح عظيم وبقي الصليبيون سبع سنوات اخرى لا يستطيعون مناهضة مصر لانشغالهم بهجمات المسلمين من شرقي سوريا ففي سنة ٥١٨ ﻫ اتى الصليبيون صور واخذوها صلحاً موذنين للمسلمين ان يخرجوا منها بكل ما يستطيعون حملهُ من المتاع . وكانت صور اذ ذاك تابعة لمصر فخاف خليفتها من تقدم الصليبيين الى مصر نفسها وكانوا قد كفوا عن الفتوح فنبههم اليهِ الارتقيون وعماد الدين زنكي في شرقي سوريا والعراق

وفي اثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش وبالاسماعيليين نسبة الى اسماعيل رئيسهم وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان اسماعيل يترصد فرصة الغزو والنهب فلما رأى الدول القوية منشغلة بالحرب في انحاء المشرق وضع يدهُ على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة ويصالحهم اخرى الى ان انتهى بهِ الامر فاقام حكومة بين ظهرانيهم وابتنى حصوناً منيعة ارهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع جزية معلومة وقاية من فتكهِ بحياتهم فانهُ كان متفنناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجالهِ الدهاة . وفي سنة ٥٢٤ سعى امير الباطنيين الى قتل الآمر باحكام الله فانفذ اليهِ بعض دهاتهِ فقتلوهُ في ٢ ذي القعدة من السنة المذكورة وهو متوجه الى

زيارة معشوقته البدوية وكان سنهُ ٢٥ سنة وحكمهُ ٣٠ سنة تقريباً

ونرى في شكل ٤٣ صورة نقود الآمر باحكام الله ضربت بالاسكندرية سنة ٥١٢ ه‍ (انظر شكل ٤٣)



ش ٤٣ نقود الآمر باحكام الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الحافظ بن محمد

من سنة ٥٢٤ ــ ٥٤٤ ه‍ او من سنة ١١٣٠ ــ ١١٤٩م

ولم يكن للآمر اولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمهِ عبد المجيد ابن القاسم بن محمد ولكن ارملة الخليفة كانت حاملاً فلُقّب عبد المجيد بنائب الملك بينما يرون ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويع عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله فاستوزر احمد بن الافضل بن امير الجيوش فقام بالوزارة حق القيام فعظم في عيني الخليفة فكثر حسّادهُ فقتلوهُ . فاستوزر وزيراً آخر اختبر فيهِ الدراية والحكمة واسمهُ بهرام لكنهُ لم يلبث يسيراً حتى قتل في اواخر سنة ٥٤٢ ه‍ فعزم الخليفة بعد ذلك ان يقوم باعباء الوزارة بنفسهِ

وفي خلال ذلك لم يكن في مملكة مصر اضطراب الاَّ فيما يتعلق بمشاركتها سوريا بالحروب الصليبية على انها ما فتئت ساهرة تخشى غائلة تلك التعصبات لكنها لم تلبث ان ارتاحت نوعاً من حروبها في الشرق حتى ظهر لها عدو هائل في الغرب فاصبحت الدولة الفاطمية حجراً بين مطرقتين فعدوهم في الشرق الصليبيون واما في الغرب فملك سيسليا روجر الثاني . فقد تقدم انهُ تولّى هذه الجزيرة بالارث وكان الفاطميون

قد علموا بذهابها من ايديهم فلم يأسفوا عليها لبعدها عن مركز حكومتهم . الّا ان روجر المذكور لم يقنع بما نالهُ فحملتهُ مطامعهُ ان يجرد عمارة مؤلفة من مائتين وخمسين شراعاً و يتقدم نحو افريقيا فتقدم في سنة ٥٢٩ ه واستولى على برصة وقتل كل من كان فيها من الرجال واستعبد النساء . وفي سنة ٥٤١ ه وضع يدهُ على طرابلس الغرب وفي سنة ٥٤٢ ه على المهدية مهد الخلافة الفاطمية وكان قد هجرها اهلها لجوع منقع استولى عليهم . ثم تقدم روجر من هناك قاصداً الاسكندرية . فوقعت مصر في حيص بيص وقد اصبح هذا العدو في عينها اشدّ وطأة من الصليبيين لانشغالهم عن مصر اذ ذاك بما كان يهددهم بهِ زنكي واتابك محمود الملقب بالملك العادل نور الدين . وفي اثناء ذلك توفي الخليفة الحافظ في جمادى الثانية سنة ٥٤٤ ه بعلّة القولنج وكان كثير الاصابة بها . فعمل لهُ موسى النصراني طبل القولنج وهو عبارة عن طبل مركب من سبع معادن عليهِ الكواكب السبع وكان من خاصتهِ ان الانسان اذا ضربهُ خرج الريح من مخرجهِ ولهذه الخاصية كان ينفع في القولنج . وكان سنُّ الحافظ عند موتهِ ثمانين سنة ومدة حكمهِ ١٩ سنة و ٧ اشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيءٍ فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائهِ مكتفياً بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديهِ من السلطة السياسية الا الامضاء على الاوامر في تثبيت الامراء على اماراتهم شأن الدول عند قريب انحلال ملكها الّا ان تغيير الوزراء جعل فيهِ بعض الاهتمام في الاحكام . وترى في شكل ٤٤ صورة نقود الحافظ لدين الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٤ ه وهي السنة التي توفي فيها



ش ٤٤ نقود الحافظ لدين الله

خلافة الظافر بن الحافظ

من سنة ٥٤٤ ـ ٥٤٩ ه او من ١١٤٩ ـ ١١٥٤م

واستخلف الحافظ ابنهُ اسماعيل ابا المنصور فبويع ولقب بالظافر بامر الله لكنهُ لم يكن مسمًّى لذلك الاسم وكان سنهُ ١٧ سنة وهو اصغر اولاد ابيهِ سنًّا وكان كثير اللهو واللعب والتفرد بالجواري واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في سرايتهِ الآيلة الى خراب مملكتهِ بعين المتردد المتهامل وبمثل ذلك كان ينظر الى تهدد جنود سيسيليا من جهة الغرب والصليبيين من الشرق فكان كلٌ منهما يقترب رويدًا رويدًا من قاعدة المملكة الفاطمية وكان الظافر مشعرًا بقرب سقوط خلافتهِ و بسقوطها تسقط الدولة الفاطمية ولا يبدي حراكًا

وفي السنة الرابعة من حكمهِ وهي سنة ٥٤٨ ه حاصر الصليبيون عسقلان وكانت من املاك الفاطميين ونظرًا لوقوعها على الحدود القصوى لملكتهم ولكثرة تعرضها لهجمات الصليبيين كان الوزراء في ايام الخلفاء السالفين يعززونها من وقت الى آخر بمهمات الدفاع وفي بداية خلافة الظافر توفي وزيرهُ ووقع الخلاف بين ذوي شوراه فانشغلوا بذلك عن صيانة البلاد فاهملوا امر عسقلان فاغتنم الصليبيون هذه الفرصة الثمينة وحاصروا المدينة وضيقوا عليها حتى سلمت . فجاء خبر سقوطها الى القاهرة مصحوبًا بخبر آخر اشدّ وطأة منهُ وهو ان العمارة السيسيلية نزلت على سواحل مصر واحرقت مدينة تانس في منتصف بحيرة المنزلة ونهبت الفرما الاَّ انها لم تتقدم اكثر من ذلك فاخذت ما امكنها حملهُ من الغنائم وعادت الى حيث اتت

ومن سنة ٥٤٩ ه انتهت حياة الخليفة الظافر وحكمهُ معًا وسبب

موته انه كان غارقاً في الشهوات الوحشية مشتغلاً عن مهام الدولة فشق ذلك على وزيره العباس فاوعز الى ابنه نصر ان يقتله وينجي البلاد من شره ويتخلص مما كان يتقول الناس في عرضهما من معاشرته اياهُ فاستدعاهُ الى دار ابيه سرًّا بحيث لم يعلم به احد وتلك الدار هي المدرسة الحنفية التي عرفت بالسيوفية فقتله بها واخفى قتله في منتصف محرم سنة ٥٤٩ هـ فاتى نصر الى ابيه العباس واخبرهُ بذلك من ليلته . ولما كان الصباح اقبل عباس الى القصر على جاري عادته في الخدمة واظهر عدم الاطلاع على قضيته وطلب الاجتماع به ولم يكن اهل القصر قد علموا بقتله بعد فانه خرج من عندهم في خفية وما علم احد بخروجه فدخل الخدم الى موضعه ليستأذنوا للعباس فلم يجدوهُ فدخلوا الى قاعة الحرم فقيل انه لم يبت هنا فتطلبوهُ في جميع مظانّه في القصر فلم يقعوا له على خبر فتحققوا قتله فاخرج عباس اخوي الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما انتما قتلتما إمامنا وما نعرف حالة الا منكما فاصرّا على الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلهما في الوقت لينفي عن نفسه وابنه التهمة .



وترى في شكل ٤٥ صورة نقود الظافر بامر الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٥ هـ

ش ٤٥ نقود الظافر بامر الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الفائز بن الظافر

من سنة ٥٤٩ – ٥٥٦ هـ او من ١١٥٤ – ١١٦٠ م

فاستدعى العباس الفائز بن الظافر وتقدير عمره خمس سنوات وقيل سنتان فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وامر ان تدخل الامراء

فدخلوا فقال لهم هذا ولد مولاكم وقتل عمّهُ اباهُ وقد قتلتهما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل فقالوا باجمعهم سمعنا واطعنا وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموهُ الفائز وسيروهُ الى امهِ وقد اختلّ من تلك الصيحة فصار يصرع في كل وقت ويختلج

فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وانفرد بالتصرف ولم يبقَ على يدهِ يدٌ واما اهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر واخذوا في اعمال الحيلة في قتل عباس وابنهِ فكاتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني وهو ابو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام علي بن ابي طالب بارض النجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الامامية فتنبأ له الامام انهُ سيتولى مصر بناء على رؤية رآها في منامهِ فسار من ساعتهِ الى مصر وصار يترقى في الخدم حتى ولي منية خصيب

فلما صار اهل القصر الى ما صاروا اليهِ كتبوا الى طلائع وسألوهُ الانتصار لهم ولمولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليهِ أطلع من حولهُ من الاجناد عليهِ وتحدث معهم في المعنى فاجابوا الى الخروج معهُ واستمال جمعًا من العرب وساروا قاصدين القاهرة وقد لبسوا السواد فلما قاربوها خرج اليهم جميع من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباسًا وحدهُ فخرج عباس في ساعتهِ من القاهرة وخرج معهُ ولدهُ نصر ومعهما شيءٌ من المال وجماعة يسيرة من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على ايلة وذلك في ١٤ ربيع اول سنة ٥٤٩ هـ . اما الصالح بن رزيك فانهُ دخل القاهرة بدون قتال وما قدم شيئًا على النزول بدار عباس المتقدم ذكرهُ . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتلهِ وسألهُ عن الموضع

الذي دفن فيهِ فعرَّفهُ بهِ وقلع البلاطة التي كانت عليهِ واخرج الظافر ومن معهُ من المقتولين فحُملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح والخلق قدام الجنازة الى موضع المدفن في تربة الفاطميين

وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبَّر احوالهُ . واما عباس فان اخت الظافر كاتبت افرنج عسقلان بشأنهِ وشرطت لهم مالاً جزيلاً اذا امسكوهُ فخرجوا عليهِ وصادفوه فتواقعوا وقتلوا عباساً واخذوا مالهُ وولدهُ وانهزم بعض اصحابهِ الى الشام وفيهم ابن منقذ فسلموا . وسيَّرت الافرنج نصر بن عباس الى القاهرة تحت الحوطة في قفص من حديد . فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطته لهم من المال فاخذوا نصراً وضربوهُ بالسياط ومثلوا بهِ وصلبوهُ بعد ذلك على باب زويلة ثم انزلوهُ يوم عاشوراء سنة ٥٥١ ﻫ واحرقوهُ

ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الا مدة ست سنوات وفي سنة ٥٥٥ ﻫ توفي وكانت مصر قد انحطت في ايامهِ الى مهاوي الضعف حتى انهُ كان يدفع مبلغاً وافراً من النقود ترضية للصليبيين في بيت المقدس ليتوقفوا عن الغزو من جهة عسقلان وغزة

خلافة العاضد بن يوسف

من سنة ٥٥٦ــ٥٦٧ ﻫ او من ١١٦٠ــ ١١٧١ م

وبعد وفاة الخليفة الفائز اخذ الملك الصالح يهتم في اقامة من يخلفهُ فقدم السراي فقدموا لهُ شيخاً من العائلة الفاطمية لم يكن ثم احقُّ منهُ للخلافة فهمَّ الى مبايعتهِ فجاءهُ احد اصدقائهِ وهمس في اذنهِ قائلاً « ان سلفك في الوزارة كان احسن تدبيراً منك لانهُ لم يسلم نفسهُ لخليفة سنُّهُ اكثر من خمس سنوات » فرنَّت هذه العبارة في اذن الوزير فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعمد الى

عبدالله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولم يكن بالغًا رشدهُ فبايعهُ ولقبهُ بالعاضد لدين الله وهو الخليفة الرابع عشر للدولة الفاطمية ثم ازوجهُ ابنتهُ ومعها ثروة عظيمة

ولما كانت ادارة الاحكام منوطة بالوزير كان النفوذ الاكبر لهُ ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله اقل استعبادًا من سلفهِ ولقب الصالح بلقب ملك ثم لقب سلطان فتحت اعين الاعداء عليهِ وفي جملتهم عمَّة الخليفة فعزمت على قتلهِ فارسلت اولاد الراعي فكمنوا لهُ في دهاليز القصر وضربوهُ حتى سقط على الارض على وجههِ وحمل جريحًا لا يعي الى دارهِ فمات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ ه وكان شجاعًا كريمًا جوادًا فاضلاً محبًا لاهل الادب جيد الشعر وفيهِ عقلٌ وسياسةٌ وتدبيرٌ وكان مهابًا في شكلهِ عظيمًا في سطوتهِ وغناه وكان محافظًا على الصلوات وفرائضها ونوافلها شديد المغالات في التشيع صنف كتابًا سماه الاعتماد في الرد على اهل العناد جمع لهُ الفقهاء وناظرهم عليهِ وهو يتضمن امامة علي بن ابي طالب والكلام على الاحاديث الواردة في ذلك ولهُ شعر كثير يشتمل على مجلدين في كل فن فمنهُ في اعتقادهِ

يا امة سلكت ضلالاً بينًا ... حتى استوى اقرارها وجحودها
ملتم الى انّ المعاصي لم يكن ... الاّ بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم ... منع الشريعة ان تقام حدودها
حاشا وكلاَّ ان يكون الهنا ... ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

ولم يمت الصالح الاّ بعد ان انتقم من عمة الخليفة باذن من الخليفة نفسهِ لانهُ لم يكن يعتبرها ثم استوزر ابنهُ محيي الدين رزيك ولقبهُ بالملك العادل وكنيتهُ ابو شجاع وهذا استخلف شاور

ومن اعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك انهُ علم بوجود مشهد الحسين (رض) في عسقلان وكان امير الجيوش اثناء حروبهِ في سوريا قد

ظفر بدفن رأس الامام الحسين في تلك المدينة فابتنى عليهِ مشهداً فلما علم طلائع بوجود ذلك المشهد في تلك الجهة خاف عليهِ من هجمة الافرنج فعزم على نقلهِ الى مصر فابتنى لهُ جامعاً مخصوصاً خارج باب زويلة دعاهُ جامع الصالح نسبةً اليهِ ولا يزال هناك بعض انقاضهِ على نية ان يجعل فيهِ المشهد فلما فرغ من بنائهِ لم يمكنهُ الخليفة من ذلك بدعوى انهُ لا يليق ان يكون ذلك الاثر الشريف خارج سور المدينة وابى الَّا ان يجعلهُ في بعض اجزاء قصرهِ المدعو قصر الزمرد فاقام لهُ مشهداً هناك . ثم في سنة ٧٤٠ هـ احترق المشهد فاعيد بناؤهُ مراراً واخيراً اقيم في جوارهِ جامع حتى اذا كانت ايام الامير عبد الرحمن كخيا احد امراء المماليك فاعيد بناء المشهد الحسيني في اواخر القرن الماضي للميلاد وبعد ذلك اعيد بناؤهُ برمتهِ في ايام الخديوي السابق ولم يبقَ من البناء القديم الَّا القبة المغطية لمقام الامام فاصبح على ما نشاهدهُ الآن وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين في السكة الجديدة في القاهرة

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك قد انشأ في وزارتهِ امراء يقال لهم البرقية وجعل في مقدمتهم ضرغام ابا الاشبال فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب فلما تولى شاور الوزارة طمع ضرغام في سلبهِ اياها فجمع رفقتهُ وتخوف شاور وجمع اليهِ رجالهُ فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور فلما كان بعد تسعة اشهر من وزارة شاور اي في رمضان سنة ٥٥٨ هـ ثار ضرغام وصاح على شاور فاخرجهُ من القاهرة وقتل ولدهُ الاكبر المسمى بطي وبقي شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة بريد الشام وكذلك فعل الوزير رضوان بن ولخشي فانهُ كان رفيقاً لهُ في تلك الكرة واستقر ضرغام في وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد شاور وتلقب بالملك المنصور فشكر الناس سيرتهُ فانهُ كان فارس عصرهِ وكان كاتباً جميل الصورة فكه المحاضرة عاقلاً كريماً لا يضع

كرمة الاّ في سمعة ترفعة او مواراة تنفعة الا انة كان اذنا مستخيلاً على اصحابو فاذا ظن في احد شرًّا جعل الشك يقينًا وعجل بالعقوبة . فبلغة بعد حين ان ارفاقة البرقية يسعون على خلعهِ واعادة الوزارة الى شاور فعلى عادتو من التعجيل ارسل اليهم وكانوا نحوًا من سبعين اميرًا سوى اتباعهم واحضرهم الى دار الوزارة ليلاً وقتلهم بالسيف صبرًا فذهبت لذلك رجال الدولة واختلت احوالها وضعفت بذهاب اكابرها وفقد اصحاب الرأي والتدبير منها

وفي اثناء ذلك قصد الافرنج بلاد مصر فخرج اليهم همام اخو ضرغام وحاربهم فغلبوهُ ونزلوا على حصن بلبيس وملكوا بعض السور ثم عادوا الى بلادهم وعاد همام عودًا رديئًا فما هو الا ان قدم رسل الافرنج على ضرغام في طلب مال الهدنة المقرَّرة في كل سنة وهو ٣٣ الف دينار ثم جاء الخبر بقدوم شاور ومعهُ اسد الدين شيركوبه بن شادي وهو كردي الاصل من قبيلة الرواديه من اشهر قبائل الاكراد من مدينة دوين من اعمال اذربيجان وكان شيركوبه هذا واخوهُ نجم الدين ايوب في خدمة الاتابك نور الدين في سوريا منذ مدة طويلة واظهرا من اللياقة ما جعل لهُ فيهما الثقة التامة فلما سار شاور الى دمشق استنجد باتابك نور الدين ليرجع الوزارة الى يدهِ فنور الدين لم يرد اضاعة فرصة كهذه تجعل لهُ يدًا بامور مصر فارسل معهُ اسد الدين شيركوبه في كثير من الغز وسار معهما يوسف ابن اخيو نجم الدين بن ايوب وكان صغير السن ولم يكن لابيو رضى بسفرهِ في هذه الاخطار على صغر سنه ومنعهُ الاتابك ايضًا الاّ انهُ ابى الاّ الرحيل طوعًا لهوى النفس في حب العلى والمجد ولعل التقادير ساقتة الى مصر ليكون سلطانًا عليها تمتد سلطنتهُ الى اقصى الممالك الاسلامية وهذا المولد قد صار بعد ذلك البطل الذي يلهج التاريخ بذكره السلطان صلاح الدين الايوبي اما مولدهُ فقلعة اكريت سنة ٥٣٢ هـ . وسار

الاتابك نور الدين بنفسهِ مشيعاً جيوشهُ حتى حدود مصر وقصدهُ من ذلك ايهام الصليبيين الذين في طريقهِ انهُ آتٍ لمحاربتهم فانحصروا في مدنهم ومرَّ جيشهُ بامان ولا معارض حتى مصر

فلما علم ضرغام بقدوم شاور ومن معهُ ومطاليب الصليبيين اضطرب واصبح الناس في ٢٩ جمادى الاولى سنة ٥٥٩ هـ خائفين على انفسهم واموالهم فجمعوا الاقوات والماء وتحولوا من مساكنهم وخرج همام بالعسكر اول يوم من جمادى الاخرة فسار الى بلبيس وكانت لهُ وقعة مع شاور انهزم فيها . وصار الى شاور واصحابهِ جميع ما كان مع عساكر همام واسروا عدة ونزل شاور بمن معهُ الى التاج (قليوب) ظاهر القاهرة يوم الخميس ٦ جمادى الاخرة فجمع ضرغام الناس وضم اليهِ الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية بداخل القاهرة وشاور مقيم في التاج مدة ايام ثم سار شاور ونزل في المقس (الازبكية) فخرج اليهِ عسكر ضرغام وحاربهُ فانهزم هزيمة قبيحة وسار الى بركة الحبش ونزل بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك مدينة مصر القديمة واقام بها اياماً . فاخذ ضرغام مال الايتام الذي كان بمودع الحكم فكرههُ الناس واستعجزوهُ ومالوا مع شاور فتنكر منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم لهُ . ونزل شاور في ارض اللوق خارج باب زويلة وطارد رجال ضرغام وزحف الى باب سعادة وباب القنطرة وطرح النار في اللولؤة وما حولها من الدور وعظمت الحروب بينهُ وبين اصحاب ضرغام وفني كثير من الطائفة الريحانية فبعثوا الى شاور ووعدوهُ انهم عون لهُ فانحل امر ضرغام فارسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمي فخرج الرجال الى شاور وصاروا من جملتهِ وفترت همة اهل القاهرة واخذ كل منهم يعمل الحيلة في الخروج الى شاور فامر ضرغام بضرب الابواق والطبول ما شاء الله من فوق الاسوار فلم يخرج اليهِ احد وانفك عنهُ الناس فسار الى باب الذهب من ابواب

القصر ومعهُ ٥٠٠ فارس فوقف وطلب من الخليفة ان يشرف عليهِ من الطاق وتضرع اليهِ واقسم عليهِ بآبائهِ فلم يجبهُ احد واستمر واقفاً الى العصر والناس تنحلُّ عنهُ حتى بقي في نحو ٣٠ فارساً فوردت عليهِ رقعة مكتوب فيها «خذ نفسك وانجُ بها» واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر شاور فمرَّ ضرغام الى باب زويلة فصاح الناس عليهِ ولعنوهُ وتخطفوا من معهُ وادركهُ القوم فاردوهُ عن فرسهِ قريباً من الجسر الاعظم فيما بين القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة نفيسة واحتزوا رأسهُ في غاية جمادى الاخرة وفرَّ منهم اخوهُ الى جهة المطرية فادركهُ الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل اخوهُ الآخر عند بركة الفيل وبقي ضرغام ملقى على الارض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها وكانت وزارتهُ ٩ اشهر وكان من أجلّ اعيان الامراء واشجع فرسانهم واجودهم لعباً بالكرة واشدهم رمياً بالسهام وكان لهُ مع ذلك خط ابن مقلة وكان ينظم الموشحات الجيدة ولما جيء برأسهِ الى شاور رفع على قناة وطيف بهِ فقال الفقيه عمارة

ارى جنك الوزارة صار سيفاً يجزُّ بحدّهِ جيد الرقابِ
كأنك رائد البلوى والّا بشير بالمنية والمصابِ

وهكذا اعيدت وزارة مصر الى شاور فاستلم زمامها وصار يدفع للاتابك نور الدين ثلث محصولاتها مقابلة لما بذلهُ في اعادتهِ اليها. الّا ان الاتابك لم يكن هذا حد مطامعهِ في مصر فقد كان لهُ بتلك الحملة غرضان الاول ان يقضي حق شاور لانهُ قصدهُ مستصرخاً والثاني ان يستعلم عن احوال مصر لانهُ كان يبلغهُ انها ضعيفة من جهة الجند واحوالها في غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك . ولما اقيم شاور على مصر اقيم بينهُ وبين نور الدين اتفاق سرّي بشان تسليم مصر. الا ان الشيطان وسوس لشاور انهُ قادر على دفع جيوش نور الدين فينال

السلطة لنفسهِ فكتب الى شيركوبه ان يسير الى سوريا وكان معسكرًا بجوار القاهرة فاجابهُ الى طلبهِ بعد ان اطلق فرقة من جيوشهِ استولت على بلبيس وباقي الحوف الشرقي فلما علم بذلك شاور عمد الى معاهدة الصليبيين على اخراج جنود شيركوبه واوعز اليهم ان اخراج هذه الجيوش الاسلامية من مصر يفيدهم اكثر مما يفيدهُ وبلغهم اثناء ذلك ان نور الدين قادم من الشام في جيش جرار الى مصر امدادًا لشيركوبه فخاف الصليبيون ولم يعاهدوا شاور مكتفين بالمحافظة على مراكزهم . الا انهم طلبوا الى شيركوبه ان يخلي بلبيس ويسترجع مأسوريهِ ويتوجه الى سوريا ولم يكن عالمًا بقدوم نور الدين وجيشهِ فقبل فاخلى بلبيس وسار الى سوريا فالتقى بنور الدين في حربهِ مع الصليبيين فاتحد معهُ وحاربا وانتصرا الا ان انتصارهما لم يقلل شيئًا من رغبة شيركوبه في افتتاح مصر فكان من وقت الى آخر يحث نور الدين على ذلك . وقال بعض المؤرخين ان شيركوبه استنجد خليفة بغداد ايضًا واغراهُ على مغالبة الخلفاء الفاطميين فوافقهُ وحشد الجيوش لهذه الغاية . فعلم شاور وزير مصر وتاكد لديهِ انهُ اذا كان لا يسارع الى ملافاة الخطب لا تلبث مصر حتى تصير في يد الاتابكة على ان الصليبيين من الجهة الاخرى لا ينفكون ليلهم ونهارهم ساعين الى افتتاحها وقد قطعوا السبيل على جيوش نور الدين في سيرها الى مصر فساروا بجيش عظيم حتى لم يبقَ صليبي الأسار في ذلك الجيش لكي يقطعوا السبيل على نور الدين . اما نور الدين فقطع سوريا حتى بلغ حدود مصر ودخلها في ربيع اول سنة ٥٦٢ هـ وكان الصليبيون قد ساروا تحت قيادة ملكهم في الصحراء فلم يظفروا باحد ثم عادوا على غزة فالعريش ثم الى بلبيس . اما جيش شيركوبه فكان قد تجاوز بلبيس حتى بلغ عطاس فعسكر قرب القاهرة ويهددها

فخاف شاور من قدوم ذينك الجيشين وكل منهما يحاول الفوز

لنفسهِ فتفضَّل ان يسلّم القاهرة للصليبيين ويحملهم على قتال شيركوبه الذي كان على بعد ١٢ ميلاً من تلك العاصمة . فرأى شيركوبه ان جيشهُ بعد ان قاسى الاهوال في عبور الصحراء لا يسهل عليهِ الهجوم على هذه المدينة فقطع النيل الى البر الغربي وعسكر هناك وبنى لهُ استحكامات تقيهِ من العدو . فدخل الصليبيون القاهرة لكنهم لم يوافقوا شاور على ما اراد الاَّ بعد ان تعهد لهم بزيادة الجزية السنوية عما كان يدفعهُ لاموري قائد تلك الحملة فعيَّن معتمدين من قبلهِ لعقد المعاهدة بذلك فاتموها على ما ارادهُ الصليبيون فقبضوا منهُ مبلغ مائتي الف دينار نقدًا على وعد ان يقبضوا مثلهُ بعد مدة يسيرة

وفي اثناء ذلك تقدم شيركوبه ليلاً وعسكر في الجيزة فاراد الملك اموري مهاجمتهُ على جسر يصنعهُ من القوارب فجعل شيركوبه كلما ابتدأوا في بناء الجسر يشغلهم عن اتمامهِ فبقي الجيشان في مثل ذلك نحو ٥٠ يومًا تمكن اثناءها شيركوبه من تملك الضفة الغربية للنيل اما الصليبيون فقطعوا الى البر الغربي عند راس الدلتا فارتحل شيركوبه بجيشهِ نحو مصر العليا فتبعتهُ الجيوش الصليبية بعد ان جعلوا حاميات في جميع حصون القاهرة حتى سراي الخليفة . اما شيركوبه فوقف في جيشهِ عند مضيق يدعى البابين ينتظر قدوم الصليبيين والمصريين بقدم ثابتة وكانوا قد تجمهروا كثارًا فلما رأتهم الجيوش السورية ارتاعت لكثرتهم لكنها حاربتهم يومًا كاملاً حتى فازت عليهم فعاد الصليبيون الى القاهرة فاقام شيركوبه حامية في مصر العليا وسار لاخضاع مصر السفلى وفتح الاسكندرية

وحصلت بينهُ وبين الصليبيين والمصريين مواقع كثيرة لم يكن الظفر فيها مقطوعًا لاحد الجانبين واستولى شيركوبه على الاسكندرية واقام عليها ابن اخيهِ يوسف صلاح الدين ثم رأى الصليبيون في سوريا ان رفقاءهم في مصر على جانب من القوة فجاءوا اليهم يطلبون اقتسام الغنيمة

ومساعدتهم عند الحاجة . فلما رأى شيركوبه تكاثر العدو وانه لم يعد في طاقته مقاومته بما كان معه من الرجال بعد ان قطعت عنه سبل الاستمداد من سوريا وافقهم على المصالحة ومفادها ان ينسحب الصليبيون والسوريون معًا بسلام وترجع الاسكندرية الى شاور . فقبل الفريقان بهذه المعاهدة وعاد شيركوبه وابن اخيه يوسف الى دمشق اما الصليبيون فلم يريدوا مبارحة القاهرة واصروا على ان يدفع لهم شاور مبلغ ماية الف دينار ومتى انسحبوا يتركون في القاهرة حامية من رجالهم فقبل شاور بذلك فخرج الصليبيون وهو لا يصدق انهم فعلوا . اما حامية الصليبيين في القاهرة فما انفكوا يحاولون الاستيلاء على مصر رغمًا عن تلك المعاهدة فحرروا الى ملكهم اموري في اورشليم ان يقدم بجيش لاستلام زمام الامور قبل ان يتصل ذلك بجنود سوريا فسارت جيوشه ودخلوا مصر بغتة فوصلوا الى بلبيس بعشرة ايام واخذوها بعد حصار ثلاثة ايام فنهبوها وذبحوا من كان فيها . فبلغ ذلك شاور فتحيّر في امره وتردد هنيهة في ماذا يفعل واي الجانبين يأخذ واخيرًا اقر على استنجاد نور الدين فكتب اليه بذلك فاحب نور ان يتخذ قيادة تلك الحملة بنفسه لكنه خشي من اغتيال بلاده اثناء غيابه فارسلها تحت قيادة شيركوبه

وكان اموري معسكرًا امام القاهرة ولم يرد فتحها لانه لم يأتِ اليها الَّا تخويفًا لشاور لعله يشتري انسحابه بكمية من النقود لانه لم يكن يرى افتتاح مصر والاستيلاء عليها بعد ما اقام من المعاهدات مع شيركوبه اما اهل القاهرة فلما رأوا ما فعل الصليبيون ببلبيس بعد افتتاحها من النهب والقتل اقسموا على الدفاع عن بلادهم لآخر نسمة من حياتهم وبناء على تصميمهم هذا امر شاور ان تحرق الفسطاط كلها لكي لا يبقى فيها ملجأ يعسكر فيه الصليبيون فأحرقت ثم عمدوا الى النيل فقطعوا السبيل على ما ربما يأتي من المدد لعدوهم

وفي اثناء ذلك جاءت الانباء باقتراب شيركويه وجيشهِ فاخذ شاور بمطاولة الصليبيين واشغالهم بالمخابرة معهم لغير طائل فاقام عليهم الحجة بانهُ صديقهم ولم يكن ينبغي ان يجردوا عليهِ سلاحًا وان قدومهم على هذه الصورة لا يأمن معهُ من قدوم نور الدين وجيشهِ ثم عرض على أموري مبلغًا من النقود ليأخذهُ وينسحب بجيشهِ الى سوريا . اما الصليبيون فلم يكونوا يحلمون الا بغزو هذه المدينة العظيمة ونهب ما فيها من الغنائم اما اموري فكان مشهورًا بالطمع فلم يكن يتفكر الا بالمبلغ الكبير الذي عرض عليهِ . فوافق شاور بشرط ان يكون ذلك المبلغ مليونًا من الدنانير يدفع قسمًا منهُ فورًا والقسم الآخر بعد أجل مسمّى فدفع لهُ مائة الف دينار ووعدهُ بدفع الباقي في وقت آخر فانسحب الصليبيون من امام القاهرة راجعين الى سوريا

وبينما كان شاور يخابر الصليبيين بامر المعاهدة كان الخليفة غارقًا في المعاهدات السرّية مع الاتابك نور الدين فعرض عليهِ ثلث خراج مصر اذا كان ينجيهِ من شاور وانهُ يولي شيركويه مكانهُ . فاسرع شيركويه الى مصر فالتقى بالصليبيين في بلبيس فحاربهم واخرجهم منها ومن كل ارض مصر . ثم تقدم الى القاهرة فدخلها في ربيع ثاني سنة ٥٦٤ ﻫ باحتفال عظيم وسار توًّا الى مقرّ الخليفة العاضد فترحب بهِ وخلع عليهِ واكرم مثواهُ بالهدايا الفاخرة لهُ ولسائر جندهِ فاستاء شاور من هذه المودة بين شيركويه والعاضد لكنهُ رأى الجيوش السورية قريبة منهُ فاخفى ما في ضميرهِ خوفًا من الوقوع في شر اعمالهِ فاخذ يتظاهر بحبهِ لزيارة شيركويه ثم نوى على دعوتهِ لوليمةٍ يعدُّ لهُ فيها معدات الهلاك فعلم يوسف صلاح الدين وبعض كبار جيش السوريين بذلك فنووا عليهِ ما نواهُ على اميرهم وجعلوا يترقبون خطواتهِ فبينما كان قادمًا الى معسكر السوريين لزيارة احتاطوا بهِ وقبضوا عليهِ واوثقوهُ بالحديد فاتصل ذلك بشيركويه فشق عليهِ فطلب الى رجالهِ

ان لا يوقعوا به شرًا . اما الخليفة العاضد فبعث يطلب رأسهُ فأرسلوهُ لهُ حالاً وسطوا على سرايته فنهبوها

فسرَّ الخليفة العاضد جدًّا لنجاته من ذلك الوزير الذي جعلهُ باستبداده وسوء تدبيره رقًّا بل اذلّ من الرق وولَّى شيركوبه مكانهُ ولقبهُ بالملك المنصور . فاستلم شيركوبه زمام هذه المصلحة في يوم الاربعاء ١٧ ربيع اول سنة ٥٦٤ هـ ولم يقم لهُ مقاوم وسكن في سراي الوزير الاعظم وفرق العطايا في جيوشه التي رافقتهُ الى مصر وشدد على النصارى وامرهم بشد الزنانير على اوساطهم ومنعهم من ارخاء الذوابة التي تسمى بالعزبة فكتب المهذب بن ابي المليح زكريا وكان مسيحيًا الى اسد الدين يقول

يا اسد الدين ومن عدلهُ يحفظ فينا سنَّة المصطفى

كفى غيارًا شد اوساطنا فما الذي اوجب كشف القفا

فلم يسعفهُ بطلبته ولا مكنهُ من ارخاء الذوابة وعندما ايس من ذلك أسلم

ولم تطل مدة وزارة شيركوبه فعاجلتهُ المنية في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤ هـ ولم يمكث في منصبه الاَّ شهرين وخمسة ايام فقط . ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول وكان شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة وكانت تتواتر عليه التخم والخوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته . وكان شيركوبه يعتبر نفسهُ نائبًا لنور الدين في مصر وانهُ قائم بمنصب الوزارة باسمه وبعد وفاته احب العاضد ان يبين ممنونيتهُ وحبهُ لهُ فولى مكانهُ ابن اخيه يوسف صلاح الدين ولقبهُ بالملك الناصر وكان لا يزال شابًا ولعل الخليفة اصح يفضل الوزراء الصغيري السن ظنًّا منهُ انهم لا يقوون على اكتساب ثقة الجند فلا يخشى من استبدادهم . وما علم ان هذا الشاب اليانع سيكون اشد نفوذًا واعظم تاثيرًا في الجند والاهالي من سائر سلفائه فقد كان صلاح الدين لين العريكة قريبًا من الناس فصيح الخطاب

ولما تولى الوزارة ابن الجيوش السورية الرضوخ له لصغر سنهِ فاخذهم باللين فاستجلب خواطرهم فاجمعوا على ولائهِ والضرب بسيفهِ فعظم نفوذهُ وكثرت نصرائهُ فشاغل الحسد مؤتمن الخلافة جوهر الخصي وحدثتهُ نفسهُ بخلع صلاح الدين ووافقهُ كثير من الامراء المصريين والجند واتفق رأيهم ان يبعثوا الى الافرنج ببلاد الساحل يستدعونهم الى القاهرة حتى اذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكره ثاروا وهم في القاهرة واجتمعوا مع الافرنج على اخراجهِ من مصر. فسيروا رجلاً الى الافرنج وجعلوا كتبهم معهُ في نعلٍ فسار الرجل الى البير البيضاء قريبًا من بلبيس فاذا ببعض اصحاب صلاح الدين هناك فانكر امر الرجل من اجل انهُ جعل النعلين في يدهِ وراَهما وليس فيهما اثر المشي والرجل رث الهيئة فارتاب واخذ النعلين وشقهما فوجد الكتب ببطنهما فحمل الرجل والكتب الى صلاح الدين فتتبع خطوط الكتب حتى عرفت فاذا الذي كتبها من اليهود الكتاب فامر بقتلهِ فاعتصم الاسلام واسلم وحدثهُ الخبر فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة فخاف على نفسهِ ولزم القصر وامتنع من الخروج فاعرض صلاح الدين عن ذلك جملة وطال الامد فظن الخصي انهُ قد اهمل امرهُ وشرع يخرج من القصر وكانت لهُ منظرة بناها بناحية الخرقانية في بستان فخرج اليها في جماعة وبلغ ذلك صلاح الدين فانهض اليهِ عدة فهجموا عليهِ وقتلوهُ في يوم الاربعاء ٢٥ ذي الحجة سنة ٥٦٤ هـ واحتزوا رأسهُ واتوا بهِ الى صلاح الدين فاشتهر ذلك في القاهرة واشيع فغضب العسكر المصري وثاروا باجمعهم وقد انضم اليهم عالم عظيم من الامراء والعامة حتى صاروا ما ينيف عن خمسين الفًا وساروا الى دار الوزارة وفيها صلاح الدين وقد استعدوا بالاسلحة فبادر شمس الدولة فخر الدين طوران شاه اخو صلاح الدين وصرخ في العساكر الغز وركب صلاح الدين وقد اجتمع اليهِ طوائف من اهلهِ واقاربهِ وجميع الغز ورتبهم ووقفت الطائفة الريحانية

والطائفة الجيوشية والطائفة الفرنجية وغيرهم من الطوائف السودانية ومن انضم اليهم بين القصرين فثارت الحروب بينهم وبين صلاح الدين واشتد الامر وعظم الخطب حتى لم يبقَ الاَّ هزيمة صلاح الدين واصحابهِ وعند ذلك امر طوران شاه بالحملة على السودان فقتل فيها احد مقدميهم فانكف بأسهم قليلاً وعظمت حملة الغز عليهم فانكسروا الى باب الذهب ثم الى باب الزهومة وقتل حينئذٍ عدة من امراء المصريين وكثير ممن عداهم

وكان العاضد في هذه الوقعة يشرف من المنظرة فلما رأى اهلُ القصر كسرة السودان وعساكر مصر رموا على الغز من اعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكوا فيهم وكفوهم عن القتال وكادوا ينهزمون فامر حينئذٍ صلاح الدين النفاطين باحراق المنظرة فاحضر شمس الدولة النفاطين واخذوا في تطبيب قارورة النفط وصوبوا بها على المنظرة التي فيها العاضد فخاف العاضد على نفسهِ وفتح زعيم الخلافة باب المنظرة وقال بصوت عالٍ «امير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم» فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم اقفيتهم الى ان وصلوا الى سوق السيوفيين فقتل منهم كثير واسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق عليهم وكان في دار الارمن قريبًا من بين القصرين خلق عظيم من الارمن كلهم رماة ولهم جار في الدولة يجري عليهم فعند ما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيروا الى العبيد فاحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقًا وقتلاً ومروا الى العبيد فصاروا كلما دخلوا مكانًا أُحرق عليهم وقُتلوا فيهِ الى ان وصلوا الى باب زويلة فاذا هو مغلوق فحصروا هناك واستمر فيهم القتل مدة يومين ثم بلغهم ان صلاح الدين احرق المنصورة التي كانت اعظم حاراتهم واخذت عليهم افواه السكك فايقنوا انهم قد أُخذوا لا محالة فصاحوا الامان فامنوا وذلك يوم

السبت في ٢٨ ذي القعدة وفتح لهم باب زويلة فخرجوا الى الجيزة فعدا عليهم شمس الدولة في العسكر وقد قووا باموال المهزومين واسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبقَ منهم الاّ الشريد وتلاشى من هذه الواقعة امر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبنى القاهرة يدعى جوهرًا والذي كان سببًا في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى ايضًا جوهر الملقب بمؤتمن الخلافة

فلما انتهت هذه الواقعة واستؤصلت جرثومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكون فولّى اخاهُ طوران شاه قوص واصوان وعيذاب مكافأة لما اظهره من البسالة في واقعة العبيد وجعل البلاد المذكورة له اقطاعًا فكان دخلها في تلك السنة ٢٦٦٠٠٠ دينار . وفي سنة ٥٦٨ هـ خرج طوران شاه لغزو بلاد النوبة وفتح قلعة ابريم فسبي وغنم ثم عاد بعد ان اقطع ابريم بعض اصحابهِ . وفي سنة ٥٦٩ هـ خرج الى بلاد اليمن وفتحها عنوة ولقب بالملك المعظم طوران شاه وخطب لنفسهِ بعد الخليفة العباسي

وكانت وزارة صلاح الدين في مصر سببًا لاضطراب الصليبيين اما نور الدين فركب عمارة مصرية وجعل يطوف البحر المتوسط عند شطوط سوريا ليمنع مرور الوافدين الى الارض المقدسة ويستولي على ما يرد الى الصليبيين من المؤن والذخائر فتشاور الصليبيون في شأن ذلك فاقروا على ارسال بطريرك صور فريدريك مع يوحنا اسقف عكا لاستمداد ملوك فرنسا وانكلترا وسيسيليا وغيرهم من الامراء المسيحيين فلم ينجح مسعاهم غير ان امبراطور القسطنطينية ارسل عمارة مؤلفة من مائة وخمسين شراعًا ملآنة من الذخائر والمؤن والعدة والرجال فاتحدت بجند عسقلان وساروا برًا وبحرًا الى مصر حتى اذا بلغوا الفرما ساروا حتى اتوا دمياط فعسكروا بينها وبين البحر في صفر سنة ٥٦٥ هـ

وكانت هذه الحملة تحت قيادة الملك اموري فظن انهُ يقدر على

اخذ دمياط بالهجوم الآنة رأى منها مقاومة ودفاعاً الزماه على اقامة الحصار فاقامة ولم يكن اكثر فائدة له من الهجوم لان عدة اهل دمياط كانت عظيمة ولم يبالوا بعدة الصليبيين وعدادهم وطال امد الحصار حتى نفدت موءنة الصليبيين فارادوا العبور في النيل ليأتوا بالزاد فاوقفهم حاجزٌ اقامة المسلمون في عرض النهر وهو عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد ممكّن بمتاريس دمياط والطرف الاخر ببرج هائل منيع الجانب وكانت ترد الامدادات لحامية دمياط من القاهرة بكل سهولة اما الصليبيون فكان انتظارهم للمدد من سوريا عبثاً فانتشر الجوع في معسكرهم وقام الشقاق فيما بين الفرنساويين منهم وهم الذين كانوا في سوريا واليونانيين الذين اتوا بالمدد من الاستانة واشتد ذلك الاختلاف حتى افضى الى الانفصال التام بعد ان بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيماً فكانوا يتخاصمون على كسرة ويمضغون افنان النخيل . ومما زاد تعاستهم تكاثر الامطار والزوابع على معسكرهم بدون انقطاع حتى اصبحوا كانهم في طوفان عظيم وحصل من تكاثر الاعصار نوءٌ في النيل اسرع جريه فتزاحمت مراكب الصليبيين وتلاحمت فلم يعد استخدامها ممكناً لوقوعها بين قوتين متضادين الريح من جهة ومجرى النيل من جهة اخرى فتكسر معظمها ثم انتشبت النار فيها فاحرقت ما بقي منها

فلما رأى الصليبيون ذلك لم يروا بدّاً من العود على اعقابهم الى سوريا صفر اليدين بعد ان تعاهدوا مع المسلمين ان لا يعارضهم معارض في سيرهم . وكان صلاح الدين قد اعدّ في القاهرة جيوشاً ليسير بها مدداً الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الجيوش الصليبية مراكزها فشق عليه ذلك ووبخ الامراء الذين سمحوا لهم بالانسحاب ثم عاد الى القاهرة

وفي السنة التالية سار في جيش عظيم الى سوريا لمحاربة الذين ضافوهُ السنة الماضية فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ ه فعلم اموري وهو في

عسقلان ان صلاح الدين قد حاصر قلعة دارون وهو دير قديم للنصارى وموقعهُ على قمة جبل وعر على ٤ اميال من غزة اتخذهُ الصليبيون حصناً . فاسرع الملك اموري لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان قد علم صلاح الدين بقدومهِ فسار لملاقاتهِ فلاقاهُ في منتصف الطريق وحاربهُ وغلبهُ ونزل على غزة فاستولى عليها واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اكتفوا بها أخذًا بالثار فتركوا في غزة حامية كافيةً وعادوا الى مصر فبلغوا القاهرة في اواخر السنة المذكورة . ثم بلغ صلاح الدين ان الافرنج قد احتلُّوا ايلة وتحصنوا فيها فسار اليها ومعهُ عصبة من رجالهِ الاقوياء وحمل معهُ مراكب مفككة ينقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند ايلة ركَّب تلك المراكب وانزلها البحر وهاجموا ايلة في ربيع اول من السنة المذكورة برًّا وبحرًا وما زالوا عليها حتى فتحوها وقتلوا من كان فيها من الافرنج وجعل فيها صلاح الدين جماعة من ثقاتهِ وقوام بما يحتاجون اليهِ من سلاح وغيرهِ وعاد الى القاهرة

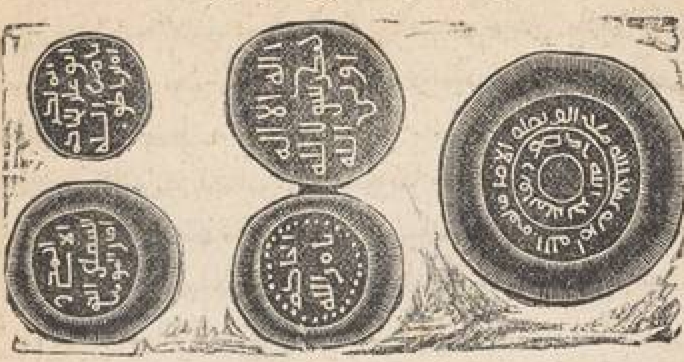
وكان لصلاح الدين نفوذ عظيم في مصر ولم يكن الخليفة العاضد الَّا اسمًا لغير مسمًّى ولم يعد لديهِ الَّا السلطة الدينية فلاح لنور الدين ان الاسلام في غنىً عن هذه السلطة التي لا معنى لها الَّا زيادة الرؤساء وتكثير الاحزاب فارسل الى صلاح الدين يطلب اليهِ ابطال الخطبة للعاضد لدين الله وان يخطبوا عوضاً عنهُ للمستضيء بامر الله الخليفة الثالث والثلاثين من بني العباس في بغداد . فاجابهُ صلاح الدين يعتذر عن عدم امكانهِ انفاذ هذا الامر فورًا مخافة ان يثير في مصر حزب العلويين الذين يدعي الفاطميون بانتسابهم اليهم وهم عديدون ثم دعا اليهِ امراءه واوعز اليهم ان لديهِ امرًا عظيم الاهمية بريد مخابرتهم بشأ نه فاجتمعوا اليهِ فاخبرهم بما ارسل اليهِ نور الدين فقال بعضهم انهُ امر خطير وتنفيذهُ يعدُّ وقاحة عظمى ووافق البعض الآخر على اجرائهِ ولكن لم يجرأ احد على مباشرة الامر بنفسهِ فبهت

صلاح الدين هنيهة فنهض امير فارسي يدعى امير عالم وحرض على وجوب اتباع امر نور الدين واخذ على عاتقهِ ان يباشر العمل بنفسهِ

ففي الجمعة الاولى من محرم سنة ٥٦٧ هـ توجه امير عالم الى اكبر جوامع القاهرة وصعد المنبر وخطب في الناس وصلى باسم الخليفة المستضيء بامر الله العباسي فلم يعارضهُ احد من الفاطميين ولا من العباسيين . فلما علم صلاح الدين بذلك أمر أن يعاد ذلك في الجمعة القادمة في جميع جوامع القاهرة والفسطاط فقبل الجميع ودخلت مصر في حماية الخلافة العباسية الدينية في بغداد بعد خروجها منها مدة مائتين وسبع سنين . ثم همَّ الى القبض على العاضد واشياعهِ واستفتى الفقهاء في قتلهِ فافتوهُ بجواز ذلك لما كان عليهِ العاضد واتباعهُ من انحلال العقيدة وكثرة الوقوع في الصحابة والاشتهار بذلك

اما الخليفة العاضد فاصيب بسبب الاهانة التي لحقت بهِ بمرض شديد ثم حجز عليهِ في احدى غرف القصر الداخلية . كل ذلك ولم يجرأ احد من ذويهِ ان ينوه بكلمة تتعلق بهِ ولا ان يخاطبهُ . وبعد ايام قليلة توفي العاضد في تلك الحسرة الاثنين في ١١ محرم سنة ٥٦٧ هـ ولكن وفاتهُ انقذت صلاح الدين من قلاقل كثيرة كان يخشى عليهِ منها لو بقي الخليفة حيًّا . ويقول بعض المؤرخين الصليبيين ان صلاح الدين هو الذي قتل العاضد بيدهِ الّا ان الجمهور على خلاف ذلك على اننا لا يسعنا الّا لومهُ لتطرفهِ في احتقار الخليفة وتجريدهِ اياهُ من ذات يدهِ ومن متاعهِ وقد بالغ بذلك حتى انهُ علم بجوادٍ كريم كان بركبهُ الخليفة لترويح النفس في حديقتهِ فطلبهُ منهُ فلم يسع الخليفة الّا اعطاؤهُ اياهُ والتوقف عن الرياضة التي لم يعد لديهِ سواها من جميع ثروة الخلفاء . وكان الخليفة العاضد شديد التشيع متغاليًا في سب الصحابة واذا رأى سنيًا استحل دمهُ . وترى في الشكل السادس والاربعين صورة نقود زجاجية ضربت في عهد الدولة الفاطمية

ايام احتياجها للمال وقلة الذهب والفضة وحالما تولى صلاح الدين الغاها وضرب نقودهُ المعروفة بالنقود الناصرية نسبة اليهِ



ش ٤٦ نقود زجاجية مضروبة على عهد الدولة الفاطمية

الدولة الايوبية

من سنة ٥٦٧ ـ ٦٤٨ ﻫ او من ١١٧١ ـ ١٣٥٠ م

سلطنة صلاح الدين يوسف

من سنة ٥٦٧ ـ ٥٨٩ ﻫ او من ١١٧١ ـ ١١٩٣ م

ولما علم صلاح الدين بوفاة العاضد وضع يدهُ على السراي (القصر) وكان قد عهد الى خصي لهُ يدعى بهاء الدين الملقَّب بقراقوش وكان من ثقاتهِ ان يخفي جميع التحف التي كانت قد جمعت . ثم القى القبض على جميع من بقي من العائلة الفاطمية وهم الامير داود بن العاضد ولي العهد

وينعت بالحامد لله واخواهُ ابو الامانة جبريل وابو الفتوح وابنهُ ابو
القاسم وسليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد
واسماعيل بن العاضد وجعفر بن ابي طاهر بن جبريل وعبد الظاهر
ابن ابي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجعلهم تحت الحجر في مكان
بعيد من السراي . اما مماليك العاضد وعبيدهُ فباع بعضها وفرّق
البعض الآخر في ارباب دولتهِ . وهكذا كانت نهاية دولة الخلفاء
الفاطميين بانيّ القاهرة فقد غادروها وفيها من آثارهم بنايات عظيمة
وقصور ومناظر منها القصر الكبير (السراي) الذى وضعهُ جوهر عند ما
اناخ في موضع القاهرة ومنها القصر الصغير الغربي ونحو عشرة قصور اخرى
جميعها متقنة ثمينة كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر كان يقال
لها القصور الزاهرة . ومن آثارهم عدة بساتين ومناظر باماكن مختلفة من
القاهرة وقلما بقي من تلك الآثار على حالهِ ولكن هناك اثرًا عظيمًا لا يمحوهُ
كرور الايام نعني بها القاهرة فانها من بنائهم كما علمت . وللفاطميين
احاديث مطولة فيما يتعلق بهيئاتهم في مجالسهم العامة وكيف كان يجالسهم
ارباب الدولة والفقهاء والعلماء وسائر الاتباع وكيفية صلاتهم في المساجد
وما يجري في ذلك من الاحتفال مما لا حاجة لذكرهِ هنا . ويقال ان
صلاح الدين جمع في خزائنهِ من مجوهراتهم ما يفوق الحصر . ويقال
ايضًا انهُ وجد بين هذه الخزائن مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منتخبة
من احسن المؤلفات . ولا يزال قسم منها الى الآن في مكتبة ليدن بالمانيا

ثم اسرع صلاح الدين الى اعلام اتابك نور الدين بتنفيذ ما امرهُ بهِ
وموت الخليفة فاتصل هذان الخبران ببغداد فاصبح خليفتها منفردًا بالخلافة
على سائر المشرق فخلع على اتابك نور الدين وبعث اليهِ سيفين اشارة الى
توليتهِ على سورية ومصر وخلع ايضًا على صلاح الدين وبعث اليهِ بالغطاء
الاسود العباسي بجعلهِ على المنبر الشريف . وبعد ان كانت القاهرة احدى

عواصم الاسلام امست كغيرها من المدن وتحولت العظمة جميعها الى بغداد

فلما رأى نور الدين نفسهُ متسلطاً على سورية كلها تقريباً وعلى قسم من جزيرة العرب وعلى اسيا الصغرى وما بين النهرين وضع يدهُ ايضاً على مصر. اما صلاح الدين فكان في نيتهِ الاستقلال بمصر منذ اول توليتهِ فيها وكان بينهُ وبين نور الدين مكاتبات سرية مآلها المحافظة على سلطة الخليفة العباسي الروحية محافظة وقتية ريثما يتأتى لهُ الاستقلال. اما اتباع الخلفاء الفاطميين فلم يكونوا يستطيعون اقل المقاومة جهارية عند التصريح بمبايعة خليفة بغداد والخطبة لهُ لان حزبهم كان ضعيفاً لكنهم كانوا يجتمعون سرًّا ويقولون بحرمان خليفة بغداد من هذه الحقوق ثم اقاموا خليفة منهم يخلف العاضد لدين الله وكان لهم زعيم يقال لهُ عمارة بن علي الملقب باليمني لان اصلهُ من اليمن الا انهُ نظرًا لانقطاعهِ الكلي الى نظم الشعر واشتغالهِ بهِ عما يدعوهُ اليهِ الحزب الفاطمي لم يحصل على النفوذ الذي يكفل نجاح مشروعهِ ثم احصى عدد اتباعهِ وقدر قدرتهم فاذا بهم يقصرون عن مناهضة صلاح الدين قصورًا كبيرًا فخاف ان تعود العائدة عليهِ فسار الى صلاح الدين وبيّن لهُ خضوعهُ التام للاوامر العالية وعاد الى غرفتهِ مقتنعاً بلذة المطالعة والنظم على ان صلاح الدين لم تهزهُ احزاب الفاطميين ولم يعبأ بها البتة لانهُ كان واثقاً بقواتهِ وقوات نور الدين وكفاءتها لايقاف كل هذه الاحزاب عند حدها على انهُ لم يكن يغفل عن السعي الى كل ما يحط من قوتها ويضعف نفوذها ويؤيد نفوذ العباسيين. وكان صلاح الدين مع تظاهرهِ في تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لا يفتر ساعياً الى اتمام مقاصدهِ التي كانت لا تزال تحت طي الخفاء فاخذ في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنهُ من الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضهُ بذلك فاستخسّ نور الدين فبعث اليهِ على اثر وفاة العاضد يستقدمهُ وفرقة من رجالهِ

مظهرًا استنجادهُ في حربهِ مع الصليبيين عند الكرك وانما قصدهُ الحقيقي ان يخرجهُ من مصر ويبقيهُ عندهُ تحت ملاحظتهِ فيأمن من غائلتهِ . فادرك صلاح الدين مقصدهُ الحقيقي لكنهُ لم يستصوب مخالفة اوامرهِ لئلا تتنافر القلوب فتتعرقل مساعيهِ فكتب اليهِ انهُ اذعانًا لامرهِ قد بارح القاهرة في فرقةٍ من الجند لملاقاة جيوش نور الدين في الكرك . فلما وصل نور الدين اليها لم يجد فيها احدًا فانتظر فلم يقدموا ثم ورد اليهِ كتاب من صلاح الدين يخبرهُ انهُ بارح القاهرة بجندهِ الى الكرك فعرض لهُ في الطريق ما الجأهُ الى العود حالاً الى مصر . فعلم نور الدين انها مماطلة مقصودة فاقرَّ على المسير بنفسهِ الى مصر والاشتغال بصلاح الدين عن الصليبيين ولكنهُ قبل ذهابهِ بعث الى صلاح الدين يتهددهُ بالعزل اذا لم يبادر الى ما أُمر بهِ فاستدعى صلاح الدين رجال عائلتهِ وفيهم ابوهُ نجم الدين ايوب وخالهُ شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء فلما تكامل الجمع اعلمهم بما كان بينهُ وبين نور الدين وما بلغهُ من عزمهِ على المجيء اليهِ واستشارهم فلم يجبهُ احد بكلمة فنهض تقي الدين عمرو بن شاهين شاه اخي صلاح الدين فقال «ان الرأي اذا جاءنا نور الدين قاتلناهُ ومنعناهُ عن البلاد» ووافقهُ غيرهُ من اهلهم . فشتمهم نجم الدين ايوب والد صلاح الدين واستعظم اقوالهم وشتم تقي الدين واقعدهُ وقال لصلاح الدين «ها انا ابوك وهذا شهاب الدين خالك وهل تظن بين هذا الجمع من يحبك ويخلص لك اكثر منا» قال لا فقال «اعلم يا يوسف اننا والله لو رأينا نور الدين لم نمكث الاَّ ان نقبل بين يديهِ ولو امرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا . وكل الذين تراهم عندك من الامراء لو رأوا نور الدين وحدهُ لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد لهُ ونحن مماليكهُ ونوابهُ فيها فان اراد سمعنا واطعنا والرأي ان تكتب كتابًا مع نجاب تقول فيهِ بلغني انك تريد الحركة الى هذه

البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني اليك وما ههنا من يمنع »

ثم قام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا ثم خلا ايوب بصلاح الدين فقال لهُ « باي عقل فعلت هذا اما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعهِ ومحاربتهِ جعلنا أهم الوجوه اليهِ وحينئذٍ لا نقوى عليهِ واما الآن اذا بلغهُ ما جرى وما اظهرنا من الطاعة لهُ تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها ووالله لو اراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلتهُ انا عليها حتى امنعهُ او أُقتل » ففعل صلاح الدين ما اشار بهِ ابوهُ

فلما جاء كتاب صلاح الدين الى نور الدين كما نصهُ ابوهُ سكن روعهُ وتوقف عن المسير الى مصر وعاد للاهتمام بامر الصليبيين وكانوا قد امعنوا في سوريا ولم تعد اخبارهم تصل لنور الدين بالسرعة اللازمة لاتساع ايالاتهِ فاستخدم الحمام لنقل الاخبار فكانت تأتيهِ بها بزمن قريب واما الصليبيون فكانوا يتألبون عصباً ويتقدمون في سوريا يفتحون مدنها وما زالوا في خطتهم هذه حتى لم يعد امامهم الاعدوان كبيران وهما نور الدين وصلاح الدين . وكان هذا الاخير يترقب الفرص لبلوغ مرامهِ فكان يغتنم فرصة انشغال نور الدين بالمحاربة في ما بين النهرين ويسير الى غزو سوريا وحالما يعلم بقدومهِ اليها يعود الى مصر حالاً فآل ذلك الى النفور الشديد بين هذين الرجلين وهمَّ نور الدين الى حشد الجيوش وتسييرها الى مصر لاخراج صلاح الدين منها واقامة حامية لحماية الحدود التي يخشى من هجوم الصليبيين عليها . وبينما كان نور الدين على اهبة الرحيل فاجأتهُ المنية بالتهاب البلعوم فمات في دمشق في ٨ رمضان سنة ٥٦٩ هـ وسنهُ ستون سنة ومدة حكمهِ ٢٩ سنة وكان شجاعاً باسلاً وفاضلاً باراً وكان محبوباً معتبراً من المسلمين والمسيحيين من اعدائهِ وكانت مملكتهُ شاملة جميع سوريا الشرقية وقسم من سوريا الغربية ومصر والموصل

وديار الجزيرة . وكانت ملوك ديار بكر قد سلمت له اليمن بجملتها فانتقلت هذه المملكة بعد موته الى ابنه الملك الصالح اسماعيل وكان بالغًا من العمر احد عشرة سنةً فقط فأُقيم شمس الدين محمد بن المقدم نائبًا له في تدبير المملكة . فاستخف الناس به لصغر سنه حتى همَّ افراد عائلته الى تنزيله لكنهم لم ينجحوا وحاول الملك أموري غزوهُ فعاد خائبًا اما الامراء الذين كانوا على الامارات التابعة لمملكته فحاول كلٌّ منهم الاستقلال بذاته فاحب نائب الملك ان يسير الى صلاح الدين يستنجدهُ فاوقفهُ اولئك الامراء وفي خلال ذلك ورد اليهم والى نائب الملك كتب من صلاح الدين تقول بوجوب الخضوع التام لخليفة نور الدين كما كان له وارسل نقودًا مضروبة في مصر باسم السلطان الجديد . ومما كتبهُ للامراء قولهُ «لو علم نور الدين ان فيكم من هو اكثر اهلية وامانة مني لولاية مصر فلا اشك انهُ كان يعهدها اليهِ وهي اجمل واخصب ولاياتهِ واعلموا ايضًا انهُ لو لم يفاجئهُ القضاء لاقامني وصيًّا على ابنهِ وارى انكم تحاولون اخراج يدي ولكني سأُذهب الى دمشق بنفسي واقدم عبوديتي الى هذا السلطان الجديد معترفًا بالافضال العظيمة التي حمَّلنيها ابوهُ اما انتم فسأُعاملكم بمقتضى تصرف كل واحدٍ منكم فاني اعتبركم قومًا تلقون القلاقل والفتن في البلاد» وجاء صلاح الدين الى دمشق بعد وصول كتبهِ بقليل واخرج منها سيف الدين الغازي ابن اخي نور الدين وكان قد وضع يدهُ عليها واعادها للملك الصالح ثم اسرع الى استرجاع الاماكن التي كان قد استقلَّ بها بعض الامراء الصغار من عائلة نور الدين في سوريا الشرقية استخفافًا منهم بسلطة الملك الصالح فاسترجع منهم حمص وحماه وبارين وسلامية وتل الخاطب وبعلبك والرها الَّا ان هذه الفتوحات لم تجدِ الملك الصالح نفعًا لانها دخلت في سلطة صلاح الدين ولم يعطِ منها شيئًا للملك الصالح فاستنكف منهُ وخافهُ ثم حاول صلاح الدين الاستيلاء على حلب وكانت

في حوزة الملك الصالح على نية ان يخرجهُ الى شرقي البلاد السورية وكان الملك الصالح قد استنجد ابن عمهِ سيف الدين الغازي وكان قد ولاهُ الموصل فأمدّهُ فاتحد الجيشان وهاجموا صلاح الدين قرب حماه في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ ه فتغلب عليهم وسلب منهم كلَّ امتعتهم واستولى على حلب وابطل الخطبة للملك الصالح وخطب لنفسهِ

فرأى صلاح الدين اذ ذاك من قوّاتهِ والاحوال المحيطة بهِ ما يؤهّلة لبلوغ ما طالما كان يتمناهُ من الاستقلال بالملك فصرَّح بسلطانهِ في مصر وسوريا وكان كذلك فاصبح الصليبيون اعداءهُ رأساً اما هم فاغتنموا فرصة انشغالهِ في جهات حلب وحملوا على البلاد الغربية من سوريا وجعلوا يفتكون باهلها ويسومونهم سوء العذاب يقتلون بعضهم ويأسرون البعض فحاربهم طوران شاه اخو صلاح الدين فلم يقوَ عليهم . فبلغ ذلك صلاح الدين وكان قد استقدم جنداً مصريًّا فانفذ بعضهم فارجعوا الصليبيين على اعقابهم فعاد الى اتمام فتوحاتهِ فحارب سيف الدين الغازي وفاز بهِ واستولى على بوزاع ومنبج وعيزاز حيث قبض على اثنين من الباطنيين وقتلهما بيدهِ وكانا مرسلين من قبل امير الباطنيين ليقتلاهُ وختم صلاح الدين فتوحاتهِ العظيمة بمعاهدة عقدها مع سيف الدين الغازي والملك الصالح من مقتضاها استبقاء جميع البلاد التي فتحها تحت سلطتهِ وان لا يكون للملك الصالح ادنى تداخل فيها

وعاد صلاح الدين الى مصر في ٢٠ محرَّم سنة ٥٧٢ ه بعد ان استخلف اخاهُ طوران شاه على دمشق وكان قبل مسيرهِ الى الشام قد استخلف على مصر موقتاً وزيره الامير بهاء الدين الاسدي وهو خصي فارسي قد تقدَّم ذكرهُ فعهد اليهِ تدبير الاحكام وامرهُ ان يقيم البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها فانفذ بهاء الدين ما عهد اليهِ بغيرةٍ ونشاط وكانت الجسور المقامة لتنظيم مجرى النيل عند النيضان قد أُهمل شأنها منذ تولى

الخلفاء الفاطميون فكان اذا فاض طغت مياههُ على اليابسة وخربت الطرق وافسدت الزرع فمهد الطرق واحتفر الترع واقام الجسور والسدود واستخدم لذلك حجارة بعض الاهرام الصغيرة التي كانت تحيط باهرام الجيزة وغيرها من ابنية المصريين القدماء وانشأ طريقًا تمتد طولاً على ضفة النيل فتقيها من صدمات المياه وتسهل صلات العاصمة مع مصر العليا والسفلى وشاد فوق الترعة التي كانت تجري بين الجيزة واهرامها جسرًا عظيمًا مؤلفًا من اربعين قنطرة لا يزال بعضها باقيًا الى الان

ولم يكن لصلاح الدين اذ ذاك مسكنٌ الّا القصران اللذان كانا مسكنًا للخليفة والوزير السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلها منزلاً لضباط الحكومة وقواد الجيوش وشاد عند الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحهِ قلعةً منيعةً لارهاب الاهالي اذا حاولوا العصيان وجعل فيها قصرًا لبلاطهِ وكان في ذلك المكان بناء قديم من عمل الدولة الطولونية يعرف بقصر الهوى فهدمهُ واقام القلعة على انقاضهِ واتى بحجارتها من خرائب منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة وليس في القاهرة بناء آخر اعزّ موقعًا من القلعة وهي التي لم تزل باقية الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل او قلعة القاهرة . وجعل بهاء الدين في القلعة بئرًا نقرًا في الصخر عميقًا جدًّا يسع كلما تحتاج اليهِ الحامية من الماء ولا يزال البئر والقصر الى هذه الغاية يعرفان باسمهِ فالبئر يدعى بئر يوسف ويظن بعض العامة انهُ سمي هكذا نسبة الى يوسف الصديق ابن يعقوب والصحيح نسبتهُ الى يوسف صلاح الدين الذي امر باحتفارهِ والمظنون ان هذا البئر كان محفورًا من ايام قدماء المصريين ثم طمر بالرمال فاعاد صلاح الدين حفره . وما بقي من القصر يعرف بديوان يوسف او ديوان صلاح الدين . وابتنى هذا الوزير ايضًا حواصل كبيرة في الفسطاط لخزن الحاصلات التي ترد من الاعمال سنويًّا ولا تزال تدعى الى يومنا هذا

بمخازن يوسف وقد ظن بعض المتفرجين انها من بناء فرعون في ايام يوسف الصديق · وبعد ان فرغ بهاء الدين من اصلاح الترع والخلجان والطرق وبناء القلعة اخذ يهتم باتمام سور القاهرة وكان قد ابتدأ بعمارته السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذٍ على وزارة العاضد ثم عهد الى بهاء الدين اتمامهُ فعمل لهُ رسمًا عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينها من الارض الّا انهُ استعظم بناءهُ بهذا الاتساع فجعلهُ محيطًا بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعهِ هذا ان يهدم جوامع وبيوتًا وقبورًا كثيرة كانت قائمة في مكان السور ولم يكن الاهالي معتادين على الاذعان لاوامر صلاح الدين كسلطان وكان بعضهم لا يزال متشيعًا للدولة الفاطمية فاتهموهُ بالاستبداد ولقبوا بهاء الدين بقراقوش اي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بعض عامة الشرقيين يصفون هذا الاسم بالاستبداد والعسف وينسبون اليهِ احكامًا عجيبة في ولايتهِ حتى ان الاسعد ابن مماتي لهُ كتاب لطيف سماهُ الفاشوش في احكام قراقوش وفيهِ اشياء يبعد وقوع مثلها منهُ والظاهر انها موضوعة فان صلاح الدين كان معتمدًا في احوال المملكة عليهِ ولولا وثوقهُ بمعرفتهِ وكفاءتهِ ما فوضها اليهِ وكان رجلًا مسعودًا وصاحب همة عالية

وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ففي المرة الاولى بناه جوهر وفي الثانية امير الجيوش وفي الثالثة بهاء الدين بامر صلاح الدين فزاد فيهِ القطعة التي من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر وبنى قلعة المقس وهي برج كبير جعلهُ على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع اولاد عنان وهو خارج باب البحر على يسار الذاهب من الشارع الجديد الى محطة السكة الحديد وانقطع السور من هناك · وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة

الجبل فانقطع من مكان بقرب الآن من الصوّة تحت القلعة والى الآن آثار الجدار ظاهرة للمتأمل فيما هو آخر السور الى جهة القلعة وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ من الاذرع الهاشمية . وقلعة المقس المذكورة كانت برجاً مطلاً على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عند ما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ ه وجعل في مكان البرج المذكور جنينة . وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من باب الفتوح الى المقس ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى باب البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بابراج مبني بالحجارة الّا ان هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ردم الّا في بعض الاماكن

وفي سنة ٥٧٣ ه عاد الصليبيون الى التعدي فحصلت بينهم وبين صلاح الدين موقعة في الرملة كان الفوز فيها للصليبيين الّا ان ذلك الفوز لم يلبث حتى انقلب عليهم لما حصل بين رؤسائهم من الانشقاق

وفي ٥ صفر سنة ٥٧٦ ه توفي شمس الدولة طوران شاه في ثغر الاسكندرية وكان قد جاءها من دمشق فنقلته اخته ست الشام بنت ايوب الى دمشق ودفنته في مدرستها التي انشأتها بظاهر دمشق فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصر الدين ابن اسد الدين شيركويه صاحب حمص وكانت قد تزوجته بعد لاجين

وفي سنة ٥٧٨ ه حمل صلاح الدين على سوريا حملة ثانية وسببها ان الملك الصالح كان قد مات واستخلف عز الدين ملك الموصل فلاح لهذا ان يخرق المعاهدة التي كانت قد عقدت مع صلاح الدين فاتصل ذلك بصلاح الدين واتصل به ايضاً ان امراء الموصل تآمروا عليه سرًّا مع الصليبيين فاسرع الى سوريا فجاء حلب وحاصرها فسلمت ثم استولى على الرها ورقّة ونصيبين وسروج وخابور وسنجار وحرّان ثم اتى فعسكر

امام الموصل ولم يبقَ غيرها للملك الصالح فحاصرها وبعد اخذ وردّ سلمت سنة ٥٨١ ه وأُصيب فيها صلاح الدين بمرض شديد فانتشر ذلك في انحاء سوريا ثم بعث عزّ الدين يطلب المصالحة وكانت المصالحة النهائية لانهم جعلوا لها حيثية دينيّة ومن مقتضاها الخطبة لصلاح الدين في الموصل. وسائر البلاد التي أُرجعت للاتابك الملك الصالح وان يعترف ملك الموصل بتبعيتهِ لصلاح الدين وبتقديمهِ العدة والرجال عند الحاجة لمحاربة الصليبيين

وفي ١٤ اربيع آخر سنة ٥٨٣ ه كانت بداية وقعة حطين الشهيرة في وسط نهار الجمعة والاسلام كثيرًا ما يحاولون لقاء عدوّهم يوم الجمعة عند الصلاة تبرُّكًا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر في سائر العالم الاسلامي في وقت واحد . فسار السلطان صلاح الدين بما اجتمع لديهِ من الجند على اتم نظام وحط رحالهُ عند بحيرة طبرية على سطح الجبل على امل ان الافرنج اذا بلغهم نزولهُ هناك يقدمون اليهِ وكانوا معسكرين في مرج صنورية بارض عكا فلم يتحركوا من منزلتهم فسار صلاح في جريدة من جيشهِ الى طبرية واستلمها بساعة بعد القتل والنهب الّا ان القلعة بقيت سالمة بمن فيها . فبلغ الافرنج ما حصل بطبريّة فساروا نحوها فعلم السلطان بذلك فترك على قلعة طبرية من يحاصرها وعاد لملاقاة العدو فالتقى بهِ على سطح جبل طبريّة الغربي في يوم الخميس ٢٢ ربيع آخر وبعد حرب شديدة تفرقت جيوش الافرنج الّا فرقة منها تحصّنت في تل يقال له تل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب فضايقهم المسلمون واشعلوا حولهم النيران واشتد بهم العطش الى ان الجأَهم الامر للقتال يأْسًا فاسرت مقدمتهم وقتل الباقون وكان في جملة المأْسورين الملك جفري واخوهُ البرنس ارباط صاحب الكرك والشوبك وغيرهم من القواد والامرا . فجلس السلطان صلاح الدين في خيمته وامر بتحضير الاسرى بين يديهِ

فاحضروا وفيهم الملك جفري فامر له بشربة من جلاب وثلج فشربها وكان في غاية الظمأ ثم اعطى البرنس ارباط اخاهُ فشرب وقال السلطان للترجمان قل للملك انت الذي سقيتهُ اما انا فما سقيتهُ وكان من جميل عادة العرب ان الاسير اذا اكل او شرب من مال من اسرهُ أمن فنصد السلطان بقولهِ هذا ان الملك جفري قد امن اما اخوهُ فلم يأمن . وكان في قلب صلاح الدين حقد على البرنس ارباط لسابق تعديهِ على جماعة من المسلمين وقتلهم في حال سلمية لغير داعٍ فسبق من السلطان قسم انهُ اذا ظفر بهذا الامير قتلهُ . فبعد ان شربا ارسلهما للمائدة فاكلا ثم اعيدا الى السلطان فاخذ بيدهِ سيفًا وتقدم الى البرنس ارباط قائلاً ها انا انتصر لمحمد ثم عرض عليهِ الاسلام فابى فضربهُ بالسيف فحل كتافهُ وتمم قتلهُ من حضر ورميت جثتهُ على باب الخيمة فلما رأى جفري ذلك وقع الرعب في قلبهِ . فكلمهُ السلطان وطيَّب خاطره وقال لهُ لم تجرِ العادة ان يقتل الملوكُ الملوكَ اما هذا فقد تجاوز الحد وتجرأ على الانبياء

وفي اليوم التالي نزل السلطان على طبرية فاستلم قلعتها ثم رحل طالبًا عكا فبلغها يوم الاربعا غاية ربيع آخر . وفي اليوم التالي حاربها واخذها وانقذ من كان فيها من اسارى المسلمين وكانوا اكثر من ٤٠٠٠ واستولى على ما فيها من الاموال . ثم فرق السلطان صلاح الدين جيشهُ فرقًا في انحاء سوريا فاستولى على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة . وسار هو يطلب تبنين فنزلها يوم الاحد ١١ جمادى الاولى وهي قلعة منيعة فحاصرها اسبوعًا ونصب عليها المنجنيق حتى فتحها عنوة ثم رحل عنها الى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد نزولهِ ثم سار الى بيروت وركب عليها المنجنيق وما زال حتى اخذها في يوم الخميس ٢٩ جمادى الاخرة وسارت سرية من رجالهِ الى جبيل من اعمال لبنان فاستلمتها . ثم حوَّل شكيمة فتوحاتهِ جنوبًا قاصدًا عسقلان فمرَّ على

مواضع كثيرة كالرملة والدارون فاستولى عليها فلما وصل عسقلان نصب عليها المنجنيق وقاتلها قتالاً شديدًا حتى تسلمها ثم بعث من رجالهِ من استلم غزَّة وبيت جبريل والبترون بغير قتال

ولما تم لصلاح الدين الاستيلاء على البلاد المحيطة ببيت المقدس شمر عن ساعد الجد في المسير اليهِ فجمع اليهِ جندهُ وكانوا متفرقين في الساحل وسار بهم حتى اتى بيت المقدس يوم الاحد في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ ﻫ فنزل في الجانب الغربي وكان مشحونًا من الخيالة فانتقل الى الجانب الشمالي في ٢٠ منهُ وهناك نصب المنجنيق وضيق على البلد بالزحف والقتال حتى اخذ النقب في سورها مما يلي وادي جهنم فلما رأى الافرنج ما كاد يقع بهم طلبوا المخابرة فحصلت وانتهت بتسليم المدينة فسلمت في ٢٧ رجب وكانت ليلة المعراج وكان يوم فرح وافتخار لجيش المسلمين فتقاطر الشعراء من سائر الانحاء لتهنئة السلطان صلاح الدين بما اتاهُ الله من النصر ونظموا القصائد وقالوا الخطب على الجماهير وسالت اقلام الكتاب وفاضت قرائحهم فكنت ترى فيهم اما خطيبًا يبشر ويحرض واما شاعرًا يحمد الله ويمدح النصر او مؤرخًا يذكر الحادثة بما فيها من الفخر لجيش الاسلام وكان من جملة من كتب القاضي الفاضل صاحب السيرة الايوبية وعماد الدين الاصبهاني وممن انشد في هذا الشان عبد الرحمن بن بدر فقال قصيدة مطلعها

هذا الذي كانت الايام تنتظرُ فليوفِ لله اقوام بما نذروا

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدح بها السلطان ويهنئهُ بالنصر

ولما استلم المسلمون بيت المقدس نكسوا الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان عظيم الحجم. وكانت قاعدة الصلح ان يؤدي الافرنج عن كل رجل منهم فدية عشرين دينار وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية وعن كل ذكر صغير او انثى دينارًا واحدًا فمن احضر فديتهُ نجا بنفسهِ والا اخذ اسيرًا فلما جمعت الاموال فرقها السلطان على الامراء والرجال

والفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليهِ · وبعد فتح بيت المقدس سار لفتح صور فجاء عكا فنزل فيها ونظر في امورها ثم سار عنها الى صور في يوم الجمعة ١٥ رمضان فنزل قريبًا منها وارسل لاحضار آلات القتال ولما تكاملت نزل عليها وقاتلها برًّا واستقدم اسطول مصر ليقاتلها بحرًا ثم ارسل من حاصر هونين فسلّمت اما الصوريون فارسلوا اسطولهم الى اسطول المسلمين فاسروا منهُ خمس قطع وقتلوا كثيرًا من المسلمين فعظم ذلك على السلطان وضاق صدرهُ وكان الشتاء قد هجم وتراكمت الامطار واستشارهم فيما يفعلون فاشاروا عليهِ بالرحيل لتستريح الرجال ويجتمعوا للقتال فساروا وحملوا من آلات القتال ما امكن واحرقوا ما بقي منها وسارت كل جماعة الى بلادهم للراحة وسار صلاح الدين الى عكا

وبقيت المدينة الى ان دخلت سنة ٥٨٤ هـ وعند ذلك نزلوا على حصن كوكب وكان منيعًا فاخذوهُ بعد قتال شديد ثم سار السلطان الى دمشق وبقي فيها خمسة ايام · ثم بلغهُ ان الافرنج قصدوا جبيل فسار نحوهم ثم علم انهم رحلوا عنها فتوقف وسار قاصدًا اتمام فتح سوريا فجاء ترسوس في ٦ جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ وكان قد انضم اليهِ رجالٌ من سنجار والموصل تحت قيادة عماد الدين زنكي ومظفر الدين بن زين الدين ففتح ترسوس ثم سار الى جبلة ففتحها ومنهـا توجه الى اللاذقية في ٢٤ جمادى الاولى فاخذها في يوم واحد الاّ قلعتيها على انهما اضطرتا اخيرًا للتسليم ثم رحل من اللاذقية الى صهيون فنزل عليها في ٢ جمادى الاخرة فصالحهُ اهلها على ان يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والصغير دينارين ثم سيرّ من رجالهِ من استولى على عدة قرى منها بلاطس وغيرها من الحصون المنيعة ثم رحل عنها واتى بكاس وهي قلعة حصينة على نهر العاصي ففتحها عنوة وهدم قلعتها وتوجه بعدئذٍ الى قلعة برزنة الشهيرة ففتحها وفتح غيرها من القلاع

وفي ٣ شعبان ارسل اهل انطاكية يطلبون الصلح فصالحهم ثم توجه الى حلب في ضيافة ابنهِ الملك الظاهر ثم الى حماه في ضيافة عمر ابن اخيهِ فبات في حماه ليلة واحدة ثم سار على طريق بعلبك ودخل دمشق . وسار في اوائل رمضان يريد صفد فحاربها واستولى عليها بالامان وفي هذا الشهر سلمت الكرك ايضاً ثم نزل في الغور واقام بالمخيم بقية الشهر واعطى الجماعة دستورًا وسار مع اخيهِ العادل يريد زيارة القدس ووداع اخيهِ لانهُ كان متوجهًا الى مصر فدخل القدس في ٨ ذي الحجة وصلى بها العيد وسار منها الى عسقلان في ١١ منهُ ينظر في امورها فاخذها من اخيهِ العادل وعوضهُ عنها الكرك ثم مرَّ على بلاد الساحل يتفقد احوالها ثم دخل عكا فاقام بها معظم المحرم من سنة ٥٨٥ هـ واصلح امورها ورتب بها الامير بهاء الدين قراقوش واليًا وامرهُ بعمارة سورها وسار الى دمشق فدخلها في مستهل صفر واقام بها الى ربيع اول ثم خرج الى شقيف اربون وهو موضع حصين فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في ١٧ ربيع اول واقام اياماً يباشر قتالهُ كل يوم والعساكر تتواصل اليهِ فتضايق صاحب الشقيف فنزل الى صلاح الدين بنفسهِ وطلب الامان ووعد انهُ يسلم المكان بشرط ان يعطى لهُ موضع يسكنهُ في دمشق لانهُ بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج واقطاع تقوم بهِ وباهلهِ وشروطًا غير هذه فاجابهُ الى ما طلب وفي اثناء ذلك وصلهُ الخبر بتسليم الشوبك وكان السلطان قد اقام عليها جمعاً يحاصرونها مدة سنة كاملة الى ان نفد زاد من كان فيها فسلموا

ثم ظهر بعد ذلك للسلطان ان جميع ما قالهُ صاحب الشقيف كان خديعة فسيرهُ صلاح الدين مهانًا الى دمشق . ثم ظهر لهُ ان الافرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها في ١٢ رجب سنة ٥٨٥ هـ فسار اليها حالاً ونزل فيها بغتةً ليقوي قلوب من بها وارسل يستدعي النجدات من الانحاء

وكان عند الافرنج مقدار الفي فارس و٣٠ الف راجل . ثم تكاثروا واستفحل امرهم واحاطوا بعكا وحاصروها في غاية رجب فضاق صدر السلطان لذلك ثم اجتهد في فتح الطريق اليها لتستمر السابلة بالنجدة فتمكن وانفتح الطريق وسلكهُ المسلمون ودخل السلطان عكا وجرى بينهُ وبين الافرنج مناوشات في عدة ايام ثم تأخر المسلمون الى تل العياضة وهو مشرف على عكا وفي هذه المنزلة توفي الامير حسام الدين طمان

وما زال الحال كذلك والافرنج يتشددون بما كان يأتيهم من المدد بحرًا الى أن قووا على فتح المدينة ودخلوها والسلطان خارجها فعظم ذلك عليهِ جدًّا ثم بلغهُ ان الافرنج سيخرجون من عكا للاستيلاء على عسقلان فاتى السلطان الرملة وتشاور مع ذوي شوراه في امر عسقلان وهل الصواب خرابها ام بقاؤها فاتفقت اراؤهم ان يبقى الملك العادل قبالة العدو وان يسير صلاح الدين بنفسهِ لخرابها خوفًا من وصول العدو اليها فيأخذ بها القدس فسار وشرع بخرابها بكل نشاط رغمًا عن ارادتهِ لانهُ قال «لأن افقد ولدي جميعهم احب الي من ان اهدم منها حجرًا ولكن اذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيهِ مصلحة للمسلمين فما الحيلة» وهاجر اهالي عسقلان الى الشام ومصر وغيرها حزانى تاركين اراضيهم وبيوتهم ومواشيهم بحالة يرثى لها . وبينما كان الخراب قائمًا اتى من الملك العادل خبر مفادهُ ان الافرنج تحدثوا معهُ بامر الصلح طالبين جميع البلاد الساحلية فرأى السلطان ان موافقتهم على طلبهم هذا افضل لما رأى من الضجر الذي خامر قلوب المسلمين من المشاق المتوالية فكتب اليهِ يأذن لهُ في ذلك وفوض الامر الى رأيهِ واصرَّ على حريق عسقلان فنوض ذلك الى احد اولادهِ الافضل وسار الى الرملة ومنها الى اللد واشرف عليها وامر باخرابها واخراب قلعة الرملة ثم دار حول قلعة البترون وهي قلعة منيعة فامر باخرابها

وفي يوم الاربعاء ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ تم الصلح بين صلاح الدين

وكبير الصليبيين بعد مداولات ومخابرات يطول شرحها ونادى المنادون ان البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة فمن احب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد الطائفة الاخرى من غير خوف ولا محذور وكان يوماً مشهوراً سرّت بهِ الطائفتان وعادت الصلات الى مجاريها وعادت التجارة وجعل الزائرون يفدون الى بيت المقدس من كل صوب وتوجه السلطان الى تلك المدينة يتفقد احوالها وسار اخوهُ الملك العادل الى الكرك وابنهُ الملك الظاهر الى حلب وابنهُ الافضل الى دمشق وبقي السلطان صلاح الدين في القدس مدة يُقطع الناس ويعطيهم دستوراً ويتأهب للمسير الى الديار المصرية وكان في عزمهِ السفر للحج لكنهُ عدل عنهُ

ولما سار ملك الافرنج الى بلادهِ رأى السلطان ان يعود لتفقد القلاع السورية ففعل وسار منها الى دمشق فوصلها في ١٦ شوال وفيها اولادهُ الافضل والظاهر والظافر المعروف بالمشمر واولادهُ الصغار وكان يحب تلك المدينة ويؤثر الاقامة فيها على سائر البلاد . ثم قدم الملك العادل من الكرك قاصداً البلاد الفراتية فنزل دمشق واجتمعت هذه العائلة على رغد وسلام وقد نسي السلطان صلاح الدين عزمهُ الى مصر وعرضت لهُ امور اخرى وعزمات غير ما تقدم

على ان المنيَّة على عجزها مهاجمة هذا الباسل في ساحة الحرب لم تخف مهاجمتهُ على فراشهِ وبين اولادهِ واخوانهِ ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان لملاقاة الحج فعاد الى منزلهِ كسلاً ثم غشيتهُ حمَّى صفراوية ثم اصبح في اليوم التالي اكثر كسلاً وضعفاً وما زال المرض يتزايد يوماً فيوم الى ان توفاهُ الله بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ وكان يوم موتهِ يوماً لم يصب الاسلام بمثلهِ منذ فقد الخلفاء الراشدين (رض) وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداءَ من يعزّ عليهم بنفوسهم . وكان سنّهُ عند وفاتهِ ٥٧ سنة ومدة حكمهِ ٢٤ سنة في

مصر و١٩ سنة في سوريا . فحضر الجميع وشيعوا جنازتهُ ودفنوهُ في الدار التي كان متمرضاً فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد المدعوة ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص . ويقول بعض المؤرخين ان صلاح الدين لم يترك في خزينتهِ الخصوصية الا ديناراً واحداً و٤٧ درهماً من الفضة ولم يجدوا في جميع صناديقهِ اثراً للذهب او لغيرهِ من الحجارة الكريمة وذلك مما يدل على فرط كرمهِ لانهُ اصاب اموالاً كثيرة جاد بها على آلهِ وذويهِ

ومن آثارهِ في العدل والرفق ان الاموال الهلالية كانت قد اعيدت الى مصر اثناء الدولة الفاطمية وصارت تعرف بالمكوس فلما تولى السلطان صلاح الدين امر باسقاطها وكانت مداخيلها عظيمة جداً تبلغ ماية الف دينار سنوياً الا انها كانت مضروبة على جميع انواع الاطعمة والالبسة والحيوانات من ماشية وخيول وغيرها وعلى الحوانيت والاخشاب والمصنوعات والمزروعات والابنية والاقمشة الى غير ذلك جميع هذه امر صلاح الدين بالغائها . ورأى ان كثيرين من الاهالي لا يزالون مثقلين بالديون بسبب تلك المظالم فسامحهم بما كان عليهم وكان بالغاً قدراً عظيماً جداً من الدنانير والغلال

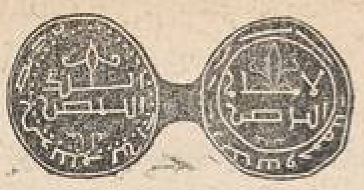
وكان بين اقارب السلطان صلاح الدين رجل يدعى عز الدين موسك كان من حفظة القرآن ومحبي اهل العلم فابتنى قنطرة فوق الخليج الكبير دعاها قنطرة الموسكي ثم دعي الربع كلهُ باسمها فصار هناك درب الموسكي وخط الموسكي . ولما تم الصلح بين السلطان صلاح الدين والافرنج اباح لهم ان يستوطنوا مصر وكان هو اول من فعل ذلك فجاء منهم بعض الباعة واستوطنوا في جهات الموسكي . لانها خارج سور المدينة وافتتحوا حوانيت لبيع الادوات الافرنجية . ثم اخذ شارع الموسكي بالظهور على تمادي الايام حتى وصل الى ما هو عليهِ الآن وهو اغنى شوارع القاهرة

وترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكورًا وانثى واحدة اسمها مونسة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذٍ بالملك الكامل . فلما توفي صلاح الدين اقتسم اولادهُ واخوتهُ واولادهم مملكتهُ فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية فان ثلاثة من اولادهِ اخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة . وتم كل ذلك بموافقة الامراء . فتلقب اول اولاد صلاح الدين المدعو نور الدين بالملك الافضل وكان من نصيبهِ مملكة دمشق والشطوط البحرية واورشليم والبصرة وبانياس وسوريا الغربية . ولُقب ابو الفتح الغازي بالملك الظاهر غياث الدين فاخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حرّان وتل باشر وعيزاز والمنبج . ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولَّى مصر

ومن هولاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الابوبية الحلبية والدمشقية والمصرية اما من بقي من تلك العائلة فكانوا ولاة على بلاد اقطعهم اياها صلاح الدين الّا انهم تحت سلطة هولاء الثلاثة فسيف الدين ابو بكر الملقَّب بالملك العادل ابن ايوب واخو صلاح الدين كان حاكمًا في الكرك والشوبك . وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور ابن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احد اخوي صلاح الدين كان اميرًا على حماه والسلامية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الامجد حفيد شاهين شاه ايضًا كان ملقبًا بملك الرها . وشمس الدولة طوران شاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن بامر ابيهِ سنة ٥٦٩ ﻫ كان قد اقام فيها مملكة وكان اخوهُ توغتغن حاكمًا فيها تحت اسم الملك المعز وترى في الاشكال ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ صور النقود التي

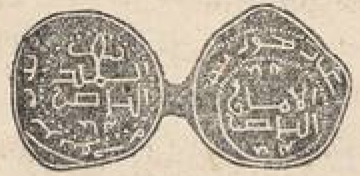


ش ٤٧ نقود صلاح الدين ضربت في دمشق سنة ٥٨٢



ضربت في ايام السلطان صلاح الدين على احد وجهيها اسمهُ وعلى الوجه الآخر اسم الامام الناصر الخليفة العباسي لذلك

ش ٤٨ نقود صلاح الدين ضربت سنة ٥٨٤



العهد فالصورة الاولى نقود ذهبية ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ ﻫ والثانية نحاسية ضربت سنة ٥٨٤ ﻫ والثالثة مثل ذلك

ش ٤٩ نقود صلاح الدين

سلطنة الملك العزيز بن يوسف

من سنة ٥٨٩ ــ ٥٩٥ ﻫ او من ١١٩٣ ــ ١١٩٨ م

وبعد ان قسمت الدولة الايوبية على ما تقدم عرف كل منهم نصيبهُ وبعد يسير نهض اعداء صلاح الدين وكانوا ينتظرون فرصة للانتقام منهُ لقهرهِ اياهم فلما لم يستطيعوا ذلك في حياتهِ قاموا على خلفائهِ واجمعوا على محاربتهم فاتحد الايوبيون في بادئ الرأي دفعاً لمناهضيهم ثم تفرقت كلمتهم لما قام بينهم من التحاسد انقياداً للمطامع واصغاء لذوي المفاسد فاصبحوا بما بينهم في شاغل عن دفع مهاجميهم

في سنة ٥٩٢ ﻫ رأى الملك العادل حاكم الكرك والشوبك ان حصتهُ قليلة ومنصبهُ حقير بالنسبة لغيرهِ من العائلة الايوبية فتواطأ مع الملك العزيز عثمان سلطان مصر على خلع الملك الافضل نور الدين علي عن دمشق وتولية احدهما الملك العادل عليها وفعلا ذلك بسهولة . ففرَّ

الملك الافضل من دمشق الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة الناصر لدين الله وكان كلاهما شاعرين ماجدين . فكتب الافضل الى الامام الناصر

مولاي ان ابا بكر وصاحبهُ عثمان قد غصبا بالسيف حقّ علي
وهو الذي كان قد ولاهُ والدهُ عليهما فاستقام الامر حين ولي
فخالفاهُ وحلّا عقد بيعتهِ والامر بينهما والنصُّ فيهِ جلي

فاجابهُ الامام الناصر بقولهِ

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً بالودّ يخبر ان اصلك طاهرُ
غصبا علياً حقهُ اذ لم يكن بعد النبي لهُ بيثرب ناصرُ
فابشر فان غداً عليهِ حسابهم واصبر فناصرك الامام الناصرُ

الّا ان الملك العادل لم يلبث ان بكّتهُ ضميرهُ فاعاد الملك الى ابن اخيهِ الافضل وتنازل ايضاً عن حصتهِ الاصلية . الّا ان العزيز لم يتمتع بالملك مدة طويلة فتوفي في القاهرة في ٢١ محرَّم سنة ٥٩٥ هـ وكان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً الى الناس معتقداً في ارباب الخير والصلاح ولكنهُ كان ضعيف المبادي سهل الانقياد قليل التروي وكان لهُ عشراء من ذوي الخفة فاشاروا عليهِ يوماً ان يهدم اهرام الجيزة فأمر بهدمها حالاً وبعث اليها بالعملة فابتدأُوا بالهرم الثالث منها وهو اقلها اعتباراً ويعرف بالهرم الاحمر وجعل اولئك العملة تحت ملاحظة بعض امراء مجلسهِ فعسكروا بجوار الاهرام وجمعوا اليهم عدداً كبيراً من الفعلة الفلاحين من القرى المجاورة وجعلوا لهم مرتبات فاحشة وما زالوا على ذلك نحو ثمانية اشهر فقدروا مقدار العمل فرأَوا انهم لم يهدموا في اليوم الواحد الّا حجراً واحداً او حجرين وانّ الاستمرار على هذا العمل ضرب من العبث وقد دخلت فيهِ نفقات كبيرة فعدلوا عنهُ سنة ٥٩٢ هـ وقد شوهوا وجه الهرم تشويهاً ولم يهدموا منهُ الّا قسماً صغيراً جعل في الهرم خرقاً لا يزال ظاهراً فيهِ الى هذا اليوم

ثم ارتأى الملك العزيز مشروعًا آخر جاء بنتيجة اقبح من تلك وذلك ان ايام الفيضان في مصر ولا سيما في القاهرة تعدُّ من ايام النزهة لجريان المياه في الترع والخلجان ولا سيما خليج مصر فانهُ يجري مخترقًا المدينة فكان الناس يخرجون في ذلك الحين في صغار القوارب للنزهة في مجاري المياه ليلًا ونهارًا يتمتعون بنعمة ربهم فيقيمون الولائم ويضربون الموسيقى . وكان الحاكم بامر الله قد حاول مرات عديدة ابطال هذه العوائد فلم يقدر لان الناس لم يرضوا الَّا التمتع بما وهبتهم الطبيعة من داعيات السرور فامر الملك العزيز سنة ٥٩٤ ﻫ بالامتناع عن هذه الاحتفالات امتناعًا كليًا واستخدم لتنفيذ امرهِ هذا طرقًا وحشية فاسترحم الناس الغاء هذه الاوامر مرات عديدة فلم ينجحوا فجاهروا بالعصيان ثم عاجلت المنيَّة الملك العزيز فقطعت جهينة قول كل خطيب

ومما اتاهُ الملك العزيز في سلطنتهِ من المظالم انهُ اعاد اليها المكوس الظالمة التي كان قد الغاها ابوهُ وزاد في شناعتها وزادت في ايامهِ المنكرات وترك الانكار لها وكثر شرب المسكر واباحهُ اولي الامر والنهي لهُ وتفاحش الامر فيهِ الى ان غلا سعر العنب لكثرة من يعصرهُ واقيمت في حارة المحمودية طاحون لطحن حشيش المزر وافردت برسمهِ وحميت بيوت المزر واقيمت عليها الضرائب الكثيرة فمنها ما انتهى امرهُ في كل يوم الى ستة عشر دينارًا . وحملت اواني الخمر على رؤُوس الاشهاد في الاسواق فدهمهم غلاءُ الحبوب لوقوف زيادة النيل جزاءً لفحشهم . وآل الامر الى وقوف وظيفة الدار العزيزية من خبز ولحم بحيث لم يعد لهم ما ياكلون وكثر ضجيجهم وشكواهم فجعل الملك العزيز يغتصب الارزاق ويضمها الى اقتيات عائلتهِ وصارت الاهالي في حال صعبة زادها ارتكاب المنكرات والمظالم صعوبة الى ان جاءَت المنية منصفة الظالم من المظلوم . وسبب موتهِ انهُ توجه الى الفيوم فطرد فرسهُ وراءَ صيد فتقنطر بهِ فاصابتهُ

الحمى فحمل الى القاهرة فتوفي في الساعة الرابعة من ليلة الاحد سنة ٥٩٥ ﻫ



وترى في الشكل الخمسين صورة النقود النحاسية التي ضربت في عهد الملك العزيز ابن صلاح الدين

ش ٥٠ نقود الملك العزيز بن صلاح الدين

سلطنة الملك المنصور بن العزيز

من سنة ٥٩٥ ـ ٥٩٦ ﻫ او من ١١٩٨ ـ ١٢٠٠ م

وخلَفَ العزيز ابنهُ ناصر الدين محمد وسنّهُ ثماني سنوات فلقبوهُ بالملك المنصور ثم استقدموا عمهُ الملك الافضل من سوريا ليكون وصيًا على ملكهم الجديد فقبل وجاء القاهرة ونودي بهِ اتابكًا اي وصيًا على ابن اخيهِ الا انهُ لم يتمتع بهذه المصلحة لان عمهُ الملك العادل قدم بجيش جرار الى القاهرة وبيّن حقوقهُ بالتوصية بناء على انهُ جدُّ الصبي الحاكم وعمُّ وصيهِ. فحاول الافضل مقاومتهُ فلم ينجح فحاصر في سرايتهِ في القاهرة ثم فرّ راجعًا الى حكومتهِ في دمشق مكتفيًا بما قُسم لهُ



وترى في شكل ٥١ صورة النقود النحاسية التي ضربت على عهد الملك المنصور ابن العزيز

ش ٥١ نقود المنصور بن العزيز

سلطنة الملك العادل بن ايوب

من سنة ٥٩٦ _ ٦١٥ ه او من ١٢٠٠ _ ١٢١٨ م

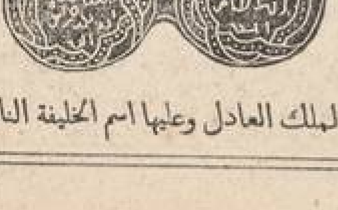
ولما خلا الجو للملك العادل خلع الملك المنصور في شوال سنة ٥٩٦ ه بعد ان حكم ٢١ شهرًا . وتولى الملك العادل سلطنة مصر وسوريا بنفسهِ وخلع الملك الافضل عن دمشق وما زال حتى جعل جميع من بقي من الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانهِ وفي جملتهم ابن اخيهِ الظاهر ملك حلب فعادت مملكة صلاح الدين بعد ان انقسمت حصصًا الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد . وفي سنة ٥٩٨ ه ارسل ابنهُ ابا الفتح موسى الملقب بالملك الاشرف مظفر الدين الى الرها فتملكها ثم اضيفت اليهِ حران وكان الاشرف رجلاً محبوبًا من الناس مسعودًا مؤيدًا في الحروب . وفي سنة ٦٠٠ ه حصلت بينهُ وبين نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل موقعة حربية عظيمة وكان النصر لهُ

وكان الصليبيون عند انقسام الدولة الايوبية قد اغتنموا الفرصة لاعادة سلطتهم فاكثروا من الجند وجاهروا بطلب الفتح فسار اليهم العادل وعسكر على جبل طابور امامهم وكانوا قد استمدوا اوربا على امل ان تأتيهم الامدادات واملاك المسلمين منقسمة وكلمتهم متفرقة فيسهل قهرهم لكنها لم تصل اليهم الأ بعد ان اتحد المسلمون واصبحت بلادهم مملكة واحدة تحت سلطان واحد هو السلطان الملك العادل سيف الدين فحاربهم فعادوا على اعقابهم وقد حبط مسعاهم فتعقبهم نحوًا من شهرٍ فجاءهُ مخبر بخبرهِ بحصول زلزلة عظيمة في مصر شعر بها اهل سوريا وقبرص وآسيا الصغرى حتى العراق وما بين النهرين وهذه هي الزلزلة التي هدمت اسوار صور وكان ذلك سنة ٦٠٠ ه . وكانت تتهدد مصر

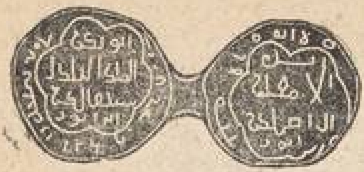
زلزلة اخرى سياسية وهي عمارة صليبية عظيمة احتلت سواحلها واخترقتها حتى بلغت فوه على فرع رشيد فاستولت عليها بعد ان نهبتها وذبحت اهلها فاضطرب لهذين الخبرين المخيفين فاسرع لملافاة الامر فتخابر مع قواد الصليبيين وعقدوا معاهدة تقضي بانسحابهم من مصر على ان يتنازل لهم بمقابلة ذلك عن مدينة يافا ويسحب من كان في اللد والرملة من المسلمين فانسحب الصليبيون من مصر لكنهم لم ينفكوا عن المحاربة في سوريا وهم لم يقبلوا بتلك المعاهدة الَّا ليشغلوا السلطان العادل في مصر ويسيروا الى فتح حماه والاستيلاء على ما بطريقهم اليها من الاراضي . فاتصل ذلك بالسلطان العادل فبارح مصر في جيش للمدافعة عن حماه فحصلت بينه وبينهم مواقع دموية كثيرة وبينما هم في ذلك اخبر المخبرون بقدوم المدد الى الصليبيين وهي الحملة العظيمة التي ارسلها البابا الثالث وحطت رحالها عند عكا وغيرها فهرع الملك العادل الى نابلس ليقيم فيها حصناً فطردوهُ منها فرجع الى سهل صفر . فقطع الصليبيون جميع المخابرات مع مصر حتى جاؤا على نهاية المذابح الصليبية في سوريا فحولوا اعنَّتهـا الى مصر فجاؤا اليهـا بحرًا وحاصروا دمياط في يوم الثلاثاء في ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ ﻫ وهم نحو ٧٠ الف فارس و ٤٠٠ الف راجل فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي وحفروا على معسكرهم خندقاً واقاموا عليه سورًا وشرعوا في قتال برج دمياط فانهُ كان برجاً منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح من الدخول الى ديار مصر في النيل وكان البرّ الذي نزل عليهِ الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المالح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصارًا منيعاً من البحر والبرّ والسلسلة ممتدة بين البرج والسور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لانهم اذا ملكوهُ تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلين

تأتي اليهِ المؤَن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وبعد مدة انكسر ذلك الجسر فاغتنم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوهُ على مركبين موسوقين قيوداً وانزلوا اليهِ اقوى رجالهم واحسن عدتهم وساروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين . فلما رأى المسلمون ذلك تجمهروا من البرج والسور واخذوا برمي السهام والحراب والحجارة والمنجنيق على برج الصليبيين فلعبت النار بهِ فخاف الذين فيهِ ثم انطفأت حالاً وتشدد الصليبيون حتى استولوا على برج المسلمين . فبلغ قدوم الصليبيين الملك الكامل وكان يخلف اباهُ الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معهُ في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر نزول الافرنج وامر والي الغربية بجمع العربان وسار هو في جمع كبير ونزل بمن معهُ من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط وامتدت عساكرهُ الى دمياط لتمنع الافرنج من السور والقتال مستمر اربعة اشهر والعادل يسيّر العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء حتى تكاملت عندهُ واشتد خوفهُ من نزول الفرنج على دمياط فرحل من مرج الصفر الى عالقين فنزل بهِ المرض ومات في جمادى الاخرة فكتم الملك المعظم عيسى موتهُ وحملهُ في محفة وجعل عندهُ خادماً وطبيباً راكباً الى جانب المحفة والشرابدار يصلح الشراب ويحملهُ الى الخادم فيشربهُ ويوهم الناس ان السلطان شربهُ الى ان دخلوا بهِ الى قلعة دمشق وصارت اليها الخزائن والبيوتات فاعلن بموتهِ وتسلم ابنهُ الملك المعظم جميع ما كان معهُ ودفنهُ بالقلعة ثم نقلهُ الى مدرسة العادلية بدمشق

وترى في الاشكال ٥٢ و٥٣ و٥٤ صور النقود التي ضربت في عهد الملك العادل



ش ٥٢ نقود الملك العادل وعليها اسم الخليفة الناصر



ابن ايوب فالاولى والثانية عليها اسم الملك العادل من الجهة الواحدة والخليفة الناصر لدين الله من الجهة الأخرى

ش ٥٣ نقود الملك العادل وعليها اسم الخليفة الناصر



والثالثة لا يظهر عليها الّا اسم الملك العادل فقط

ش ٥٤ نقود نحاسية للملك العادل

سلطنة الملك الكامل بن العادل

من سنة ٦١٥ ــ ٦٢٥ هـ أو من ١٢١٨ ــ ١٢٢٨ م

وبلغ الملك الكامل موت ابيهِ وهو بمنزلة العادلية فاستلم زمام الاحكام اما الصليبيون فألحّوا في القتال ولا سيما عند ما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسرًا عظيمًا في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالًا شديدًا الى ان قطعوهُ وكان قد انفق عليهِ وعلى البرج ما ينيف على سبعين الف دينار

وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتفقد الاحوال واعمال الحيلة في مكايدة الاعداء فامر ان تغرق المراكب في النيل لتمنع الصليبيين من سلوكهم فيهِ فعمد هؤلاء الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيهِ قديمًا فحفروهُ وعمقوا حفرهُ واجروا فيهِ الماء

الى البحر المالح واصعدوا مراكبهم فيهِ الى بورة على ارض جزيرة دمياط مقابل المنزلة التي فيها السلطان ليقاتلوهُ من هناك فلما صاروا في البورة قاتلوهُ في الماء وزحفوا اليهِ مرارًا فلم يظفروا منهُ بطائل ولم يتغير على اهل دمياط شيء لان الميرة والامداد متصلة اليهم والنيل يحجز بينهم وبين عدوهم وابواب المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر وكانت العربان تتخطف الافرنج في كل ليلة حتى منعوهم من الرقاد خوفًا من غاراتهم فتقوى طمع العرب في الافرنج حتى صاروا يخطفونهم نهارًا ويأخذون الخيم بمن فيها فكمن لهم الافرنج عدة كمناء وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا فكفوا عن ذلك . ثم ادرك الناس الشتاء وهاج البحر على مخيم المسلمين واغرقهم فعظم البلاء وتزايد الغم والحّ الافرنج في القتال حتى كادوا يملكون . كل ذلك والملك الكامل يرسل الرسل الى الجهات ينادي باخوتهِ مددًا ويستنجد اهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من غلبة الافرنج ولا من مجيب

وفي اثناء ذلك ظهر في رجال الملك الكامل ثورة تحت قيادة زعيمها عماد الدين احمد بن المشطوب احد كبراء رجالهِ على ان لا يقبلوا الكامل عليهم سلطانًا بعد ابيهِ وكان ذلك باتفاق مع اخيهِ الملك الفائز فوقع الملك الكامل في حيص بيص واوجس خيفة من مركزهِ ولم يرَ من ينجدهُ فسار من العادلية الى قرية تدعى اشمون طناح (اشموم نطاح) فاصبح العسكر بغير سلطان فركب كل انسان منهم هواه ولحقوا بالكامل ولم يلتفتوا الى اخذ شيء من خيامهم وذخائرهم واموالهم واسلحتهم

كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢١ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ بلغهم ما كان من امر المسلمين فعبروا النيل الى بر دمياط (البر الشرقي) آمنين بغير منازع وغنموا ما في عسكر المسلمين مما تركوهُ من امتعتهم وغيرها خارج المدينة وكان شيئًا لا يحيط بهِ الوصف . فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخلهُ وهمٌ عظيم وكاد ان يفارق البلاد لانهُ لم

يعد يثق بنفسه ولا بمن حوله . اما مدينة دمياط فبقيت محاصرة وقد شدَّد الصليبيون عليها الحصار برًّا وبحرًا وكانت تلك السنة ليس اشد منها وطأة على المسلمين وقد اخذ اليأس منهم مأخذًا عظيمًا . فبينما هم في ذلك الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام تحت قيادة الملك المعظم عيسى اخي الملك الكامل وكان قد تولى على دمشق بعد ابيهِ العادل فلما علم بما حصل لجيوش ابيهِ بعد وفاتهِ اتى في عدة من رجال الشام فاطلعهُ الكامل على صورة الحال سرًّا وأسرَّ اليهِ ان رأس هذه الطائفة ابن المشطوب فجاء الملك المعظم يومًا على غفلة الى خيمة ابن المشطوب واستدعاهُ فخرج اليهِ فقال لهُ اريد ان اتحدث معك سرًّا في خلوة وسار معهُ وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق بهم وقال لهم اتبعونا ولم يزل المعظم يشاغلهُ بالحديث ويخرج معهُ من شيء الى شيء حتى ابعدهُ عن المعسكر ثم قال لهُ « يا عماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي ان تهبها لنا » ثم اعطاهُ شيئًا من النفقة وقال لاولئك المجردين تسلموهُ حتى تخرجوهُ من الرمل فلم يسعهُ الَّا امتثال الامر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال . ثم عاد المعظم الى اخيهِ الكامل وعرفهُ صورة ما جرى ثم جهز اخاهُ الملك الفائز المذكور الى الموصل لاحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لاخراجهِ من البلاد فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تخللت عزائم من بقي من الامراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهًا لا طوعًا

وبعد يسير عاد الملك المعظم الى دمشق لينظر في احوال رعيتهِ ثم خشي من الصليبيين ان امتلكوا دمياط ان يمدوا يدهم الى اورشليم فتقوى سلطتهم فأمر بهدم اسوارها حتى اذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئًا يستحق الاعتبار . هذا والصليبيون قد ضيقوا على دمياط ومنعوا القوت من الوصول اليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقًا وبنوا عليه سورًا

واهل دمياط يقاتلونهم اشد القتال ويمانعونهم وقد غلت عندهم الاسعار لقلة الاقوات . والملك الكامل كان لا يزال في اشمون ناظرًا الى دمياط وهي محصورة ولا يقدر ان يصل اليها وخشي اخيرًا ان ييأس اهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب احد الجاندارية المدعو شمائل للدخول الى دمياط لينشط من فيها ويعدهم بالانقاذ فكان يسبح في النيل الى ان يصل الى اهل دمياط فيوصل اليهم الاخبار ويطمنهم ويعود وبقي على ذلك مدة فحظي بذلك عند الكامل وتقرب منه حتى جعله واليًا على القاهرة واليه تنتسب خزانة شمائل بالقاهرة . وفي اثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهادًا شديدًا وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقس فهدمها المسلمون خيفة ان يباغت الصليبيون الاسكندرية من اجلها فيتخذونها حصنًا لانها كانت حصينة البناء كثيرة الاعمدة وجعلوها بعد ذلك جامعًا ولا تزال آثارها الى هذا العهد بقرب باب القباري

ثم دخلت سنة ٦١٦ ﻫ وقد غلت الاسعار في دمياط بما هو فوق الحد فبلغت البيضة عدة دنانير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى اهل دمياط بحيل مختلفة مثل ان يأتوا بجمل ويشقوا جوفه ويملأوه فراخًا وفاكهة وبقلًا وغير ذلك ثم يخيطون عليه ويرمونه في النيل فيسير منحدرًا مع المجرى فاذا جاء امام دمياط نزل من فيها اليه واخذوه واقتاتوا على ما في جوفه . وكان الافرنج احيانًا يظفرون بهذه الحيلة فيأخذون تلك المؤن . وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعًا وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد منهم وعدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الا بعض القمح والشعير

وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ ﻫ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهرًا و ٢٢ يومًا فدخلوها

واحكموا السيف فيمن بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الابخرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى ما يُلحق الاحياء بهم وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرَّة فكان يموت الابن جوعاً وليس من يسعى الى دفنه فيبقى في مكانه فيلحقهُ الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا

واتصل ذلك بالسلطان الملك الكامل فرحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل قبالة طلخا على رأس بحر اشموم ورأس بحر دمياط ليمنع الافرنج من المسير الى داخلية القطر بحرًا وحيز في محلة المنزلة واقام معسكره هناك . اما الافرنج فحصنوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وبثوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون ويأسرون وبعثوا جميع من اسروا من المسلمين الى عكا بحرًا . اما الملك الكامل فاخذ في تحصين معسكرهِ في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق وصارت تدعى بعد ذلك الحين بالمنصورة اشارة الى انتصارهِ على الصليبيين هناك وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثّهم على محاربة الافرنج واخراجهم من ديار المسلمين . اما الصليبيون فتركوا امتعتهم ومؤنهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية كافية وساروا الى ان وصلوا تجاه المنصورة في ما هو امام سراي المنصورة الآن وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف راجل وعشرة آلاف فارس فقدم المسلمون شوانيهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة فاصبح المسلمون في ضيق . فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اصوان الى القاهرة ونودي بالنفير العام ايضاً فيما بين القاهرة الى آخر الحوف الشرقي فاجتمع عالم لا يقع عليهِ حصر وانزل السلطان على ناحية شارمساح الف فارس في آلاف من العربان ليحولوا بين الافرنج ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على رأس بحر المحلة وعليها الامير بدر

الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الافرنج من البر والبحر

وفي اثناء ذلك اتت النجدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقتها الملك المعظم عيسى فتلقاهم الملك الكامل وانزلهم عندهُ بالمنصورة في ١٢ جمادى الاخرة وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو اربعين الف فارس فحاربوا الصليبيين في البحر والبر واخذوا منهم ست شواني واسروا منهم الفين ونيف فتضعضع الافرنج وضاق بهم المقام فخابرهم الملك الكامل بامر الصلح ليخرجهم من بلادهِ فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين الا الشوبك والكرك لانهما اصبحا ملكًا خاصًا له نالهما بالارث من السلطان صلاح الدين وطلب اليهم في مقابل ذلك ان يردُّوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري

فاصرَّ الصليبيون على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضًا لما سببهُ الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم اسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرًّا من وراء معسكر الافرنج وتخرق سد ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعهِ فطافت مياه الترعة حتى اغرقت جميع الاراضي التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على مثل الجزيرة وقد حال الماء بينهم وبين نجدة اصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون من قلة الطعام وكثرة المياه ولم يكن باقيًا بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عند اشمون طناح فعبرت العساكر عليها وملكت تلك الطريق فاضطرب الافرنج وضاقت عليهم الارض

واتفق مجيء مرمة عظيمة مددًا للصليبيين حولها عدة حراقات وقد ملئت كلها بالميرة والاسلحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفروا بها فاتصل

ذلك بالافرنج فزاد خوفهم وندموا على رفضهم المعاهدة كما طلبت اليهم . فطلبوا الامان على ان ينسحبوا من القطر المصري جميعهِ ولا يطلبون لذلك مقابلاً فقبل السلطان الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ ه بان يعطي كل من الفريقين رهائن فاعطى الافرنج ملك عكا ونائب البابا رهناً واعطى الملك الكامل ابنهُ الملك الصالح وكان سنّهُ ١٥ سنة وجماعة من الامراء. فسار الافرنج الى دمياط وسلموها الى المسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد اجهدوا أنفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الافرنج فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين . ولما بلغ الافرنج مكانهم ارسلوا الملك الصالح ومن معهُ الى ابيهِ فارسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوتهِ وعساكرهِ وكان ليوم دخولهِ اليها احتفال عظيم

ثم عاد الى المنصورة وجلس في قصرهِ فيها وبين يديهِ اخواه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف موسى صاحب بلاد الشرق وغيرهما من اهلهِ وخواصهِ وهم في سرور واحتفال وبين يديهم المغنّون فامر الملك الاشرف جاريتهُ فغنّت على عودها

ولما طغى فرعون عكا وقومهُ ... وجاء الى مصر ليفسد في الارض
اتى نحوهم موسى وفي يدهِ العصا ... فاغرقهم في البرّ بعضاً على بعضِ

فطرب الاشرف وقال لها بالله كرري فشق ذلك على الملك الكامل واسكتها وقال لجاريتهِ غنّي انتِ فاخذت العود وغنّت

ايا اهل دين الكفر قوموا لتنظروا ... لما قد جرى في وقتنا وتجدّدا
اعبّاد عيسى ان عيسى وحزبهُ ... وموسى جميعاً ينصران محمدا

وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن جبارة اولها (ابى الوجد الّا ان ابيت مسهدا) فاعجب ذلك الملك الكامل وامر لكل من الجاريتين بجائزة

ثم نهض القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزّة وكان من جملة الجلساء وقال

هنيئاً فان السعد جاء مخلّدا ... وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إلهُ الخلق فتحاً لنا بدا ... مبيناً وانعاماً وعزّاً مؤبدا
تهلّل وجه الارض بعد قطوبهِ ... وأصبح وجه الشرك بالظلم اسودا
ولما طغى البحر الخضمّ باهلهِ الطغاة ... وأضحى بالمراكب مزبدا
اقام لهذا الدين من سلّ عزمهُ ... صقيلاً كما سلّ الحسام المهندا
فلم ينجُ الا كلّ شلوٍ مجدّل ... ثوى منهم او مَن تراهُ مقيدا
ونادى لسان الكون في الارض رافعاً ... عقيرتهُ في الخافقين ومنشدا
اعبّاد عيسى ان عيسى وحزبهُ ... وموسى جميعاً ينصران محمّدا

فكانت هذه الليلة بالمنصورة من احسن الليالي التي مرت لملك من الملوك . ثم عاد السلطان الى مقرّ ملكهِ في القاهرة وانتقل من دار الوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلاً للخلفاء . وسكن في قلعة الجبل واطلق جميع من كان في مصر من الاسرى وكان منهم من لهُ من ايام السلطان صلاح الدين . وكانت مدة نزول الافرنج على دمياط الى ان اقلعوا عنها ثلاث سنين واربعة اشهر و١٩ يوماً منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة اشهر واربعة وعشرون يوماً

ولما استتب للملك الكامل المقام على سلطنة مصر اخرج زعماء الثورة منها وطهّر البلاد منهم حتى لم يعد لديهِ من ينازعهُ في الملك . ثم عمد الى الصليبيين مغتنماً فرصة ضعفهم وعقد معهم معاهدة على كيفية تمكنهُ من الاغتيال باخويهِ الذين لولاهما لم تقم لهُ قائمة في مصر فاغرى الامبراطور فريدريك ملك الصليبيين على الاغتيال باخيهِ الملك المعظم واستخراج دمشق من يدهِ فقدم هذا الامبراطور الى عكا فاتصل بهِ خبر وفاة الملك المعظم سلطان دمشق وتنصيب ابنهِ الملك الناصر صلاح الدين داود

مكانهُ فاستبشر الملك الكامل ووضع يدهُ على الشوبك وبيت المقدس وغيرها مما هو من مملكة دمشق فشق ذلك على الملك الناصر فاستنجد عمهُ الاشرف وكان متسلطاً على بلاد المشرق وما بين النهرين فجاءَهُ حالاً في جيش كبير ولكن بدلاً من ان يدافع عنهُ ضد الملك الكامل جاء بعكس الامر

اما فريدريك فسار توًّا من عكا لافتتاح مملكة دمشق ففتح اولاً صور وسار فالتقى بالملك الاشرف فتخاصما على الفريسة تخاصماً انتهى بموت الملك الاشرف فخلا الجو لملك الكامل واصبح الوارث لكلا الملكين فاتى سوريا لهذه الغاية فوصل دمشق ومات فيها في رجب سنة ٦٣٥ ه‍ ودفن في قلعتها. وكان محبًّا للعظمة والافتخار متمسكاً بالسنّة النبوية محبًّا للعلماء حسن الاعتقاد معاشراً لارباب الفضائل حازماً في امورهِ لا يضع الشيء الّا في موضعهِ من غير اسراف ولا اقتار وكان يبيت عندهُ كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثاتهم كواحد منهم ولما تولى سلطنة مصر خفض ضرائبها نحو الثلث واقام فيها الزينة

ونرى في الشكلين ٥٥ و٥٦ صور النقود التي ضربت في ايام الملك الكامل بن العادل على احد وجهيها اسم الملك الكامل وعلى الآخر اسم الامام المستنصر



ش ٥٥ نقود الملك الكامل وعليها اسم المستنصر

بالله الخليفة السادس والثلاثين من بني العباس فالاولى نقود ذهبية ضربت في القاهرة سنة ٦٢٧ ه‍ والثانية نحاسية ضربت في حلب



ش ٥٦ نقود الملك الكامل

سلطنة الملك العادل بن الكامل

من سنة ٦٣٥ ــ ٦٣٧ هـ اومن ١٢٣٨ ــ ١٢٤٠ م

ولما علم المصريون بوفاة الملك الكامل بايعوا ابنهُ سيف الدين ابا بكر الملقب بالملك العادل (الثاني) وكان قد استخلفهُ ابوهُ على مصر عند ما سار الى سوريا . واقاموا الامير يونس الملقب بالملك الجواد اميرًا على سوريا تابعًا لمملكة مصر الَّا ان امارتهُ هذه لم تطل لانهُ اتفق في السنة التالية مع الملك الصالح نجم الدين ايوب شقيق سلطان مصر وكان اميرًا على ما بين النهرين على ان يتبادلا الامارات فاتى الملك الصالح الى سوريا وسار الامير يونس الى ما بين النهرين . وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر والسعي لاختلاس الملك من اخيهِ فتنبَّأ الملك العادل بذلك واوجس خيفةً فسار بجيوشهِ الى بلبيس ليوقف سير اخيهِ اذا حاول المجيء الى مصر فلما وصل بلبيس نزل فيها وما اصبح الَّا وهو في قبضة امرائهِ مقيَّدًا وذلك يوم الجمعة في ٨ ذي الحجة سنة ٦٣٧ هـ وفي الحال خلعوهُ واستقدموا اخاهُ الملك الصالح وبايعوهُ على مصر فدخل القاهرة في موكب حافل واصوات الترحاب والدعاء مالئة الجو فانتهت سلطنة الملك العادل الثاني وكانت مدتها نحو سنتين

سلطنة الملك الصالح بن الكامل

من سنة ٦٣٧ ــ ٦٤٧ هـ اومن ١٢٤٠ ــ ١٢٤٩ م

ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر اخذ في تمكين قدمهِ فيها فامر في السنة التالية بالقبض على الامراء والمماليك الذين ساعدوهُ

على خلع اخيهِ وبايعوهُ مكانهُ وقتلهم جميعاً وولّى مكانهم من اختبر امانتهم نحوهُ . ثم عزل الملك الجواد يونس من امارتهِ وحظر عليهِ القدوم الى مصر فاغتاظ لهذه المعاملة فالتجأ الى الصليبيين في عكا فقبلوهُ من اجل ثروتهِ راجين التقرب بواسطتهِ من اسماعيل امير دمشق وقد كانت تلك فرصة ثمينة لهم فتحالفوا مع امير دمشق والملك المنصور ابراهيم امير حمص وامير الكرك وتعهدوا لهم بمحاربة مصر وقهرها على ان يأخذوا في مقابل ذلك مدن الصعيد والشقيف وطبرية وعسقلان واورشليم ولما تم التحالف المذكور احتلّ الصليبيون تلك الاماكن واخذوا في ترميم حصون طبرية وعسقلان ثم اخذوا يهتمون بمحاربة مصر

وفي خلال ذلك نشأ في شرقي سوريا مخاوف كثيرة سببها ان قبيلة الخوارزميين لما طردهم جنكيزخان من شرقي اسيا اثناء فتوحاتهِ هناك جاؤوا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلاً عقدوا معهم صلحاً وعاهدوهم على محاربة الافرنج وامراء سوريا الذين على دعوتهم . فتجنّد الخوارزميون واخترقوا سوريا الى ان بلغوا غزة فحاربوا الافرنج عند اسوارها وانجدهم سلطان مصر من الجهة الثانية فانهزم الافرنج فتتبعوهم حتى استولوا على غزة وبيت المقدس باسم الملك الصالح . فارسل هذا الى مصر شيئاً كثيراً من الاسرى ورؤوس القتلى . ثم جمع مدداً وسار الى اسماعيل امير دمشق والى امير حمص وحاصرها وحارب محاربات اخرى شغلتهُ من سنة ٦٤٥ الى ٦٤٧ هـ وشنّت عن خضوع دمشق اما حمص فكانت لا تزال تدافع الى ذلك العهد فضجر من طول هذه المحاربات فسار بنفسهِ لقيادة جندها ففاجأهُ مرض ثقيل وهو تورّم في مأبضهِ تكوّن منهُ ناصور فتح وعسر برؤهُ وانضاف اليهِ قرحة في الصدر فلزم الفراش في دمشق . فجاءهُ منبئ يخبرهُ بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر واخذها وقد اكثروا من التجنيد ووردت

اليهم النجدات من اخوانهم في اوربا وكانت هذه التجريدة الصليبية السابعة على الاسلام . وكأني بهولاء الافرنج قد تجلوا لكثرة انكسارانهم امام جيش الاسلام بعد ان جردوا اليهم اولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً فاقرّوا المرة السابعة على تجريد قوة عظيمة برأسها ملك فرنسا لويس التاسع وهي مؤلفة من خمسين الف مقاتل ومعهم من العدة والسلاح شيء كثير وعدد عديد من المراكب المذخرة وضباطها منتخبون من اشد رجال اوروبا الّا ان التعصب غشي ابصارهم فجاؤوا يحملون المشاق والاسفار لمحاربة ابناء جلدتهم واهراق دماء العباد انتصاراً لمن هو في غنى عن نصرتهم

فلما علم الملك الصالح بقدوم الافرنج وهو فيما تقدم من المرض لم يسعهُ الّا مبارحة دمشق فسار في محفّة ونزل اشمون طناح في اول سنة ٦٤٧ ه وجمع في مدينة دمياط من الاقوات والازواد والاسلحة وآلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان يجري على دمياط ما جرى في ايام ابيهِ وجهز اسطولاً من صناعة مصر وجعل فيهِ سائر ما يحتاج اليهِ الجند وسيرهُ شيئاً فشيئاً وضم الى جندهِ كثيراً من العربان واكثرهم من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد قيادة حامية هذه المدينة الى الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ . في صباح يوم الجمعة في ٢٠ صفر من تلك السنة وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جموعهم وحال وصولهم بعث ملكهم لويس التاسع الى الملك الصالح كتاباً ونصهُ

«اما بعد فانهُ لم يخفَ عليك اني امين الامة العيسوية كما انهُ لا يخفى عليَّ انك امين الامة المحمدية وغير خافٍ عليك ان عندنا اهل جزائر الاندلس وما يحملونهُ الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وانا قد ابديت لك ما فيهِ الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وادخلت عليَّ الاقساء والرهبان وحملت قدامي

الشمع طاعة للسلطان لكنت واصلاً اليك وقاتلك في اعزّ البقاع اليك فاما ان تكون البلاد لي فيا هدية حصلت في يديّ واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة اليّ وقد عرّفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء »

فلما قُرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح وقد اشتدّ بهِ المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب ·

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلواتهُ على سيدنا محمد رسول الله وآلهِ وصحبهِ اجمعين . اما بعد فانهُ وصل كتابك وانت تهدد فيهِ بكثرة جيوشك وعدد ابطالك فنحن ارباب السيوف وما قتل منا فردٌ الاّ جددناهُ ولا بغى علينا باغٍ الاّ دمّرناهُ ولو رأت عينك ايها المغرور حدَّ سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك ان تعضّ على اناملك بالندم ولا بد ان تزلّ بك القدم في يوم اوّلهُ لنا وآخرهُ عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيهِ على اوّل سورة النحل أتى امر الله فلا تستعجلوهُ وتكون على آخر سورة (ص) ولتعلمنّ نبأهُ بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو اصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي لهُ مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام»

وفي اليوم التالي حصلت بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض امراء المسلمين وفي المساء فرّ الامير فخر الدين لغير داعٍ فتبعتهُ بني كنانة وخرجوا من المدينة فتبعهم الاهالي في الليل على وجوههم لا يلتفتون الى شيء ولحقوا بالعسكر في اشمون فخلت المدينة للصليبيين فدخلوها بأمان في ٢٢ صفر واستولوا على جميع ما فيها من المؤن

والزخائر والاسلحة وعدة الحرب فخسر سلطان مصر بذلك خسارة لا تُعوَّض . فاستشاط الملك الصالح غيظاً لذلك وجمع اليهِ بني كنانة وعنفهم لانهزامهم على حين لم يكن داعٍ للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الّا بعد ان رأينا الامير فخر الدين فارًّا ومن ورائهِ رجالهُ فامر الملك الصالح باعدام ٥٤ من امرائهم لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنهِ

وفي ٢٤ صفر عسكر في المنصورة وحصنها الّا انهُ لم يعش بعد ذلك كثيرًا فتوفاهُ الله في ١٤ شعبان وسنّهُ اربعون سنة وكان رجلاً مهيباً قليل التكلم يهابهُ من يجلس في مجلسهِ وكان عندهُ عدد من المماليك لم يسبقهُ احد قبلهُ ولم يوصِ قبل موتهِ بمن يأخذ السلطان بعدهُ ولم يكن لهُ من البنين الّا غياث الدين طوران شاه وكان قد تركهُ في سوريا . وكان من جملة جواري الملك الصالح جارية تدعى شجرة الدرّ وهي والدة غياث الدين فتواطأت مع الامير فخر الدين ورئيس الخصي جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها ويقال ان الملك الصالح كثيرًا ما عهد اليها ادارة الاحكام اثناء غيابهِ عنها في حملاتهِ الحربية . فلما توفي الملك الصالح كتمت امر موتهِ ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلةً « ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعدهُ ابنهُ الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عيَّن الامير فخر الدين اتابكاً لادارة الاحكام » فبايع جميع الامراء . ثم ارسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد واعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك مختومة بختم السلطان الملك الصالح الى جميع انحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لا يزال حيًّا لكنهم عند ما علموا باستقدام الملك المعظم بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

اما الافرنج فكانوا في خلال ذلك قد تقدموا قاصدين المنصورة وحاربوا اثناء الطريق محاربات طفيفة ولما بلغوا المنصورة حاربوها

محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي تحت قيادة الامير فخر الدين فحارب ببسالة كلية . كل ذلك وبين الجيشين بحر اشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة ولم يكونوا يعلمون طريقاً اليها غير النيل . فاتى اليهم بعض من غدروا من المسلمين واخبروهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسانهم وهاجمت المنصورة بغتة وكان الامير فخر الدين في الحمّام فاتته الاخبار بهجوم الافرنج على المحلة فانبغت ونادى في رجاله وخرج للدفاع فادركه بعضهم فقتلة وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا ماليك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانتهت الموقعة وقد اعيى الفريقين التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وفي اثناء ذلك وصل الملك المعظم الى المنصورة قادماً من سوريا فاشتد عزم المسلمين به وهاجموا النصارى في البرّ والبحر فاسروا منهم ٣٢ مركبًا . فلما راى الصليبيون ما كان من ضعفهم طلبوا المصالحة على ان يأخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط فلم يقبل المصريون فاقاموا في المنصورة حتى نفد زادهم وقد انقطعت السابلة بينهم وبين دمياط . وفي ٣ محرم سنة ٦٤٨ ه عزموا على التقهقر فتعقبهم المصريون حتى ادركوهم غربي فرسكور فاستحموهم واثخنوا في قتلهم ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ الفًا واسروا الملك لويس التاسع وكثيرًا من ضباطه وكبار جيشه وكانوا قبل ان قُبض عليهم قد فرّوا الى منية ابي عبد الله فاسروهم هناك

سلطنة الملك المعظم بن الصالح

من سنة ٦٤٧ــ٦٤٨ ه او من ١٢٤٩ــ ١٢٥٠م

فلما تأكد النوز للمصريين اشهروا امر وفاة الملك الصالح ومبايعة

الملك المعظم طوران شاه فاقام الملك المذكور في فرسكور احتفالاً لمبايعتهِ وانتصارهِ معاً . ثم عزل كل من كان في يدهِ ازمّة الحكومة من المصريين وولَّى مكانهم رجالاً ممن جاؤُوا معهُ من بين النهرين لانهُ كان اشدّ ثقة فيهم فشغب الناس وتحدثوا في ذلك كثيراً . وفي غاية محرم ثار عليهِ المماليك وهمُّوا الى قتلهِ وفي جملتهم مملوك يدعى بيبرس ففرَّ الملك المعظم والتجأ الى برج من الخشب كان قد اقامهُ للحصار في فرسكور فاحرقوا البرج فالقى بنفسهِ الى النيل لعلهُ يجد قارباً بركبهُ فينجو بحياتهِ فادركهُ المماليك وقطعوهُ ارباً اربا

وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية السابعة وموت السلطان الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وهو آخر من مالك من العائلة الايوبية وبموتهِ انقضت دولتهم وقامت دولة المماليك الاولى

تم الجزء الاول

فهرس الجزء الاول من تاريخ مصر الحديث

المقدمة

الدولة الاموية

الدولة العباسية

الدولة الفاطمية

الدولة الايوبية

اصلاح خطا . صحيفة ٩٠ سطر ٢١ اسكندرية صوابها والاسكندرية ورشيد